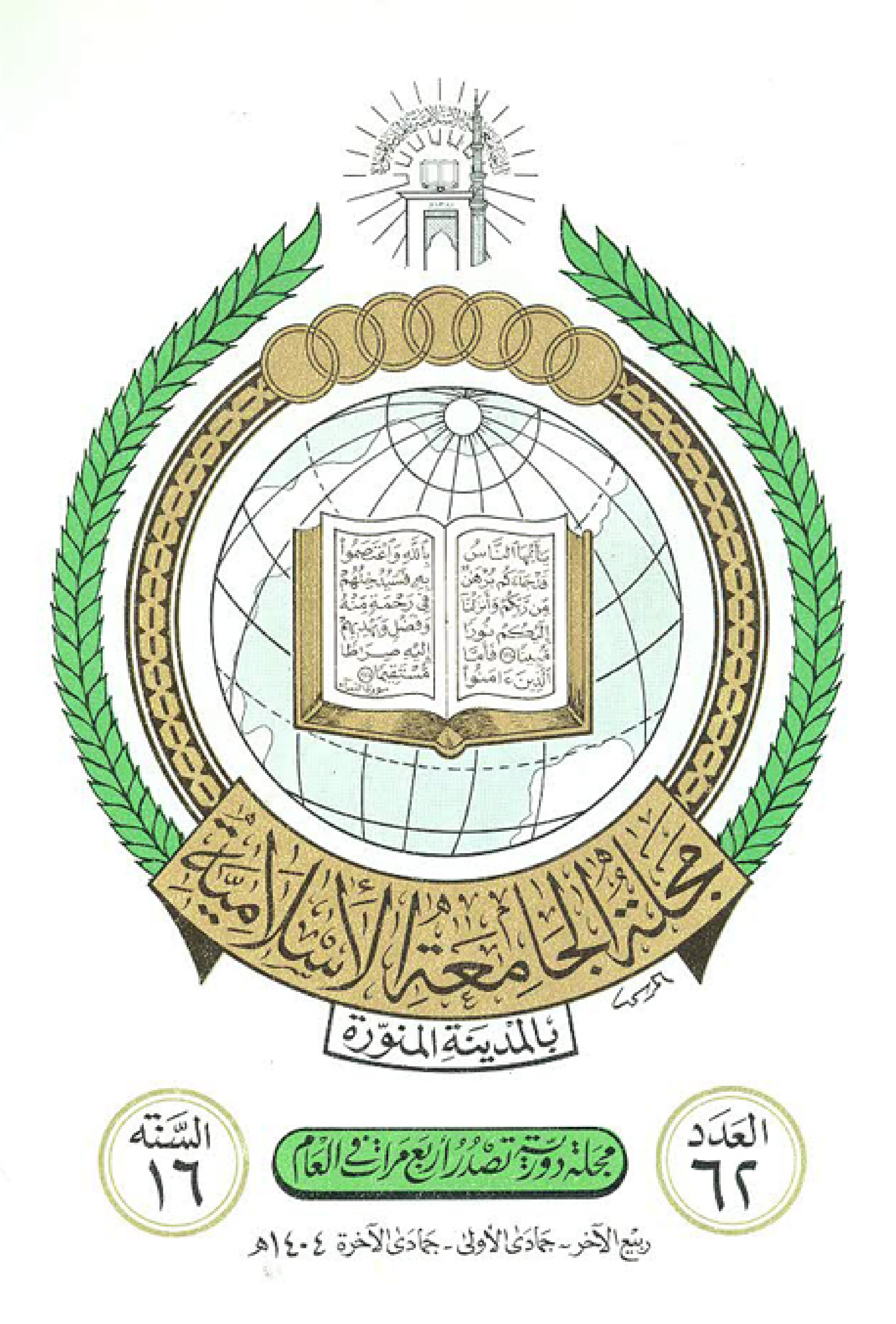
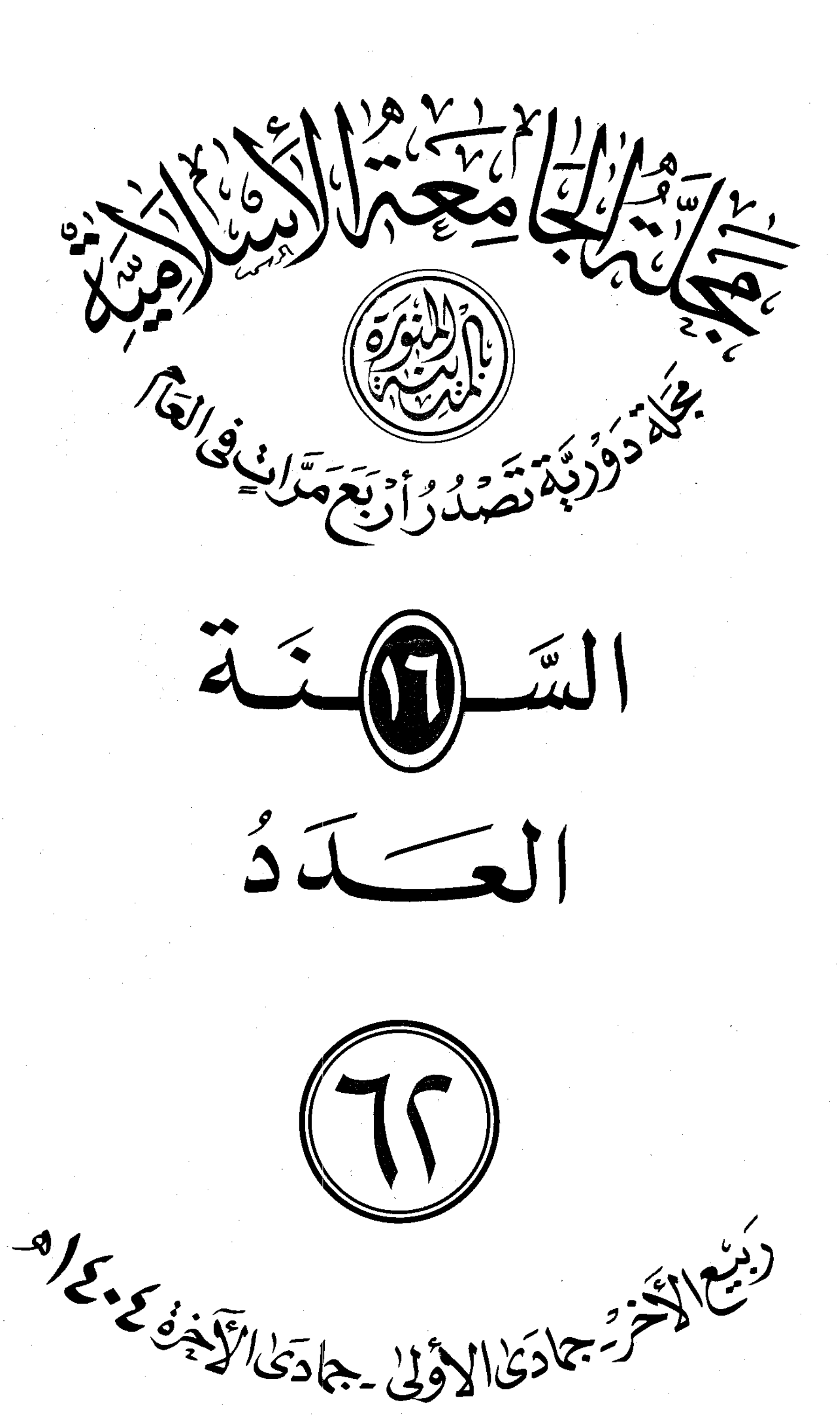


يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا فأما الذين ءامنوا
بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما
مجلة الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة
العدد ٦٢
مجلة دورية تصدر أربع مرات في العام
السنة ١٦
ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ



ربيع الآخر - جمادى الأولى - جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ

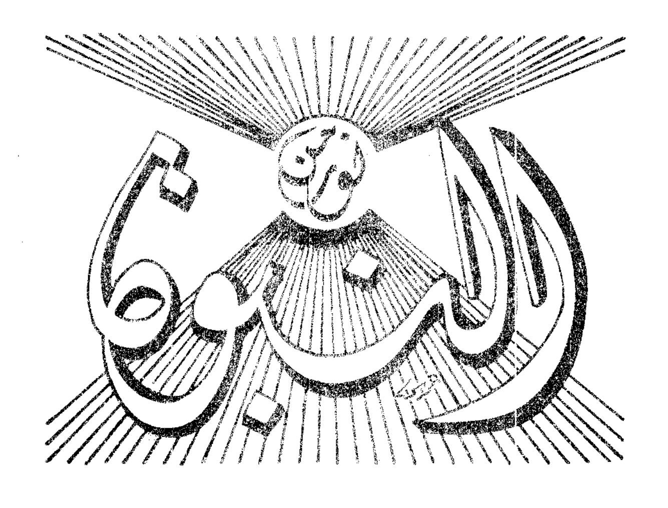
بسم الله الرحمن الرحيم



قال الله تعالى :

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ
اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم
مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

من سورة النحل



عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ :

سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَقُولُ :

„ مَنْ قَالَ: لَا إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا

يُعْبَدُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ

وَحِسَابُهُ عَلَى ٱللَّهِ . "

رواه مسلم



مِنْ خطبَةٍ لأمِيرِ المؤمِنين عمر بن عبدِ العزيزِ
عَلَى مِنبر مسجدِ بنى أمَيَّة فى دِمَشق :

أيُّها النَّاس، لَيس بعدَ نبيِّكم نبِيٌّ، ولَيس بعدَ الكتَابِ الَّذى أُنزلَ علَيه كِتابٌ، فمَا أحلَّ اللهُ علَى لِسانِ نَبيِّهِ فهُوَ حلالٌ إلَى يومِ القِيامَةِ، ومَا حرَّمَ اللهُ علَى لِسانِ نبيِّهِ فهُوَ حرامٌ إلى يومِ القِيامَةِ.

ألا إنِّى لستُ بقاضٍ، وإنَّما أنا مُنفِّذٌ، ولستُ بمُبتَدِعٍ، ولَكِن مُتَّبعٌ، ولستُ بِخَيْرِكُم، وإنَّما أنا رجُلٌ منكم إلَّا أنِّى أثقلُكم حِملاً.

ألا لاسلامَةَ لامرِئٍ فِى خِلافِ السُّنَّةِ، ولاطاعَةَ لمخلُوقٍ فِى معصِيَةِ الخالِقِ .

كلمة التحرير

للدكتور صالح بن عبد الله العبود
رئيس قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين .

أما بعد : فإن مجلة الجامعة الإسلامية حين تحفل بمواضيع مكثفة فى العقيدة الإسلامية ، عقيدة أهل السنة والجماعة فإنما تنطلق من هدف الجامعة وهو تعميق التدين المبنى على اخلاص العمل الصالح لله وحده ، وعلى الالتزام بسنة رسوله ﷺ فى ذلك .

وهذا هو جوهر العقيدة الإسلامية ومرتكزها . . .

والعقيدة : ضرورة حيوية فالإنسان الحى مضطر أن يعتقد عقيدة ما . يتحرك من أجلها ويدور عليها حبه وبغضه عن اقتناع ، لإن الإنسان حساس متحرك بارادة تنبثق عن عقيدة وقناعة ولو خلا الحى من عقيدة ما كان ذا حركة إرادية ولكن إن كانت عقيدته صحيحة كانت حركته سليمة صالحة ، وإن كانت عقيدته فاسدة كانت حركته خطرة مفسدة .

ولو تحسسنا أسباب فرقة المسلمين لوجدناها تكمن فى الشبهات التى طرأت على بعضهم وفى الشهوات أيضاً فبسبب ذلك فارقت فرق المسلمين التى تصل إلى اثنتين وسبعين جماعة أهل السنة والجماعة ، وهذه الشبهات والشهوات ما هى إلا فساد فى العقيدة .

وإذا ألقينا نظرة فى عالم هذا العصر نجده يموج ويتجاذب بعقائد جازمة وأيديلوجيات حادة ، كالشيوعية والديمقراطية والقومية على المفهوم الغربى مثلاً ، ونجد أصحابها يتمسكون بها أشد التمسك ويتحركون من أجلها أعظم حركة ، وبيد كثير منهم دولاً كبيرة لها ثقلها الراجح فى ميزان الأكثرية من الناس ، ولهم قوة مادية هائلة ، وقد أخذوا بزمام الصناعة والتقدم التكنولوجى والتفوق العسكرى ، هذا فضلاً عن حصولهم على مباهج الشهوات الدنيوية وحضارتها ونظرتها ، إلا أننا رغم هذا نرى الإنسان فى الحقيقة تحت ظل تلك العقائد والايدلوجيات قلقا حائراً مضطرباً خائفاً لا يقر له قرار ، ولا يعرف طريق الاستقرار ، قد شقى فى دنياه وأضاع نصيبه من أخراه ، وعموماً فهو منساق فى متاهات الضلال وأوحال الفساد والشرور ومنته إلى الهلاك والدمار ، والشقاء والخسران .

وحين نختار العقيدة الإسلامية فإنما نختارها على غيرها من العقائد لأنه ثبت فى علم اليقين وعين اليقين أن كل عقيدة تخالفها غير صحيحة ولا صالحة فإما أن تكون مخالفة للواقع أو مخالفة للعدل .

أما العقيدة الإسلامية فقد احتوت كل الصحة والصلاح ، فالصحة فيها هى مطابقتها للواقع علماً ومعرفة وتصوراً سواء فى النفى أو الاثبات ، والتزامها العدل فى العمل والارادة والتصديق فعلاً وتركاً ، أخذاً واجتناباً ، وحظاً ومنعاً .

وهذا ما تفيده شهادة أن لا إله إلا الله ، لأن هذه الشهادة تعنى أن يعتقد العبد بعلم ويقين ، وصدق واخلاص أنه لا إله يتصف بالتفرد بالاسماء الحسنى وصفات الكمال المطلق واستحقاق العبودية على الحقيقة إلا الله تبارك وتعالى وهذا الاعتقاد اعتقاد صحيح مطابق للواقع ، وتعنى تلك الشهادة أن يعمل العبد بمقتضاها فلا يصرف شيئاً من عبادته كالحب والارادة والدعاء والنذر لغير الله تعالى لأن ذلك ونحوه من الأعمال التعبدية التى شرع الله أن يعبد بها لا يستحقه إلا الله فصرفه أو صرف نوع منه لغير الله ظلم عظيم ﴿**ان الشرك لظلم عظيم**﴾ واخلاصه لله تعالى هو العدل الذى لا عدل فيما خالفه .

والمخالفون لأهل السنة والجماعة إذا لم يخلصوا عبادتهم لله وأشركوا مع الله غيره لم يكونوا عابدين لله وإن كانوا يقصدون بشركهم التقرب والتزلف إلى الله قال تعالى : ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فى ماهم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار**﴾ . وإذا عينوا الله بصفات نفى أو اثبات ليست واردة فى الكتاب والسنة فإن ما عينوه بتلك الصفات ليس هو الله فى الحقيقة والواقع ، كما إذا قائلهم ليس الرحمن على العرش استوى . أو قال : «إن الله لم يتكلم بالقرآن ، وإنما القرآن عبارة عن كلام الله» فهذا القائل إذا عبد من يعتقده بهذا الوصف لم يكن عابداً لله وان قصد الله بعبادته بل يكون عابداً لما اعتقده معطلاً عن وصف لكمال .

والله برىء من عبادته لأن موصوفه ليس هو الله فتنصرف عبادته إلى غير الله كما انصرف سبُّ قريش عن محمد ﷺ قال عليه الصلاة والسلام : «ألا ترون كيف يصرف الله عنى سب قريش ، يسبون مذمما» أى أنه محمد لا مذمم . اللهم صل وسلم عليه .

وبالجملة ، فإن كل من لم يؤمن بما وصف به الرسول ﷺ ربه فهو فى الحقيقة لم يعبد ما عبده الرسول ﷺ وقس على هذا .

وأما صفة الصلاح فى العقيدة الإسلامية فهى بناؤها على شهادة أن محمداً ﷺ عبد الله ورسوله، ومعنى ذلك اعتقاد أنه ﷺ عبد لا يعبد ورسول لا يكذب، بل يطاع ويتبع ويصدق فيما أخبر ويجتنب ما نهى عنه وزجر ولا يعبد الله إلا بما شرع ويرفض ما يعارض من ذلك من عقل وذوق وسياسة وعرف وتقليد وعادة.

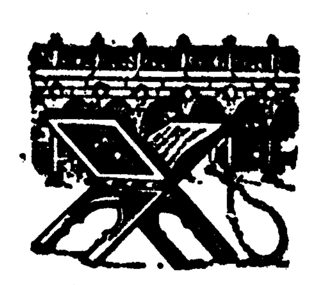
وبهذا صارت العقيدة الإسلامية هى الصالحة المقبولة، وصارت مادة للحياة الطيبة، وإذا لم تكن الحياة طيبة لم تكن حياة حقيقية، قال تعالى: ﴿**أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون**﴾.

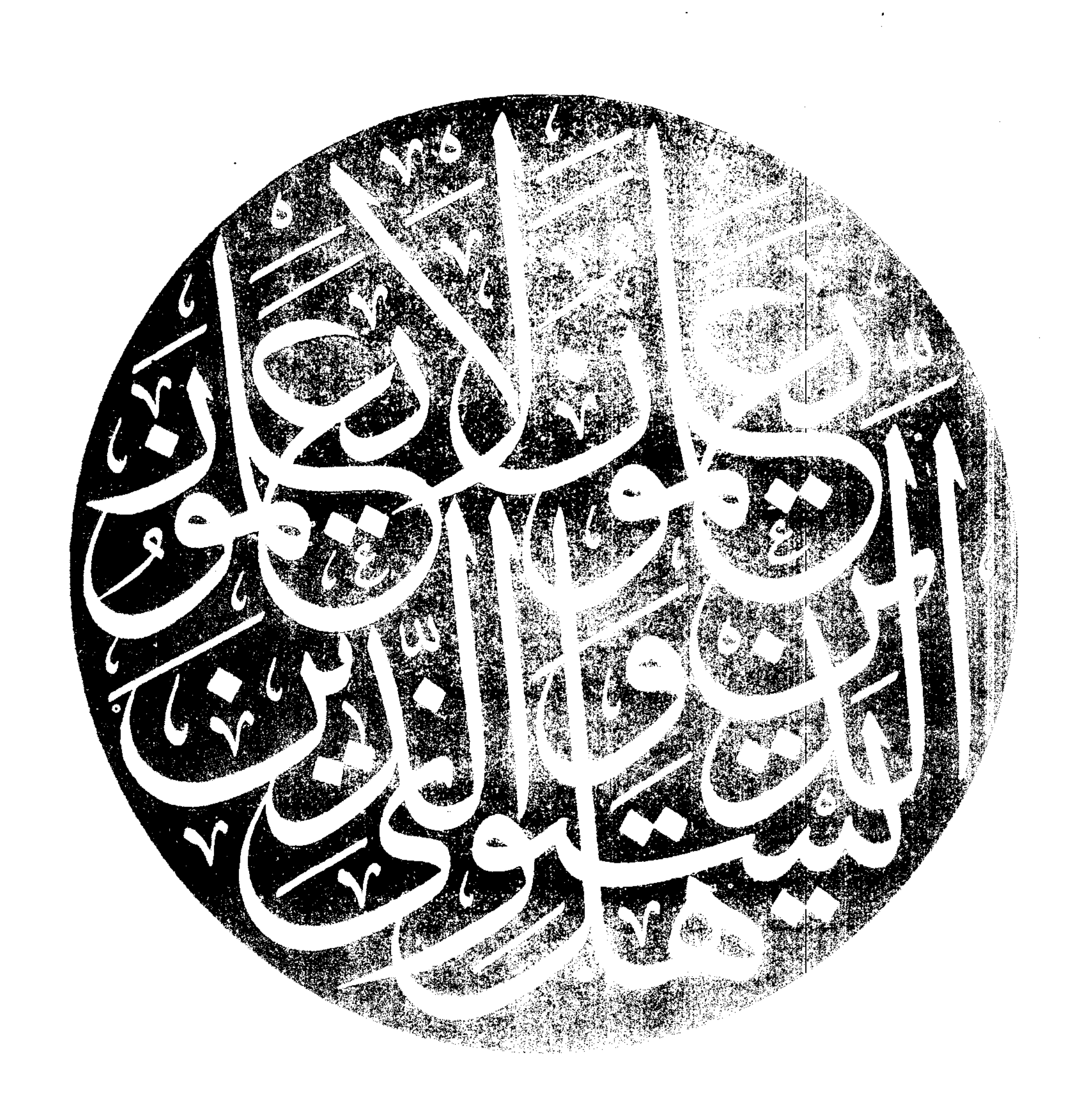
قال ابن كثير - رحمه الله - فى تفسيره: «هذه مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذى كان ميتاً أى فى الضلالة هالكاً حائراً فاحياه الله أى أحيي قلبه بالإيمان وهداه له ووفقه لاتباع رسله». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿**من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

ولقد سمى الله ما أنزله على رسوله ﷺ **روحاً** لتوقف الحياة الحقيقية عليه **ونوراً** لتوقف الهداية عليه، فقال تعالى: ﴿**يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده**﴾، وقال تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور**﴾.

ومما تقدم يتبين لنا أن العقيدة الإسلامية هى روح الحياة **ونور** الهداية، فلا أشرف ولا أطيب من حياة تنبنى عليها ولا أصلح ولا أهدى من عمل يسير بمقتضاها ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله وسلم على رسوله الأمين وأصحابه الغر الميامين وأتباعهم ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين...




هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون


التفسير
و
أصوله

القرآن يتحدى..!

للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى
رئيس شعبة التفسير بالدراسات العليا

قال الله تعالى : ﴿**وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وآدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**﴾. «سورة البقرة: **٢٢ -٢٤**» .

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى الناس بعبادته فى قوله تعالى : ﴿**ياأيها الناس آعبدوا ربكم**﴾. وساق من الأدلة المقنعة ما يحملهم على اعتناق عقيدة التوحيد، ونبذ عقيدة الشرك. . . أتبع ذلك بايراد الأدلة على صدق النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وعلى أن هذا القرآن ليس من صنع بشر، وإنما هو كلام واهب القوى والقدر. . .

ففى هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثانى من جزأى الإيمان، وهو صدق النبى ﷺ فى رسالته، بعد أن تم إثبات الجزء الأول من ذلك وهو وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته .

والمعنى : وإن ارتبتم أيها المشركون فى شأن هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد على مهل وتدريج، فأتوا أنتم بسورة من مثله فى سمو الرتبة، وعلو الطبقة، واستعينوا على ذلك بآلهتكم وبكل من تتوقعون منهم العون، ليساعدوكم فى مهمتكم، أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله، إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم .

والمقصود بقوله : ﴿**وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا. . .**﴾ نفى الريب عن المنزل عليه بنفيه عن المنزل .

والتعبير عن اعتقادهم فى حقه بالريب للإيذان بأن أقصى ما يمكن صدوره عنهم هو الارتياب فى شأنه، أو للتنبيه على أن كلامهم فى شأن القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن القرآن من عند الله تعالى .

وعبر بقوله : ﴿وإن كنتم فى ريب﴾ . ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا . للإشارة إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب، ولا يطير إلى أفقها شرارة من شك، وأنه إن أثير حوله أى شك فمرجعه إلى انطماس بصيرتهم، وضعف تفكيرهم، واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم .

وأتى بإن المفيدة للشك مع أن كونهم فى ريب، مما نزل على النبى ﷺ أمر محقق، تنزيلا للمحقق منزلة المشكوك فيه، وتنزيهاً لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد، وتوبيخاً لهم على وضعهم الأمور فى غير مواضعها .

ووجه الإتيان بفى الدالة على الظرفية، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

وقال : ﴿نزلنا﴾ دون أنزلنا، لأن المراد النزول على سبيل التدريج، ومن المعروف أن القرآن قد نزل منجما فى مدة تزيد على عشرين سنة .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : لم قيل : ﴿مما نزلنا﴾ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله، لم ينزل هكذا نجوماً سورة بعد سورة، وآيات غب آيات، على حسب النوازل، وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد حيناً فحيناً، حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة . . . **فقيل لهم** : إن ارتبتم فى هذا الذى وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج، فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه، وهلموا نجماً فرداً من نجومه : سورة من أصغر السور، أو آيات شتى مفتريات، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل» . (١)

والمراد بالعبد فى قوله تعالى : ﴿على عبدنا﴾ محمد ﷺ وفى إضافته إلى الله تعالى تنبيه على شرف منزلته عنده، واختصاصه به .

وفى ذكره ـ صلوات الله عليه ـ باسم العبودية تذكير لأمته بهذا المعنى، حتى لا يغالوا فى تعظيمه فيدعوا ألوهيته كما غالت بعض الفرق فى تعظيم أنبيائها أو زعمائها فادعت ألوهيتهم .

---

(١) تفسير الكشاف : ج١ ص٩٧ .

والســـورة : الطـائفـة من القـرآن المسـماة باسم خاص، والتى أقلهـا ثلاث آيـات، والضمير فى قوله ﴿**من مثله**﴾ يعود على المنزل وهو القرآن .

والمـراد من مثـل القـرآن : ما يشـابهـه فى حسن النظم، وبـراعـة الأسلوب وحكمـة المعنى . وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق فى كل سورة .

وقيل : إن الضمير فى قوله ﴿**من مثله**﴾ يعود على المنزل عليه القرآن، وهو النبى ﷺ ولكن الرأى الأول أرجح .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : «وعود الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه **أحدها**: أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة فى باب التحدى لاسيما ما ذكره فى سورة يونس من قوله : ﴿**فأتوا بسورة مثله . . .**﴾ .

وثانيها : أن البحث إنما وقع فى المنزل وهو القرآن، لأنه قال : ﴿**وإن كنتم فى ريب مما نزلنا . . .**﴾ فوجب صرف الضمير إليه، ألا ترى أن المعنى، وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم شيئاً مما يماثله، وقضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله ﷺ أن يقال: وإن ارتبتم فى أن محمداً منزل عليه فهاتوا قرآناً مثله .

وثـالثهـا : أن الضمـير لو كان عائداً إلى القرآن لاقتضى كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء أكانوا أميين أو عالمين، أما لو كان عائداً إلى محمد ﷺ فذلـك لا يقتضى إلا كون آحـادهم من الأميـين عاجـزين عنه، لأنه لا يكون مثل محمد إلا الشخص الأمى، فأمـا لو اجتمعـوا وكـانـوا قارئـين لم يكونوا مثل محمد، لأن الجماعة لا تماثل الواحد، والقارىء لا يكون مثل الأمى، ولاشك أن الإعجاز على الوجه الأول أقوى .

ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد ﷺ لكان ذلك يوهم أن صدور مثل القرآن ممن لم يكن مثـل محمـد فى كونـه أميـاً ممكن، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمى ومن غير الأمى ممتنع فكان هذا أولى(1)

وقوله تعالى : ﴿**وآدعوا شهداءكم من دون الله**﴾ معطوف على قوله : ﴿**فأتوا بسورة**﴾ .

وادعوا : من الدعاء، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى نادوهم .

---

(1) تفسير الرازى : ج1 ص222 .

وشهداءكم : أى : آلهتكم، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق. **وقيل** : الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام، وكأنه سمى به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضره الأمور .

ودون : بمعنى غير، وتطلق فى أصل اللغة على أدنى مكان من الشىء، ومنه تدوين الكتب لأنه إدناء البعض من البعض، ودونك هذا أى : خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت فى الرتب **فقيل** : زيد دون عمرو. أى : فى الشرف، ومنه الشىء الدون، ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل تجاوز حد إلى حد، وتخطى أمر إلى أمر .

قال الجمل : **والمعنى** : وادعوا إلى المعارضة من حضركم أورجوتم معونته من إنسكم وجنكم وآلهتكم غير الله؛ فإنه لايقدر على أن يأتى بمثله إلا الله. . . أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله، ولا تستشهدوا بالله، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم أنها تشهد لكم يوم القيامة(١) .

وفى أمرهم بدعوة أصنامهم وهى جماد، وفى تسميتها شهداء مع إضافتها إليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق، فى كل ذلك أقوى ألوان التهكم، لكى يثير فى نفوسهم من الألم ما قد يكون سبباً لتنبيههم إلى جهلهم، وانصرافهم عن ضلالهم .

وقوله تعالى : ﴿**إن كنتم صادقين**﴾ جملة معترضة فى آخر الكلام. وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار ذكره فى نظم الكلام مما ينزل به عن مرتبة البلاغة .

والمعنى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن فأتوا بسورة من مثله. وادعوا آلهتكم وبلغاءكم وجمع البشر ليعينوكم أو ليشهدوا لكم أنكم أتيتم بما يماثله فى حكمة معانيه وحسن بيانه .

وفى هذه الآية الكريمة إثارة لحماستهم، إذ عرّض بعدم صدقهم، فتتوفر دواعيهم على المعارضة التى زعموا أنهم أهل لها .

ثم قال تعالى : ﴿**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة**﴾ .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين : ج١ ص٢٨ .

والمعنى : فإن لم تفعلوا أى : تعارضوا القرآن، وتبين لكم أن أحداً لا يستطيع معارضته، فخافوا العذاب الذى أعده الله للجاحدين وهو النار التى وقودها الناس والحجارة .

والوقود : ما يلقى فى النار لإضرامها كالحطب ونحوه، والحجارة : الأصنام التى كانوا يعبدونها من دون الله كما قال تعالى : ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾ . (الأنبياء: ٩٨) .

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون فى النار مبالغة فى إيلامهم وتحسيرهم. والاقتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس فى النار غيرهما بدليل ما ذكر فى مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها .

قال صاحب الكشاف : «فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلا جيء بإذا الذى للوجوب دون إن الذى للشك؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن يساق القول معهم على حسب حسبانهم وطمعهم، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التأمل كالمشكوك فيه لديهم لاتكالهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام .

والثانى : أن يتهكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه تهكما به»[1] .

وقال : فإن لم تفعلوا، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله، لأن قوله ﴿**فإن لم تفعلوا**﴾ جار مجرى الكناية التى تعطى اختصارا ووجازة تغنى عن طول المكنى عنه، ولأن الإتيان ما هو إلا فعل من الأفعال، تقول : أتيت فلانا. فيقال لك : نعم ما فعلت .

وجملة : ﴿**ولن تفعلوا**﴾ جملة معترضة بين الشرط والجزاء، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته؛ فإن فى نفيها فى المستقبل بإطلاق تأكيداً لنفيها فى الحال .

قال الإمام الرازى : فإن قيل : فما معنى اشتراطه فى اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله ﷺ وإذا صح ذلك ثم لزموا العناد استوجبوا العقاب بالنار، فاتقاء النار يوجب ترك العناد، فأقيم

---

(١) تفسير الكشاف : ج١ ص١٠١ .

المؤثر مقام الأثر. وجعل قوله : ﴿**فاتقوا النار**﴾ قائماً مقام قوله فاتركوا العناد. وهذا هو الإيجاز الـذى هو أحـد أبـواب البـلاغـة، وفيه تهويل لشأن العناد، لإنابة إتقاء النار منابه متبعاً ذلك بتهويل صفة النار[1].

ومعنى : ﴿**أعدت للكافرين**﴾ هيئت لهم، لأنهم الذين يخلدون فيها، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معـدة للفـاسقـين ـ أيضـا لأنه يريد بذلك ناراً مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال تعالى : ﴿**إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار**﴾ .

وفى هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب، إذ لم تقع المعارضة من أحد فى أيام النبوة وفيما بعدها إلى هذا العصر .

قال صاحب الكشـاف : **فإن قلت** : من أين لك أنـه إخبـار بالغيب على ماهو حتى يكون معجزة؟ قلت: لأنهم لوعارضوه بشىء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عدداً من الذابين عنه، فحين لم ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ما هو به، فكان معجزة[2].

وقـال بعض العلماء : هذه الآيــة الجليلة من جملة الآيــات التى صدعت بتحـــدى الكافرين بالتنزيل الكريم. وقد تحداهم الله فى غير موضع منه فقال فى سورة القصص :

﴿**قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين**﴾ .

وقـال فى سورة الأسـراء : ﴿**قـل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**﴾. وقال فى سورة يونس : ﴿**أم يقولون افتراه، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**﴾. وكل هذه الآيات مكية .

ثم تحداهم أيضاً فى المدينة بهذه الآية : ﴿**وإن كنتم فى ريب. . .**﴾. الخ. فعجزوا عن آخـرهم، وهم فرسـان الكـلام، وأربـاب البيـان، وقـد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، جعـل الله لهم ذلـك طبعـاً وخلقـة وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البـديهـة بالعجب ويـدلـون به إلى كل سبب. فيخطبـون، ويمـدحون، ويتوسلون، ويتوصلون، ويرفعون، ويضعون، فيأتون بالسحر الحلال. . . ومع هذا فلم يتصد لمعارضة

---

(١) تفسير الفخر الرازى : ج١ ص٢٢٤ .
(٢) تفسير الكشاف : ج١ ص١٠١ .

القرآن منهم أحد، ولم ينهض ـ لمقدار سورة منه ـ ناهض من بلغائهم، ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهارهم بالإفراط والمضارة. . . وقد جرد لهم النبى ﷺ الحجة أولا، والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة وبذلك يظهر أن قوله تعالى: ﴿**ولن تفعلوا**﴾ معجزة أخرى، فإنهم ما فعلوا. وما قدروا. . .

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز فى هذا الأمر. . . فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق القوى والقدر، أنزله تصديقاً لرسوله، وتحقيقا لمقوله(١).

* * * * * *

أول «بيبلوغرافيا» تحصر ١٣٤٠ ترجمة لمعانى القرآن الكريم

قدمت منظمة المؤتمر الإسلامى أحد اكبر انجازاتها وهو عن «البيبلوغرافيا» العالمية لترجمات معانى القرآن الكريم، الذى قام باعداده وتنفيذه مركز الابحاث للتاريخ والفنون والثقافة التابع للمنظمه ومقره فى تركيا .

وهذه «البيبلوغرافيا» تضمنت ٢٧١٠ ترجمة وتفسيراً لمعانى القرآن، منها ١٣٤٠ ترجمة مطبوعة لمعانى القرآن كله و١٣٧٠ ترجمة لبعض المختارات من القرآن كتبت بإحدى وستين لغة مختلفة .



(١) تفسير القاسمى : ج٢ ص٧٧ .

من أحب أن ينظر إلى القوى الأمين فلينظر إلى هذا . . .

بينما عثمان بن عفان - رضى الله عنه - فى أرض له فى العالية فى يوم صائف إذ رأى رجلا يسوق جملين وعلى الأرض مثل الفراش من الحر فقال عثمان لمولى له : انظر من هذا؟ .

فقال : أرى رجلا معمماً بردائه يسوق بكرين ثم دنا الرجل فقال : أنظر من هذا؟ .

فنظر فإذا هو عمر بن الخطاب!! .

فقال : هذا أمير المؤمنين . فقام عثمان فأخرج رأسه من الباب فإذا لفح السموم فأعاد رأسه حتى إذا حاذاه قال : ما أخرجك فى هذه الساعة؟ . فقال : بكران من إبل الصدقة تخلفا وقد مضى إبل الصدقة للمرعى فأردت أن ألحقهما بالمرعى وخشيت أن يضيعا فيسألنى الله عنهما يوم القيامة . فقال عثمان : هلم إلى الظل والماء ونكفيك؟ .

قال عمر : عُدْ إلى ظلك !! قال عثمان : عندنا من يكفيك! قال عمر: عُدْ إلى ظلك! ومضى . . .

فقال عثمان : من أحب أن ينظر إلى القوي الأمين فلينظر إلى هذا . . .


الحَدِيثُ
وَ
أُصُولُهُ

القول الفصل: في العمل بالحديث المرسل

للشيخ حسين مظفر رزوق

الموصل - العراق

(١) توطئــة :

الحمد لله الذى أنزل أحسن الحديث، وأودع درر بيانه فى محكم الحديث، فكرم هذه الأمـة - زادهـا الله شرفـاً - بالاعتناء بتـدوين ما جاء به رسـول الله ﷺ حفظـاً له على تكرر العصـور والآبـاد. ونصب جهـابـذة من الحفاظ والنقاد، وجعلهم دائبين فى إيضاح ذلك فى جميع الأزمان والبلاد، باذلين وسعهم مستفرغين جهدهم فى ذلك جماعات وآحادا .

والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم، وخُصّ ببدائع الحكم، سيدنا محمد المصطفى بتعميم دعوته ورسالته، المفضل على الأولين والآخرين من بريته، المشّرف على العالمين قاطبة بشمول شفاعته، المخصوص بتأييد ملته وسماحة شريعته، المكرم بتوفيق أمته للمبالغة فى إيضاح منهاجه وطريقته .

أمـا بعـد . . . فإن الله سبحـانـه وتعـالى فضـل هذه الأمـة بشرف الإسناد، وخصها باتصـالـه دون من سلف من العبـاد، وأقام لذلك فى كل عصر من الأئمة الأفراد، والجهابذة النقاد، من بذل جهده فى ضبطه وأحسن الاجتهاد، فظفر بنيل المراد وذلك من معجزات نبينا ﷺ التى أخـبر بوقـوعهـا فقـال ﷺ : «تسمعـون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم» . (رواه أبو داود باسناده فى سننه) .

فبـاتصـال الإسناد عرف الصحيح من السقيم، وصان الله هذه الشريعة عن قول كل أفاك أثيم، فلذا كان الإرسال فى الحديث علة يترك بها، ويتوقف عن الإحتجاج به بسببها، لما فى ابهـام المـروى عنـه من الغرر، والاحتجاج المبنى على الخطر، وقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً فيه وكثرت أقوالهم، وتباينت آراؤ هم، وتعارضت أفعالهم .

فعمدت فى عملى هذا إلى إيضاح ما هو إلى الصواب أقوم المسالك، جامعاً فيه بين طريقة أهل الحديث وأئمة الأصول، والفقهاء الذين فى الرجوع إليهم أنفس حصول، ذاكراً من المنقول ما أمكن الوصول إليه، ومن المباحث النظرية ما يعول عند التحقيق عليه، مميزاً فى ذلك الغث من السمين، مبيناً ماهو الضعيف من المتين .

(٢) المقدمـــة :

يعرف علم الحديث الخاص بالرواية بأنه : علم يعرف به أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحـوالـه، وروايتهـا وضبطها وتحرير ألفاظها. وعلم الحديث الخاص بالدراية : علم يعرف منـه حقيقـة الـروايـة، وشـروطهـا وأنـواعهـا وأحكامها، وحال الرواة وشروطهم، وأصناف المرويات وما يتعلق بها[١].

والمتن هو ألفاظ الحديث التى تتقوم بها المعانى، والسند هو الطريق الموصلة إلى المتن (أى أسماء رواته مرتبة). أما الإسناد فهو حكاية طريق المتن .

إن متن الحديث نفسه لا يدخل فى البحث عند أرباب الحديث إلا نادراً، بل يكتب صفته من القوة والضعف، بحسب أوصاف الرواة من العدالة والضبط والحفظ وخلافها، أو بحسب الإسناد من الاتصال والإنقطاع والإرسال والاضطراب ونحوها .

وأول من صنف فى الإصطلاح القـاضى أبـو محمـد الـرامهـرمـزى بكتـابه «المحدث الفـاصـل» وتـلاه الحـاكم أبـو عبد الله النيسابورى، لكنه لم يهذب ولم يرتب، وتلاه أبو نعيم الأصبهانى، ثم جاء بعدهم الخطيب البغدادى فوضع قوانين الرواية فى كتابه « الكفاية» إلى أن جاء الحـافـظ الإمـام بن الصلاح فوضع كتابه الشهير، فهذب فنونه وجمع به علوم سابقيه فكان من أئمة هذا الشأن .

لا تخرج أنـــواع الحـديث عن ثلاثـة : حسن صحيـح، وحسن، وضعيف. لأنـه إن اشتمـل من أوصـاف القبـول على أعلاها فالصحيح، أو بعلى أدناها فالحسن، أو لم يشتمل على شىء منها الضعيف .

وقد صنف العلماء كالحاكم وابن الصلاح والنووى، الحديث المرسل ضمن الأحاديث الضعيفة لما فيه من انقطاع فى السند، واختلفوا فيه بين قبول ورد وتفصيل. وقد عرف المرسل بأنـــه ما سقـط منـه الصحـابى، كقـول نافـع قال رسـول الله ﷺ كذا، وهـو المشهـور عنـد المحدثين. وقد يطلق المرسل على الحديث الذى قد سقط راو منّ رواته فيدخل فيه المعضل والمنقطع، وهو رأى الفقهاء والأصوليين، ومما يشهد للتعميم قول ابن القطان : «إن الإرسال رواية الرجل عمن لم يسمع منه» .

---

(١) التهانوى : قواعد فى علوم الحديث. ص٢٣ .

والمرسل على مراتب، أعلاها ما أرسله صحابي ثبت سماعه، ثم صحابى له رؤ ية فقط ولم يثبت سماعه، ثم المخضرم، ثم المتقن كسعيد بن المسيب، ويليها من كان يتحرى فى شيوخه، كالشعبي ومجاهد، ودونها مراسيل من كان يأخذ عن كل أحد كالحسن، أما مراسيل صغار التابعين كقتادة، والزهرى، وحميد الطويل، فإن غالب رواية هؤلاء عن التابعين .

قال أبو داود فى رسالته : وأما المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بها فيما مضى مثل سفيان الثورى، ومالك، والأوزاعى . حتى جاء الشافعى ـ رحمه الله ـ فتكلم فى ذلك وتابعه عليه أحمد وغيره، وقد وضعت قواعد معينة من قبل الفقهاء والأصوليين لتمييز المرسل المقبول والمردود لحفظ شطر السنة من الإهمال وإثراء الأحكام الشرعية بما تحويه هذه الأحاديث من أحكام ورقائق .

يتلخص فى الاحتجاج بالمرسل عدة أقوال. حجة مطلقاً، لا يحتج به مطلقاً، يحتج به إن أرسله أهل القرون الثلاثة، يحتج به إنْ لم يرو إلا عن عدل، يحتج به إن أرسله صحابى .

صنف فى المراسيل أبو داود، ثم أبو حاتم، ثم البرديجى، ثم الخطيب البغدادى، ثم النووى، ثم الحافظ العراقى. ومن المتأخرين الحافظ أبو سعيد العلائي، والعجمى، وابن الهادى .

(٣) الارسال بين اللغة والاصطلاح :

المرسل وجمعه مراسيل باثبات الياء وحذفها أيضاً، وأصله من «رسل» التى تحمل عدة معانى حسب إشتقاقاتها اللغوية .

١ ـ **تقول «أرسل»** : (أطلق وأهمل)[١]فكأن المرسل أطلق الإسناد ولم يقيده براو معروف[٢]، أو أهمل ذكر راوٍ من رواة الإسناد .

٢ ـ **«استرسل»** : الطمأنينة إلى الانسان والثقة فيما يحدثه[٣]. وكأنَّ التابعى الذى قد ذكر الحديث اطمأن ووثق بصحة ما يرويه عن النبى ﷺ ووثق بمن أخذ الحديث عنه، فلم

---

(١) ابن منظور : لسان العرب. ج١١ ص٢٨٣ .
(٢) العلائي : جامع التحصيل فى أحكام المراسيل ص١٤ .
(٣) الزبيدى : تاج العروس. ج٧ ص٣٤٥ .

يذكـره. **قال القـرافي في شرح التنقيـح** «إنـه ما سكت عنـه (الـراوي) إلا وقد جزم بعدالته، فسكوته كإخباره بعدالته»[1].

٣ ـ **أرســل الحـديث** : لم يقيده[2] وكأن الراوي لم يقيد روايته باتصال الإسناد فأسقط ذكر الصحابي الذي تحمله عن رسول الله ﷺ .

٤ ـ **مرســال** : يقـال ناقـة مرسـال أي سريعة السير[3] فكأن المرسل أسرع فيه عَجِلاً فحذف بعض اسناده .

٥ ـ **أرسـالاً** : جاء القـوم أرسالاً أي قطعاً متفرقين[4]. **قال ابن سيده** : الرَّسَل بفتح الراء والسين القطيع من كل شيء والجمع أرسال، وجاءوا رسلة أي جماعة، فكأنه تصور من هذا اللفظ الاقتطاع، فقيل للحديث الذي قطع اسناده وبقي غير متصل : مرسل، أي كل طائفة منهم لم تلق الأخرى ولا لحقتها[5].

هذا ما يتعلق بهذا اللفــظ من حيث اللغـة، وأمـا من ناحيـة الإصطـلاح فلتعـريف الحديث المرسل ومعرفة حده ينبغي علينا التمييز بينه وبين المنقطع والمعضل. أما المنقطع فقد ذهب الفقهـاء والخطيب وابن عبـد الـبر وغـيرهم من المحدثين أن المنقطع مالم يتصل اسناده على أي وجـه كان انقطـاعـه، وأكثـر ما يستعمل في رواية منْ دون التابعي عن الصحابي. وقيل هو ما اختل منه رجل قبل التابعي محذوفاً كان أو مبهماً[6]. والمعضل ـ وهو بفتح الضاد ـ يقولون : أعضله معضل وهو ما سقط من اسناده اثنان فأكثر[7].

لقد عَرَّف الحاكم الحديث المرسل فقال : «إن مشايخ الحديث يختلفوا في أنَّ الحديث المرسل هو الذي يرويه المحدث بأسانيد متصلة إلى التابعي، فيقول التابعي : قال رسول الله ﷺ[8]. وهكذا عبر ابن الصلاح تبعاً للحاكم .

---

(١) القرافي : شرح التنقيح. ص١٦٤ .
(٢) أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة. ج١ ص٣٩٣ .
(٣) الشيخ أحمد رضا : معجم متن اللغة ج١ ص٣٩٣ .
(٤) السخاوي : فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقي. ص١٢٨ .
(٥) العلائي : جامع التحصيل في أحكام المراسيل. ص١٤ .
(٦) السيوطي : تدريب الراوي. ج١ ص٢٠٧ .
(٧) نفس المصدر. ص٢١١ .
(٨) الحاكم : معرفة علوم الحديث ص٢٥ .

يقتضى كلام الحاكم أن إرسال صغار التابعين ومتأخريهم يلحق بالمرسل، وإن كان مايروونِ عمن أدركوه من الصحابة يسيراً، وجل رواياتهم إنما هى عن التابعين .

إن خلاصة أقوال المحدثين فى الحديث المرسل بأنه ما رواه التابعى عن رسول الله ﷺ باتفاق على التابعى الكبير واختلافهم فى التابعى الصغير هل هومرسل أومنقطع . وقد وافق المحدثين جماعة من الأئمة كابن فورك، أبى نصر بن الصباغ، أبى المظفر بن السمعانى، وكذلك القرافى .

أما مشايخ أهل الكوفة فيقول الحاكم عنهم بأن كل من أرسل الحديث من التابعين وأتباع التابعين ومن بعدهم من العلماء فإنه عندهم مرسل محتج به[1]. وهذا قول معظم الحنفية إلا من أطلق الإرسال على قول الراوى من الأعصار الثلاثة الأولى قال النبى ﷺ .

وقال الحافظ أبوبكر الخطيب فى كتابه «الكفاية» : لا خلاف بين أهل العلم أن إرسال الحديث الذى ليس بمدلس، هوراوية الراوى عمن لم يعاصره أولم يلقه، نحوروابة سعيد بن المسيب وأبى سلمة بن عبد الرحمن وعروة بن الزبير ومحمد بن المنكدر والحسن البصرى ومحمد بن سيرين وقتادة وغيرهم من التابعين عن رسول الله ﷺ، بمثابته فى غير التابعين نحورواية إبن جريج عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ورواية مالك بن أنس عن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، ورواية حماد بن أبى سليمان عن علقمة وكذلك رواية الراوى عمن عاصره ولم يلقه كرواية سفيان الثورى، وشعبة عن الزهرى، وكان نحوذلك مالم نذكره، فالحكم فى الجميع عندنا واحد[2].

والمشهور فى الفقه والأصول أن «المرسل قول الإمام» من أئمة النقل وهو من له أهلية الجرح والتعديل (الثقة قال عليه الصلاة والسلام) كذا مقول القول (مع حذف من السند وتقييده) أى القائل أو الإمام القائل (بالتابعي أو الكبير منهم) أي كعبد الله بن عدى وقيس بن أبى حازم (إصطلاح) من المحدثين فدخل فى التعريف (المنقطع) بالإصطلاح المشهور للمحدثين (والمعضل) المشهور عندهم[3]. وهوكقول الخطيب وبه قال الشيخ موفق الدين الحنبلى فى الروضة[4] والآمدى فى الأحكام[5]. والغزالى فى المستصفى[6].

(١) الحاكم : معرفة علوم الحديث. ص٢٦ .
(٢) الخطيب البغدادى : الكفاية. ص٣٨٤ .
(٣) إبن همام الدين : تيسير التحرير. ج١ ص١٠٢ .
(٤) موفق الدين الحنبلى : الروضة. ص٦٤ .
(٥) الآمدى : الإحكام فى أصول الأحكام، ج٢. ص١١٢ .
(٦) الغزالى : المستصفى. ج١. ص١٦٩ .

من استقراء ما ذكرناه يبدو بأن اصطلاح المرسل لما ذكر من حيث اللغة ممكناً، وعلى هذا هو والمنقطع سيان لغة واصطلاحاً، ويبدو بأن المنقطع أكثر عموماً ـ وبه قال ابن عبد البر ـ عن المرسل إذ أن الأول يتحدد بكل مالم يتصل سنده سواء كان يعزى إلى النبى ﷺ أو إلى غيره، أما الثانى فهو ما أرسله التابعى عن النبى ﷺ. والمحدثون كما ذكرنا سابقاً يفصلون بين المرسل والمنقطع ويجعلون بينهم اختلافاً واضحاً .

وقد جعل الحنفية وإمام الحرمين المعضل والمرسل سواء، وعند الجمهور يعتبر المعضل أخص، وعندنا المعضل والمرسل متباينان .

(٤) مذاهب العلماء فى قبول الحديث المرسل والعمل به أو رده :

وقد اختلف العلماء فى قبول الحديث المرسل بين القبول مطلقاً والرد مطلقاً أو التفصيل فيه .

ويرجع الخلاف فى هذه المسألة إلى القواعد المتبناة من أئمة الأصول والفقهاء فى أصول الرواية. **أولها**: قبول رواية المجهول العدالة والاحتجاج به، **وثانيها**: هل أن مجرد رواية العدل عن غيره تعديل له أم لا؟، **وثالثها**: قول الراوى حدثنى من لا أتهم أو نحو ذلك هل يحتج به إذا لم يسمعه أم لا؟. **ورابعها**: هل يقبل التعديل مطلقاً أم لابد من ذكر سببه، وهل يشترط عدد معين فى التعديل .

إن استقراء هذه القواعد ومناقشتها لتبيين ما هو الحق منها، فتخرج فى قبول المرسل أو رده إطلاقاً أو التفصيل فى ذلك .

«أ» ـ المذهب الأول : قبول المرسل :

ممن قال بقبول الحديث المرسل والعمل به، مالك بن أنس، وأبو حنيفة، وجمهور أصحابهما وأكثر المعتزلة كأبى هاشم، وأحمد بن حنبل فى احدى الروايتين عنه وابن القيم وابن كثير وغيرهم، ولهم فى قبوله أقوال .

أولها : قبول كل مرسل سواء بعد عهده وتأخرْ زمنه عن عصر التابعين حتى مرسل العصور المتأخرة، وهذا توسع غير مقبول، ومردود بالاجماع فى كل عصر، ولو عمل به لزالت فائدة الاسناد وبطلت خصيصة هذه الأمة .

ثانيها : قبول مراسيل التابعين وأتباعهم مطلقاً، قال ابن الحنبلى فى «قفو الأثر» : والمختار فى التفصيل قبول مرسل الصحابى إجماعاً، ومرسل أهل القرن الثانى والثالث عندنا

(الحنفية) وعند مالك مطلقاً[1]. ومن الحجج لهذا القول: أن إحتمال الضعف فى التابعين، لاسيما بالكذب، بعيد جداً، فإنه ﷺ أثنى على عصر التابعين، ثم للقرنين الذين يلونه، فارسال التابعى وبقية القرون الثلاثة بالجزم من غير وثوق بمن قاله، مناف لها.

واوسع من هذا قول عمر - رضى الله عنه - «المسلمون عدول، بعضهم على بعض، إلا مجلوداً فى حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنياً فى ولاء أو قرابة».

إلا إن كان المرسل معروفاً بالارسال عن غير الثقات، فإنه لا يقبل مرسله. وأما بعد العصر الثالث، فإن كان المرسل من أئمة النقل قبل مرسله[2] وهو قول عيسى بن إبان، أبوبكر الرازى والبزدوى وأكثر المتأخرين من الحنفية، وقال القاضى عبد الوهاب المالكى، هذا هو الظاهر من المذهب عندى[3].

وثالثها: قبول إرسال التابعين على إختلاف طبقاتهم، وهو قول مالك وجمهور أصحابه، وأحمد بن حنبل وكل من يقبل المرسل من أهل الحديث.

ورابعها: قبول مراسيل كبار التابعين دون صغارهم لقلة روايتهم عن الصحابة كما حكاه ابن عبد البر فى التمهيد.

واختلف القائلون بقبول المرسل فى طبقته هل هو أعلى من المسند، أو دونه، أو مثله؟. والقائلون بأنه أرجح وأعلى من المسند، وجّهوه بأن من أسند فقد أحالك على إسناده، والنظر فى أحوال رواته والبحث عنهم، ومن أرسل مع علمه ودينه وإمامته وثقته فقد قطع لك بصحته وكفاك النظر فيه. قال القرافى فى شرح التنقيح «إن المرسل أقوى من المسند بهذا الطريق لأن المرسل - بكسر السين - قد تذمم الراوى وأخذه فى ذمته عند الله تعالى، وذلك يقتضى وثوقاً بعدالته، وأما إذا أسند فقد فوّض أمره للسامع، ينظر فيه، ولم يتذممه، فهذه الحالة أضعف من الإرسال»[4].

وساوى بين المرسل والمسند فى وجوب الحجة والقبول محمد بن جرير الطبرى، وأبو فرج المالكى، وأبو بكر الأبهرى، وعندهم متى تعارض مدلول حديث مرسل وآخر مسند فلا ترجيح إلا بأمر آخر خارجى. وقد قدم أكثر محققى المالكية والحنفية كأبى جعفر الطحاوى،

---

(١) إبن الحنبلى: قفو الأثر. ص١٤.
(٢) العلائى: جامع التحصيل فى أحكام المراسيل. ص٢٧.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٨.
(٤) القرافى: شرح التنقيح. ص١٦٤.

وأبى بكر الرازى بتقديم المسند على المرسل عند التعارض، وأن المرسل دون المسند بالرغم من قبوله والعمل به .

- «ب» - المذهب الثانى : رد المرسل :

قال الإمـام مسلم - رحمه الله - فى مقـدمة صحيحه : والمرسل من الروايات فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليس بحجة(١) .

وهو قول عبد الرحمن بن مهدى ويحي بن سعيد القطان وابن المدينى وأبى خيثمة زهير بن حرب ويحي بن معين وابن أبى شيبة والبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجة وغيرهم من أئمة الحديث(٢) .

قال ابن أبى حاتم : سمعت أبى وأبـا زرعـة يقـولان : لا يحتـج بالمـراسيـل ولا تقوم الحجة إلاّ بالأسانيد الصحاح المتصلة(٣) . وهو قول جمهور الشافعية واختيار اسماعيل القاضى وابن عبد البر وغيرهما من المالكية والقاضى أبى بكر الباقلانى وجماعة كثيرون من أئمة الأصول .

والحجـة فى رد المـرسـل هو انـا إذا قبلنا خبر من لا نعلم حاله فى الصدق والعدالة ممن حالـه على خلاف ذلـك، فنقـول على الدين والشرع مالم نتحقق من صحته، قال تعالى : **﴿ولا تقف ماليس لك به علم﴾** . وقال عز وجل : **﴿وأن تقولوا على الله مالا تعلمون﴾** .

وروى الحاكم فى كتابه علوم الحديث عن يزيد بن هارون قال : قلت لحماد بن زيد يأبا اسماعيل هل ذكر الله عز وجل أصحاب الحديث فى القرآن؟ قال : نعم، ألم تسمع إلى قوله عز وجل : ﴿ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ . فهذا فيمن رحل فى طلب العلم ثم رجع به إلى من وراءه ليعلمهم إياه، وقال الحاكم فى هذه الآية دليل على أن العلم المحتج به هو المسموع دون المرسل(٤) ومن الأدلة على رد المرسل ما رواه أبو داود فى سننـه فى حديث عن ابن عبـاس - رضى الله عنهـما - قال: قال رسـول الله ﷺ : «تسمعـون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم» وما رواه الشافعى - رحمه الله - قال: قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «نضر الله إمرءاً سمع مقالتى فوعاها ثم أداها

---

(١) الإمام مسلم : الجامع الصحيح. ج١. ص١٣٢ .
(٢) العلائى : جامع التحصيل فى أحكام المراسيل. ص٣٠ .
(٣) ابن أبى حاتم : كتاب المراسيل. ص٧ .
(٤) الحاكم : معرفة علوم الحديث. ص٢٦ .

إلى من لم يسمعها» . والحديثان دلا على أن شأن الرواية اتصال الاسناد، فمتى جوزنا للفرع قبول الحديث من شيخه من غير وقوف على اتصال السند الذى تلقاه شيخه أدى ذلك إلى إختلال السند لجواز أن يكون هذا الساقط غير مقبول الرواية، فلا يجوز الإحتجاج بخبره .

قال الإمام ابن عبد البر : الحجة فى رد الإرسال ما أجمع عليه العلماء من الحاجة إلى عدالة المخبر عنه، وانه لابد من معرفة ذلك، فإذا حكى التابعى عمن لم يلقه لم يكن بد من معرفة الواسطة، إذ قد صح أن التابعين أو كثيراً منهم رووا عن الضعيف[1] .

وقال الحافظ أبوبكر الخطيب : «إرسال الحديث يؤدى إلى الجهل بعين راويه ويستحيل العلم بعدالته مع الجهل بعينه»[2] .

هذا وقد وجد بعد الصحابة من القرنين، من وُجدت فيه الصفات المذمومة، لكن بقلة، بخلاف من بعد القرون الثلاثة، إذ كثر آنذاك وانتشر، وقد روى الشافعى - رحمه الله - عن عمه : حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، قال: إني لاسمع الحديث أستحسنه، فما يمنعنى من ذكره إلا كراهية أى يسمعه سامع فيقتدى به، وذلك أني أسمعه من الرجل لا أثق به وقد حدث به عمن أثق به، أو أسمعه من الرجل أثق به، قد حدث عمن لا أثق به . وهذا كما قال ابن عبد البر : يدل على أن ذلك الزمان، أى زمان الصحابة والتابعين كان يحدث فيه الثقة وغيره .

«ج» - المذهب الثالث : التفصيل فى المرسل :

للاحتجاج بالحديث المرسل عمد الفقهاء والأصوليون إلى إعتماد معيار لنقد الحديث المرسل وتمحيصه للتأكد من صلاحيته فى استنباط الأحكام الشرعية .

قال الإمام الشافعى - رحمه الله : «وأحتجُّ بمرسل كبار التابعين، إذا أسند من جهة أخرى، أو أرسله من أخذ من غير رجال الأول، أووافق قول الصحابى، أوأفتى أكثر العلماء بمقتضاه»[3] . أما أئمة الجرح والتعديل كيحي بن سعيد القطان وعلى بن المدينى وغيرهما فوضعا قاعدة للتفصيل فى قبول ورد الحديث المرسل وذلك فى التفريق بين من كان لا

---

(١) إبن عبد البر النمرى : التمهيد . ج١ ص٦ .
(٢) الخطيب البغدادى : الكفاية . ص٣٨٧ .
(٣) النووى : المجموع . ج١ . ص٩٩ .

يرسل إلا عن ثقة، وبين من يعرف بارساله عن كل أحد سواء كان ثقة أم ضعيفاً، فيقبل مرسل الأول ويرد مرسل الثانى. **قال ابن أبى حاتم فى بداية كتابه «المراسيل»**: كان يحى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزهرى وقتادة شيئاً، ويقول هو بمنزلة الريح(١).

إن عدالة كبار التابعين كسعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح ومكحول وأمانتهم تحول دون روايتهم عن غير الثقة. فلا يستجيز هؤلاء الجزم بحديث إلا بعد التأكد من ثبوته وعدم وجود ما يقتضى القدح فى المرسل. والدليل على ذلك ما جاء عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا أبيه عمر ـ رضى الله عنه ـ وأحكامه مع علمه بأنه لم يدركه ولم يختلف عليه إثنان فى قبولها منه مرسلة، **وقد قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله**: إذا لم يقبل سعيد بن المسيب عن عمر فمن يقبل(٢).

وإذا جاء المرسل من وجهين، وكل من الراويين أخذ العلم عن شيوخ الأخر، فهذا يدل على صدقه، فان مثل ذلك لا يتصور فى العادة تماثل الخطأ فيه وتعمد الكذب، والعادة تمنع تماثلها فى الكذب عمداً وخطأ.

قال إمام الحرمين: إذا قال أحد أئمة الجرح والتعديل حدثنى الثقة أو حدثنى من لا أتهم ونحو ذلك وكان ممن يقبل تعديله ويرجع إليه فهو مقبول محتج به بالرغم من إرساله وذلك لأنه لا يقول ذلك إلا عند تحققه من ثقة ذاك الراوى وصدقه. وقد روى عروة بن الزبير لعمر بن عبد العزيز عن النبى ﷺ قوله: «من أحيا أرضاً ميتة فهى له» فأرسله ولم يسنده، فقال له عمر بن عبد العزيز أتشهد على رسول الله ﷺ بذلك؟ فقال: نعم أخبرنى بذلك العدل الرضي فلم يسم مَنْ أخبره، فاكتفى منه عمر بن عبد العزيز بذلك.

فالقول المختار فى التفصيل هو أن من عرف من عادته أنه لا يرسل إلا عن ثقة عدل مشهور بذلك فمرسله مقبول ومن لم تكن عادته ذلك فلا يقبل مرسله، وبهذا القول يحصل الجمع بين الأدلة المتقدمة. فلا يمكننا إنكار قبول المرسل فى الصدر الأول وقد رد جماعة منهم الكثير من المراسيل، فيعزى قبولهم إلى الثقة بمن يرسل الحديث. وإلى هذا أشار ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: كنا إذا سمعنا أحدنا يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

---

(١) ابن أبى حاتم: كتاب المراسيل. ص٣.
(٢) العلائى: جامع التحصيل فى أحكام المراسيل. ص٧٧.

وأما من يرسل عن غير المشهورين، وإن كانوا عنده ثقات فاحتمال جواز كونه ضعيفاً يبقى قائماً، ويندفع هذا الاحتمال ببعض الوجوه التى قالها الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ وبدونه لايمكن اعتماد هذا المرسل .

(٥) رواة المراسيل والموازنة بينهم :

قال الحاكم : وأكثر ما تروى المراسيل من أهل المدينة، عن ابن المسيب، ومن أهل مكة، عن عطاء بن أبى رباح، ومن أهل البصرة، عن الحسن البصرى، ومن أهل الكوفة، عن إبراهيم النخعى، ومن أهل مصر، عن سعيد بن أبى هلال، ومن أهل الشام، عن مكحول[١].

وقد صحح المحدثون مراسيل بعض الأئمة من التابعين، فمراسيل ابن المسيب فى مقدمة المراسيل، **قال الحاكم** : وأصحها مراسيل ابن المسيب لأنه من أولاد الصحابة، وأدرك العشرة، وفقيه الحجاز ومفتيهم، وأول الفقهاء السبعة الذين يعتد مالك باجماعهم كاجماع كافة الناس[٢]. أما مراسيل الشعبى، فقال أحمد العجلى : مرسل الشعبى صحيح، لايكاد يرسل إلا صحيحا[٣]. ومراسيل إبراهيم النخعى صحيحة إلا حديث «تاجر البحرين» و «حديث القهقهة»[٤].

وينبغى أن يكون مرسل شريح القاضى أيضاً صحيحاً كمراسيل ابن المسيب والنخعى، فإنه مخضرم ثقة من أجلة التابعين الكبار. أما مرسلات الحسن، فقال ابن المدينى : مرسلات الحسن التى رواها عنه الثقات صحاح، ما أقل ما يسقط منها[٥]، وكذا مراسيل ابن سيرين صحاح أيضاً .

وممن أرسل الحديث من ثقات التابعين، سعيد بن جبير، مجاهد، طاووس، عمرو بن دينار، ومرسلات مالك بن أنس أصحهم. واختلف فى مراسيل الزهرى لكن الأكثر على تضعيفها، قال يحي بن معين : مراسيل الزهرى ليست بشىء، وهوقول الشافعى أيضاً[٦].

---

(١) الحاكم : معرفة علوم الحديث. ص٢٥ .
(٢) الحاكم : معرفة علوم الحديث. ص٢٦ .
(٣) الذهبى : تذكرة الحفاظ. ج١ ص٧٩ .
(٤) الزيلعى : نصب الراية. ج١ ص٥٢ .
(٥) السيوطى : تدريب الراوى ج١ ص١٢٤ .
(٦) العلائى : جامع التحصيل فى أحكام المراسيل. ص٤١ .

خاتمـــة :

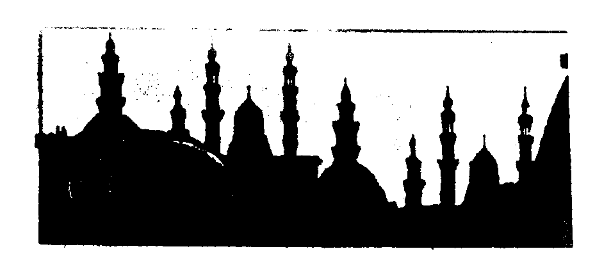
لقد تنازع الناس فى قبول المراسيل وردها، فغالى البعض بالقبول بها مطلقاً وهذا غير مقبـول، لأن هذا يؤدى إلى إزالـة فائـدة الإسنـاد، وغالى الآخرون برد المرسل مطلقاً، فرد بذلك شطراً من السنة ومصدراً من مصادر الأحكام الشرعية .

وأصح الأقوال أن منها المقبول، ومنها المردود، ومنها الموقوف، فمن علم من حاله أنه لا يرسل إلا عن ثقة : قُبل مرسله، ومن عرف أنه يرسل عن الثقة وغير الثقة، فإن أرسله عمن لا يعرف فهو موقوف، وما كان من المراسيل مخالفاً لما رواه الثقات كان مردودا .

إن معيـار نقـد الحـديث المـرسـل الذى تبناه كبار الفقهاء والأصوليون، كأبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، والغزالى، والآمدى، وغيرهم - رحمهم الله - يؤكد على :

١ - إعتضاد المرسل بمسند آخر .
٢ - إعتضاد المرسل بمرسل آخر بمعناه عن آخر، فيدل على تعدد المخرج .
٣ - موافقة قول بعض الصحابة للمرسل .
٤ - أن يكون قول أكثر أهل العلم به .

فإذا إعتضد المرسل المروى عمن يروى عن الثقات بأحد هذه الأربعة دل على حجة صحته وإمكانية إعتماده فى إستنباط الأحكام الشرعية .



المراجـــع

(١) ابن منظور: لسان العرب، الجزء الحادى عشر، ١٣٧٥هـ، الطبعة الأولى، دار صادر - بيروت .

(٢) ابن همام الـدين، كمال الـدين محمد بن عبد الواحد. التحرير. الطبعة الأولى. ١٣٥١هـ. مطبعة بابى الحلبي - القاهرة .

(٣) الشيخ أحمد رضا: معجم متن اللغة. الجزء الأول، الطبعة الأولى. ١٣٧٧هـ. دار مكتبة الحياة - بيروت .

(٤) أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة. الجزء الأول. الطبعة الأولى. ١٣٦٦هـ. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة .

(٥) الآمـدى، سيف الـدين أبى الحسن على بن أبى على بن محمـد: الإحكـام فى أصول الأحكام. الجزء الثانى. ١٣٨٧هـ. مؤسسة الحلبي وشركاؤه - القاهرة .

(٦) البغـدادى، الخطيب: الكفـايـة فى علم الـروايـة. الطبعة الأولى. ١٣٤٧هـ - حيدر آباد الدكن .

(٧) الـزبيـدى : تاج العـروس. الجزء السابع. الطبعة الأولى. ١٣٠٦هـ. دار ليبيا للنشر والتوزيع - ليبيا .

(٨) الـزيلعى : نصب الـرايـة فى تخريج أحاديث الهداية. الجزء الأول. ١٣٥٧هـ. دار المأمون .

(٩) السخاوى، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: فتح المغيث شرح ألفية الحديث للعراقى. الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ، المكتبة السلفية - المدينة المنورة .

(١٠) العــلائى، الحــافـظ صلاح الـدين أبى سعيـد خليـل بن كيكلدى، جامـع التحصيل فى أحكام المراسيل. الطبعة الأولى. ١٣٩٨هـ. الدار العربية للطباعة - بغداد .

(١١) السيوطى، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر: تدريب الراوى شرح تقريب النواوى. الطبعة الثانية. ١٣٨٥هـ. دار الكتب الحديثة - القاهرة .

(١٢) النووى. الحافظ محى الدين أبوزكريا يحي بن شرف. التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير. الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ. دار الكتب الحديثة - القاهرة .

(١٣)المـؤلف نفسـه : المجموع شرح المهذب، الجزء الأول. الطبعة الأولى. بدون تأريخ. مطبعة العاصمة - القاهرة .

(١٤) النيسابوري، الإمام الحاكم أبي عبد الله بن محمد بن عبد الله ، معرفة علوم الحديث. المكتبة العلمية - المدينة المنورة .
(١٥) الحنبلي ، رضى الدين ، قفو الأثر. ١٣٢٦هـ. مطبعة السعادة .
(١٦) القرافي، شرح التنقيح. الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ. المطبعة الخيرية القاهرة .
(١٧) ابن أبي حاتم، المراسيل، بدون تاريخ .
(١٨) القرطبي، ابن عبد البر النمري، التمهيد، الجزء الأول. ١٣٨٧هـ. الرباط .
(١٩) الدكتور صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه. الطبعة العاشرة. ١٩٧٨ . دار العلم للملايين - بيروت .
(٢٠) القاسمي ، محمد جمال الدين : قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث. الطبعة الثانية. ١٣٨٠هـ. دار إحياء الكتب العربية - دمشق .
(٢١) التهانوي، ظفر أحمد العثماني : قواعد في علوم الحديث. الطبعة الثالثة. ١٣٩٢هـ. دار القلم - بيروت .

ترجمان الشافعي

لما مرض الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - مرضه الذى مات فيه ، قال لمن كان عنده :

«إذا أنا مت ، فقولوا لفلان يغسلنى» .

فلما توفى وابلغوا كلمة الشافعي إلى ذلك الرجل قال :

ائتونى بتذكرته . فجىء بها فوجد فيها على الشافعي سبعين الف درهم لفلان وفلان ، فكتبها الرجل على نفسه وقال :

«هذا هو الغسل الذى أراده» . . .

العَقِيدَة

أول واجب على المكلف عبادة الله تعالى
وضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل

(١)

للشيخ عبد الله الغنيمان
رئيس قسم الدراسات العليا

الحمد لله الغنى الحميد، المبدىء المعيد، غنى بذاته عن كل من سواه، وكل من سواه فقير إليه، وصائر إليه، وهو تحت قهره وتصرفه، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين . . .

وبعد . . فإن الله تعالى خلق الإنسان وفضله على كثير من خلقه، بالعقل والفكر والنطق والبيان، ووهبه القدرة على الكسب والقوة على العمل، ليكون مؤهلاً للأمر والنهى، وجعل له دارين، داراً للابتلاء والاختبار والتمييز بين الصالح والفاسد، ومحلا لكسب الاعمال، التى بها يستوجب الثواب أو العقاب، وجعل لها مدة محددة، وأجلا قصيراً، ثم ينقل إلى الدار الأخرى التى لا تنتهى ولا تنقطع، قال تعالى: ﴿**تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور**﴾ .

فالله تعالى أوجد الإنسان بعد أن كان معدوماً، واعطاه ما يحتاج إليه فى حياته وما يكون سبباً لسعادته من العقل والفكر الذى يميز به ما ينفعه مما يضره وما يلزم لذلك من السمع والبصر، والقوى التى يتمكن بها من العمل. قال تعالى: ﴿**هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً إنا هديناه السبيل إما شكوراً وإما كفوراً**﴾. (الإنسان: ١ ـ ٥) فقوله تعالى: ﴿**ليبلوكم أيكم أحسن عملا**﴾. وقوله: ﴿**نبتليه**﴾ هذا ما خلق الإنسان من أجله، وقد بين ذلك تعالى بياناً واضحاً وضوح النهار .

قال تعالى: ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله، واجتنبوا الطاغوت، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة**﴾. (النحل: ٣٦). وقال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون**﴾. (الأنبياء: ٢٥) .

وفى القرآن آيات كثيرة تنص على وجوب عبادة الله تعالى، وتبين لزوم ذلك للإنسان لزوم أمر أوجبه الله تعالى عليه، وأكثر تعالى من التهديد والوعيد لمن تركه، وأعرض عنه، ومن الترغيب والوعد بالجزاء الجميل لمن امتثل ذلك واتبع الرسل، ومع وضوح هذا الأمر وكثرة ما احيط به من ترغيب فى فعله فى الدنيا والآخرة، ومن ترهيب لمن أعرض عنه وجانبه مع ذلك كله فقد ضل عنه أكثر الخلق إما جهلاً، وإما عمداً وعناداً، وذلك أن الذى يحمل العبد على امتثال أمر الله واتباع رسله هو قوة الإيمان بالله، وبما أعده لمن آمن به وعمل صالحاً وما اعده لمن عصاه وبارزه بالمعادات والمحاربة .

ومع الإيمان فلابد من العلم بأمره وشرعه، ومع فَقْدْ هذين الأمرين يستحكم الضلال، والبعد عن كل خير، لهذا صار أهم ما على العبد معرفته ما أوجبه الله عليه، والعمل به، وأول ما أوجب الله تعالى على العبد وأعظمه هو الإيمان به تعالى وبرسوله ـ ثم الاهتداء إلى ذلك وتفاصيله بالوحى الذى جاء به النبى ﷺ قال تعالى : ﴿**قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى**﴾. (سبأ : ٥٠) فالاهتداء يكون بالوحى ولهذا أمر الله تعالى أهل العقل بتدبر القرآن واستماعه والانصات لتلاوته، وحض فيه على التدبر والتفكر والتذكر والعقل والفهم والتأثر منه بالوجل، والبكاء والخشية لما فيه من العلم والهدى، والمقصود من ارسال الرسل إلى العباد، وانزال الكتب عليهم إصلاح أحوالهم فى الدنيا والآخرة، وأن يعرفوا ما خلقوا من أجله ويصلوا إليه وهو عبادة ربهم وحده لا شريك له .

والعبادة أصلها عبادة القلب، المستلزمة لعبادة الجوارح، فإن القلب هو الملك، والاعضاء جنوده، وإذا صلح الملك صلحت الجنود، كما قال ﷺ : «ألا ان فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب» (١) .

والقلب بعبادة الله تعالى والاستعانة به : معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي والبرهان المتين، فلا يزال فى زيادة من العلم والإيمان، أوسلامة من الجهل والضلال، سالماً من جهل أهل التصوف وعباد الخلق، وضلال المتكلمين أهل الشك والحيرة والخذلان. والعبد لما كان مخلوقاً مربوياً، عاد فى علمه وعمله إلى خالقه وباريه فبه

(١) رواه البخارى ومسلم أنظر الفتح ج١ ص١٢٦ وج٤ ص٢٩٠ ومسلم ج٣ ص١٢٢٠ .

يهتدى ولـه يعمـل، وإليـه يصـير، فلا غنى له عنـه، وانصـرافـه إلى غيره هو عين هلاكـه وفساده، وبالله له عن كل شيء عوض، وليس لكل شيء عن الله عوض وليس للعبد صلاح ولا فلاح إلا بمعـرفـة ربـه وعبـادتـه، فإذا حصل له ذلك فهو الغاية المرادة له والتى خلق من أجلهـا، فما سوى ذلـك إمـا فضـل نافـع أو فضول غير نافعة أو فضول ضارة، ولهذا صارت دعوة الرسل لأممهم إلى الإيمان بالله وعبادته، فكل رسول يبدأ دعوته بذلك كما يعلم من تتبع دعـوات الـرسـل فى القـرآن، بخـلاف الطـرق الكـلاميـة الفلسفية فإنهم يبدأون بنفوسهم فيجعلونهـا هى الأصـل الـذى يفرعون عليه، فيتكلمون فى ادراكاتهم للعلم، أنه مرة يكون بالحس ومرة بالعقل، أو بهما .

ويجعلون العلوم الحسيـة والبـديهيـة هى الأصـل الذى لا يحصل علم إلا بها على حد زعمهم، مثـل الأمـور الطبيعيـة والحسـابيـة، والاخـلاق، وبنـوا سائـر العلوم على هذه الأمـورالثـلاثـة، ولهـذا كانوا يمثلون بها فى أصول العلم والكلام كقولهم : إن الواحد نصف الاثنـين، والعشـرة أكثـر من الخمسـة، والجسم لا يكـون فى مكانين، والضدان لا يجتمعان كالسـواد والبيـاض، هذا فى الحسـابيـة والطبيعيـة، وأمـا الأخلاق فمثل استحسان العلم، والعدل والعفة والشجاعة .

ثم إذا تجاوزوا هذه الأمور إلى العالم العلوى فمقصودهم اثبات خالق العالم والدلائل التى بها تثبت النبوة على طريقهم فإذا ثبتت النبـوة تلقـوا عنهـا السمعيـات، وهى الكتـاب والسنـة والاجمـاع، وهـذه الطـريقـة فيها فساد كثير فى وسائلها ومقاصدها كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فى كثير من كتبه، أما الوسائل مع صعوبتها ففيها خطورة ومزلات عظيمة وأمـا مقـاصـدهـا فغـايتها اثبات ربوبية الله تعالى للكون فهى كما قيل لحم جمل غث، على رأس جبـل وعـر، لا سهـل فيرتقى، ولا سمـين فينتقـل، مثال ذلك قولهم كما فى نهاية المرام والارشـاد وغـيرهما : «إن الله لا يعـرف إلا باثبـات حدوث العـالم ثم الاستدلال بذلك على محدثه، والدليل على أن العالم حادث، ما فيه من الأعراض، والأعراض هى صفات الاجسـام» . (١)، وجمهـور المتكلمين يستدلون بهذا الدليل بعينه على نفى صفات الله تعالى حيث قالـوا : إن حركـات الاجسـام واعـراضها هو الذى دل على حدوثها، وسموا الصفات أعـراضـاً مثـل العلم والرحمة والغضب والرضا وغير ذلك وقالوا : إذا اتصف بذلك صار محلا للحوادث، وما كان محلا للحوادث فهو حادث .

---

(١) انظر غاية المرام ص٧ وانظر الارشاد ص١٨ .

[والقدرية من المعتزلة يعتقدون أن اثبات الرب تعالى لا يمكن إلا بعد اعتقاد أن العبد هو المحدث لافعاله، وإلا انتفض الدليل]. وكثير منهم جعل سلوك هذا متعيناً لأنه الموصل إلى معرفة الله، ومن لم يسلك ذلك لم يعرف ربه. وبطلان هذا معلوم بالكتاب والسنة واجماع أئمة المسلمين. قال الله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾. (البينة: ٥). وقال تعالى: ﴿**فاعبد الله مخلصاً له الدين**﴾. (الزمر: ٢). وقال: ﴿**يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون**﴾. (البقرة: ٢١). وهذا كثير فى القرآن يأمر الله تعالى أن يعبد ويخلص له الدين، وأن يؤمن به ابتداء، وكذلك النبى ﷺ لم يدع الناس إلى النظر ابتداء إلى الاستدلال على وجود الله تعالى، ولا إلى مجرد اثبات وجوده، بل أول ما دعاهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وكان يأمر رسله والدعاة الذين يبعثهم لنشر دعوته بأن يبدؤا بدعوة الناس إلى أن يوحدوا الله أولاً بأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله كما فى حديث معاذ المتفق على صحته حينما بعثه إلى أهل اليمن قال: «إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة، فإن هم أجابوك لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد فى فقرائهم». [1]وقوله فى حديث أبى هريرة الذى فى الصحيحين وحديث ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وانى رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». [2]وقد أجمع الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم على أن الكافر يدعى إلى الشهادتين مهما كانت عقيدته وعمله فإذا أجاب ونطق بالشهادتين حكم بإسلامه ظاهراً، فإن كان صادقاً فى نطقه فهو مسلم ظاهراً وباطناً، وإن كان كاذباً فى الباطن فهو منافق.

وليس فى كتاب الله أن النظر أول الواجبات، بل ولا فيه ايجاب النظر على كل أحد، وإنما فيه الأمر بالنظر لبعض الناس الذين لا يحصل لهم الإيمان إلا به كقوله تعالى: ﴿**أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين، أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون**﴾. (الأعراف: ١٨٤ـ ١٨٥). فقول الجوينى مثلا فى الارشاد (ص٣): «أول ما

---

(١) البخارى انظر الفتح ج٣ ص٢٦١، ٣٢٢، ٣٥٧ ومواضع أخر وانظر مسلم ج١ ص٥٠ .

(٢) البخارى ومسلم انظر الفتح ج٣ ص٢٦٢ ج١٢ ص٢٧٥ وانظر مسلم ج١ ص٥٢ ـ٥٣ .

ما يجب على العاقل البالغ، باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعاً، القصد إلى النظر الصحيح المفضى إلى العلم بحدوث العالم» ومثل ذلك قال الرازى (انظر المحصل ص٤٧) وكذلك الايجى فى المواقف (ص٣٢) وغيرهم، وهذا كلام مخالف لكتاب الله تعالى ولما علم من دعوة رسول الله ﷺ، ولما أجمع عليه أئمة المسلمين، وإذا سلم لهؤلاء، «أن أول الواجبات هو النظر، أو المعرفة أوحتى الشهادتين كما هو الصحيح **قال ابن المنذر**: «اجمع كل من احفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وإن كل ما جاء به محمد حق، وأبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، وهو بالغ صحيح العقل أنه مسلم، فإن رجع بعد ذلك فاظهر الكفر كان مرتداً، يجب عليه ما يجب على المرتد» (الاوسط: ص٧٣٥) فكيف يجب على البالغ أن يفعله عقب البلوغ وقد فعله قبل ذلك، وخصوصاً إذا كان النظر مستلزماً للشك المنافى لما حصل له من المعرفة والإيمان، فيكون التقدير أن يقال: اكفر ثم آمن، واجهل ثم اعرف وهذا كما أنه محرم شرعاً، فهو ممتنع فى العقل، فإن تكليف العالم الجهل من باب تكليف مالا يقدر عليه، فإن الجاهل يمكن أن يصير عالماً أما العالم فلا يقدر أن يصير جاهلاً.

كما أن من رأى الشىء وسمعه لا يمكن أن يقال لا يعرفه، فمن كان الله قد انعم عليه بالإيمان وشرح صدره للإسلام قبل بلوغه كيف يؤمر بما يناقض ايمانه ومعرفته.

والسلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، وأن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك بعد البلوغ.

والشهادة تتضمن الاقرار بالله تعالى وبرسوله، لكن مجرد معرفة الله تعالى لايصير بها الإنسان مؤمناً وإن كان يعلم أنه رب كل شىء فلابد للإيمان من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذا هو الذى دل عليه كتاب الله تعالى. قال الله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾**. (الذاريات: ٥٦) فالعبادة هى الغاية المقصودة من الخلق التى أرادها الله منهم بأمره وشرعه، وبها يحصل محبوبه تعالى، وتحصل سعادتهم ونجاتهم، وهذا لا يخالف كون كثير منهم لم يعبده، لأن الله تعالى لم يجعلهم عابدين له، لما فى ذلك من تفويت محبوبات له أخرى، هى أحب إليه من عبادة أولئك وحصول مفاسد أخرى هى أبغض من معصيتهم كما قال تعالى: **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذالك خلقهم﴾**. (هود: ١١٩) فهو تعالى أراد بخلقهم ماهم صائرون إليه من الرحمة والاختلاف ارادة كونية قدرية، ففى قوله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾**. ذكر الغاية

التى أمروا بها، وفى قوله تعالى : ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾ . ذكر الغاية التى يصيرون إليها، وكلاهما مرادة له تعالى تلك مرادة بأمره وشرعه، والموجود منها مراد بخلقه وأمره، والأخرى مرادة بخلقه، والمشروع منها مراد بخلقه وأمره، وهذا معنى ما يروى عن على بن أبى طالب فى قوله تعالى : ﴿**إلا ليعبدون**﴾ . قال معناه : إلا لآمرهم أن يعبدون، وادعوهم إلى عبادتى، وقاله مجاهد أيضا .

وقال ابن عباس : ﴿**إلا ليعبدون**﴾ . ليقروا لى بالعبودية، طوعاً وكرهاً .

وقال السدى : **خلقهم للعبادة، فمن العبادة عبادة تنفع، ومنها عبادة لا تنفع كما قال تعالى** : ﴿**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله**﴾ . (لقمان : ٢٥) فهذا منهم عبادة ولكنها لا تنفعهم، وقال الكلبى : إلا ليوحدونى، فأما المؤمن فيوحده فى الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده فى الشدة، والبلاء دون النعمة والرخاء، كما قال تعالى : ﴿**فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ . ﴿العنكبوت : ٦٥)(١) .

وهذه الأقوال تبين أن جميع الانس والجن مقرون بالخالق معترفون به، خاضعون لعبوديته طوعاً وكرهاً، وهذا يقتضى أن هذه المعرفة من لوازم نشأتهم لا ينفك عنها أحد منهم، وبه يعلم أن أصل الاقرار بالله تعالى، والاعتراف به رباً مستقر فى قلوب جميع الانس والجن، وأنه من لوازم خلقهم، ضرورى فيهم، وان قدر أن الاقرار بالرب تعالى أنه يحصل بسبب يعرض للإنسان فى حياته فهو فى الحقيقة يظهر بذلك ويبرز، وهذا والله اعلم هو الاقرار والشهادة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك أبآؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ . (الأعراف : ١٧٢ -١٧٣) . وشهادة المرأ على نفسه فى القرآن يراد بها اقراره، فمن أقر بحق عليه فقد شهد به على نفسه كما قال تعالى : ﴿**ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر**﴾ . (التوبة : ١٧) . لأنهم كانوا مقرين بما هو كفر، فصار ذلك شهادة منهم على أنفسهم وقال تعالى : ﴿**يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين**﴾ . (الأنعام : ١٣٠) . فشهادتهم على أنفسهم هو اقرارهم على أنفسهم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٧ ص٤٠١ -٤٠٢ . ط . الشعب .

وقـولهم : ﴿**بلى شهـدنا**﴾ أى أنهم أقروا بأن الله ربهم ، ومن أخبر بأمر عن نفسه فقد شهـد به على نفسـه . وقـوله : ﴿**واشهدهم**﴾ يدل على أنه هو الذى جعلهم شاهدين على أنفسهم بأنـه ربهم ، وهـذا الاشهـاد مقـرون بأخـذهم من ظهور آبائهم ، وهو أخذ المنى من أصـلاب الآبـاء ونـزولـه فى أرحـام الأمهـات فالمعنى : أذكر حين أخذوا من أصلاب الآباء فخلقوا حين ولدوا على الفطرة مقرين بالخالق شاهدين على أنفسهم بأن الله ربهم ، فالأخذ يتضمن خلقهم ، والاشهاد يتضمن هداه إلى الاقرار بأنه ربهم .

ولهـذا صار الاقـرار بوجـود الله تعـالى مما لا يحتـاج إلى برهـان ، فإن الفطـر الإنسانية السليمة تشهد بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها على خالق حكيم ، قادر عليم ﴿**أفى الله شك فاطر السماوات والأرض**﴾ . ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**﴾ . (**الزخرف : ٨٧**) .

ومن غفـل عن هذه الفطـرة فى حال السـراء فإنه يلوذ بها فى حال الضراء ﴿**فإذا مسكم الضـر فى البحـر ضل من تدعـون إلا إياه**﴾ . (الأسراء : ٦٧) . ولهذا لم يأت الأمر التكليفى بوجـوب معـرفـة وجـود الله تعالى خلافاً لما يقوله أهل الكلام ومن سلك طريقهم ، وإنما جاء الأمر بوجوب عبادته وتوحيده ونفى الشرك كما قال ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» . وقال تعالى : ﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك**﴾ . (محمد : ١٩) . وهـذا هو محل النـزاع بين الـرسـل وأممهم كما قال تعـالى : ﴿**ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن أعبـدوا الله واجتنبـوا الطـاغـوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليـه الضـلالة**﴾ . (النحل : ٣٦) .

وهذا هو التوحيد الواجب على كل الخلق ، وهومبنى على أن الله واحد فى الهيته لا ند له ، وواحد فى ذاته وصفاته وأسمائه لانظير له ، وواحد فى ملكه وأفعاله لاشريك معه ، فلابد أن يعبد الله وحده لا يشرك معه غيره ، والشرك فى العبادة هو أن يجعل معه إله آخر يتوجه إليه بنـوع من أنـواع العبـادة ، وهـذه أقسـام التوحيد الثلاثة ، توحيد العبادة ، وتوحيد الربوبية ، وتـوحيـد الأسـماء والصفات وهذا هو الدين الذى جاءت به الرسل من عند الله موجبين على الخلق أخذه والإيمان به وهو اخلاص التأله والتوجه إلى الله وحده ، وعبادته بأسمائه وصفاته ، وفعل أمره ، واجتناب نهيه .

ثمـرة التوحيـــــد

والتـوحيـد الخـالص هو الـذى يرفـع نفـوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين كما يسمون ، وشيوخ الطرق الباطلة والدجل ، والضلال

والتعلقات بالاحياء والأموات، ويخلصها كذلك من إله المادة والتعلق بالطواغيت الماديين وكل مخلوق، فيطلق عزائمهم من قيود العبودية لغير الله والتعلقات بالاحياء والأموات، فيكون المؤمن مع الناس حراً عزيزاً كريماً، ومع الله عبداً خاضعاً ذليلاً خائفاً، فهذا الذى يجب على العبد أن يعتنى به أشد الاعتناء، ويحذر أشد الحذر أن ينحرف عنه، لأن الانحراف عنه هو الهلاك المحتم والخسران الأكبر والخلود فى جهنم، مع أن أقسام التوحيد الثلاثة متلازمة ولكن توحيد الربوبية أمر فطرى خلقى : «والرب هو المربى الخالق الرازق الناصر الهادى»(١) .

«فالرب هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه الذى تتم حياته به، ثم يهديه إلى جميع مصالحه»(٢). فتوحيد الربوبية هو العلم بأن الله تعالى هو مالك الأشياء كلها، ومصرفها على ما يريد فالأمر كله راجع إليه تعالى، من خلق السماوات وما فيهن، وتصريف شأنها، وخلق الأرض ومن عليها، وما فيها من معادن، وأسرار، وخلق الرياح وتصريفها، والسحب وتسخيرها تحمل الماء إلى ماشاء الله تعالى من الاماكن، فينزله، وبه تحي الأرض الميتة وايجاد الأرزاق للحيوانات والدواب والأناسى، والاحياء والاماتة، وتنظيم أمور الكون كله من بداية وجوده إلى نهايته، وإلى ماشاء الله تعالى، فالجميع ملك الله تعالى وتحت قهره وتصرفه، حسب ارادته جل وعلا، وهذا يقر به كل المكلفين من مؤمن وكافر إلا من عاند وكابر منهم، والمعاند لا تجدى فيه الأدلة، ولا تزيده المجادلة إلا تماديا فى ضلاله، وإنما خلق له الحديد الذى فيه البأس الشديد. قال الله : ﴿**فانهم يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون**﴾. (الأنعام : ٣٣). فبين الله تعالى أن الكفار يعلمون ان ما جاء به الرسول ﷺ حق، وقال تعالى : ﴿**انك لا تسمع الموتى، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم، إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون**﴾. (النمل : ٨٠-٨١). وأشهر من عرف فى الماضى فى تجاهله وإنكاره لله تعالى هو فرعون، وكان مستقينا فى قلبه وجود الله تعالى، وأنه مالك كل شىء كما قال تعالى عن موسى أنه قال له : ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر**﴾. ﴿الأسراء : ١٠٢). وقال تعالى مخبرا عنه وعن قومه : ﴿**وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا**﴾. (النمل : ١٤). ولهذا قال منكراً على موسى : ﴿**وما رب العالمين**﴾. (الشعراء : ٢٣). فقال له موسى : ﴿**رب السماوات والأرض، وما بينهما ان كنتم موقنين، قال لمن حوله : ألا تستمعون، قال :**

(١) مجموع الفتاوى ج١٤ ص١٣ .
(٢) المصدر نفسه .

ربكم ورب آبائكم الأولين، قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون، قال: رب **المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾**. (الشعراء: ٢٤ -٢٨) وما زعمه بعضهم أن قول فرعون: ﴿**وما رب العالمين**﴾. استفهام استعلام، وسؤال عن الماهية، وأن موسى عجز عن الجواب، لأن الله تعالى لا ماهية له. هوزعم باطل بل الاستفهام للانكار كما دلت عليه الآيات الأخر: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا**﴾. وقوله: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر**﴾. وكل من انكر وجود الله تعالى فلا يخلو من العناد والكبر.

أما غير المعاند فإنه يعترف بأن الله لا منازع له فى الملك والايجاد والقهر والتدبير ولا مشارك له فيه ولا معين، كما قال تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾. (سبأ: ٢٢ -٢٣).

والله عز وجل فطر جميع خلقه على معرفة هذا النوع من التوحيد، فلذلك يلجئون إليه عند النوائب، ويفزعون إلى الله كلما الجأتهم الازمات، وألمت بهم الكربات، وأصابتهم النكبات، فيخلصون له العبادة عند ذلك، كما لجأ إليه كبراء الملاحدة وقت الشدة مثل فرعون وذويه، فقد أخبر الله تعالى أنهم أنكروا وجود الله تعالى، وقت المجادلة لموسى عليه السلام عند العافية، فلما أدركهم الغرق، ذهب عنادهم، واعترفوا بالحق الذى كانوا ينكرونه عنادا وتكبرا، قال الله تعالى: ﴿**وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا اسرائيل**﴾. (يونس: ٩٠).

وقال تعالى: ﴿**قل أرايتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين، بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون**﴾. (الأنعام: ٤٠ -٤١). وهذا صريح فى أنهم يعلمون أن الله هو المالك لكل شىء المتصرف فيه بما شاء، ولهذا صار الاقرار بهذا النوع من التوحيد لا ينفع ولا ينجى من العذاب حتى ينضاف إليه توحيد القصد والنيه والارادة والتوجه، والمقر بتوحيد التصرف والملك لا يصير به مسلماً كما دلت على ذلك آيات كثيرة من كتاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿**ولئن سألت من خلقهم ليقولن الله**﴾. (الزخرف: ٨٧). وقال تعالى: ﴿**قل من يرزقكم من السماوات والأرض، أمن يملك السمع والابصار، ومن يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ومن يدير الأمر فسيقولن الله فقل أفلا تتقون**﴾. (يونس: ٣١).

وقـال تعـالى : ﴿**ولئن سألتهم من أنـزل من السـماء ماء فأحيـا به الأرض بعـد موتها ليقولن الله**﴾ . (العنكبوت : ٦٣) . وآيات القرآن فى هذا كثيرة ، وهى تدل على أن الكفار يؤمنون بهذا القسم من التوحيد ولم يجعلهم ذلك مسلمين ، بل فوق هذا كانوا يخلصون الدعاء لله ـ الذى هو توحيد العبادة ـ فى حالة الاضطرار ، ثم يعودون إلى شركهم فى الرخاء ، كما قال الله تعالى عنهم : ﴿**فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشـركـون**﴾ . (العنكبـوت : ٦٥) . ومعنى قوله تعالى : ﴿**دعوا الله مخلصين له الدين**﴾ أنهم توجهـوا إلى الله وحـده بالعبـاده ، من الـدعـاء ، والـذل ، والخضـوع ، والـرغبـة والخـوف ، والألتجـاء ، لعلمهم أن شركـاءهم لا يملكـون لهم نفعـا ، ولا يستطيعـون دفعا عنهم ، وإنما الأمر كله بيد الله تعالى وحده والذى صيرهم مشركين وأوجب خلودهم فى النار هم زعمهم أن أصنامهم ومن يتوجهون إليهم يشفعون لهم عند الله كما قال الله تعالى : ﴿**ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبؤن الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ . ﴿يونس : ٢٨) . والمعنى أن الله لا يعلم أحـدا يشفـع عنـده لهؤلاء لا من أهـل السماء ولا من أهل الأرض ، لأن الشفاعة لله وحده ولا أحد يستطيع أن يشفع عنده حتى يأمره بذلك ويأذن له فيمن يشفع فيه ، وإذا كان الله تعالى لا يعلم شافعا لهم لا فى السماوات ولا فى الأرض فالشافع لا وجود له .

روى الحاكم والدارقطنى وابن مردوية : أن النبى ﷺ لما فتح مكة فر عكرمة بن أبى جهـل فركب البحـر ، فأصـابهم عاصف ، فقـال أصحـاب السفينة : اخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم هاهنـا شيئـاً ، فقـال عكـرمـة : والله لئن لم ينجنى فى البحـر إلا الاخـلاص ، لا ينجينى فى البر غيره اللهم إن لك على عهداً ان عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدا حتى أضع يدى فى يده فلا أجدنه إلا عفوا كريماً . قال : فنج فأسلم(١) .

قال قتادة : «الخلق كلهم يقرون لله أنه ربهم ، ثم يشركون بعد ذلك»(٢) .

المشركون اليوم أعظم شركا ممن بعث فيهم رسول الله ﷺ

وبهذا يتبين سفاهة عقول مشركى هذا الزمان ، وعظم شركهم ، وأنه لم يصل إليه شرك السابقين . فمشركوا وقتنا هذا يخلصون الدعاء وتزداد انابتهم ، ويتضاعف ذلهم وخضوعهم لمن يعبـدونـه من دون الله تعـالى ممن يدعـون لهم بالـولايـة ، عنـدمـا يقعـون فى الشدائد ،

---

(١) الاصابة ج٥ ص٥٣٩ وانظر البداية والنهاية ج٤ ص٢٩٨ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج١٣ ص٧٨ .

والكـربـات، ويشـركونهم مع الله تعالى حتى فى الربوبية، ويجعلون لهم التصرف، والهداية وجلب النفع، ودفع الضر بخلاف مشركى العرب زمن الرسول ﷺ فما كان أحد منهم يدعى ذلك لآلهته وإنما كانوا يقولون: إنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه تعالى، كما قال تعالى عنهم: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾. (الزمر: ٣) ومـع ذلـك لم يكن شركهم مستمـرا فى كل وقت كهـؤلاء المشـركـين الـذين يزعمـون أنهم مسلمون، بل فى وقت الشدائد يخلصون العبادة لله تعالى كما سبق بعض الأدلة على ذلك.

ومن سفاهة هؤلاء أنهم جعلوا الشرك الذى هو أعظم الذنوب أفضل أعمالهم، ورموا من أنكر عليهم ذلك بالجفاء، وتنقص الأنبياء والأولياء، وبأنهم خوارج يكفرون المسلمين. وذلـك لأنهم جهلوا معنى العبـادة، ومعنى الإلـه، فظنوا أن معنى الإله الرب الخالق المحيي المميت، القادر على كل شىء، وظنوا أن الدعاء والاستغاثة ليست عبادة، وسموا ذلك توسلا وتعلقـا، لأن القـرآن صرح أن عبـادة غير الله كفـر، وأستبعـدوا أن تكون هذه الأعمال التى أدركـوا عليهـا آبـاءهم وقومهم شرك من أعمال المشركين، فسموا العبادة بغير اسمها لجهلهم دين الإسلام ولغته.

وجهلوا الشرك، فظنوا أنه السجود للصنم، والصلاة له، واعتقاد أنه تدبير الأمور مع الله والتصـرف فى الكـون، واعتقـدوا أن المشركين السابقين يعتقدون فى آلهتهم هذا المعنى، فحملوا آيات القرآن فى الشرك على هذا المعنى.

قال صاحب فرقـان القـرآن فى (ص١١١) فى تعـريفه العبادة: «الإتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا باعتقاد ربوبية المخضوع له أو قالباً مع ذلك الاعتقاد، فإن انتفا ذلك الاعتقاد لم يكن ما أتى به من الخضوع الظاهرى من العبادة شرعا فى كثير ولا قليل، مهما كان المأتى به ولو سجودا».

وقال فى (ص٨٧): «توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية متلا زمان عرفاً وشرعاً، فالقول بأحدهما قول بالآخر، والاشراك فى أحدهما اشراك فى الآخر، فمن اعتقد أنه لا رب ولا خالق إلا الله لم ير مستحقا للعبادة إلا هو ومن اعتقد أنه لا يستحق العبادة غيره فذلك بناء منه على أنه لا رب إلا هو، ومن أشرك مع الله غيره فى العبادة كان لا محالة قائلا بربوبية هذا الغير هذا مالا يعرف الناس سواه»...

ونقل محمود حسن عن هذا الرجل أنه قال فى مؤلف له آخر: «ان من ود الرب تعالى أنـزال الغـوث والـرحمـة على من يذكـر أحبـاءه وينـاديهم ويستغيث بهم ولـو كانوا غائبين أو متوفين». (ص٦٥): كشف الشبهات.

وقال محمود حسن ربيع فى كتابه كشف الشبهات أيضا : «ان استعانتك بالأولياء الذين تعتقد أن لهم حياة وتصرفا بأقدار الله ، ليس شركاً ، وان الشرك لو اعتقدت فيهم ربوبية» (ص٥٧) . وقال فى (ص٥٨) : «فمن أتخذ من الأنبياء والأولياء وسيلة إلى الله لجلب نفع أودفع ضر من الله فهو سائل الله» . . . «ومن قال يارسول الله أريد أن ترد على عينى ، أو ترفع عنا الجدب ، أو يزول عنا المرض ، وهو من المؤمنين كان ذلك دليلاً على أنه يطلب من الله» .

فهذه التعريفات للعبادة والشرك أخذت من الواقع الذى عاش فيه هؤلاء وأحزابهم لا من الشرع الذى جاء به الرسول ﷺ فأراد هؤلاء أن يكون الواقع الذى هم عليه متفقاً مع دين الإسلام ، فجمعوا بين المتضادات ، وقلبوا الحقائق . فجعلوا الشرك توحيداً ، والتوحيد ضلالاً ، وسلوكاً لطريق الخوارج الذين يكفرون المسلمين ، واستبعدوا أن تكون هذه الأوضاع المنتشرة فى سائر أنحاء البلاد الإسلامية هى التى كان يفعلها المشركون السابقون مع معبوداتهم ، لذلك حاولوا تبرير أفعالهم وجعلها على نهج الإسلام بأحاديث ملفقة أو موضوعة مكذوبة أوحكايات لا قيمة لها فى الشرع الإسلامى ، وأقل ما يقال فى تلك الأحاديث أنها ضعيفة لا يجوز أن يعتمد عليها فى فرع من فروع الشرع ، فكيف فى أصل الأصول - العبادة - التى خلق الجن والإنس من أجلها ، وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب لاقامتها واخلاصها لله .

ان دعاة الوثنية لا يفتئون يؤلفون الكتب ، ويزوقون الكلام بتحسين الشرك والثناء على أهله ، وتقبيح التوحيد ، وعيب أهله ودعاته ، ورميهم بالعظائم اتباعا لأهوائهم ، واغراضهم الدنيوية ، فهم يجهدون فى تحريف أدلة الكتاب والسنة حتى تتفق مع ما يقولونه أو يفعلونه ، أو يفعله معظموهم من الرعاع أتباع كل ناعق ، ولهذا قال هؤلاء : «العبادة هى الاتيان بأقصى غاية الخضوع قلبا وقالبا باعتقاد ربوبية المخضوع له ، فإن انتفى ذلك الاعتقاد - يعنى اعتقاد الربوبية - لم يكن المأتى به من العبادة فى كثير ولا قليل ولو كان سجود» .

فهل يصدق العاقل أن المشركين فى عهد النبوة الذين نزل فيهم القرآن - وهم أكمل عقولا من هؤلاء - يعتقدون أن الاحجار هى ربهم الذى يحيهم ويميتهم ، وينزل عليهم المطر وينبت الزرع والكلاء ، وما يقتاتونه هم وأنعامهم . قال الله تعالى : ﴿**يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا**

والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾. أى تعلمون أن الله تعالى هو الفاعل لما ذكر فى الآية من خلقهم وخلق من قبلهم، وخلق الأرض وجعلها فراشا لهم يفترشونها وينتفعون بها بما شاؤا وخلق السماء وبناها وأنزل من السماء ماء فانبت به الثمرات والأرزاق لكم ولأنعامكم فكيف تعبدون معه غيره مع علمكم أنه لا مشارك له فى الخلق والرزق والاحياء والإماتة، وتصريف أمور الكون .

«وحال مشركى العرب مع أوثانهم معلومة، وأنهم إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها، والاستغاثة بها، والاعتماد عليها فى حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها، فالتبرك بالصالحين وبقبورهم هو عين فعل المشركين باللات والعزى، ومناة وسائر أوثانهم»(١) .

وهو العبادة التى أوجبت لهم الخلود فى النار، وحرمت عليهم الجنة، وأخبر الله تعالى أنه لا يغفر ذلك إلا بالتوبة منه وفعل التوحيد الذى هو ضده .

وتسمية هذه الأفعال تبركا، أو توسلا أو غير ذلك لا يغير من الحقائق شيئا، فالشرك هو الاتجاه بالعبادة إلى غير الله مهما سمى ذلك، (وهو نوعان: شرك فى الربوبية وشرك فى الإلهية) .

فالأول : اثبات فاعل مستقل غير الله تعالى كمن يجعل الإنسان مستقلاً بأحداث فعله مهما كانت مرتبته نبياً فما دونه، وكذا من يجعل الكواكب أو الاجسام الطبيعية، أو العقول كما تقوله الفلاسفة، أو النفوس كما يقوله عباد القبور، أو الملائكة أو غير ذلك من المخلوقات، من جعل شيئاً من ذلك مستقلاً بشىء من الأحداث فهو مشرك فى الربوبية .

«وكل ما سوى الخالق الواجب الوجود بنفسه مفتقر إلى غيره، فلا يتم به حدوث حادث، ولا وجود ممكن، وجمهور العرب لم يكن شركها من هذا النوع، بل كانت مقرة بأن الله خالق كل شىء وربه ومليكه، وإنما كان من الشرك فى العبادة» .

والنوع الثانى من الشرك : الشرك فى الألهية، وهو أن يجعل مع الله أحداً من خلقه يتوجه إليه فى عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه، أو أنابته أو أى نوع من أنواع العبادة، وضد هذا الشرك التوحيد فى الإلهية، وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فإن المشركين المقرين بأن الله رب كل شىء كانوا يتخذون آلهة يستجلبون بعبادتها المنافع، ويستدفعون بها

---

(١) الضياء الشارق ص١٨٣ .

المضـار، ويتخـذونها وسائل تقربهم إلى الله زلفى، وشفعاء يستشفعون بها إليه، وهذه الآلهة خلق من خلقه لا يملكون لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بأذنه، فكل ما يطلب منهم لا يحصل منه شيء إلا بأذن الله تعالى، وهو عز وجل لم يأمر بعبادة غيره، ولم يجعل هؤلاء شفعاء ووسائل تقرب إليه، قال تعالى: **﴿وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبـدون﴾**. (الـزخـرف: ٤٥). وقال تعالى: **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليـه أنـه لا إلـه إلا أنا فاعبدون﴾**. (الأنبياء: ٢٥). وقال تعالى: **﴿ويعبدون من دون الله مالا يضرهم، ولا ينفعهم، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل اتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات، ولا فى الأرض، سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**. (يونس: ١٨).

(والمعنى أن الله تعـالى لا يعلم أن أحـدا يشفـع عنـده لهؤلاء لا فى السـماوات ولا فى الأرض فلا وجود لذلك)...

فبين الله تعالى فى هذه الآيات وغيرها أنه لم يشرع عبادة غيره، ولا أذن فى ذلك، بل أخبر أنه لو كان فى السماوات أو الأرض آلهة إلا الله لفسدتا، فإنه كما يمتنع أن يكون غيره ربا فاعلاً منصرفا، يمتنع أن يكون إلها معبودا)[١].

«والإنسـان بل وجميـع الكـائنـات عبـاد الله تعـالى، فقـراء إليه مماليك له، وهو ربهم المتصرف فيهم، وهو إلههم لا إله إلا هو، فالمخلوق ليس له من نفسه شيء أصلاً، بل نفسه وصفـاتـه وأفعـاله، وما ينتفع به أو يستحقه إنما هو من خلق الله تعالى. هو الذى أوجده ومَنَ به، وفقـر المخلوق وعبـوديتـه أمـر لازم له، لا ينفـك عنـه بحال، ولا وجود له بدونه والحاجة ضروريـة لكـل المخلوقـات لأنها ملك لخالقها وموجدها إذ لا قيام لها بدونه، ولكن الناس أو أكثـرهم تعـزب قلوبهم عن شهـود هذه الحـاجـة الملحة وهذا الفقر الاضطرارى»[٢]. وتشهد توحيـد الـربـوبيـة العـام، الذى تشترك فى شهوده سائر المخلوقات، وهو أنه لا خالق إلا الله تعالى، فلا يستقل شيء سواه باحداث أمر من الأمور، بل ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكـل ما سواه إذا كان سبباً فلابـد له من شريك معاون، وضد معوق، فإذا طلب العبد من غير الله إحداث أمر من الأمور، فقد طلب منه مالا يستقل به، ولا يقدر عليه وحده، حتى أفعال العبد الاختيارية لا يستطيع فعلها إلا بإعانة الله له عليها بأن يجعله فاعلاً بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة، والقدرة على ذلك الفعل.

---

(١) درأ تعارض العقل ج٧ ص٣٩١ بتصرف.

(٢) انظر مجموع الفتاوى ج١٤ ص٣١.

فمشيئة الله وحده هى المستلزمة لكل ما يريد، فما شاء كان، وما لم يشاء لم يكن وما سواه لا تستلزم إرادته شيئاً، بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجة عن مقدوره، إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿**وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾ .

وبهذا يتبين أن السائل للمخلوق يسأله مالا يستقل بملكه، هذا إذا كان المسؤول بمقدوره ظاهراً، فكيف إذا سأله مالا يقدر عليه أصلا مثل الشفاعة عند الله لأنها لا تكون إلا بإذنه، ومثل هداية القلوب، وشفاء الأمراض ونحو ذلك .

والراجى لمخلوق، طالب بقلبه لما يريده من ذلك المخلوق، والمطلوب منه عاجز عن المطلوب، ولهذا صار ذلك من الشرك الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه .

ومن نعم الله على عبده أن يمنع مطلوبه بالشرك، ليصرف قلبه إلى توحيد الله تعالى فإن وحّده توحيد الألهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة، وإن كان ممن قال الله فيهم : ﴿**وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه، أو قاعداً، أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مَرَ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه**﴾ . (يونس : ٢٢) كان ما حصل له من توحيد حجة عليه، كما احتج سبحانه على أمثاله من المشركين، الذين يقرون بأنه خالق كل شىء ثم يشركون غيره معه فى العبادة، ولا يخلصونها له، قال تعالى : ﴿**قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون، سيقولون لله، فقل أفلا تذكرون، قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، سيقولون لله، قل أفلا تتقون، قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون، سيقولون لله قل فأنى تسحرون**﴾ . [1](المؤمنون : ٨٤) . وهذا كثير فى القرآن، وهو يدل على ما تقدم من أن الإقرار بتوحيد الربوبية، وبوجود الله تعالى أمر فطرى مسلم به عند جميع الخلق، إلا من أخذته العزة بالاثم فكابر عقله، وخالف فطرته، وعاند الحق، ولهذا لم تكن رسالة الرسل فى دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله تعالى، والاقرار بربوبيته، إذ كان هذا مستقراً فى القلوب .

ولذلك جعل الله تعالى هذا دليلاً وحجة على وجوب التزام القسم الثانى من التوحيد، الذى هو توحيد العبادة .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى ج١٠ ص٣٣١ .

فالإقــرار بالخـالق، وكـمالـه يكـون فطـريـاً ضروريـاً فى حق من سلمت فطـرتـه من الانحـراف، ومـع ذلـك فقـد قامت عليه الأدلة الكثيرة، لأنه قد يحتاج إليها كثير من الناس لفساد فطرهم وتغيرها ولأحوال تعرض لهم، وإن كانت مسألة الإقرار بوجود الله ـ كما قلنا ـ ليست من المسـائـل التى تحتـاج إلى برهـان، «فـإن الفطر الإنسانية السليمة تشهد بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على خالق حكيم، قادر عليم». ﴿**أفى الله شك**﴾. ﴿**ولئن سألتهم من خلقهم ليقــولن الله**﴾ ومن غفـل عن هذه الفطـرة فى حال السـراء، فإنـه يلوذ إليهـا فى حال الضراء. ﴿**فإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه**﴾ .

فالأدلة على الله تعالى كثيرة : منها ماشهدت به الفطر السليمة من احتياج المخلوق إلى مدبـر هو منتهى طلبـه، يرغب إليـه، ولا يرغب عنـه، ويستغنى به، ولا يستغنى عنـه، ويفزع إليه فى الشدائد، واحتياج الإنسان فى نفسه أوضح من احتياج الممكن الخارجى إلى موجد، والحادث إلى محدث، ولهذا ذكر الله تعالى هذا المعنى محتجاً به على وجوب عبادته كما قال تعالى : ﴿**أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون**﴾. (النمل : ٦٢) ومن رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف احتياجه إلى ربه فى تكوينه، وبقائه، وتقلبه فى أحواله. وكذلك النظر فى آيات الآفاق، والملكوت تدل دلالـة واضحـة على الله تعـالى، ولكن المعارف التى تحصل من تعريفات أحوال الاضطرار أشد رسوخاً فى القلب من المعارف التى هى نتائج الأفكار فى حالة الاختيار(١).

وكذلك النظر فى مخلوقات الله تعالى، وما فيها من العجائب، واتقان الصنعة، وباهر الحكمـة، وتقلب الليـل والنهـار، ودوران الشمس والقمـر والنجـوم، ومـا يتجدد فى طلوعها وغـروبهـا، ودوران الافـلاك، وهبـوب الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء إلى حيث يشاء الله، وعوالم المخلوقات مما يطول وصفه .

ومن ذلـك خلق الإنسـان من نطفـة مستـوية الأجزاء، متنقلة الاطوار، من نطفة إلى علقة، ومن علقة إلى مضغة، ثم خلق منها لحما وعظاما وعصبا، وبصرا وعقلا وإدراكا، وما يشم، وما يطعم، وما يمشى على بطنه وما يمشى على أربع وما يمشى على رجلين، وذكر وأنثى، وهل يمكن أن يكون المداد بنفسه كتاباً معرباً مرتب المعانى والمواضيع منسق الكتابة والحروف بطبيعة المداد من غير كاتب عالم. ﴿**قتل الإنسان ما أكفره**﴾. . . الآيات .

---

(١) انظر نهاية الاقدم ص١٢٤ .

ومن ذلك المعجزات التى جاءت بها الأنبياء وهى من أوضح الدلائل على الله تعالى مثل إحياء الموتى، وجعل العصا التى هى عود يابس مقطوع من شجرة حية تلتهم ما أمامها، وفلق البحر بضربه بالعصا، وقلب طبيعة النار ومنعها من الاحراق، وانباع الماء من أصباع الرسول ﷺ حتى يتوضأ منه الجمع الكثير، وتكثير الطعام القليل حتى يتزود منه الجيش بأكمله وغير ذلك كثير جدا .

ولما كان الطريق إلى الحق هو السمع والعقل، وهما متلازمان، كان من سلك الطريق العقلى دله على الطريق السمعى، وهو صدق الرسل، ومن سلك الطريق السمعى بين الأدلة العقلية، كما بين ذلك القرآن .

وكان الشقى المعذب من لم يسلك لا هذا ولا هذا كما قال أهل النار : ﴿**لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير** (الملك : ١٠) . قال الله تعالى : ﴿**أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾. (الحج : ٤٦) .

والألحاد يعرض لكثير من الناس، ويتبناه بعضهم إما ظاهراً دون باطن كحال فرعون ونحوه من المجزمين، وإما باطناً وظاهراً كحال ملاحدة اليوم .

والألحاد لا يمنع أن تكون معرفة الله مستقرة فى الفطرة، ثابتة بالضرورة، لأن إنكار وجود الله تعالى حال تعرض لكثير من الناس عمداً أو خطأ واغترارا، مع أن كثيراً من الناس قد ينازع فى كثير من القضايا البديهية، والمعارف الفطرية، من الحسيات والحسابيات، والالهيات، ومن تأمل ما يذكره أصحاب المقالات فى العلوم المختلفة رأى عجائب وغرائب، فمن الطرائف فى هذا ما ذكر أن رجلاً صنف كتاباً فى نفى العلوم فمات له ولد قد قارب الحلم فقال : أسفت لموت ولدى قبل أن يقرأ كتابى، فقيل له : وما يدريك أنه كان لك ولد، وأنه مات، وأنه لم يقرأ كتابك، وما يدريك أنك موجود وأنك صنفت كتاباً فلم يدر ما يقول .

وبنو آدم لا ينضبط ما يخطر لهم من الآراء والارادات، فإنهم جنس عظيم التفاوت، فليس فى المخلوقات أعظم تفاوتاً وتفاضلاً منهم، فخيارهم خير المخلوقات أو من خيرهم، وشرارهم أشر المخلوقات كما قال تعالى : ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**﴾. (الأعراف : ١٧٩) .

ولكن الحق عزيز، ومع عزته كل يدعيه، ودعواهم الحق تحجبهم عن مراجعة الحق،

ان على الباطل ظلمة، وان الحق نور، ولا يبصر نور الحق إلا من حشى قلبه بالنور **﴿ومن لم يجعل الله له نور فما له من نور﴾**(١).

القسم الثانى من التوحيد : توحيد الأسماء الصفات، وهذا القسم شبيه بالذى قبله - توحيد الربوبية - من حيث ثبوته فى الفطر، وكثرت الأدلة عليه، كثرة عظيمة، وكون الأمم السالفة لم تنكره إلا من شذ وندر، وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم فى كثير من آيات الاحكام، ولم يختلفوا فى شىء من آيات الصفات وأخبارها، بل اتفقوا على اقرارها على ظاهرها مع فهمهم معانيها، واثبات حقائقها، وذلك لأنها أعظم عناية، وأوضح بيانا من آيات الاحكام، ومن يقرأ كتاب الله تعالى، ويستعرض سنة رسوله ﷺ يرى مدى العناية بهذا القسم، واثباته بطرق مختلفة، وكثرت النصوص فيه فما سر ذلك؟ وما مغزاه؟ ذلك لأنه منبع الإيمان والمعرفة بالله على بصيرة وهدى، وهو مصدر التوحيد الكامل فأكمل الناس توحيداً أعلمهم بهذا القسم، وابصرهم بمعانيه وفقهه، والفقه فيه هو الفقه الأكبر.

إن معرفة الله تعالى علي التفصيل لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الوحى الذى جعله الله لعباده روحاً ونوراً وهدى، والله تعالى أعلم بنفسه وبغيره من خلقه ورسوله ﷺ أعلم الخلق بالله، وما يجب له، وما يمتنع عليه، وما ينزه منه، وما وصف الله به نفسه وجب قبوله والإيمان به وأنه الحق، وكذا ما قاله الرسول ﷺ وهو أفصح الخلق واقدرهم على البيان، وأنصح الخلق لأمته، وقد بين للناس ما نزل إليه من ربه، وأعظم ذلك معرفة الله تعالى التى هى بها هداية القلوب، فقد بين ﷺ أوصاف الله تعالى التى تعرف بها إلى عباده، وأمرهم بدعوته بها، إذ هى الطريق إلى معرفة الله تعالى وعبادته.

فكل اسم من أسمائه الحسنى له تعبد يختص به علماً وحالاً، وأكمل الناس عبودية لله المتعبد بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا التى يعرفها الخلق، فلا تمنعه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، وهو جل وعلا يحب مقتضى أسمائه وصفاته، فلمحبته التوبة والمغفرة والعفو، خلق من يتوب عليه، ويغفر له، ويعفو عنه كما جاء فى الحديث : **«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم»** (١).

وإذا كان الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته فرض على العبد، لأنه داخل فى الإيمان بالله تعالى، ومعلوم عجز العقول عن الوصول إلى معرفة ذلك بدون هداية الوحى لأن ذلك

---

(١) انظر صون المنطق ص١٩٨ ج١ .
(١) درأ تعارض العقل ج٧ ص٣٩١ .

من الغيب، فلابد أن تعتصم من الزلل والاضطراب بعاصم وليس ذلك إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ففى ذلك فقط تحديد المسلك الصحيح الذى يهتدى المرأ بارتياده، كما فيه أيضا التحذير من السبل الأخرى التى إذا سلكها الإنسان وترك فيها وشأنه لا يمكن أن يجنى إلا الحيرة والأضطراب، كما وقع لكثير من أذكياء علماء الكلام الذين فتحوا المجال لعقولهم تجول فى كل طريق وفى النهاية أصبح أخدهم يتمنى أن يموت على عقيدة العجائز.

إن الكون مفتوح أما العقل فعليه أن يعبرَ وينظر ما يريد، أما أن يحاول ارتياد الغيب بلا عاصم وبدون دليل من الوحى الإلهى، فمن الحق أن يقال له حينئذ «ليس هذا بعشّك فادرجى» ولكن عليه أن يقبل من الغيوب ما جاء به الكتاب والسنة، ومن ذلك ما وصف الله تعالى به نفسه أووصفه الرسول به بدون تأويل أوتبديل بل يؤخذ على ظاهره، وذلك أن الوحى انزل للهدى والبيان، وهوكما قال الله تعالى: **﴿نور ورحمة، وبصائر للناس﴾**.
فمن غير المعقول أن الله تعالى يصف القرآن بأنه هدى للناس، ونور، وبيان، ورحمة ثم يخاطب الخلق فيه بألفاظ لا يقصد منها ما تدل عليه ظاهراً، بل يكون ظاهرها التشبيه والكفر كما أنه محالا أن تكون آياته رموزاً والغازاً أشير بها إلى معان باطنة لا تفهم إلا بصعوبة بالغة ولا يصل إليها إلا النادر من الأذكياء كما يقوله الذين لم يؤمنوا بالله ورسله. قال تعالى: **﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**. (الزمر: ٦٩). وقال تعالى: **﴿قال ياابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين﴾**. (سورة ص: ٧٥). وقال تعالى: **﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة، أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك﴾**. (الأنعام: ١٥٨).

فهذا التقسيم والتنويع يبطل تأويل اتيان الرب تعالى باتيانه أمره أو الملائكة كما يقوله أهل التحريف، ومثل هذه الآية قوله تعالى: **﴿وجاء ربك والملك صفاً صفاً﴾**. وقال تعالى: **﴿قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى﴾**. (طه: ٤٦).

والآيات فى ذكر أوصاف الله تعالى كثيرة جداً، والإيمان بها على ظاهرها من غير تحريف لها ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل هوسبيل المؤمنين ـ صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم باحسان، وقد قال تعالى: **﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾**. (النساء: ١١٥). فمن سبيلهم الإيمان بصفات الله تعالى واسمائه التى وصف بها نفسه، وسمى به نفسه فى كتابه، أوعلى لسان رسوله، من غير زيادة عليها ولا نقص منها ولا تجاوز لها، ولا تأويل لها بما

يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، لأنهم تيقنوا أن المتكلم بها صادق، وأراد منهم اعتقاد معانيها فصدقوه، وسكتوا عما لم يعلموه من حقيقة معناها، وأخذ ذلك الآخر عن الأول، ووصى بعضهم بعضاً بحسن الاتباع، والوقوف حيث وقف أولهم، وحذروا من التجاوز لمذهبهم، والعدول عن طريقتهم .

وبرهان ذلك أنهم نقلوا إلينا القرآن العظيم، وأخبار الرسول ﷺ نقل مصدق لها مؤمن بها، قابل لها، غير مرتاب فيها، ولا شاك فى صدق قائلها ولم يفسروا ما يتعلق بالصفات منها، ولا تأولوا، ولا شبهوه بصفات المخلوقين . إذ لو فعلوا شيئاً من ذلك لنقل عنهم، ولا يجوز أن يكتم بالكلية إذ لا يجوز التواطىء على الكتمان لما يحتاج نقله ومعرفته .

«للبحث صلة»

أصاب الشيخ وأخطأت أنا

مر أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك بالمدينة ـ وهو يريد مكة ـ فأقام بها أياما فقال :

هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب النبى ﷺ ؟

قالوا له : أبو حازم. فأرسل إليه، فلما دخل عليه قال :

يا أباحازم ما هذا الجفاء ؟

قال أبو حازم : ياأمير المؤمنين وأي جفاً رأيت منى ؟

قال : أتانى وجوه أهل المدينة ولم تأتنى .

قال : ياأمير المؤمنين أعيذك بالله أن تقول مالم يكن. ما عرفتنى قبل هذا اليوم، ولا أنا رأيتك .

فالتفت أمير المؤمنين إلى محمد بن شهاب الزهرى فقال :

أصاب الشيخ وأخطأت أنا . . .

منهج الأشاعرة في العقيدة

تعقيب على مقالات الصابوني

للشيخ سفر بن عبد الرحمن الحوالي
محاضر بكلية الدعوة وأصول الدين

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبى بعده. وبعد :

فقد اطلعت على ما نشرته مجلة (المجتمع) فى الأعداد من رقم ٦٢٧ - ٦٣٢، والمقابلة السابقة لها وكذلك المقالتان المتضادتان فى العدد **٦٤٦** مما كتبه الشيخان الفوزان والصابونى عن مذهب الأشاعرة .

وإذا كان من حق أى قارىء مسلم أن يهتم بالموضوع وأن يدلى برأيه إن كان لديه جديد، فكيف بمن هو متخصص فى هذا الموضوع مثلى؟ .

فالأشاعرة جزء من موضوع رسالتى للدكتوراه «**ظاهرة الإرجاء فى الفكر الإسلامى**» إذ هى أكبر فرق المرجئة الغلاة. ولن أستعجل نتائج بحثى ولكن حسبى أن أدّعى دعوى وأطرحها للمناقشة وأقبل بكل سرور من يدلى بوجهة نظره فيها .

فمن واقع إسلامى وتخصصى رأيت أن أقول كلمة عسى الله أن ينفع بها، - ويعلم الله أننى لو لم أشعر أن قولها واجب ضرورى لما سطرتها - ولكن الموضوع أكبر من أن يسكت عليه أو يجامل فيه .

ولى على كلا الشيخين ملاحظات :-

(١) **أما الصابونى** فلا يؤسفنى أن أقول إن ما كتبه عن عقيدة السلف والأشاعرة يفتقر إلى أساسيات بدائية لكل باحث فى العقيدة كما أن أسلوبه بعيد كثيراً عن المنهج العلمى الموثق وعن الأسلوب المتعقل الرصين .

وقد استبشرت بالبيان الأخير خيراً وحسبته بيان رجوع وبراءة فإذا هو بيان اصرار وتوكيد .

ونظراً لكونه ليس إلا جزءاً من تيار بدعى يراد له اكتساح الأمة . ونظراً لتعرضه لقضايا بالغة الخطورة تحتاج إلى بحث مستفيض لا تسعه المقالات الصحفية فسوف أرجىء الكلام عنه إلى حين يتيسر لى بإذن الله اخراج الرد فى الصورة التى أراها .

وليكن معلوما أن هذا الرد الموعود ليس مقصودا به الصابونى ولا غيره من الأشخاص فالمسألة أكبر من ذلك وأخطر، انها مسألة مذهب بدعى له وجوده الواقعى الضخم فى الفكر الإسلامى حيث تمتلىء به كثير من كتب التفسير وشروح الحديث وكتب اللغة والبلاغة والأصول فضلا عن كتب العقائد والفكر، كما أن له جامعاته الكبرى ومعاهده المنتشرة فى أكثر بلاد الإسلام من الفلبين إلى السنغال .

وقد ظهرت فى الآونة الأخيرة محاولات ضخمة متواصلة لترميمه وتحديثه تشرف عليها هيئات رسمية كبرى ويغذوها المستشرقون بما ينبشونه من تراثه ويخرجون من مخطوطاته .

ولهذا وجب على كل قادر أن يبين لأمته الحق وينصح لها مهما لقى فإن مما كان يبايع عليه النبى ﷺ أصحابه النصح لكل مسلم وأن يقولوا الحق لا تأخذهم فيه لومة لائم .

أما فضيلة الشيخ الفوزان فقد أحسن إلى (المجتمع) وقرائها بتلك المقالة القيمة، فقد عرض فيها ـ على قصرها ـ حقائق أصولية مركزة فى أسلوب علمى رصين .

وله العذر كل العذر ـ إذا لم يستوف الرد على الصابونى وبيان التناقضات التى هى سمة من سمات المنهج الأشعرى نفسه، لأن الموضوع أكبر من أن تحيط به مقالة صحفية .

ولهذا رأيت من واجبى أن أضيف إلى ما كتبه فضيلته مستدركاً مالا يجوز تأجيله إلى ظهور الرد المتكامل :ـ

أولا : فات فضيلته أن يرد على الصابونى فيما عزاه إلى شيخ الإسلام ـ مكرراً إياه ـ من قوله «**الأشعرية أنصار أصول الدين والعلماء أنصار فروع الدين**» .

ولعل الشيخ وثق فى نقل الصابونى مع أن الصابونى ـ على ما أرجح ـ أول من يعلم بطلان نسبة هذا الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولغة العبارة نفسها ليست من أسلوب شيخ الإسلام، والغريب حقاً أنه أعاد هذا العزو فى بيانه الأخير بالعدد ٦٤٦ مؤكداً اصراره على التمويه والتدليس .

وأنا أطلب من كل قارىء أن يراجع النص فى ج٤ ص١٦ من مجموع الفتاوى ليجد بنفسه قبل تلك العبارة نفسها كلمة «قال» فالكلام محكى منقول وقائله هو المذكور فى أول الكلام ـ آخر سطر من ص١٥ ـ حيث **يقول شيخ الإسلام** :

«وكذلك رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد فتوى طويلة. . . قال فيها : « **إلى أن يقول :**

«قـال : وأمـا لعن العلماء الأئمـة الأشعـرية فمن لعنهم عزر وعادت اللعنة عليه. . . والعلماء أنصار فروع الدين والأشعرية أنصار أصول الدين .

«**قال** : وأما دخولهم النار. . . » الخ

وفى آخر هذه الفتوى نفسها **يقول شيخ الإسلام** (ص١٥٨ -١٥٩، وانظر أيضاً ١٥٦) .

«وأيضاً فيقال لهؤلاء الجهمية الكلامية كصاحب هذا الكلام أبى محمد وأمثاله كيف تدعون طريقة السلف وغاية ما عند السلف أن يكونوا متابعين لرسول الله ﷺ ؟» .

إلى أن يقول «وأبو محمد وأمثاله قد سلكوا مسلك الملاحدة الذين يقولون إن الرسول لم يبين الحق فى باب التوحيد»[1] . الخ .

وبهذا يتضح قطعاً :

(أ) أن العبارة المذكورة ليست من قول شيخ الإسلام بل قائلها أشعرى يمدح مذهبه[2] .

(ب) أن شيخ الإسلام نسب هذا القائل ومذهبه إلى الجهمية الكلابية واتباع طريقة الملاحدة وأنكر عليهم ادعاء طريقة السلف وهذا ينفى ما حاول الصابونى تدليسه فى مقالاته الست تماماً .

وبـالمنـاسبـة أذكر بعض ما يحضرنى من الكتب التى ألفها شيخ الإسلام فى الرد على الأشاعرة نصاً غير التى رد عليهم فيها مع غيرهم :-

١ - درء تعارض العقل والنقل وهو كله رد عليهم بالأصالة كما نص فى مقدمته. حيث استفتحه بذكر قانونهم الكلى الآتى فى ص١٢ .

---

(١) وأنظر أيضـا ص١٥٦ من الجـزء نفسـه وهـذا الكلام المنقول من ص١٥٨ لابد أن الصابونى قرأه لأنه استشهد بكلام بعده فى ص١٦٧ من الفتوى .

(٢) قائلهـا هو أبـو محمـد الجـوينى والد أبى المعالى (توفى ٤٤٠) وقد رجع فى آخر عمره إلى عقيدة السلف وشهد له بذلـك شيـخ الإسـلام فى مواضـع ، وكتب فى توبتـه «النصيحة» المطبوعة مع المجموعة المنيرية ، وطبعها المكتب الإسلامى معـزوة إلى ابن شيـخ الحـزاميـين وهـو خطأ . ومناسبة فتواه هذه هى صدور مراسيم سلطانية بلعن أصحاب البدع - ومنهم الأشاعرة - على المنابر، أنظر المنتظم لابن الجوزى حوادث سنة ٤٣٣ وما بعدها .

٢ ـ بيان تلبيس الجهمية المسمى نقض التأسيس، رد فيه على إمامهم الثانى «الفخر الرازى». صاحب تأسيس التقديس أو أساس التقديس .

٣ ـ التسعينية وهى التى كتبها فى الأشهر الأخيرة من حياته ـ رحمه الله ـ جواباً عن محاكمة الأشاعرة له[1] .

٤ ـ شرح العقيدة الأصفهانية وهى شرح لعقيدة الشمس الأصفهانى التى جرى فيها على أصول الأشاعرة .

٥ ـ الفتوى الحموية : معروفة .

٦ ـ الرسالة المدنية : وهى فى الجزء (٦) من مجموع الفتاوى .

٧ ـ النبوات : وهو نقض لكلام الباقلانى خاصة والأشاعرة عامة فى النبوات .

٨ ـ الإيمان : وهو نقد للأشاعرة فى الإيمان وذكر بقية المرجئة تبعا .

٩ ـ القاعدة المراكشية : وهى كالبيان لمذهب الإمام مالك وائمة المالكية فى العقيدة ضد المتأخرين من مالكية المغاربة المائلين إلى مذهب الأشعرى، وهى فى الجزء الخامس من مجموع الفتاوى وطبعت محققه .

١٠ ـ المناظرة فى العقيدة الواسطية : ألفها فى محاكمة الأشاعرة له بسبب الواسطية وهى فى الجزء الثالث من مجموع الفتاوى .

١١ ـ الاستقامة : كتبه نقضا لكتاب القشيرى الصوفى الأشعرى وبين فيه أن عقيدة أئمة السلوك المعتبرين هى مذهب السلف وأن بداية الانحراف فى العقيدة عند المنتسبين للتصوف فى الجملة إنما جاءت متأخرة فى أوائل القرن الخامس حين انتشر مذهب الأشعرى.

ولتلميذه ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى الرد على الأشاعرة كتب منها :ـ

(١) مختصر الصواعق المرسلة ناقش فيه أصولهم ومنها موقفهم من النصوص .

(٢) شفاء العليل : معظمه عنهم .

(٣) العقيدة النونية : معظمها عنهم .

(٤) اجتماع الجيوش الإسلامية : كله رد على مذهبهم خصوصا فى نفى العلو. هذا

---

(١) وهى أول رسالة فى المجلد الخامس من الفتاوى الكبرى (الطبعة الطويلة) وهى تشمل الجزء الخامس كله من الطبعة التى قدم لها مخلوف، وسمعت أنها تحقق بجامعة الإمام وهى جديرة بالعناية .

ولم يصدر من شيخ الإسلام مدح مطلق للأشاعرة أبدا وإنما غاية مدحه لهم (كما فى ج١٢ من الفتاوى) أن يصفهم بأنهم أقرب من غيرهم وأن مذهبهم مركب من الوحى والفلسفة أو يمدح المشتغلين منهم بالحديث لا لكونهم أشاعرة ولكن لاشتغالهم بالسنة مع سؤال المغفرة لهم فيما وافقوا فيه متكلمى مذهبهم. لكن هذا أقل بكثير من المواضع التى صرح فيها بتبديعهم وتضليلهم وفساد منهجهم فهى أكثر من أن تحصر. كما أنه حدد - رحمه الله - متى يعد المنتسب إلى الأشعرى من أهل السنة فقال :

«أما من قال منهم بكتاب الإبانة الذى صنفه الأشعرى فى آخر عمره ولم يظهر مقالة تناقض ذلك فهذا يعد من أهل السنة، لكن مجرد الانتساب إلى الأشعرى بدعة لاسيما لأنه بذلك يوهم حسنا لكل من انتسب هذه النسبة وينفتح بذلك أبواب شر»(١) . . . أى أن من كان على عقيدة السلف منهم لا ينبغى له الانتساب للأشعرى لأنه بدعة ومذمة.

ثانيا : أحسن الشيخ فى مطالبة الصابونى بأى دليل صحيح على مسألة تكفير الأشاعرة، ويضاف إلى كلام فضيلته :

إن الحاصل فعلاً هو العكس فالأشاعرة هم الذين كفروا وما يزالون يكفرون أتباع السلف بل كفروا كل من قال إن الله تعالى موصوف بالعلو - كما سيأتى هنا - وحسبك تكفيرهم واضطهادهم لشيخ الإسلام وهو مالم يفعله أهل السنة بعالم أشعرى قط. وقد سطر - رحمه الله - بعض جورهم عليه فى أول التسعينية وصرح به كل من كتب عن سيرته. ولولا الإطالة لأوردت بعض ما تصرح به كتب عقيدتهم من اتهامه بالزندقة والكفر والضلال. ومن الأمثلة المعاصرة كتب الكوثرى ومقالاته وكتاب «براءة الأشعريين» وكتاب «ابن تيمية ليس سلفياً» وبعض ما فى كتاب «أركان الإيمان»(٢).

فيا عجباً لهؤلاء القوم يكفرونه ثم يدعون أنهم وإياه على مذهب واحد ويشملهم جميعاً اسم «السنة والجماعة» !! وإذا كانت كتب الأشاعرة تتبرأ من «الحشوية والمجسمة والنابتة» وغير ذلك مما يلقبون به أهل السنة والجماعة فكيف يكونون وهم سواء !!

---

(١) مجموع الفتاوى : ٦/٣٥٩.

(٢) وانظر عن القدامى : الرد الوافر على من زعم أن ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، وكتاب الحصنى : دفع شبهة من شبه وتمرد. وللعلم فبعض هذه الكتب المعاصره باسم مستعار، وممن اعترف بموقفهم من شيخ الإسلام الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه ابن تيمية ص٥٦ ومن ذلك قول صاحب حواشى على شرح الكبرى للسنوسى قوله : «ابن تيمية . . . أى الحنبلى المشهور زنديق وبغضه للدين وأهله لا يخفى» ص٦٢. وأنظر فى كتاب وهبى غاوجبى أركان الإيمان ص٢٩٧-٢٩٩.

ثالثا : كان بودى أن يفصل الشيخ معنى مصطلح أهل السنة ودخول الأشاعرة فيه أو عدمه وهى التى يدندن حولها الصابونى ، وأنا أوجزه جداً فأقول :

إن مصطلح أهل السنة والجماعة يطلق ويراد به معنيان :

(أ) المعنى الأعم : وهو ما يقابل الشيعة فيقال : المنتسبون للإسلام قسمان : أهل السنة والشيعة ، مثلما عنون شيخ الإسلام كتابه فى الرد على الرافضى «منهاج السنة» وفيه بين هذين المعنيين[1] وصرح أن ما ذهبت إليه الطوائف المبتدعة من أهل السنة بالمعنى الأخص .

وهذا المعنى يدخل فيه كل من سوى الشيعة كالأشاعرة . لاسيما والأشاعرة فيما يتعلق بموضوع الصحابة والخلفاء متفقون مع أهل السنة وهى نقطة الاتفاق المنهجية الوحيدة كما سيأتى .

(ب) المعنى الأخص : وهو ما يقابل المبتدعة وأهل الأهواء وهو الأكثر استعمالا وعليه كتب الجرح والتعديل فإذا قالوا عن الرجل أنه صاحب سنة أوكان سنياً أومن أهل السنة ونحوها فالمراد أنه ليس من إحدى الطوائف البدعية كالخوارج والمعتزلة والشيعة وليس صاحب كلام وهوى .

وهذا المعنى لا يدخل فيه الأشاعرة أبداً بل هم خارجون عنه وقد نص الامام أحمد وابن المدينى على أن من خاض فى شىء من علم الكلام لا يعتبر من أهل السنة وأن اصاب بكلامه السنة حتى يدع الجدل ويسلم للنصوص ، فلم يشترطوا موافقة السنة فحسب بل التلقى والاستمداد منها [2] فمن تلقى من السنة فهو من أهلها وإن أخطأ ومن تلقى من غيرها فقد أخطأ وإن وافقها فى النتيجة .

والأشاعرة ـ كما سترى ـ تلقوا واستمدوا من غير السنة ولم يوافقوها فى النتائج فكيف يكون من أهلها .

وسنأتى بحكمهم عند أئمة المذاهب الأربعة من الفقهاء فما بالك بأئمة الجرح والتعديل من أصحاب الحديث :ـ

١ ـ عند المالكية :

روى حافظ المغرب وعلمها الفذ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن

---

(١) ج٢ ص١٦٣ تحقيق محمد رشاد سالم .

(٢) أنظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائى، تحقيق الاخ أحمد بن سعد بن حمدان: ١٥٧/١، ١٦٥ .

خويز منداذ «أنه قال فى كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء، وقال :

«أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعرى ولا تقبل له شهادة فى الإسلام أبداً ويهجر ويؤدب على بدعته فإن تمادى عليها استتيب منها»(١).

وروى ابن عبد البر نفسه فى «الانتقاء» عن الأئمة الثلاثة «مالك وأبى حنيفة والشافعى» نهيهم عن الكلام وزجر أصحابه وتبديعهم وتعزيرهم ومثله ابن القيم فى اجتماع الجيوش الإسلامية فماذا يكون الأشاعرة إن لم يكونوا أصحاب كلام؟.

٢ ـ عند الشافعية :

قال الإمام أبو العباس بن سريج الملقب بالشافعى الثانى وقد كان معاصرا للأشعرى: «لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملحدة والمجسمة والمشبهة والكرامية والمكيفة بل نقبلها بلا تأويل ونؤمن بها بلا تمثيل»(٢).

قال الإمام أبو الحسن الكرجى من علماء القرن الخامس الشافعية ما نصه : «لم يزل الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن ينسبوا إلى الأشعرى ويتبرأون مما بنى الأشعرى مذهبه عليه وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه على ما سمعت من عدة من المشايخ والأئمة، وضرب مثالاً بشيخ الشافعية فى عصره الإمام أبو حامد الاسفرائينى الملقب «الشافعى الثالث» قائلا :

«ومعلوم شدة الشيخ على أصحاب الكلام حتى ميز أصول فقه الشافعى من أصول الأشعرى، وعلق عنه أبوبكر الراذقانى وهو عندى، وبه اقتدى الشيخ أبو إسحاق الشيرازى فى كتابيه اللمع والتبصرة حتى لو وافق قول الأشعرى وجهاً لأصحابنا ميزه وقال : «هو قول بعض أصحابنا وبه قالت الأشعرية ولم يعدهم من أصحاب الشافعى، استنكفوا منهم ومن مذهبهم فى أصول الفقه فضلاً عن أصول الدين»(٣) اهـ .

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/١١٧ تحقيق عثمان محمد عثمان، وهو فى ٢/٩٦ من الطبعة المنيرية .

(٢) توفى ابن سريج سنة ٣٠٦ : أنظر تاريخ بغداد ٤/٢٩٠ وسير أعلام النبلاء ١٤/٢٠١ والظاهر أنه توفى قبل رجوع الأشعرى لمذهب السلف، والأشعرى توفى ٣٢٤ أو ٣٣٠ على قولين. وأنظر عقيدة ابن سريج فى اجتماع الجيوش الإسلامية ٦٢ .

(٣) التسعينية : ٢٣٨ ـ ٢٣٩ وأنظر شرح الاصفهانيه : ٣١ من ج٥ من الفتاوى الكبرى نفسها وانظر عن الكرجى وعقيدته : اجتماع الجيوش الإسلامية ومختصر العلو وله ترجمة فى طبقات الشافعية لابن السبكى وطبقات الشافعية لابن كثير (مخطوط) .

وبنحو قوله بل أشد منه قال شيخ الإسلام الهروى الأنصارى[1].

٣ ـ الحنفية : معلوم أن واضع الطحاوية وشارحها كلاهما حنفيان، وكان الإمام الطحاوى معاصراً للأشعرى وكتب هذه العقيدة لبيان معتقد الإمام أبى حنيفة وأصحابه وهى مشابهة لما فى الفقه الأكبر عنه وقد نقلوا عن الإمام أنه صرح بكفر من قال إن الله ليس على العرش أو توقف فيه، وتلميذه أبو يوسف كفر بشراً المريسى، ومعلوم أن الأشاعرة ينفون العلو وينكرون كونه تعالى على العرش ومعلوم أيضاً أن أصولهم مستمدة من بشر المريسى !![2].

٤ ـ الحنابلة : موقف الحنابلة من الأشاعرة أشهر من أن يذكر فمنذ بدّع الإمام أحمد «ابن كلاب» وأمر بهجره ـ وهو المؤسس الحقيقى للمذهب الأشعرى ـ لم يزل الحنابلة معهم فى معركة طويلة، وحتى فى أيام دولة نظام الملك ـ التى استطالوا فيها ـ وبعدها كان الحنابلة يخرجون من بغداد كل واعظ يخلط قصصه بشىء من مذهب الأشاعرة، ولم يكن ابن القشيرى إلا واحداً ممن تعرض لذلك، وبسبب انتشار مذهبهم واجماع علماء الدولة سيما الحنابلة على محاربته أصدر الخليفة القادر منشور «الاعتقاد القادرى» أوضح فيه العقيدة الواجب على الأمة اعتقادها سنة **٤٣٣**هـ[3]

هذا وليس ذم الأشاعرة وتبديعهم خاصة بأئمة المذاهب المعتبرين بل هو منقول أيضا عن أئمة السلوك الذين كانوا اقرب إلى السنة واتباع السلف، فقد نقل شيخ الإسلام فى الاستقامة كثيرا من أقوالهم فى ذلك وانهم يعتبرون موافقة عقيدة الأشعرية منافيا لسلوك طريق الولاية والاستقامة حتى أن عبد القادر الجيلانى لما سئل «هل كان لله ولى على غير اعتقاد أحمد بن حنبل؟. قال: ما كان ولا يكون»[4].

فهذا موجز مختصر جداً لحكم الأشاعرة فى المذاهب الأربعة فما ظنك بحكم رجال الجرح والتعديل ممن يعلم أن مذهب الأشاعرة هو رد خبر الآحاد جملة وأن فى الصحيحين

---

(١) يلاحظ أن كلا من الشافعية والحنابلة يدعى الهروى لمذهبهم ورجح شيخ الإسلام أنه يأخذ من كليهما ويتبع الأثر. أنظر (شيخ الإسلام عبد الله الهروى ص٩٦) وقوله فيهم نقله فى التسعينية: **٢٧٧** عن كتاب ذم الكلام «وهو يحقق بجامعة الامام كما قرأت. وأنظر أيضا عن موقف الشافعية درء التعارض ٢/١٠٦.

(٢) أنظر غير ما ذكر سير اعلام النبلاء ترجمة بشر ١٠/ ٢٠٠ ـ٢٠١ والحموية: **١٤ ـ١٥** طبعة قصى الخطيب.

(٣) أنظر المنتظم لابن الجوزى احداث سنة: **٤٣٣، ٤٦٩، ٤٧٥** وغيرها ج٨ وج٩.

(٤) ص٨١ ـ٨٩ و ١٠٥ ـ١٠٩.

أحاديث موضوعة أدخلها الزنادقة . . . وغيرها من العوام وأنظر إن شئت ترجمة إمامهم المتأخر الفخر الرازى فى الميزان ولسان الميزان .

فالحكم الصحيح فى الأشاعرة أنهم من أهل القبلة لاشك فى ذلك أما أنهم من أهل السنة فلا وسيأتى تفصيل ذلك فى الموضوعات التالية :

وهاهنا حقيقة كبرى أثبتها علماء الأشعرية الكبار بأنفسهم ـ كالجوينى وابنه أبى المعالى والرازى والغزالى وغيرهم ـ وهى حقيقة إعلان حيرتهم وتوبتهم ورجوعهم إلى مذهب السلف ، وكتب الأشعرية المتعصبة مثل طبقات الشافعية أوردت ذلك فى تراجمهم أو بعضه فما دلالة ذلك؟ .

إذا كانوا من أصلهم على عقيدة أهل السنة والجماعة فعن أى شىء رجعوا؟ . ولماذا رجعوا؟ . وإلى أى عقيدة رجعوا؟ .

رابعاً : دعوى الأشاعرة أن أكثر أئمة المسلمين على مذهبهم دعوى عارية عن الدليل يكذبها الواقع التاريخى ، وكتب الأشاعرة نفسها عند تعريف مذهبى السلف والخلف تقول إن مذهب السلف هومذهب القرون الثلاثة وبعضها يقول إنه مذهب القرون الخمسة[1] فماذا بقى بعد هذه القرون؟

وصدقوا فالثابت تاريخيا أن مذهب الأشاعرة لم ينتشر إلا فى القرن الخامس أثر انتشار كتب الباقلانى[2] .

ولولا ضيق المجال لسردت قائمة متوازية أذكر فيها كبار الأشاعرة ومن عاصرهم من كبار أهل السنة والجماعة الذين يفوقون أولئك عدداً وعلماً وفضلاً ، وحسبك ما جمعه ابن القيم فى اجتماع الجيوش الإسلامية والذهبى فى العلو وقبلهما اللالكائى .

أما عوام المسلمين فالأصل فيهم أنهم على عقيدة السلف لأنها الفطرة التى يولد عليها الإنسان وينشأ عليها المسلم بلا تلقين ولا تعليم (من حيث الأصل) فكل من لم يلقنه المبتدعة بدعتهم ويدرسوه كتبهم فليس من حق أى فرقة ان تدعيه إلا أهل السنة والجماعة .

ومن الأدلة على ذلك الإنسان الذى يدخل فى الإسلام حديثا ، فهل تستطيع أى فرقة ان تقول أنه معتزلى أو أشعرى؟ أما نحن فبمجرد اسلامه يصبح واحدا منا .

---

(١) ومنها شرح الباجورى ـ أو البيجورى ـ على الجوهرة ١ /٨٢ طبعة محمد على صبيح .

(٢) أنظر الاستقامة : ١٠٥ وتبين كذب المفترى ابن عساكر ٤١٠ بتحقيق الكوثرى .

وإن شئت المثال على عقيدة العوام فاسأل الملايين من المسلمين شرقا وغربا هل فيهم من يعتقد ان الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته كما تقول الأشاعرة .

أم أنهم كلهم مفطورون على أنه تعالى فوق المخلوقات ، وهذه الفطرة تظل ثابته فى قلوبهم حتى وان وجدوا من يلقنهم فى أذهانهم تلك المقولة الموروثة عن فلاسفة اليونان[(1)] .

وقس على هذا نظرية الكسب والكلام النفسى ونفى التأثير وأشباهها مما سترى فى عقائد الأشاعرة على أن الموضوع الذى يجب التنبيه إليه هو التفريق بين متكلمى الأشاعرة كالرازى والآمدى والشهرستانى والبغدادى والإيجى ونحوهم وبين من تأثر بمذهبهم عن حسن نية واجتهاد أو متابعة خاطئة أو جهل بعلم الكلام أو لاعتقاده أنه لا تعارض بين ما أخذ منهم وبين النصوص ومن هذا القسم أكثر الأفاضل الذين يحتج بذكرهم الصابونى وغيره وعلى رأسهم الحافظ ابن حجر - رحمه الله - .

ولست أشك أن الموضوع يحتاج لبسط وايضاح ومع هذا فإننى أقدم للقراء لمحة موجزة عن موقف ابن حجر من الأشاعرة :

من المعلوم أن إمام الأشعرية المتأخر الذى ضبط المذهب وقَعدَّ أصوله هو الفخر الرازى (ت ٦٠٦هـ) ثم خلفه الآمدى (٦٣١هـ) والآرموى (٦٨٢هـ) فنشرا فكره فى الشام ومصر واستوفيا بعض القضايا فى المذهب (وفكر هؤلاء الثلاثة هو الذى كان الموضوع الرئيسى فى كتاب درء التعارض) وأعقبهم الأيجى صاحب المواقف (الذى كان معاصراً لشيخ الإسلام ابن تيمية) فألف «المواقف» الذى هو تقنين وتنظيم لفكر الرازى ومدرسته وهذا الكتاب هو عمدة المذهب قديماً وحديثاً .

وقد ترجم الحافظ الذهبى - رحمه الله - فى الميزان وغيره للرازى والآمدى بما هم أهله ، ثم جاء ابن السبكى - ذلك الأشعرى المتعصب - فتعقبه وعنف عليه ظلماً . ثم جاء ابن حجر - رحمه الله - فألف لسان الميزان فترجم لهما بطبيعة الحال - ناقلا كلام ابن السبكى ونقده للذهبى[(2)] - ولم يكن يخاف عليه مكانتهما وإمامتهما فى المذهب كما ذكر طرفاً من شنائع الآرموى ضمن ترجمة الرازى

---

(١) بل ان متكلمى الأشاعرة الذين ينفون العلو بكل جرأة ويستندون إلى شبهات كثيرة ، تجد فى خبايا كلامهم اقرارا به دون أن يشعروا . لأن مغالبة الفطرة من أصعب الأمور .

فالرازى مثلا - مع انكاره الشديد للعلوق (التأسيس والتفسير) قال فى التفسير ان الله (خسف بقارون فجعل الأرض فوقه ورفع محمدا ﷺ فجعله قاب قوسين تحته) ١/٢٤٨ . ط . بيروت .

(٢) ترجمة الرازى : ٤/٤٢٦ والآمدى : ٦/١٣٤ .

فإذا كان موقف ابن حجر لأن موقفه هو الذى يحدد انتماءه لفكر هؤلاء القوم أو عدمه؟ إن الذى يقرأ ترجمتيهما فى اللسان لا يمكن أن يقول إن ابن حجر على مذهبهما أبداً كيف وقد أورد نقولاً كثيرة موثقة عن ضلالهما وشنائعهما التى لايقرها أى مسلم فضلاً عمن هو فى علم الحافظ وفضله؟.

على أنه قال فى آخر ترجمة الرازى «أوصى بوصية تدل على أنه حسّن اعتقاده».

وهذه العبارة التى قد يفهم منها أنها متعاطفة مع الرازى ضد مهاجميه هى شاهد لما نقول نحن هنا فإن وصية الرازى التى نقلها ابن السبكى نفسه صريحة فى رجوعه إلى مذهب السلف.

فبعد هذا نسأل:

أكان ابن حجر يعتقد أو يؤيد عقيدة الرازى التى فى كتبه أم عقيدته التى فى وصيته؟

الأجابة واضحة من عبارته نفسها.

هذه واحدة.

والأخرى: أن الحافظ فى الفتح قد نقد الأشاعرة باسمهم الصريح وخالفهم فيما هو من خصائص مذهبهم فمثلاً خالفهم فى الإيمان، وإن كان تقريره لمذهب السلف فيه يحتاج لتحرير. ونقدهم فى مسألة المعرفة وأول واجب على المكلف فى أول كتابه وآخره [1].

كما أنه نقد شيخهم فى التأويل «ابن فورك» فى تأويلاته التى نقلها عنه فى شرح كتاب التوحيد من الفتح وذم التأويل والمنطق مرجحا منهج الثلاثة القرون الأولى كما أنه يخالفهم فى الاحتجاج بحديث الآحاد فى العقيدة[2] وغيرها من الأمور التى لا مجال لتفصيلها هنا.

والذى أراه أن الحافظ ـ رحمه الله ـ أقرب شىء إلى عقيدة مفوضة الحنابلة كأبى يعلى ونحوه ممن ذكرهم شيخ الإسلام فى درء تعارض العقل والنقل[3] ووصفهم بمحبة الآثار والتمسك بها لكنهم وافقوا بعض أصول المتكلمين وتابعوهم ظانين صحتها عن حسن نية.

وقد كان من الحنابلة من ذهب إلى أبعد من هذا كأبن الجوزى وابن عقيل وابن الزاغونى. ومع ذلك فهؤلاء كانوا أعداء الداء للأشاعرة، ولا يجوز بحال أن يعتبروا أشاعرة فما بالك بأولئك.

---

(١) أنظر فتح البارى: ١/٤٦، ٣/٣٥٧ـ٣٦١، ١٣/٣٤٧ـ٣٥٠.

(٢) أنظر فتح البارى ١/٤٦، ٣/٣٥٧ـ٣٦١، ١٣/٣٤٧ـ٣٥٠.

(٣) المصدر السابق: ١٣/٢٥٣، ٢٥٩، ٤٠٧ وغيرها كثير.

والظاهر أن سبب هذا الاشتباه فى نسبة بعض العلماء للأشاعرة أو أهل السنة والجماعة هو أن الأشاعرة فرقة كلامية انشقت عن أصلها «المعتزلة» ووافقت السلف فى بعض القضايا وتأثرت بمنهج الوحى، فى حين أن بعض من هم على مذهب أهل السنة والجماعة فى الأصل تأثروا بسبب من الأسباب بأهل الكلام فى بعض القضايا وخالفوا فيها مذهب السلف .

فإذا نظر الناظر إلى المواضع التى يتفق فيها هؤلاء وهؤلاء ظن أن الطائفتين على مذهب واحد . فهذا التداخل بينهما هو مصدر اللبس .

وكثيرا ما تجد فى كتب الجرح والتعديل ـ ومنها لسان الميزان للحافظ ابن حجر ـ قولهم عن الرجل أنه وافق المعتزلة فى أشياء من مصنفاته أو وافق الخوارج فى بعض أقوالهم وهكذا ومع هذا لا يعتبر ونه معتزليا أو خارجيا، وهذا المنهج إذا طبقناه على الحافظ وعلى النووى وأمثالهما لم يصح اعتبارهم أشاعرة وانما يقال وافقوا الأشاعرة فى أشياء، مع ضرورة بيان هذه الأشياء واستدراكها عليهم حتى يمكن الاستفادة من كتبهم بلا توجس فى موضوعات العقيدة(1) .

خامسا : قال فضيلة الشيخ الفوزان عن الأشاعرة : «نعم هم من أهل السنة والجماعة فى بقية أبواب الإيمان والعقيدة وليسوا منهم فى باب الصفات» .

وهذا سبق قلم من فضيلته ومثل هذه الدعوى هى التى يهش لها الأشاعرة المعاصرون ويروجونها، لأنه إذا كان الفارق هو الصفات فقط قالوا إن الخلاف فيها أصله الاجتهاد والكل متفقون على التنزيه فكأنه لا خلاف إذن . . . وربما قالوا نحن مستعدون أن نثبت لله يداً وعيناً وسائر الصفات فى سبيل توحيد الصف ووحدة الكلمة !!!

وليكن معلوما أن ابتداء أمر الأشاعرة أنهم توسلوا إلى أهل السنة أن يكفوا عن هجرهم وتبديعهم وتضليلهم وقالوا : نحن معكم ندافع عن الدين وننازل الملحدين(2)، فاغتر بهذا بعض علماء أهل السنة وسكتوا عنهم فتمكن الأشاعرة فى الأمة ثم فى النهاية استطالوا على أولئك واستأثروا بهذا الاسم دون أهله، وأصبحوا هم يضللون أهل السنة ويضطهدونهم ويلقبونهم بأشنع الألقاب . فحتى لا تتكرر هذه المشكلة واحقاقا للحق رأيت

(1) وقد رأينا فى واقعنا المعاصر علماء فضلاء وافقوا الاشتراكيين أو الديمقراطيين أو القوميين فى أشياء للأسباب نفسها . ولم يعدهم أحد اشتراكيين أو قوميين .

(2) أنظر سير أعلام النبلاء : 15/ 90، مقابلة الأشعرى لامام السنة فى عصره «البربهارى» أنظر ترجمته فى طبقات الحنابلة ورسالته القيمة فى السنة، التى ساقها صاحب الطبقات .

من واجبى أن أسهم بتفصيل مذهب الأشاعرة فى كل أبواب العقيدة ليتضح أنهم على منهج فكـرى مستقـل فى كل الأبـواب والأصول، ويختلفون مع أهل السنة والجماعة من أول مصدر التلقى حتى آخر السمعيات ماعدا قضية واحدة فقط .

وإليـك هذه الأصـول المنهجيـة فى مذهبهم موجـزة وميسـرة ما أمكن ـ عدا أقوالهم فى الصفـات وعـدا الفـرعيـات التى لا تدخـل تحت حصـر ـ مع التنبيـه مقدما إلى ما بينها من تناقض لا يخفى على القارىء الفطن :

الأول : مصدر التلقى :

(أ) مصـدر التلقى عنـد الأشـاعـرة هو العقل وقد صرح الجوينى والرازى والبغدادى والغزالى والآمدى والآيجى وابن فورك والسنوسى وشراح الجوهرة وسائر أئمتهم بتقديم العقل على النقـل عنـد التعـارض، وعلى هذا يرى المعـاصـرون منهم، ومن هؤلاء السابقين من صرح بأن الأخـذ بظـواهـر الكتـاب والسنة أصل من أصول الكفر وبعضهم خففها فقال هو أصل الضلالة !!

ولضرورة الاختصار أكتفى بمثالين مع الاحالة إلى ما فى الحاشية لمن أراد المزيد :

الأول : وضع الرازى فى أساس التقديس القانونى الكلى للمذهب فى ذلك فقال :

«الفصل الثانى والثلاثون فى أن البراهين العقليه إذا صارت معارضة بالظواهر النقلية فكيف يكون الحال فيها ؟

أعلم أن الـدلائـل القطعيـة العقليـة إذا قامت على ثبـوت شىء ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة :

(١) اما أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين وهو محال .

(٢) وإما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال .

(٣) وإما أن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل .

لأنـه لا يمكننـا أن نعـرف صحـة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية اثبات الصانع وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ وظهور المعجزات على محمد ﷺ .

ولو جوزنا القدح فى الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهما غير مقبول القول . ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول فى هذه الأصول وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة .

فثبت أن القدح فى العقل لتصحيح النقل يفضى إلى القدح فى العقل والنقل معا وأنه باطل .

ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية ـ القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية اما أن يقال انها غير صحيحة[1]. أو يقال إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها .

ثم ان جوزنا التأويل اشتغلنا على سبيل التبرع[2] بذكر تلك التأويلات على التفصيل. وان لم يجز التأويل فوضنا العلم بها إلى الله تعالى. فهذا هو القانون الكلى المرجوع إليه فى جميع المتشابهات وبالله التوفيق» أهـ .

الثانى : يقول السنوسى (ت ٨٨٥) فى شرح الكبرى :

«وأما من زعم أن الطريق بدأ إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ويحرم ما سواهما فالرد عليه أن حجتيهما لا تعرف إلا بالنظر العقلى ، وأيضا فقد وقعت فيهما ظواهر من اعتقادها على ظاهرها كفر عند جماعة وابتدع» .

ويقول : «أصول الكفر ستة . . . » ذكر خمسة ثم قال :

سادسا : التمسك فى أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية» .

(ب) صرح متكلموهم ـ ومنهم من سبق فى فقرة «أ» أن نصوص الكتاب والسنة ظنية الدلالة ولا تفيد اليقين إلا إذا سلمت من عشر عوارض منها : الاضمار والتخصيص والنقل والاشتراك والمجاز. . . الخ. وسلمت بعد هذا من المعارض العقلى بل قالوا : من احتمال المعارض العقلى !!

(ج) موقفهم من السنة خاصة أنه لا يثبت بها عقيدة بل المتواتر منها يجب تأويله واحادها لا يجب الاشتغال بها حتى على سبيل التأويل ، حتى إن إمامهم الرازى قطع بأن رواية الصحابة كلهم مظنونة بالنسبة لعدالتهم وحفظهم سواء ، وانه فى الصحيحين أحاديث وضعها الزنادقة. . . إلى آخر مالا استجيز نقله لغير المختصين ، وهو فى كتابه أساس التقديس والأربعين .

---

(١) يلاحظ أن الدلائل النقلية تشمل نصوص الكتاب والسنة معا فكيف يقال أنها غير صحيحة دون تفريق بينهما، مع أن مجرد اطلاقها على السنه وحدها فى غاية الخطورة .

(٢) هل وصلت قيمة نصوص الوحى إلى حد أن الاشتغال بتأويلها ـ الذى هو تحريف لها يعتبر تبرعا واحسانا؟!

(د) تقـرأ فى كتب عقيـدتهم قديمهـا وحديثها المائة صفحة أو أكثر فلا تجد فيها آية ولا حديثاً لكنك قد تجد فى كل فقرة «قال الحكماء» أو «قال المعلم الأول» أو «قالت الفلاسفة» ونحوها . . .

(هـ) مذهب طائفـة منهم وهم صوفيتهم ـ كالغـزالى والجـامى ـ فى مصدر التلقى هو تقـديم الكشف والـذوق على النص وتأويـل النص ليوافقه وقد يصححون بعض الأحاديث ويضعفـونهـا حسب هذا الـذوق كحـديث إسـلام أبوى النبى ﷺ ودخولهما الجنة بزعمهم . ويسمون هذا «العلم اللدنى» جرياً على قاعدة الصوفية «حدثنى قلبى عن ربى»(١) .

الثانى : اثبات وجود الله :

معلوم أن مذهب السلف هو أن وجوده تعالى أمر فطرى معلوم بالضرورة والأدلة عليه فى الكون والنفس والآثار والآفاق والوحى أجل من الحصر، ففى كل شىء له آية وعليه دليل .

أما الأشاعرة فعندهم دليل يتيم هو دليل «**الحدوث والقدم**» وهو الاستدلال على وجود الله بأن الكـون حادث وكـل حادث فلابـد من محدث قديم ، وأخص صفـات هذا القـديم مخالفته للحوادث وعدم حلولها فيه ومن مخالفته للحوادث اثبات أنه ليس جوهرا ولا عرضا ولا جسما ولا فى جهـة ولا مكـان . . . الـخ . ثم أطالوا جدا فى تقرير هذه القضايا هذا وقد رتبوا عليـه من الأصـول الفـاسدة مالا يدخل تحت العد مثل انكارهم لكثير من الصفات كالرضا والغضب والاستـواء بشبهـة نفى حلول الحوادث فى القديم ونفى الجوهرية والعرضية والجهة والجسمية . . . إلى آخر المصطلحات البدعية التى جعلوا نفيها أصولاً وأنفقوا الأعمار والمداد فى شرحهـا ونفيهـا . ولـو أنهم قالـوا الكـون مخلوق وكـل مخلوق لابد له من خالق لكان أيسر وأخصر مع أنه ليس الدليل الوحيد ولكنهم تعمدوا موافقة الفلاسفة حتى فى ألفاظهم(٢) .

---

(١) أنظر عن مصدر التلقى عندهم : درء تعارض العقل والنقل فهو كله رد عليهم وقد استفتحه بذكر قانونهم الكلى فى التعـارض، أسـاس التقـديس للرازى : ١٦٨ ـ١٧٣ ، الشـامـل للجـوينى : ٥٦١ ، الارشـاد له : ٣٥٩ ـ٣٦٠، شرح الكبرى للسنوسى : ٥٠٢ المواقف للايجى : ٣٩ ـ٤٠ ، مختصر الصواعق ٣٣ ، ٢٥٨ ، مشكل الحديث لابن فورك : مقدمته وخاتمته .

أصول الدين للبغدادى : ١٢ ، كبرى اليقينيات : محمد سعيد رمضان البوطى الاهداء، ٣٢ ـ٣٣، الرسالة اللدنية للغزالى : ١/١١٤ـ ١١٨ من مجموعة القصور العوالى .

(٢) أنظر الأبواب الأولى من أى كتاب فى عقيدتهم ، ومجموع الفتاوى : ٢/٧ ـ٢٣ وأول شرح الاصبهانية . ويلاحظ أن تعمـدهم استخـدام كلمـة (حـادث) سببه أنهم لوقالوا (مخلوق) لألزمهم الفلاسفة بان هذا هوموضع النزاع ولا يستدل بالـدعـوى على نفسهـا فى نظـرهم ، ومع هذا فالفلاسفة يقولون الكون قديم ولا نسلم أنه حادث ، فالأشاعرة كما قال شيخ الاسلام (لا للاسلام نصروا ولا للفلاسفة كسروا) .

الثالث : التوحـــيد :

التوحيد عند أهل السنة والجماعة معروف بأقسامه الثلاثة وهو عندهم أول واجب على المكلف ، أمـا الأشـاعـرة قدمـاؤ هم ومعـاصروهم فالتوحيد عندهم هو نفى التثنية أو التعدد ونفى التبعيض والـتركيب والتجـزئـة أى حسب تعبـيرهم «نفى الكميـة المتصلة والكميـة المنفصلة» ومن هذا المعنى فسـروا الإلـه بأنـه الخـالق أو القادر على الاختراع وأنكروا بعض الصفات كالوجه واليد والعين لأنها تدل على التركيب والأجزاء عندهم .

أمـا التـوحيـد الحقيقى وما يقابله من الشرك ومعرفته والتحذير منه فلا ذكر لها فى كتب عقيـدتهم اطـلاقـا ولا أدرى أين يضعونه أفى كتب الفروع؟ فليس فيها أم يتركونه بالمرة فهذا الذى أجزم به .

أمـا أول واجب عنـد الأشـاعـرة فهـو النظر أو القصد إلى النظر أو أول جزء من النظر أو . . . إلى آخـر فلسفتهم المختلف فيهـا وعنـدهم أن الإنسـان إذا بلغ سن التكليف وجب عليه النظر ثم الإيمان واختلفوا فيمن مات قبل النظر أو فى أثنائه . أيحكم له بالإسلام أم بالكفر ؟ !

وينكـر الأشـاعـرة المعـرفة الفطرية ويقولون إن من آمن بالله بغير طريق النظر فإنما هو مقلد ورجح بعضهم كفره واكتفى بعضهم بتعصيته ، وهذا ما خالفهم فيه الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ ونقل أقوالا كثيرة فى الرد عليهم وان لازم قولهم تكفير العوام بل تكفير الصدر الأول(١) .

الرابع : الإيمـــان :

الأشـاعـرة فى الإيمان مرجئة جهمية أجمعت كتبهم قاطبة على أن الإيمان هو التصديق القلبى ، واختلفوا فى النطق بالشهادتين أيكفى عنه تصديق القلب أم لابد منه ، قال صاحب الجوهرة :

وفـسـر الإيـمان بالـتـصـديـق   والـنطـق فيـه الخـلف بالـتـحـقـيـق

---

(١) عن هذه الفقرة أنظر : نهاية الاقدام للشهرستانى : ٩٠، شرح الكبرى : ٣٠٤، غاية المرام للآمدى : ١٤٩، كبرى اليقينيات : ٩٢-٩٣، الله جل جلاله : سعيد حوى : ١٣١ أركان الإيمان لوهبى غاوجى : ٣٠. وبخصوص أول واجب والمعرفة الفطرية أنظر : درء تعارض العقل والنقل ج٧، ٨، ٩ كلها . الانصاف للباقلانى : ٢٢، الارشاد : ٣. المواقف : ٣٢-٣٣- الشامل : ١٢٠، أصول الدين للبغدادى : ٢٥٤-٢٥٥، فتح البارى ٣/٣٥٧، ٣٦١. ١٣/٣٤٧-٣٥٨ .

وقد رجح الشيخ حسن أيوب من المعاصرين أن المصدق بقلبه ناج عند الله وإن لم ينطق بها ومال إليه البوطى. فعلى كلامهم لاداعى لحرص النبى ﷺ أن يقول عمه أبو طالب لا إله إلا الله لأنه لاشك فى تصديقه له بقلبه، وهو من شابهه على مذهبهم من أهل الجنة !!

هذا وقد أولوا كل آية أو حديث ورد فى زيادة الإيمان ونقصانه أو وصف بعض شعبه بأنها إيمان أو من الإيمان[1].

ولهذا أطال شيخ الإسلام - رحمه الله - الرد عليهم بأسمائهم كالأشعرى والباقلانى والجوينى وشراح كتبهم وقرر أنهم على مذهب جهم بعينه. وفى رسالتى فصل طويل عن هذه القضية فلا أطيل به هنا.

الخامس : القرآن :

وقد أفردت موضوعه لأهميته القصوى، وهو نموذج بارز للمنهج الأشعرى القائم على التلفيق الذى يسميه الأشاعرة المعاصرون «التوفيقية» حيث انتهج التوسط بين أهل السنة والجماعة وبين المعتزلة فى كثير من الأصول فتناقض واضطرب.

فمذهب أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأنه تعالى يتكلم بكلام مسموع تسمعه الملائكة وسمعه جبريل وسمعه موسى - عليه السلام - ويسمعه الخلائق يوم القيامة.

ومذهب المعتزلة أنه مخلوق.

أما مذهب الأشاعرة فمن منطلق التوفيقية - التى لم يحالفها التوفيق - فرقوا بين المعنى واللفظ. فالكلام الذى يثبتونه لله تعالى هو معنى أزلى أبدى قائم بالنفس ليس بحرف ولا صوت ولا يوصف بالخبر ولا الانشاء.

واستدلوا بالبيت المنسوب للأخطل النصرانى :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما   جعل اللسان على الفؤاد دليلا

أما الكتب المنزلة ذات الترتيب والنظم والحروف - ومنها القرآن - فليست هى كلامه تعالى على الحقيقة بل هى «عبارة» عن كلام الله النفسى. والكلام النفسى شىء واحد فى

---

(١) أنظر الانصاف : ٥٥، الارشاد: ٣٩٧، غاية المرام: ٣١١، المواقف: ٣٨٤ الايمان لشيخ الإسلام: أكثره رد عليهم فلا حاجة لتحديد الصفحات، تبسيط العقائد الإسلامية، حسن أيوب: ٢٩ -٣٣ كبرى اليقينيات: ١٩٦ .

ذاتـه لكن إذا جاء التعبـير عنـه بالعـبرانيـة فهو توراة وان جاء بالسريانية فهو انجيل وان جاء بالعربية فهو قرآن، فهذه الكتب كلها مخلوقة ووصفها بأنها كلام الله مجاز لأنها تعبير عنه .

واختلفـوا فى القـرآن خاصـة فقال بعضهـم : «ان الله خلقه أولا فى اللوح المحفوظ ثم أنـزلـه فى صحـائف إلى سماء الـدنيـا» فكان جبريل يقرأ هذا الكلام المخلوق ويبلغه لمحمد ﷺ . وقال آخرون : ان الله أفهم جبريل كلامه النفسى وأفهمه جبريل لمحمد ﷺ فالنزول نزول إعلام وافهام لا نزول حركة وانتقال (لأنهم ينكرون علو الله) ثم اختلفوا فى الذى عبر عن الكلام النفسى بهذا اللفظ والنظم العربى من هو؟ . فقال بعضهم : هو جبريل، وقال بعضهم : بل هو محمد ﷺ !!

واستدلوا بمثل قوله تعالى : ﴿**انه لقول رسول كريم**﴾ . فى سورتى الحاقة والانشقاق حيث أضـافـه فى الأولى إلى محمـد ﷺ وفى الأخـرى إلى جبريل بأن اللفظ لأحد الرسولين «جبريل أو محمد» وقد صرح الباقلانى بالأول وتابعه الجوينى .

قال شيـخ الإسـلام : «وفى اضـافتـه تعالى إلى هذا الرسول تارة وإلى هذا تارة دليل على أنـه اضـافـة بلاغ وأداء لا اضـافـة احـداث لشىء منه وانشاء كما يقول بعض المبتدعة الأشعرية من أن حروفه ابتداء جبريل أو محمد مضاهاة منهم فى نصف قولهم لمن قال انه قول البشر من مشركى العرب»[(١)] .

وعلى القـول أن القـرآن الـذى نقـرؤه فى المصاحف مخلوق سار الأشاعرة المعاصرون وصـرحـوا، فكشفـوا بذلـك ما أراد شارح الجـوهرة أن يستره حين قال : «يمتنع أن يقال إن القرآن مخلوق إلا فى مقام التعليم»[(٢)] .

السادس : القــــدر :

أراد الأشاعرة هنا أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية فجاءوا بنظرية الكسب وهى فى مآلها جبريـة خالصـة لأنهـا تنفى أى قدرة للعبـد أو تأثـير أما حقيقتها النظرية الفلسفية فقد عجز الأشاعرة أنفسهم عن فهمها فضلا عن افهامها لغيرهم ولهذا قيل :

---

(١) مجموع الفتاوى .

(٢) عن القـرآن عنـدهم أنظـر : الانصـاف : ٩٦ ـ ٩٧ وما بعدها، الارشاد : ١٢٨ ـ ١٣٧، أصول الدين : ١٠٧، المواقف : **٢٩٣**، شرح الباجورى على الجوهرة ٦٤ ـ ٦٦، ٨٤ . متن الدردير **٢٥** من مجموع مهمات المتون، التسعينية وقد استغرق موضوع الرد عليهم فى القرآن أكثر مباحثها ومن أعظمها وأنفسها ما ذكره فى الوجه السابع والسبعين فليراجع .

مما يقال ولا حقيقة تحته معقولة تدنوا إلى الأفهام
الكسب عند الأشعرى والحال عند البهشمى وطفرة النظام

ولهذا قال الرازى الذى عجز هو الآخر عن فهمها : «ان الإنسان مجبور فى صورة مختار» .

أما البغدادى فأراد أن يوضحها فذكر مثالا لأحد أصحابه فى تفسيرها شبه فيه اقتران قدرة الله بقدرة العبد مع نسبة الكسب إلى العبد «بالحجر الكبير قد يعجز عن حمله رجل ويقدر آخر على حمله منفردا به فإذا اجتمعا جميعا على حمله كان حصول الحمل بأقواهما، ولا خرج أضعفهما بذلك عن كونه حاملا» !!

وعلى مثل هذا المثال الفاسد يعتمد الجبرية وبه يتجرأ القدرية المنكرون، لأنه لو أن الأقوى من الرجلين عذب الضعيف. وعاقبه على حمل الحجر فانه يكون ظالما باتفاق العقلاء، لأن الضعيف لا دور له فى الحمل، وهذه المشاركة الصورية لا تجعله مسؤولا عن حمل الحجر .

والارادة عند الأشاعرة معناها «المحبة والرضا وأولوا قوله تعالى : ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر**﴾ بأنه لا يرضاه لعباده المؤمنين! فبقى السؤال واردا عليهم : وهل رضيه للكفار أم فعلوه وهو لم يرده؟ .

وفعلوا بسائر الآيات مثل ذلك .

ومن هذا القبيل كلامهم فى الاستطاعة، والحاصل أنهم فى هذا الباب خرجوا عن المنقول والمعقول ولم يعربوا عن مذهبهم فضلا عن البرهنة عليه !![1] .

السابع : السببية وأفعال المخلوقات :

ينكر الأشاعرة الربط العادى باطلاق وأن يكون شىء يؤثر فى شىء وأنكروا كل «باء سببية» فى القرآن، وكفروا وبدعوا من خالفهم ومأخذهم فيها هو مأخذهم فى القدر، فمثلا عندهم : من قال ان النار تحرق بطبعها أو هى علة الاحراق فهو كافر مشرك لأنه لا فاعل عندهم إلا الله مطلقا حتى أن أحد نحاة الأندلس من دولة الموحدين التومرتية الأشعرية هدم «نظرية العامل» عند النحاة مدعيا ان الفاعل هو الله !!

---

(١) الانصاف : ٤٥ ـ٤٦، بهوامش الكوثرى، الارشاد: ١٨٧ ـ٢٠٣، أصول الدين: ١٣٣، نهاية الاقدام: ٧٧، المواقف: ٣١١، شفاء العليل ٢٥٩ ـ٢٦١ وغيرها .

ومن قال عندهم ان النار تحرق بقوة أودعها الله فيها فهو مبتدع ضال، قالوا ان فاعل الاحراق هو الله ولكن فعله يقع مقترنا بشيء ظاهرى مخلوق، فلا ارتباط عندهم بين سبب ومسبب أصلا وإنما المسألة اقتران كاقتران الزميلين من الأصدقاء فى ذهابهما وإيابهما.

ومن متونهم فى العقيدة :

والفعل فى التأثير ليس إلا ... للواحد القهار جل وعلا
ومن يقل بالطبع أو بالعلة ... فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة ... فذاك بدعى فلا تلتفت

والغريب أن هذا هو مذهب ما يسمى المدرسة الوضعية من المفكرين الغربيين المحدثين ومن وافقهم من ملاحدة العرب، وما ذاك إلا لأن الأشاعرة والوضعيين كلاهما ناقل عن الفكر الفلسفى الاغريقى[1].

الثامن : الحكمة الغائبة :

ينفى الأشاعرة قطعا أن يكون لشىء من أفعال الله تعالى علة مشتملة على حكمة تقضى ايجاد ذلك الفعل أو عدمه، وهذا نص كلامهم تقريبا، وهو رد فعل لقول المعتزلة بالوجوب على الله حتى انكر الأشاعرة كل لام تعليل فى القرآن وقالوا ان كونه يفعل شيئا لعلة ينافى كونه مختارا مريدا. وهذا الأصل تسميه بعض كتبهم «نفى الغرض عن الله» ويعتبرونه من لوازم التنزيه، وجعلوا أفعاله تعالى كلها راجعة إلى محض المشيئة ولا تعليق لصفة أخرى - كالحكمة مثلا - بها، ورتبوا على هذا أصولا فاسدة كقولهم بجواز أن يخلد الله فى النار أخلص أوليائه ويخلد فى الجنة افجر الكفار، وجواز التكليف بما لايطاق ونحوها.

وسبب هذا التأصيل الباطل عدم فهمهم ألا تعارض بين المشيئة والحكمة أو المشيئة والرحمة. ولهذا لم يثبت الأشاعرة الحكمة مع الصفات السبع واكتفوا باثبات الارادة مع أن الحكمة تقتضى الارادة والعلم وزيادة حتى أن من المعاصرين من أضافها مثل سعيد حوى[2].

---

(١) المصادر السابقة فى القدر، وشرح الكبرى: ١٨٤، شرح أم البراهين: ١١، ٨٠-٨١، منظومة الدردير ٢٤٠ وقد أفردناها عن القدر لأنهم يفردونها وقد يقدمونها باعتبارها من قضايا الكفر والإيمان !!

وعن المدرسة الوضعية أنظر «المنطق الوضعى» زكى نجيب محمود فهو أحدهم.

(٢) انظر المواقف : ٣٣١، شرح الكبرى: ٣٢٢ ٤٢٣، شرح أم البراهين: ٣٦، النبوات ١٦٣-٢٣٠، مجموع الفتاوى: ١٦/٢٩٩، وقد أطال ابن القيم فى رد شبه الأشاعرة فى شفاء العليل: أنظر مثلا من ٣٩١ إلى ٥٢١، حيث رد =

التاسع : النبـــوات :

يختلف مذهب الأشـاعـرة عن مذهب أهل السنة والجماعة فى النبوات اختلافا بعيدا، فهم يقـررون أن ارسـال الـرسل راجع للمشيئة المحضة - كما فى الفقرة السابقة - ثم يقررون أنه لا دليل على صدق النبي إلا المعجزة، ثم يقررون أن أفعال السحرة والكهان من جنس المعجـزة لكنهـا لا تكـون مقرونة بادعاء النبوة والتحدى، قالوا: ولو ادعى الساحر أو الكاهن النبـوة لسلبـه الله معـرفـة السحر رأسا وإلا كان هذا اضـلالا من الله وهـو يمتنـع عليـه الاضلال. . . إلى آخر ما يقررونه مما يخالف المنقول والمعقول، ولضعف مذهبهم فى النبوات مع كونها من اخطـر أبـواب العقيـدة إذ كل أمـورهـا متـوقفـة على ثبوت النبوة اغروا اعداء الإسلام بالنيل منه واستطال عليهم الفلاسفة والملاحدة .

والصـوفيـة منهم كالغـزالى يفسرون الوحى تفسيرا قرمطيا فيقولون هو انتقاش العلم الفائض من العقل الكلى فى العقل الجزئى(١) .

أمـا فى موضـوع العصمـة فينكـرون صدور الـذنب عن الأنبيـاء ويؤ ولـون الآيـات والأحاديث الكثيرة تأويلا متعسفا متكلفا كالحال فى تأويلات الصفات(٢) .

العاشر : التحسين والتقبيح :

ينكر الأشاعرة أن يكون للعقل والفطرة أى دور فى الحكم على الأشياء بالحسن والقبح ويقولون مرد ذلك إلى الشرع وحده، وهذا رد فعل مغال: لقول البراهمة والمعتزلة ان العقل يوجب حسن الحسن وقبح القبيـح، وهـو مع منـافاته للنصوص مكابرة للعقول، ومما يترتب عليـه من الأصـول الفـاسدة قولهم ان الشرع قد يأتى بما هو قبيح فى العقل فالغاء دور العقل بالمرة أسلم من نسبة القبح إلى الشرع مثلا ومثلوا لذلك بذبح الحيوان فإنه ايلام له بلا ذنب وهو قبيح فى العقل ومع ذلك اباحه الشرع، وهذا فى الحقيقة هو قول البراهمة الذين يحرمون أكل الحيوان فلما عجز هؤلاء عن رد شبهتهم ووافقوهم عليها انكروا حكم العقل من أصله وتـوهموا أنهم بهذا يدافعـون عن الإسـلام . كما أن من أسبـاب ذلـك منـاقضة أصل من قال بوجوب الثواب والعقاب على الله بحكم العقل ومقتضاه(٢) .

= عليهم من ٣٦ وجها ومنهاج السنة: ١٢٨/١ الطبعة القديمة. الله جل جلاله: ٩٠ وقد ذكر الحكمة ضمن الظواهر ولم يذكرها ضمن الصفات .

(١) أنظر الارشاد: ٣٠٦، ٣٥٦، نهاية الاقدام: ٤٦١، أصول الدين: ١٧٦، المواقف: ٣٥٩-٣٦١، غاية المرام: ٣١٨، الرسالة اللدنية: ١: ١١٤ -١١٨ (من مجموعة القصور العوالى) .

(٢) نهاية الاقدام: ٣٧٠، شرح الكبرى: ٤٢٩، غاية المرام: ٢٣٤. المواقف ٣٢٣، مجموع الفتاوى ٤٣٢/٨-٤٣٦، التسعينية: ٢٤٧ .

الحادى عشر : التأويـــل :

ومعنـاه المبتـدع صرف اللفـظ عن ظاهـره الراجح إلى احتمال مرجوح لقرينة فهو بهذا المعنى تحريف للكلام عن مواضعه كما قرر ذلك شيخ الإسلام .

وهـو أصـل منهجى من أصول الأشاعرة وليس هو خاصا بمبحث الصفات بل يشمل أكثـر نصـوص الإيـمان خاصـة ما يتعلق باثبـات زيـادتـه ونقصانه وتسمية بعض شعبه إيمانا ونحـوهـا وكـذا بعض نصـوص الوعد والوعيد وقصص الأنبياء خصوصا موضوع العصمة، وبعض الأوامر التكليفية أيضا .

وضرورته لمنهج عقيدتهم أصلها أنه لما تعارضت عندهم الأصول العقلية التى قرروها بعيـدا عن الشـرع مع النصـوص الشـرعيـة وقعوا فى مأزق رد الكل أو أخذ الكل فوجدوا فى التأويـل مهـربـا عقليا ومخرجا من التعارض الذى اختلقته أوهامهم ولهذا قالوا اننا مضطرون للتأويـل وإلا أوقعنـا القـرآن فى التنـاقض . وان الخلف لم يؤ ولـوا عن هوى ومكابرة وإنما عن حاجة واضطرار؟ فأى تناقض فى كتاب الله يامسلمون نضطر معه إلى رد بعضه أو الاعتراف للأعداء بتناقضه ؟

وقد اعترف الصابونى بأن فى مذهب الأشاعرة «تأويلات غريبة» فما المعيار الذى عرف به الغريب من غير الغريب ؟

وهنا لابد من زيادة التأكيد على أن مذهب السلف لا تأويل فيه لنص من النصوص الشرعية اطلاقا ولا يوجد نص واحد ـ لا فى الصفات ولا غيرها ـ اضطر السلف إلى تأويله ولله الحمـد، وكـل الآيـات والأحـاديث التى ذكرها الصابونى وغيره تحمل فى نفسها ما يدل على المعنى الصحيـح الـذى فهمـه السلف منها والذى يدل على تنزيه الله تعالى دون أدنى حاجة إلى التأويل .

أما التأويل فى كلام السلف فله معنيان :

(١) التفسير كما تجد فى تفسير الطبرى ونحوه «القول فى تأويل هذه الآية» أى تفسيرها .

(٢) الحقيقـة التى يصـير إليهـا الشىء كما فى قولـه تعـالى : ﴿**هذا تأويل رؤياى من قبل**﴾ . أى تحقيقها . وقوله : ﴿**يوم يأتى تأويله**﴾ . أى تحقيقه ووقوعه .

أما التأول فله مفهوم آخر : راجع الحاشية .

وان تعجب فاعجب لهذه اللفظة النابية التى يستعملها الأشاعرة مع النصوص وهى أنها «توهم» التشبيه ولهذا وجب تأويلها فهل فى كتاب الله إيهام أم أن العقول الكاسدة تتوهم والعقيدة ليست مجال توهم .

فالعيب ليس فى ظواهر النصوص - عياذا بالله - ولكنه فى الافهام - بل الاوهام السقيمة . أما دعوى ان الإمام أحمد استثنى ثلاثة أحاديث وقال لابد من تأويلها فهى فرية عليه افتراها الغزالى فى (الاحياء وفيصل التفرقة) ونفاها شيخ الإسلام سندا ومتنا .

وحسب الأشاعرة فى باب التأويل ما فتحوه على الإسلام من شرور بسببه فانهم لما أولوا ما أولوا تبعتهم الباطنية واحتجت عليهم فى تأويل الحلال والحرام والصلاة والصوم والحج والحشر والحساب ، وما من حجة يحتج بها الأشاعرة عليهم فى الاحكام والاخرة إلا احتج الباطنية عليهم بمثلها أو أقوى منها من واقع تأويلهم للصفات . وإلا فلماذا يكون تأويل الأشاعرة لعلو الله - الذى تقطع به العقول والفطر والشرائع - تنزيها وتوحيدا وتأويل الباطنية للبعث والحشر كفرا وردة ؟ .[1] .

أليس كل منهما ردا لظواهر النصوص مع أن نصوص العلو أكثر واشهر من نصوص الحشر الجسمانى ؟ . ولماذا يكفر الأشاعرة الباطنية ثم يشاركونهم فى أصل من أعظم أصولهم ؟

---

(١) عن التأويل جملة أنظر كتاب ابن فورك كاملا ، والانصاف : ٥٦ ، ١٦٥ ، وغيرها والارشاد : فصل كامل له ، اساس التقديس : فصل كامل أيضا . وعن الثلاثة الأحاديث أنظر : أحياء علوم الدين طبعة الشعوب : ١/ ١٧٩ والرد عليه فى مجموع الفتاوى ٥/ ٣٩٨ وأنظر كذلك ٦/ ٣٩٧ ، ٥٨٠ تنبيه حول التأويل : التأول الذى يذكره الفقهاء فى باب البغاة وقد يرد فى بعض كتب العقيدة لا سيما فى موضوع التكفير والاستحلال هو غير التأويل المذكور هنا وإن كانت أكثر الكتب تسمية تأويلا وهو فى الحقيقة تأولا لان الفعل الماضى منه «تأول» .

فالتأول هو: وضع الدليل فى غير موضعه باجتهاد أو هو شبه تنشأ من عدم فهم دلالة النص ، وقد يكون المتأول مجتهدا مخطئا فيعذر وقد يكون متعسفا متوها فلا يعذر وعلى كل حال يجب الكشف عن حاله وتصحيح فهمه قبل الحكم عليه ولهذا كان من مذهب السلف عدم تكفير التأول حتي تقام عليه الحجة مثلما حصل مع بعض الصحابة الذين شربوا الخمر فى عهد عمر متأولين قوله تعالى ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا**﴾ الآية . ومثل هذا من أول بعض الصفات عن حسن نية متأولا قوله تعالى ﴿**ليس كمثله شىء**﴾ فهو مؤول متأول ولا يكفر ، ولهذ لم يطلق السلف تكفير المخالفين فى الصفات أو غيرها لأن بعضهم أو كثير منهم متأولون ، أما الباطنية فلا شك فى كفرهم لأن تأويلهم ليس له أى شبهة بل أرادوا هدم الإسلام عمدا بدليل أنهم لم يكتفوا بتأويل الأمور الاعتقادية بل أولوا الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج . الخ . . .

الثانى عشر : السمعيات :

يقسم الأشاعرة أصول العقيدة بحسب مصدر التلقى إلى ثلاثة أقسام :

(١) قسم مصدره العقل وحده وهو معظم الأبواب ومنه باب الصفات ولهذا يسمون الصفات السبع «عقلية» وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بوجوبه» دون توقف على الوحى عندهم .

(٢) قسم مصدره العقل والنقل معا كالرؤ ية ـ على خلاف بينهم فيها ـ وهذا القسم هو «ما يحكم العقل بجوازه استقلالا أو بمعاضدة الوحى .

(٣) قسم مصدره النقل وحده وهو السمعيات أى المغيبات من أمور الآخرة كعذاب القبر والصراط والميزان وهو عندهم : مالا يحكم العقل باستحالته لكن لو لم يرد به الوحى لم يستطع العقل إدراكه منفردا . ويدخلون فيه التحسين والتقبيح والتحليل والتحريم .

والحاصل أنهم فى صفات الله جعلوا العقل حاكما وفى اثبات الآخرة جعلوا العقل عاطلا وفى الرؤ ية جعلوه مساويا . فهذه الأمور الغيبية نتفق معهم على اثباتها لكننا نخالفهم فى المأخذ والمصدر، فهم يقولون عند ذكر أى أمر منها نؤمن به لأن العقل لا يحكم باستحالته ولأن الشرع جاء به ويكررون ذلك دائما، أما فى مذهب أهل السنة والجماعة فلا منافاة بين العقل والنقل أصلا ولا تضخيم للعقل فى جانب واهدار فى جانب وليس هناك أصل من أصول العقيدة يستقل العقل باثباته ابدا كما أنه ليس هناك أصل منها لا يستطيع العقل اثباته ابدا .

فالايمان بالآخرة وهو أصل كل السمعيات ليس هو فى مذهب أهل السنة والجماعة سمعيا فقط بل أن الأدلة عليه من القرآن هى فى نفسها عقلية كما ان الفطر السليمة تشهد به فهو حقيقة مركوزة فى اذهان البشر ما لم يحرفهم عنها حارف . لكن لو أن العقل حكم باستحالة شىء من تفصيلاته ـ فرضا وجدلا ـ فحكمه مردود وليس إيماننا به متوقفا على حكم العقل . وغاية الأمر ان العقل قد يعجز عن تصوره اما أن يحكم باستحالته فغير وارد ولله الحمد[١] .

---

(١) أنظر الارشاد : ٣٥٨، ٣٤٠، الانصاف : ٥٥، المواقف : ٢٣، شرح الاصفهانية : ٤٩، النبوات : ٤٨، وأنظر الجزء الثانى من مجموع الفتاوى ٧ ـ ٢٧ .

الثالث عشر : التكفير :

التكفير عند أهل السنة والجماعة حق لله تعالى لا يطلق إلا على من يستحقه شرعا ولا تردد فى اطلاقه على من ثبت كفره بشروطه الشرعية .

أما الأشاعرة فهم مضطربون اضطرابا كبيرا فتارة يقولون نحن لا نكفر احدا وتارة يقولون نحن لا نكفر إلا من كفرنا وتارة يكفرون بأمور لا تستوجب أكثر من التفسيق أو التبديع وتارة يكفرون بأمور لا توجب مجرد التفسيق وتارة يكفرون بأمور هى نفسها شرعية ويجب على كل مسلم أن يعتقدها .

فأما قولهم لا نكفر أحدا فباطل قطعا إذ فى المنتسبين إلى الإسلام فضلا عن غيرهم كفار لاشك فى كفرهم وأما قولهم لا نكفر إلا من كفرنا فباطل كذلك إذ ليس تكفير أحد لنا بمسوغ أن نكفره إلا إذا كان يستحق ذلك شرعا .

وأما تكفير من لا يستحق سوى التبديع فمثل تصريحهم فى أغلب كتبهم بتكفير من قال إن الله جسم لا كالاجسام وهذا ليس بكافر بل هو ضال مبتدع لأنه أتى بلفظ لم يرد به الشرع والأشاعرة تستعمل ما هو مثله وشر منه . وأما تكفير من لا يستحق حتى مجرد الفسق أو المعصية فكما مر فى الفقرة السابعة من تكفيرهم من قال أن النار علة الاحراق والطعام علة الشبع .

وأما التكفير بما هو حق فى نفسه يجب اعتقاده فنحو تكفيرهم لمن يثبت علو الله ومن لم يؤ من بالله على طريقة أهل الكلام وكقولهم ان الأخذ بظواهر النصوص من أصول الكفر كقولهم أن عبادة الأصنام فرع من مذهب المشبهة ويعنون بهم أهل السنة والجماعة .

ومن شواهد تكفير بعضهم قديما وحديثا لشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وحسبك ما فى كتب الكوثرى وتلميذه مؤلف براءة الأشعريين[1] .

الرابع عشر : الصحابة والامامة :

من خلال استعراض لأكثر أمهات كتب الأشاعرة وجدت أن موضوع الصحابة هو الموضوع الوحيد الذى يتفقون فيه مع أهل السنة والجماعة وقريب منه موضوع الامامة . ولا

(١) أنظر المواقف : ٣٩٢ ، ومصادر المبحث «السابع» ، اساس التقديس : ١٦ ، ١٩٦ ، شرح الكبرى ٦٢ أركان الإيمان : ٢٩٨ ـ ٢٩٩ .

يعنى هذا الاتفاق التام بل هم مخالفون فى تفصيلات كثيرة لكنها ليست داخلة فى بحثنا هنا لأن غرضنا ـ كما فى سائر الفقرات ـ إنما هو المنهج والأصول .

الخامس عشر : الصفات :

والحديث عنها يطول وتناقضهم وتحكمهم فيها أشهر وأكثر، وكل مذهبهم فى الصفات مركب من بدع سابقة وأضافوا إليه بدعا أحدثوها فأصبح غاية فى التلفيق المتنافر .

ولن أتحدث عن هذا الباب هنا لأننى التزمت ببيان الأصول التى خالفوا فيها أهل السنة والجماعة عدا الصفات . أما مخالفتهم فى الصفات فمعروفة وان كان كثير من أسس نظرياتهم فيها يحتاج لتجلية ونسف . ولعل هذا ما يكون فى الرد المتكامل بإذن الله .

هل بقى شك ؟

بعد هذه المخالفات المنهجية فى أبواب العقيدة كلها وبعد هذا التميز الفكرى الواضح لمذهب الأشاعرة اضافة إلى التميز التاريخى هل بقى شك فى خروجهم عن مذهب أهل السنة والجماعة الذى هو مذهب السلف الصالح .

لا أظن أى عارف بالمذهبين ولو من خلال ما سبق هنا يتصور ذلك .

ومع هذا فسوف أضيف فوارق منهجية أخرى وضوابط فى علم الفرق والمقالات لايشك فى صدقها مطلع بل سأكتفى بفارق واحد وضابط واحد :

فارق منهجى نموذجى : التناقض ومكابرة العقل :

ليس هناك مذهب أكثر تناقضا من مذهب الأشاعرة ـ اللهم إلا مذهب الرافضة لكن الرافضة كما قال الإمام أحمد : «ليست الرافضة من الإسلام فى شىء» . وكما قال شيخ الإسلام : «ان الرافضة قوم لا عقل لهم ولا نقل» ، أما هؤلاء فيدعون العقل ويحكمونه فى النقل ثم يتناقضون تناقضا يبرؤ منه العقل ويخلو مذهب أهل السنة والجماعة من أدنى شائبة منه ولله الحمد ، وكما سيلاحظ القارىء هنا يرجع معظم تناقضهم إلى كونهم لم يسلموا للوحى تسليما كاملا ويعرفوا للعقل منزلته الحقيقية وحدوده الشرعية ولم يلتزموا بالعقل التزاما واضحا ويرسموا منهجا عقليا متكاملا كالمعتزلة والفلاسفة بل خلطوا وركبوا فتناقضوا واضطربوا .

وإليك أمثلة سريعة للتناقض ومكابرة العقل :

١ ـ قالوا : أنه لا يجوز أن يرى الأعمى بالمشرق البقعة بالأندلس .

٢ ـ **قالـوا** : ان الجهـة مستحيلة فى حق الله ثم **قالـوا** باثبات الرؤ ية ولهذا **قيل فيهم** : «من انكر الجهة واثبت الرؤ ية فقد أضحك الناس على عقله» .

٣ ـ **قالـوا** : ان لله سبـع صفـات عقلية يسمونها «معانى» هى «الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمـع والبصـر والكـلام ولم يكتفـوا بهذا التحكم المحض، بل **قالـوا** ان له سبـع صفـات أخـرى يسمـونهـا «معنوية» وهى «كونه حيا وكونه عالما وكونه قادرا وكونه مريدا وكونه سميعا وكونه بصيرا وكونه متكلما» ثم لم يأتوا فى التفريق بين المعانى والمعنوية بما يستسيغه عقل بل غاية ما قالوا أن هذه الاخيرة احوال فإذا سألتهم ما الحال؟ . قالوا صفة لا معدومة ولا موجودة . . .

٤ ـ **قالـوا** : انـه لا أثـر لشىء من المخلوقـات فى شىء ولا فعـل مطلقـا ثم **قالـوا** ان للإنسـان كسبـا يجازى لاجله ، فكيف يجازى على مالا أثـر له فيـه مطلقـا (راجـع فقـرتى : السادس والسابع) .

٥ -**قالـوا** : بنفى الحكمـة والتعليـل فى أفعال الله مطلقا ثم **إن الله يجعل لكل نبى معجزة لأجـل اثبـات صدق النبى فتنـاقضـوا بين ما يسمونه «نفى الحكمة والغرض وبين اثبات الله للرسول تفريقا بينه وبين المتنبىء** .

٦ ـ **قالوا** : بأن أحاديث الاحاد مهما صحت لا يبنى عليها عقيدة ثم أسسوا مذهبهم وبنـوه فى أخطـر الأصول والقضايا (الإيمان ، القرآن ، العلو) على بيتين غير ثابتين عن شاعر نصرانى ـ الاخطل ـ هما :

(١) ان الـكـلام لفـى الـفـؤ اد وإنـما   جعـل الـلسـان على الـفـؤ اد دليـلا

(٢) قد اسـتـوى بشـر على الـعـراق   من غير سيـف ودم مهـراق

٧ ـ **قالـوا** : بأن رفـع النقيضـين محال ـ وهو كذلك ـ محتجين بها فى مسائل ثم **قالوا** فى صفة من اعظم وابين الصفات «العلو» : إن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته ولا عن يمينـه ولا عن شمالـه . . . **وقـالـوا عن الأحوال** : هى صفات لا معدومة ولا موجودة فرفعوا النقيضين معا .

٨ ـ **قالوا** : ان العقل يقدم على النقل عند التعارض بل العقل هو الأصل والنقل إن وافقه قبل وان خالفه رد أو أول ، ثم **قالوا** ان العقل لا يحسن شيئا ولا يقبحه ، فجعلوا ـ مثلا ـ نصوص علو الله معارضة للقواطع العقلية فى حين جعلوا قبح الزنا والكذب مسألة سمعية . . .

٩ ـ قالـوا : إن تأويـل آيـات الصفـات واجب يقتضيـه التنـزيـه وتأويل آيات الحشر والأحكـام كفـر يخرج من الملة . . . أمـا من دعـا غير الله أوذبح له واستغاث به أو تحاكم إلى الطاغوت فلم يتعرضوا لذكره أصلا .

١٠ ـ قالـوا : إن من قال إن النـار تحرق بطبعهـا كافـر مشـرك ومن أنكر علو الله على خلقه موحد منزه .

١١ ـ جزمـوا بأن من لم يبلغـه الشـرع غير مؤاخذ باطلاق وردوا أو أولوا النصوص فى ذلك . ثم **قالوا** : ان على كل مكلف وان كان مولودا من ابوين مسلمين فى ديار الإسلام وهو يظهر الإسلام ـ عليه إذا بلغ سن التكليف ان ينظر فى حدوث العالم ووجود الله فإن مات قبل النظر أو فى اثنائه اختلفوا فى الحكم بإسلامه وجزم بعضهم بكفره(١) .

هذا غيض من فيض من تنـاقضهم مع أصـولهم ومكـابـرتهم للعقل السليم ومن اراد الاستزادة والتفصيل فليراجع التسعينية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

وهنـاك قضيـة بالغـة الخطورة لاسيما فى هذا العصر وهى الاخطاء العلمية عن الكون التى تمتلىء بها كتب الأشاعرة والتى يتخذها الملاحدة ، وسيلة للطعن فى الإسلام وتشكيك المسلمين فى دينهم .

من ذلـك ما حشـده صاحب المـواقف فى أول كتـابـه من فصـول طويلة عن الفلك والحـرارة والضـوء والمعـادن وغـيرهـا مما قد يكـون ذا شأن فى عصره لكنه اليوم اشبه بأساطير اليونان أو خرافات العجائز .

ومن ذلـك **قول البغـدادى إن أهـل السنـة**(٢) اجمعـوا على وقوف الأرض وسكونها(٣) واستدل على ذلك فى كتابه أصول الدين «بمعنى اسم الله الباسط» قال : لأنه بسط الأرض وسـاهـا بسـاطـا خلاف زعم الفلاسفة والمنجمين أنها كروية(٤) ومثله صاحب المواقف الذى أكد أنها مبسوطة وأن القول بأنها كرة من زعم الفلاسفة(٥) .

---

(١) شرح البـاجـورى : ٣١ ، شرح الكـبرى : ٣٩ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، حاشيـة الـدسـوقى : ٥٤ ـ ٧٠ ـ ٩٧ ، مصادر الموضوعات السابقة .

(٢) يعنى بهم الأشاعرة كعادته هو وبعض أصحابه ولهذا يجب التفطن لمثل هذا عند النقل من كتبهم .

(٣) الفرق بين الفرق : ٣١٨ .

(٤) أنظر ص ١٢٤ .

(٥) أنظر المواقف : ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢١٩ .

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية ما كان أعظمه حين قال :

«والخطأ فيما تقوله المتفلسفة فى الالهيات والنبوات والمعاد والشرائع أعظم من خطأ المتكلمين .

وأما فيما يقولونه فى العلوم الطبيعية والرياضية فقد يكون صواب المتفلسفة أكثر من صواب من رد عليهم من أهل الكلام ، فإن أكثر أهل الكلام فى هذه الأمور بلا علم ولا عقل ولا شرع[1] .

ضابط من ضوابط معرفة الفرق واختلافها :

من المعلوم لدى الباحثين فى الفرق واختلافها أن لكل فرقة أساسا منهجيا تتفق عليه طوائفها وترجع إليه أصولها وقواعدها ومن خالف فيه خرج عن انتسابه لها ومن لم ينطبق عليه لم يدخل فيها .

فمثلا كل من قال بالأصول الخمسة فهو معتزلى وكل من قال ان الانسان مجبور على افعاله فهو جبرى وكل من قال إن الإيمان هو المعرفة أو التصديق فهو مرجىء وكل من قال بالكلام النفسى والكسب فهو أشعرى . . . إلى آخر ما هو معروف .

وهذا ضابط منهجى يحدد به الباحث الفرقة والانتماء إليها .

وبتطبيق هذا الضابط الذى لا خلاف فى تحديده يتبين قطعا ان المرجئة والقدرية والمعتزلة ليسوا من أهل السنة والجماعة وهذا ما تقوله الأشاعرة ولا تخالف فيه .

ومن الثابت عن كثير من السلف وعليه جرى المصنفون فى الفرق والمقالات من أهل السنة والأشاعرة أن أصول الفرق الثنتين وسبعين الخارجة عن أهل السنة والجماعة أربع «القدرية ، والشيعة ، والخوارج ، والمرجئة» .

فنقول بعد ذلك :

إذا كان المرجىء والقدرى ليسا من أهل السنة فما حكم من جمع بين الأرجاء والقدر أو الارجاء والجبر أو جمع بين أصول المعتزلة وقول الرافضة؟ .

أيكون هذا من أهل السنة والجماعة؟ أم أكثر بعدا عنهم؟ .

والجواب الطبيعى معروف . وعليه نقول :

١ ـ إذا كانت المرجئة الخالصة (أى التى لم تخلط بالأرجاء شيئا من البدع فى الصفات

(١) الرد على المنطقيين : ٣١١ .

أوغيرهـا) ليست هى أهـل السنـة والجـماعـة ولا منهم ، فكيف يكـون حال الأشاعرة الذين جاءوا بالأرجاء كاملا وزادوا عليه بدعا أخرى فى أبواب العقيدة الأخرى كما مر سابقا .

٢ ـ إذا كانت الجبرية الخالصة ليست هى أهل السنة والجماعة ولا منهم فكيف يكون حال الأشاعرة الذين جاءوا بالكسب (الذى اعترف كثير منهم بأنه جبر وإن لم يكن جبرا فهو بدعة على أى حال) وزادوا عليه كما سبق .

أضف إلى هذا أن كل ذم للصـوفيـة فللأشـاعـرة منـه نصيب لأن أكثر أئمة الصوفية المنحرفين كالغزالى وابن القشيرى كانوا أشاعرة . . .

٣ ـ هل يرضى الأشاعرة أن يقال عنهم معتزلة فإن قالوا : لا . وهو المتوقع قلنا : وأهل السنة والجماعة لا يرضون ان يقال عنهم أشاعرة ابدا ، فإن خالفونا . قلنا : تعالوا لنقيس نحن وأنتم المسـافـة بينكم وبيننـا وبينكم وبـين المعتزلة وعندها ترون انكم اقرب إليهم منكم إلينا وإن كنتم اقرب إلينا منهم .

٤ ـ لو أن أى باحث فى الفـرق يعـرف أصولها وضوابط تحديدها اطلع على كتب فرقة من الفرق أو علم من الاعلام فوجدها مملوءة شتما وتضليلا وتبديعا وتكفير لفرقة معينة فهل يجوز له أن يكتب فى بحثه ان هذه الفرقة وتلك سواء أو أن هذه جزء من هذه وهل يقبل هذا منه أى أستاذ للفرق والمذاهب؟ .

بل لو سمعت أحدا من العامة يشتم طائفة من الناس فقلت له أنت منهم ، افيرضى بهذا أم يعتبره شتما له؟ .

فما القـول إذن فى الأشـاعـرة الـذين تمتلىء كتبهم بشتم وتضليـل وتبـديع أهل السنة والجماعة وأحيانا بتكفيرهم أيصح بعد هذا ان نقول إنهم منهم؟ .

وإن اردت التأكد فاسأل أى أشعرى ما المراد بقول الرازى أو الجوينى أو الايجى . . . الخ . (الحشوية ، المجسمة ، النابته ، مثبتو الجهة ، القائلون بان الحوادث تحل فى الله . . . الخ)[1] .

ان الأجوبة كلها بدهية ولكن ماذا نصنع وقد ابتلينا بمن ينكر البدهات .

---

(١) ومن العجيب أن المـاتـريـديـة يخرجـون الأشاعرة من أهل السنة ويدعونه لأنفسهم وهم أكثر فرقتين فى الإسلام تقاربا واشتراكا فى الأصول .

أنظر حاشية على شرح العضدية : ٣٨ .

أما ما يتعلق بالخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة فهو برمته خلاف داخلى ضمن المدرسة العقلية «التى هى مدرسة الهوى والبدعة ولا بأس أن يستفيد أهل السنة من رودود الأشاعرة عليهم إذا كانت حقا .

أيهما الفرقة الناجية؟

قد أوضحنا فيما سبق أن أهل السنة والجماعة والأشاعرة فرقتان مختلفتان، وهذا يستلزم تحديد أيهما الفرقة الناجية؟.

وما أوضح هذا التحديد وأسهله، لكن مكابرة بعض الأشاعرة بادعاء ان الأشاعرة وأهل السنة والجماعة كلاهما ناج يجعلنا نبدأ بالقاء سؤال عن الفرقة الناجية :

أهي فرقة واحدة أم فرقتان؟

والجواب : ـ مع بداهته لكل ذى عقل ـ مفروغ منه نصا، فقد أخبر النبى ﷺ فى روايات كثيرة لحديث افتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة : «انها كلها فى النار إلا واحدة» .

وما قال ﷺ ولا أحد من أصحابه ولا تابعيهم انها اثنتان . وعليه جاء تفسير قوله تعالى : ﴿**وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله**﴾ أن الطريق المستقيم هو السنة والسبل هى الأهواء، وما هو إلا طريق واحد كما خط النبى ﷺ بيده .

وعلى هذا سارت كتب الفرق ـ السنى منها والبدعى ـ فهى تقرر ان الفرقة الناجية واحدة ثم تدعى كل فرقة انها هى هذه الواحدة .

بقى إذن أن يقال :

ما هى صفة هذه الفرقة وعلامتها؟

والجواب أنه جاء فى بعض روايات الحديث نفسه ـ من طرق يقوى بعضها بعضا ـ انها «ما أنا عليه وأصحابى» ومعناها قطعا صحيح، ولا تخالف فيه الأشاعرة بل فى الجوهرة :

وكل الخير اتباع من سلف   وكل شر فى ابتداع من خلف

فنقول لهم إذن :

أكان مما عليه النبى ﷺ وأصحابه وسلف الأمة : تقديم العقل على النقل أو نفى الصفات ما عدا المعنوية والمعانى، أو الاستدلال بدليل الحدوث والقدم، أو الكلام عن الجوهر والعرض والجسم والحال . . . أو نظرية الكسب، أو ان الإيمان هو مجرد التصديق القلبى، أو القول بأن الله لا داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا تحته، أو الكلام النفسى

الذى لا صيغة له، أونفى قدرة العبد وتأثير المخلوقات، أو انكار الحكمة والتعليل . . . إلى آخر ما فى عقيدتكم ؟

اننا نربأ بكل مسلم أن يظن ذلك أو يقوله .

بل نحن نزيدكم ايضاحا فنقول :

ان هذه العقائد التى ادخلتموها فى الإسلام وجعلتموها عقيدة الفرقة الناجية بزعمكم . هى ما كان عليه فلاسفة اليونان ومشركو الصابئة وزنادقة أهل الكتاب .

لكن ورثها عنهم الجهم بن صفوان وبشر المريسى وابن كلاب وأنتم ورثتموها عن هؤلاء، فهى من تركة الفلاسفة والابتداع وليست من ميراث النبوة والكتاب .

ومن أوضح الأدلة على ذلك أننا ما نزال حتى اليوم نرد عليكم بها ألفه أئمة السنة الأولون من كتب فى الردود على «الجهمية» كتبوها قبل ظهور مذهبكم بزمان، ومنهم الإمام أحمد والبخارى وأبو داود والدارمى وابن أبى حاتم . . .

فدل هذا على أن سلفكم أولئك الثلاثة واشباههم مع مازدتم عليهم وركبتم من كلامهم من بدع جديدة .

على أن المراء حول الفرقة الناجية ليس جديدا من الأشاعرة فقد عقدوا لشيخ الإسلام ابن تيمية محاكمة كبرى بسبب تأليفه «العقيدة الواسطية» وكان من أهم التهم الموجهة إليه أنه قال فى أولها: «**فهذا اعتقاد الفرقة الناجية . . .**» .

إذ وجدوا هذا مخالفا لما تقرر لديهم من الفرقة الناجية هى الأشاعرة والماتريدية(١) .

وكان من جواب شيخ الإسلام لهم أنه أحضر أكثر من خمسين كتابا من كتب المذاهب الأربعة وأهل الحديث والصوفية والمتكلمين كلها توافق ما فى الواسطية وبعضها ينقل اجماع السلف على مضمون تلك العقيدة .

وتحداهم ـ رحمه الله ـ قائلا :

«قد أمهلت كل من خالفنى فى شىء منها ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثلاثة . . . يخالف ما ذكرت فأنا ارجع عن ذلك» .

---

(١) أنظر تفصيل المناظرة فى مجموع الفتاوى ج ٣ .

قال : «ولم يستطع المتنازعون مع طول تفتيشهم كتب البلد وخزائنه ان يخرجوا ما يناقض ذلك عن أحد من ائمة الإسلام وسلفه[1] .

فهل يريد الأشاعرة المعاصرون ان نجدد التحدى ونمدد المهلة أم يكفى ان نقول لهم ناصحين :

انه لا نجاة لفرقة ولا لاحد فى الابتداع وإنما النجاة كل النجاة فى التمسك والاتباع . . .

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ان السفينة لا تجرى على اليبس

من أهل القبلة لا من أهل السنة :

تبين مما تقدم أن الأشاعرة فرقة من الثنتين وسبعين فرقة وان حكم هذه الفرق الثنتين وسبعين هو :

(١) الضلال والبدعة .

(٢) الوعيد بالنار وعدم النجاة .

وهذا مثار جدل كبير ولغط كثير ممن يجهلون مذهب أهل السنة والجماعة فى الوعد والوعيد إذ ما يكادون يسمعون هذا حتى يرفعوا عقيرتهم باننا ندخل الأشاعرة النار ونحكم عليهم بالخروج من الملة ـ عياذا بالله .

ونحن نقول أنه لا يصح تفسير الفاظ أو اطلاقات مذهب السلف فى الوعد والوعيد إلا من خلال أقوالهم هم وعلى الذين يجهلونه ان يستفصلوا قبل أن يتسرعوا بادعاء التكفير .

وهذا موجز لمذهب السلف فى الفاظ الوعيد ونصوصه :

(١) فمن الفاظ الوعيد «الضلال» وهو ليس مرادفا للكفر باطلاق إلا عند من يجهلون أوضح بدهيات العقيدة ، فإذا اطلق على أحد من القبلة فالمراد به المعصية فى الاعتقادات كما ان لفظ «الفسق» يطلق على المعصية فى الاعمال .

مع أن الضلال والفسق يطلقان على الكفر أيضا كما فى قوله تعالى : ﴿**ومن يشرك**

---

(١) أنظر المصدر السابق : ١٦٩ ، ٢١٧ .

بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ . وقوله : ﴿ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ .

لكن إذا كانت كلمة الكفر نفسها تطلق فى الأحاديث ولا يراد بها الكفر الأكبر المخرج من الملة كما فى قوله ﷺ فى الصحيح : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» فكيف بلفظتى الفسق والضلال اللتين دون ذلك فى الوعيد .

والقرآن ـ على الصحيح ـ لم يأت فيه اطلاق الكفر إلا على الكفر الأكبر المخرج من الملة ، أما الضلال فورد فيه بمعنى الانحراف عن الحق والصواب مطلقا غير وروده بمعنى الكفر كما سبق .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ . ومعلوم أنه ليس كل عاص كافرا .

وقوله تعالى عن أصحاب الجنة المذكورين فى سورة القلم : ﴿فلما رأوها قالوا انا لضالون﴾ . وهم لم يشهدوا على أنفسهم بالكفر .

وقوله تعالى : ﴿ان تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى﴾ . أى تخطىء فتذكرها الأخرى .

والحاصل أن قولنا أن الأشاعرة فرقة ضالة يعنى أنها منحرفة عن طريق الحق ومنهج السنة ولا يعنى مطلقا خروجها عن الملة وأهل القبلة وهذا يتضح بالفقرة التالية :

(٢) نصوص الوعيد ومنها قوله ﷺ : «كلها فى النار إلا واحدة» لها منهجها المنضبط فى مذهب السلف عند الاطلاق وعند التعيين .

فنحن نعلم جميعا أن الله توعد قاتل النفس التى حرم الله والزانى وآكل مال اليتيم بالنار بصريح القرآن لكن هل يعنى هذا ، أن كل قاتل وزان وآكل مال يتيم يدخل النار قطعا وأننا لو رأينا أحدا منهم بعينه يجوز لنا أن نعتقد دخوله النار؟

ليس هذا من مذهب السلف ابدا ، وإنما مذهب السلف أن هذه النصوص تبين وتقرر حكم من فعل هذه الذنوب أما تحقق هذا الحكم فيه وتطبيق الوعيد وتنفيذه فيه فهو متوقف على شروط لابد من تحققها وموانع لابد من انتفائها(١) .

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى مجموع الفتاوى : ١٢/ ٤٧٩ ـ ٥٠١ .

فقد يقتل الرجل نفسا مؤمنه متأولا مجتهدا ـ كما كان من اقتتال الصحابة رضى الله عنهم ـ ويكون هذا الذنب فى حقه مثل النقطة السوداء فى بحر من الحسنات واعمال التقوى .

وقد يقتله ظالما معتديا وليس له رصيد من الخير يكفر عنه هذا الجرم .

فليس هذان عند الحكيم الخبير سواء وليس حكمهما فى مذهب السلف واحدا .

وكذلك الفرق بين زان ، وزان ، شارب خمر وآخر ، وسارق وسارق ، وآكل مال يتيم ومثله . . .

وقد صح عن النبى ﷺ لعن شارب خمر ومع هذا صح عنه النهى عن لعن الصحابى الذى شربها وجلده الحد فلعنه بعضهم فنهاه وشهد له بأنه يحب الله ورسوله .

فحب الله ورسوله فى هذا المعين مانع من تحقق الحكم المطلق فيه وهو الوعيد لشارب الخمر فى الدنيا والآخرة .

وهكذا معاملة أهل القبلة فى مجال العقيدة .

فإن أصحاب المناهج والفرق البدعية منهم من هو على الحد الادنى منها وله مع ذلك علم وعبادة وجهاد واخلاص فى نصرة الدين ومنهم من يكون رأسا فى البدعة داعيا إليها بقصد وسوء نية بل وربما تكون هذه البدعة مجرد ستار لعقائد أخبث يضمرها فى نفسه .

فمع اشتراك هذين فى أصل المنهج وشمول الاسم لهما معا وتناول الوعيد المطلق لكل منهما يظل الفرق بينهما حقيقة قائمة لاشك فيها .

فالمنهج له حكمه والافراد كل بحسب حاله وتقويم الفكرة فى ذاتها غير تقويم حامليها كل على حدة .

حتى منهج السلف نفسه يتفاوت أصحابه فيه جدا فمنهم من هو فى غاية التمسك به قولا وعملا واعتقادا ودعوة ومنهم من هو على الحد الادنى منه .

بل **نحن نقول** أن بعض المنتسبين أو المنسوبين إلى مناهج بدعية ليس منهم أصلا ولكنه متوهم يحسب أنهم على الحق وان الانتساب إليهم لا ضير فيه مع أنه لا يوافقهم فى مذهبهم لو عرفه حق معرفته أو أنهم مخطئون فى نسبته لمذهبهم ولو فتشنا لما وجدنا فيه مما يدعون شيئا .

ولهذا كانت هذه الأمة ـ ولله الحمد ـ أكثر أهل الجنة مع ان الفرقة الناجية منها واحدة فقط ، وما هذا إلا لأن المعدودين حقا من الفرق الثنتين وسبعين لا يساوون بالنسبة لسلف

الأمة وخلفها إلا نزرا يسيرا أما من اتبعهم عن جهل أو خطأ أو حسن نية أو تأثر بهم دون أن يشعر فله حكم آخر(١). والله تعالى حكم قسط ورحمته أوسع وفضله أعظم .

والحاصل ان احكام الآخرة ومنازل الناس فيها خاضعة لأمرا حكم الحاكمين واعدلهم، أما نحن فى الدنيا فمأمورون ان نحكم على كل منهج أو فرد بما حكم الله به عليه من غير افراط ولا تفريط ونتقيد بالضوابط التى جاءت فى مذهب السلف .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - فى مناظرته للأشاعرة والماتريدية أثناء المحاكمة التى اشرنا إليها :

فأجبتهم عن الأسئلة :

بأن قولى اعتقاد الفرقة الناجية، هى الفرقة التى وصفها النبى ﷺ بالنجاة حيث قال: «تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى .

فهذا الاعتقاد (يعنى ما فى الواسطية) هو المأثور عن النبى ﷺ وأصحابه - رضى الله عنهم - وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية. فأنه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة بالاسانيد أنه قال الإيمان يزيد وينقص، وكل ما ذكرته فى ذلك فانه مأثور عن الصحابة بالاسانيد الثابته لفظه ومعناه وإذا - خالفهم من بعدهم لم يضر فى ذلك .

ثم قلت لهم : وليس كل من خالف فى شىء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا. فإن المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه. وقد لا يكون بلغه فى ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته .

بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا فى هذا الاعتقاد، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا، كما يقال من صمت نجا»(٢).

وقال فى الإيمان :

«وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة، من كان منهم منافقا فهو كافر فى الباطن، ومن لم يكن منافقا بل كان مؤمنا بالله ورسوله فى الباطن لم يكن كافرا فى الباطن وان اخطأ فى التأويل كائنا ما كان خطؤه وقد يكون فى بعضهم شعبة من شعب النفاق ولا يكون فيه النفاق الذى يكون صاحبه فى الدرك الاسفل من النار .

---

(١) أنظر سلسلة الأحاديث الصحيحة الكلام عن حديث ٢٠٤ .

(٢) مجموع الفتاوى : ٣/١٧٩ .

ومن قال : ان الثنتين وسبعين فرقة كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل عن الملة فقد خالف الكتاب والسنة واجماع الصحابة - رضوان الله عليهم اجمعين - بل واجماع الائمة الاربعة وغير الاربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضا (من تلك الفرق) ببعض المقالات، كما قد بسط عليهم فى غير موضع»[1].

ولهذا نجد ان من كفر الجهمية من السلف مثل ابن المبارك ووكيع اخرجوهم من الثنتين وسبعين فرقة والحقوهم بالسبئية والغرابية وأمثالها .

وحتى فى المناهج الجامعية نجد أن كليات أصول الدين مثل كليتى مكة والمدينة حاليا تفصل بين الفرق الخارجه عن الإسلام وبين الفرق الأخرى .

فالأمر واضح لا لبس فيه إلا عند المعاندين أو المعذورين من غير المتخصصين . وكيف يكون عند الأشاعرة لبس فى موقف أهل السنة والجماعة منهم وهم يقفون نفس الموقف من المعتزلة فهم يصفونها بالضلال فى كتبهم ولا يقولون ان هذا يعنى اخراجهم من الملة فمن حقنا أن نلزمهم من واقع كتبهم .

وإذا تقرر هذا تبين أنه لا مبرر لمطالبة الأشاعرة بادخالهم فى أهل السنة والجماعة بدعوى أن هذا يجنبهم تهمة الخروج من أهل القبلة لأن ذلك يعنى هدم هذه القاعدة كلها إذ لو أدخلناهم لأدخلنا غيرهم حتى لا يبقى من تلك الفرق الثنتين وسبعين فرقة إلا دخلت .

وهذا ليس فى أيدينا ولا فى يد بشر إنما نحن متبعون لا مبتدعون .

أما باب الدخول الحقيقى فمفتوح على مصراعيه فمن الذى منعهم أن يرجعوا إلى عقيدة أهل السنة والجماعة التى هى عقيدة القرون الثلاثة والائمة الأربعة وسائر أئمة الهدى فى هذه الأمة المعصومة؟

وهذا خير لهم فى الدنيا والآخرة من بقائهم على بدعتهم وتفاخرهم بأنهم أقرب الفرق لأهل السنة والجماعة وقد سمعت هذا التفاخر من بعضهم - فعجبت لمن يعرف الحق ويفتخر بقربه منه ثم لا يكون من أهله ودعاته .

ولكن لله فى خلقه شؤون . . .

---

(١) ص٢٠٦

وأخيرا : كلمة التوحيد أساس توحيد الكلمة :

ونأتى أخيرا إلى الشعار الذى اتخذه القوم ستارا للطعن فى عقيدة السلف سرا وجهرا حتى إذا قام أحد يرد عنها السهام صاحوا فى وجهه : «لا تفرق كلمة المسلمين، إن وحدة الكلمة أهم من هذه القضايا، لماذا تثير خلافات عفى عليها الزمان واندثرت؟ لماذا الاهتمام بالقشور والشكليات؟ .

والحق أنه لو سكت كل أعداء الحق عن محاربته - ولن يسكتوا أبدا - لما جاز لنا أن نسكت عن بيانه للناس ودعوتهم إليه فكيف يجوز أن نسكت وهو يحارب والذى يطالبنا بالسكوت هو المحارب المهاجم .

هذه الأمة الممزقة المقطعة الأوصال يراد منا أن نسكت عن بيان طريق الخلاص لها وندعها تتخبط فى ظلمات البدع حتى لا نفرقها بزعمهم . وكأن القوم لا يعلمون ما الذى فرقها بعد أن كانت مجتمعة . إن دعوى تقديم توحيد الكلمة على كلمة التوحيد مصادمة للحق من جهة ولسنن الله فى الحياة من جهة أخرى :

وامام القائلين بها خياران لا ثالث لهما :

(١) إما أن يلتزموا تعميم هذا الحكم على كل من انتسب للإسلام وعليه فلا يجوز أن نثير أو نبحث خلافا أو نكتب ردا على أى فرقة تدعى الإسلام كالقاديانية والبهائية والدروز والنصيرية والروافض والبهرة والصوفية الحلولية وسائر الطوائف الكافرة بل ندعوها جميعا إلى جمع الصف ووحدة الكلمة لمحاربة الشيوعية والصهيونية وما منها إلا من هو مستعد لذلك إن صدقا وإن كذبا .

ومن لوازم هذا - على كلامهم - حرق أو اخفاء كتب عقيدة الأشاعرة لأنها تثير الخلاف مع المعتزلة وغيرهم فهى اذن تمزق الصف وتشتت الكلمة بل هى كما يعلم الصابونى وأمثاله تشتم أهل السنة والجماعة وهم أكثر المسلمين، ومما يجب اعدامه أيضا مقالات الصابونى نفسها لأنه كرر فيها حكمه بالتضليل للخوارج والرافضة وهذا بلا شك يغضب الشيعة والاباضية فهو - على كلامه - قد فرق كلمة المسلمين أيما تفريق !!

(٢) وأما أن يقولوا : كلا، لا يعم هذا الحكم كل المنتسبين للإسلام بل لابد من بيان كفر وضلال تلك الفرق وليس فى ذلك تفريق ولا تمزيق، وانما نريد توحيد صف أهل السنة والأشاعرة أو الفرق التى ليست ضالة ولا منحرفة !!

فنقول لهم حينئذ :

أولا : قد نقضتم قاعدتكم بأنفسكم فلا ترفعوا هذا الشعار إلا مقيدا مشروطا ان كنتم صادقين، لكن أخبرونا بأى معيار من معايير العدل تريدون السكوت عن اثارة الخلاف مع هذه وتحكمون بعدم ضلالها ووجوب اثارته مع تلك وتحكمون بعدم ضلالها ووجوب اثارته مع تلك وتحكمون. بضلالها أنهاجم الأباضية ونتآخى مع الرافضة مثلا أم العكس؟ أو نشنع على الرافضة ونصمت عن الصوفية؟ أم ماذا؟ ما هو المعيار؟ وهل هناك حقا فرق ضالة فأخبرونى ما هو الضلال إذن؟ . . .

قد تقولون : «نتعاون جميعا فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه» .

فنقول :

انه ما من فرقة ظهرت على الأرض تدعى الإسلام إلا ونحن متفقون معها على أشياء ومختلفون على أشياء، حتى القاديانية نتفق معها على الإيمان بالله وصحة نبوة محمد ﷺ والإيمان بالآخرة وتعظيم القرآن، وهم يعلنون محاربة الشيوعية والصهيونية. وغير ذلك، فإذا عذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه مثل نبوة أحمد القاديانى ونسخ شريعة محمد ﷺ ونحوهما، فماذا تكون النتيجة؟ وهل ترضون ذلك أم نعود من جديد للمطالبة بالمعيار الذى به نرد القاديانية ونقبل غيرها مع اشتراك الكل فى أصل الضلال والانحراف .

ان سلمتم ان كل ضال لابد من بيان ضلاله وأن المسلمين لن يجتمعوا إلا على الحق فقد بينا لكم ـ وما نزال مستعدين لمزيد بيان ـ أن الأشاعرة فرقة ضالة عن المنهج الصحيح، فهاهى ذى إذن الفرصة الذهبية لتوحيد المسلمين، وهى أن يعلن الأشاعرة فى كل مكان رجوعهم إلى مذهب السلف ومنهج الحق وحينئذ يتحقق هذا الحلم الرائع الجميل .

فإن لم تفعلوا فاعلموا أن غيركم أبعد عن الأجابة لأنكم أنتم أقرب الفرق إلينا وترفضون فما بالكم بالبعيدين، فلا تناقضوا أنفسكم إذن وترفعوا شعار الوحدة وأنتم أول من يعاديه ويأباه، وتعلمون منافاته لسنة الله فى المبتدعة والزائغين الذين أشربوا فى قلوبهم البدعة بضلالهم. واعلموا ان هذا الشعار ان صلح فى موقف سياسى أوحركى معين فهو عن المبادىء والأصول ابعد شىء .

ثانيا : ان دعوتمونا إلى ان نتحد نحن وأنتم فقط ضد سائر الفرق كالخوارج والرافضة وغيرها وضد الشيوعية ومن شايعها قلنا قد سهل الخطب إذن، لكن لابد لكم من بيان منطلق التوحيد وموقعه وذلك بان تلتزموا بوضوح بأحد قولين .

(١) أما انكم أنتم وحدكم أهل السنة والجماعة ولكن تقبلون التوحد معنا تنازلا

وتفضلا على ما فينا بزعمكم من «تشبيه وتجسيم وحشو وكفر وضلال» .

(٢) واما انكم لستم من أهل السنة والجماعة ولكن تريدون التوحد معهم طالبين منهم التنازل والتفضل بقبولكم على ما فيكم من بدعة وضلالة .

فإذا حددتم أحد الموقعين امكن بعد ذلك عرض موضوعكم اما على أصول العقيدة وقواعدها ان اخترتم الأول وأما على ضوابط المصلحة وحدودها الشرعية ان اقررتم بالاخر فامامكم الخيار وانا لفى الانتظار .

اما ان نظل نحن وأنتم مختلفين متصارعين منذ أيام أحمد بن حنبل وابن كلاب ثم أيام البربهارى والأشعرى ثم أيام الشريف أبى جعفر وابن القشيرى ثم أيام عبد القادر الجيلانى وأبى الفتوح الاسفرائينى ثم أيام شيخ الإسلام والسبكى ثم أيام محمد بن عبد الوهاب ومعاصريه منكم، ثم أيام المعلمى والكوثرى ثم أيام الالبانى وأبى غدة وأخيرا إلى الفوزان والصابونى . . .

وبعد هذا كله ومعه تقولون أننا وإياكم فرقة واحدة ومنهج واحد فهذا مالا يعقله عقل ولا يصدقه تاريخ .

غير أننا لابد أن نذكر بحقيقة كبرى هى أن النبى ﷺ قد قال: «ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة» وهذا الخبر الصادق لا يمكن معه اختصار الفرق إلى سبعين ولا إلى سبع فضلا عن واحدة فالخير إذن كل الخير ان يبحث الإنسان عن الحق ويعتقده ويدعو إليه وان خالفته الدنيا كلها وان يجتنب الضلال ويدعو إلى نبذه ولو داهنه أصحابه كلهم، هذا هو الذى سار عليه رسل الله وأمر به الله فلا تصادموا سنة الله وتخالفوا منهج رسله **والحمد لله رب العالمين** . . .

اضطراب الناس في مسألة الكلام

مع بيان الحق الذى تدل عليه الأدلة وتشهد به الفطر السليمة

للشيخ عبد الكريم مراد

أستاذ مشارك بكلية الشريعة

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى .

وبعد : فهذا بيان موجز لأقوال الناس واضطرابهم فى مسألة هى من أهم مسائل الدين وهى مسألة الكلام مع بيان الحق الذى تدل عليه الأدلة وتشهد به الفطرة السليمة .

أقول وبالله التوفيق : الكلام والقول واحد وهو فى عرف الناس ولغاتهم اسم للفظ والمعنى معا فاللفظ بمفرده لا يسمى كلاماً ولا المعنى بمفرده كلاما إلا مع قرينة .

ولهذا تجد الكثيرين من المصنفين فى أصول الفقه من جميع الطوائف من أتباع الأئمة الأربعة إذا تكلموا فى الأمر والنهى ذكروا : أن الأمر والنهى هو اللفظ والمعنى معا وخالفوا من قال : إن الأمر والنهى هو المعنى[1] قال الشيخ الموفق فى روضة الناظر (٢ / ٦٣) وللأمر صيغة مبنية تدل بمجردها على كونها أمراً إذا تعرت عن القرائن وهى «أفعلْ» للحاضر «وليفعلْ» للغائب . هذا قول الجمهور وزعمت طائفة من المبتدعة أنه لا صيغة للأمر بناء على خيالهم الفاسد : أن الكلام معنى قائم بالنفس . فخالفوا الكتاب والسنة واللغة والعرف . !

وعلى هذا مضى السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولم يكن بينهم أى نزاع فى مسمى الكلام ومعناه . وهل يعقل أن ينازعوا فيما هو من أجلى الأمور عند الناس مثل الماء والنار والرأس واليد ونحو ذلك .

والكلام تكلم به الأولون والآخرون منذ خلقوا وهل يقول عاقل : إنهم ما فهموا معنى الكلام ومسماه .

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٢ / ٣٥ -٣٦) .

ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم الصحيحة لم يقع بينهم نزاع فى مثل ذلك من الضروريات ولكن الشياطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا فيضلون ويضلون غيرهم . ونعوذ بالله من فتن المضلين .

وإنما حصل النزاع فى معنى الكلام ومسماه عند المتأخرين بعد ماحدثت البدع وكثرت بها الشبه والشكوك فمرضت القلوب وفسدت العقول وكثر القيل والقال .

فقال بعضهم : الكلام حقيقة فى اللفظ مجاز فى المعنى تسمية المدلول باسم الدال **وقال آخرون** : عكس ذلك .

وقيل : يطلق الكلام على اللفظ والمعنى بطريق الاشتراك اللفظى **وقيل**: حقيقة فى كلام الناس لأن لكلامهم حروفا وأصواتا تقوم بهم ومجاز فى كلام الله عز وجل(١) والصواب فى ذلك هو ما ذكرناه آنفا بأن الكلام مجموع اللفظ والمعنى فمسماه مركب .

الكلام من صفات الله تعالى :

قد تواتر عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام : أن الله تعالى متكلم موصوف بالكلام حيث أخبروا عن الله عز وجل بأنه : أمر بكذا ونهى عن كذا وأخبر بكذا، وكل ذلك من أقسام الكلام .

ووصف الله تعالى نفسه المقدسة بالكلام كما وصف نفسه بالعلم والقدرة والإرادة ونحو ذلك من صفات الكمال .

وصفاته جل وعلا لا تماثل صفات المخلوقين فهى صفات كمال تختلف عن صفات المحدثات كما تختلف ذاته المقدسة عن ذواتهم، ليس كمثله شيىء .

وذلك أن المعانى والصفات التى تطلق على الخالق والمخلوق بالاشتراك لها اعتباران :

ا ـ **اعتبار العموم والتجريد من الإضافة نحو** : الحياة والعلم والقدرة والكلام، فهى بهذا الاعتبار مشتركة بين الخالق وبين المخلوق .

ولا يلزم من اشتراكهما فى الأسماء والمعانى من حيث العموم وعدم الإضافة تشبيه ولا تمثيل لأن هذا المشترك مطلق كلى لا وجود له فى الخارج والواقع وإنما يفرضه الذهن والذهن يفرض المحال .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية .

ب ـ اعتبار الخصوص والتقييد والإضافة :

والإضافة تارة تكون إلى الرب جل جلاله نحو : وجود الله وحياة الله وكلام الله ، فهذا المضاف إليه سبحانه مختص به لا يَشْرَكه فيه أحد من خلقه . ولله المثل الاعلى . وتارة تكون الإضافة إلى العبد نحو : وجود العبد وحياته وعلمه وكلامه .

فهذا المضاف إلى العبد مختص به والله تعالى منزه عن مشاركة العبد فى صفاته وخصائصه : فالصفة تابعة للموصوف فإن كان الموصوف بها هو الغنى الحميد فصفاته كما يليق به وإن كان الموصوف هو العبد الفقير فصفاته كما يليق بحاله من الفقر والحدوث والفناء . (١) .

اختلاف الناس فى حقيقة كلام الله تعالى :

قد تنازع الناس فى حقيقة كلام الرب وتفرقوا واختلفوا بالأهواء بعد مضى خير القرون من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

قال عز من قائل : ﴿**وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد**﴾ . (٢ : ١٧٦) .

(١) **وأبعد ما قيل فى كلام الله سبحانه** : إنه فيض من المعانى يفيض من الملأ الأعلى على النفوس الشريفة بواسطة العقل أوغيره فيكسبها أنواعا من العلوم من تصورات وتصديقات بحسب استعداد تلك النفوس وقبولها لذلك الفيض . وهذا قول المتفلسفة القرامطة مثل : الفارابى وابن سينا والطوسى .

ويزعم هؤلاء الملاحدة أن موسى عليه السلام سمع كلام الله من سماء عقله أى كلمه بكلام حدث فى نفسه لم يسمعه من خارج وأن أهل الرياضة والصفاء يصلون إلى ما وصل إليه موسى فيسمعون ما سمعه موسى كما سمعه موسى عليه السلام ويرى هؤلاء أن لتلك النفوس قوتين :

ا ـ قوة التصور وبها تدرك من المعانى ما يعجز عنه غيرها .

ب ـ قوة التخييل وبها تستطيع أن تتصور المعقول فى صورة المحسوس فتتخيل صوراً نورانية تخاطبها وتكلمها بكلام تسمعه الآذان .

---

(١) مجموع الفتاوى : (١٢/٣٦) والتدمرية (٤٤) .

وربما تقوى هذه القوة على إسماع ذلك لغيرها وعلى تشكيل تلك الصور النورانية لعين الرائى فيرى الملائكة ويسمع كلامهم وكل ذلك من الوهم والخيال .

وهؤلاء الملاحدة لما علموا أن الرسول ﷺ أخبر عن الله تعالى بأنه : «**قال : وكلم تكليما**» قالوا مصانعين للمسلمين : إن القرآن كلام الله وما جاء به الأنبياء كلام الله ، ولكن حقيقة كلام الله عندهم هو ما ذكرنا فحرفوا نصوص الكتاب والسنة الدالة على كلام الله وتكليمه لعباده على طريقة إخوانهم فى تحريف الكلم عن مواضعه .

والنبوة عند هؤلاء مكتسبة وحشر الأجساد عندهم مستحيل والرب سبحانه لا يعلم الجزئيات إلى غير ذلك من الكفر والضلال .

والذى قاد هؤلاء إلى هذا الكفر الصريح هو عدم إيمانهم بما جاء به الرسول ﷺ وأخبر به عن الله تعالى وعن المعاد ولكن لما بهرت عقولهم شمس الرسالة حتى شهد شاهد منهم بأنه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس ولم يوافق ما جاء به الرسول ﷺ أصولهم الفاسدة وآراءهم الكاسدة أصبحوا حيارى نحو ذلك .

فمنهم من لم يؤمن بكثير من ذلك بل يشك فيه أو يكذبه ومنهم من يقول إن ما جاء به الرسول ﷺ تخييل للحقائق وأمثلة مضروبة لتقريبها إلى أفهام العامة . والأنبياء والرسل قد فعلوا ذلك للمصلحة نعوذ بالله من ذلك .

هذه طريقة الفارابى الملقب بالمعلم الثانى لهم وابن سينا الملقب بالشيخ الرئيس لهم والطوسى الملقب بالمحقق عندهم من المتفلسفة فى الإسلام .

يذكر الحافظ ابن قيم فى النونية مذهب هؤلاء فى كلام الله فيقول :

وأتى ابن سينا القرمطى مصانعاً   للمسلمين بإفكٍ ذى بهتان
فرآه فيضاً فاض من عقل هو   الفعال علة هذه الأكوان
حتى تلقاه زكىّ فاضل   حسن التخييل جيد التبيان

(٢) والقول الثانى فى كلام الله تعالى قول أهل وحدة الوجود كابن عربى الطائى والصدر القونوى وحزبهما .

قالوا : كل كلام فى الوجود كلام الله تعالى نظماً كان أو نثراً ، صدقاً كان أو كذباً .

وقال عارفهم :

كل كلام فى الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه

وهـذا القـول الـذى لا يخفى فسـاده على كل من عنده مسكة عقل وهوفرع مذهبهم الفاسد وهو أن الله تعالى عين هذا الوجود وأن تلك الكثرة وهم وخداع من الحس لا حقيقة لها من الواقع .

ولازم هذا الهـذيـان والكفـر الصـريـح أن كلام هذه المخلوقات وسائر صفاتها محمودةً كانت أومذمومةً هى عين كلام الله وصفاته إذ هى عينه . تعالى الله عما يقولون الظالمون علوا كبيرا .

ويصور لنا ابن القيم رحمه الله مذهب هؤلاء فى نونيته بقوله :

وأتـت طوائـف الاتحـاد بمـلة ... طمـت على ما قال كل لسـان
قالـوا كلام الله كل كلام هذا ... الخـلق من جن ومـن إنسـان
نظـما أو نثـرا زوره وصـحـيـحـه ... صدقـا وكـذبـا واضـح الـبطـلان
فالـسب والـشـتم الـقبيـح وقـذفهم ... للمـحـصـنـات وكـل نوع أغـان
والـنـوح والـتعـزيم والسحـر المبـين ... وسـائـر الـبـهـتـان والهـذيـان
هو عين كلام الله جل جلالـه ... وكـلامـه حقـا بلا نكـران
هذا الـذى أدى إلـيـه أصـلهـم ... وعـلـيـه قام مكـسـح الـبـنـيـان
إذ أصـلهـم أن الإلـه حقـيـقـة ... عين الـوجـود وعـين ذى الأكـوان
فكـلامـهـا وصـفـاتـهـا هو قولـه ... وصـفـاتـه ما هـهـنـا قولان .

(٣) والقول الثالث قول نفاة الصفات من جهمية ومعتزلة .

قالوا : الرب متكلم بكلام حرف وصوتُ يخلق ذلك فى بعض مخلوقاته .

فكلامه عندهم مخلوق كسائر المخلوقات .

يقول القاضى عبد الجبار المعتزلى فى كتابه المغنى فى التوحيد والعدل(٣/٧) اختلف النـاس فى كلام الله تعـالى والـذى عليـه شيـوخنـا : أن كلام الله عزوجل من جنس الكلام المعقول فى الشاهد وهوحروف منظومة وأصوات مقطعة وهوعرض يخلقه الله تعالى فى بعض الأجسام على وجه يسمع ويفهم معناه . يؤدى الملك ذلك المعنى إلى الأنبياء عليهم السلام بحسب ما يأمر به الله عزوجل ويعلمه صلاحاً .

ويقول فى القرآن الكريم (٧/ ٢٢٤) : إن الله خلق القرآن وأحدثه لمصالح العباد .

وهذا القول الفاسد فرع أصلهم الفاسد وهو : النفى المجمل ان الله تعالى : (ليس محلا للحوادث) ولا يقوم به وصف ولا فعل .

فجردوه سبحانه مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال .

ومن لوازم هذا القول الفاسد فى مسألة الكلام أن يكون الله تعالى متكلما بكل كلام يحدثه فى الجمادات أو يخلقه فى الحيوانات حقا كان أو باطلا ، صدقا كان أو كذبا . وقد طرد ذلك الاتحادية ، تعالى الله عن ذلك كله .

وجر هذا القول الفاسد قائليه إلى القول : إن إضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة تشريف مثل : بيت الله وناقة الله ونحو ذلك .

وبطلان ذلك لا يخفى على ذى البصيرة وذلك لأن الإضافة إلى الرب تعالى نوعان :

ا ـ **إضافة معان وصفات نحو** : حياة الله وعلمه وقدرته وكلامه ونحو ذلك فهذه من إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولا يقال فى إضافة شيىء من صفاته إليه تعالى إضافة تشريف إذ صفاته سبحانه ليست خارجة عن مسمى اسمه بل يمتنع وجود ذاته بدون صفاته اللازمة لها وإن كان الذهن يفرض ذاتاً وحدها وصفة وحدها .

ب ـ **إضافة ذوات وأعيان نحو** : عبد الله وبيت الله وأرض الله ونحو ذلك فهذه من إضافة المخلوق إلى خالقه جل ذكره .

وإضافة المخلوق إلى الخالق نوعان :

ا ـ إضافة عامة لا تشريف فيها وذلك أن يضاف إليه سبحانه شيىء من المخلوقات نظراً لكونه مخلوقا مربوبا له سبحانه .

فهذا المعنى العام موجود فى جميع المخلوقات من غير فرق بين مخلوق وآخر ولك بهذا الاعتبار أن تقول فى إبليس عليه اللعنة ، خلق الله ولا تشريف فى ذلك .

ب ـ إضافة خاصة تقتضى التشريف والتكريم للمضاف إلى الله تعالى وذلك أن يضاف إليه سبحانه شيىء من المخلوقات لمعنى خاص يوجد فى ذلك المخلوق يحبه الله به ككونه نبياً وكون الكعبة قبلة للمسلمين فإذا قيل فى أحد أنبياء الله : عبد الله أو قيل فى الكعبة الشريفة بيت الله ، فهذه إضافة تشريف .

وعلم بذلك أن إضافة المخلوق إلى الخالق لا تكون إضافة تشريف على وجه الإطلاق .

وأول من علم منه إنكار التكليم والمخالة هو جعد بن درهم فى أوائل القرن الثانى للهجرة وشدد عليه فى النكير علماء التابعين مثل الحسن البصرى وغيره وأفتوا بقتله فقتل

بسبب ذلك قتله خالد بن عبد الله القسرى أمير واسط بالعراق يوم الأضحى وقال للناس فى خطبته : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإنى مضح بجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً .

تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه .

ثم تولى كبر هذه المقالة الشنعاء وهى مقالة تعطيل الأسماء والصفات بعد جعد بن درهم تلميذه جهم بن صفوان السمرقندى ونشرها فاشتهرت فى الناس بمقالة الجهمية وهذا الأخير لقى أيضاً مصرعه بسبب زيغه وزندقته .

ويذكر ابن القيم مذهب هؤلاء فى النونية بقوله :

والقائلون بمشيئة وإرادة ... أيضاً فهم صنفان
أحدهما جعلته خارج ذاته ... كمشيئة للخلق والأكوان
قالوا : صار كلامه إضافة ... التشريف مثل البيت ذى الأركان
ما قال عندهم ولا هو قائل ... والقول لم يسمع من الديّان
فالقول مفعول لديهم قائم ... بالغير كالأعراض والأكوان
هذى مقالة كل جهمىّ وهم ... فيها الشيوخ معلموا الصبيان

(٤) والرابع من الأقول **قول الكرامية** أتباع محمد بن كرام السجستانى المتوفى عام ٢٥٥هـ **قالوا** : كلام الله تعالى حروف وأصوات حادثة تكلم الله بها بمشيئة وقدرة بعد أن لم يكن متكلما أى حدثت له صفة الكلام .

وفساد هذا القول ظاهر حيث جعلوه تعالى فى الأزل غير قادر على الكلام ثم جعلوا الكلام ممكناً له تعالى مقدوراً له من غير حدوث شيىء أوجب القدرة والإمكان .

ويقول فى النونية عن هؤلاء :

والقائلون بأنه بمشيئته ... فى ذاته فهم نوعان
أحدهما جعلته مبدوءاً به ... نوعاً حذارِ تسلسل الأعيان
فيسد ذاك عليهم فى زعمهم ... إثبات خالق هذه الأكوان

(٥) والخامس قول السالمية اتباع محمد بن أحمد سالم المتوفى عام **٢٩٧** للهجرة .

قالوا : كلام الله تعالى حروف وأصوات أزلية قديمة ولها معان تقوم بذات الرب تعالى .

ولا يخفى فساد هذا القول بمجرد تصوره .

(٦) والسادس قول الكُلّابية والأشاعرة .

قالوا : كلام الله تعالى معنى واحد قائم بذات الله لازم له لزوم الحياة والعلم والقدرة أى صفة ذاتية لازمة غير مقدورة وليس لكلامه حرف ولا صوت يسمع .

وذلك المعنى الواحد هو الأمر والنهى والخبر والاستخبار وإن عُبرّ عنه بالعربية كان قرآنا وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً . فاختلفت العبارات لا المعنى .

قال سيف الدين الآمدى فى كتابه «غاية المرام فى علم الكلام» (٨٨) : ذهب أهل الحق من الإسلاميين إلى كون البارى تعالى متكلما بكلام قديم أزلىّ أحدىّ الذات ليس بحروف ولا أصوات . اهـ .

وقال شارح المواقف (٢٩٨) : كلامه تعالى عندنا واحد وهو المعنى القائم بالنفس الذى يعبر عنه بالألفاظ .

وأما انقسامه إلى الأمر والنهى والخبر والاستفهام والنداء فإنما هو بحسب التعلق فذاك المعنى الواحد باعتبار تعلقه بشيىء على وجه خاص يكون أمراً وباعتبار تعلقه على وجه آخر يكون خبرا وهكذا البواقى . اهـ .

هذا الذى قاله الكُلَّابية والأشاعرة فى كلام الله عز وجل هو من أفسد ما قيل فى كلامه سبحانه وكلما تأمّل العاقل هذا القول تبين له فساده وعلم مخالفته للكتاب والسنة وكلام سلف الأمة .

ومن اللوازم الفاسدة لهذا القول لا مفر لهم منها :

ا - إن القرآن المنزل على خاتم النبيين ﷺ مخلوق فإنه كلام عربى مؤلف من حروف وهؤلاء نفوا أن يكون لكلامه تعالى حرف .

ب - إن القرآن الكريم ليس كلام الله تعالى عندهم حقيقة .

ج - إن القرآن المنزل على محمد ﷺ هى التوراة المنزلة بالعبرية على موسى وهو الإنجيل المنزل بالسريانية على عيسى عليهما السلام .

د - إن معنى قوله تعالى : ﴿**أقيموا الصلاة وآتوا الزكواة**﴾ هو معنى قوله تعالى : ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ .

وهل يقول ذلك عاقل وهو يدرى ما يقول؟ .

ونفى الكُلاّبية والأشاعرة أن يكون كلام الرب يتعلق بمشيئته وقدرته زعما منهم أنه لو كان مقدورا ومراداً له لكان حادثا فيلزم على هذا قيام الحوادث بالرب سبحانه .

وقد وافق هؤلاء نفاة الصفات من جهمية ومعتزلة على أصلهم الفاسد وهو نفيهم المجمل «ان الله ليس محلا للحوادث» ولكن فرقوا بين الصفات الذاتية وبين الصفات الاختيارية فقالوا: تقوم به تعالى الصفات الذاتية مثل الحياة والعلم والقدرة وجعلوا منها الكلام وقالوا لا يلزم من ذلك أى محذور لأنها صفات لازمة الذات .

ونفوا أن تقوم به تعالى الصفات الاختيارية مثل الاستواء والنزول والغضب والرضى ونحوها مما يتعلق بإرادته وقدرته فرارا من أن يلزم به سبحانه قيام الحوادث .

والجواب عن قولهم «ليس الرب تعالى محلا للحوادث» أن هذا لفظ مجمل لا يقبل على إطلاقه بل يفسر ويفصل كالآتى :

فإن أريد بهذا النفى المجمل : أن الله تعالى ليس محلا للحوادث أى ليس داخل ذاته المقدسة شيىء من المخلوقات المحدثة فهذا حق .

فإن أريد بهذا النفى المجمل : أن الله تعالى ليس محلا للحوادث أى ليس داخل ذاته المقدسة شيىء من المخلوقات المحدثة فهذا حق .

أو أريد بذلك نفى تجدد وحدوث صفاته فهو أيضاً حق لأن صفاته تعالى قديمة أزلية إذ هى صفات كمال وفقدها عيب ونقص لا يليق بالإله جل جلاله .

وإن أريد بهذا النفى المجمل «وهو مراد النفاة» نفى وإنكار ما وصف الله تعالى به نفسه وما وصفه رسوله ﷺ فهو نفى مردود على قائله لأن المؤمن لا يخطر بباله أن الله تعالى قد يصف نفسه أو يصفه أعلم الخلق بالله وهو الرسول ﷺ بكلام يكون ظاهره كفرا يجب تأويل ذلك .

بل جميع ما وصف الله به نفسه وما وصفه به رسوله ﷺ صفات كمال ظواهرها تليق بجلال الله تعالى تختلف عن الظواهر المشاهدة عند المخلوق كما تختلف ذاته عن ذواتهم . ليس كمثله شيىء .

وأول ما ظهر إنكار أن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت فى عهد أبى العباس المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسى وذلك أن نفاة الصفات من معتزلة وغيرهم قبل ذلك كانوا

أذلاء مهانين فلما أدخلوا المأمون فى مذهبهم وتأثر بآرائهم ظهر أمرهم ورفعوا رؤ سهم فعظمت الفتنة والمحنة وثبت الله أهل الإيمان وورثة الأنبياء على ما ورثوه من الحق والقول الثابت وعلم الناس سوء مذهب النفاة وما فيه من تعطيل الرب تعالى من صفات الكمال من الكلام وغيره ظهر فى ذلك الوقت رجل هو: أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصرى المتوفى بعد سنة (٢٤٠) للهجرة بقليل .

وأثبت الصفات مثل الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحوها ونفى أن تكون صفات الله تعالى مخلوقة ردا على النفاة القائلين إن كلام الله مخلوق فقال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه لازم له ليس له حرف ولا صوت .

فسلك مسلكا خالف فيه المعتزلة ولم يوافق أهل الحديث فى جميع ما قالوه وإنما قابل بدعتهم ببدعة ورد باطلهم بباطل .

وأنكر ذلك الإمام أحمد بن حنبل والبخارى وغيرهما من أئمة السنة الذين كانوا فى زمنه وبعده .

يقول عبد الله بن أحمد : قلت لأبى ياأبت إن قوما يقولون إن الله تعالى لم يتكلم بصوت، فقال يابنى : هؤلاء الجهمية إنما يدورون على التعطيل يريدون أن يلبسوا على الناس بل تكلم بصوت . . .

قال فى النونية عن هؤلاء :

ثم الألى قالوا بغير مشيئة ... وإرادة منه فطائفتان
إحداهما جعلته معنى قائما ... بالنفس أو قالوا بخمس معان
والله أحدث هذه الألفاظ كى ... تبديه معقولا إلى الأذهان
وكذلك قالوا إنها ليست ... هى القرآن بل دلت على القرآن
ولربما سمى بها القرآن تسمية ... المجاز وذاك وضع ثان

والحق فى المسألة هو ما ذهب إليه أئمة السنة والحديث من أن الكلام صفة كمال لله عز وجل كسائر الصفات فهو لم يزل ولا يزال متكلما متى شاء وكيف شاء ولكلامه حرف وصوت يسمع والكلام على هذا القول صفة ذات وفعل قديم النوع حادث الأفراد .

وذلك أن للكلام اعتبارين بالنسبة إلى المتكلم .

١ ـ كون الكلام صفة معنوية للمتكلم فبهذا الاعتبار يصح أن يقال: الكلام معنى قائم بنفس المتكلم وصفة قائمة بذاته. والصفة لا تقوم إلا بالموصوف .

ب ـ كون الكـلام مسمـوعـا من المتكلم إذا تكلم بحـرف وصـوت فهـذه هى حقيقة الكلام الخارجية وهى بالنسبة إلى المتكلـم من المخلوقين مشاهدة لا ينكرها إلا مكابر .

وبـالنسبـة إلى الخالق جل وعلا فقد دلت الأدلة على أن لكلامه سبحانه حرفاً وصوتاً فقد وصف نفسه بالقول والتكليم وبالمناداة فى غير ما آيةٍ .

والنداء هو الصوت ويقال: ناداه مناداة ونداء أى صاح به .

واستفـاضت الأحـاديث من الـرسول ﷺ والآثار من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ومن بعدهم من أئمة السنة بأن الله تعالى ينادى بصوت ويتكلم بالوحى بصوت .

وكان أئمة السنة رضى الله عنهم يعدون من أن أنكر كلام الرب تعالى بصوت من الجهمية .

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وكلام السلف لا يبقى عنده أى شك فى ذلك ولا سيما أحاديث الشفاعة وحديث المعراج وأحاديث الرؤ ية وأحاديث الحساب وأحاديث تكليمه سبحانه ملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة إلى غير ذلك من الأحاديث .

ومن أحاط بها علما ومعرفة يقطع بان الله تعالى موصوف بالكلام على وجه يليق بكماله وأن لكلامه سبحانه صوتا يسمع بل الرب جل جلاله أحق بهذه الصفة وأولى من كل أحد .

مراجع البحث

١ ـ الأعلام للزركلى .

٢ ـ الرسالة التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٣ ـ الرسالة الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٤ ـ روضة الناظر لابن قدامه .

٥ ـ شرح العقيدة الطحاوية .

٦ ـ شرح المواقف .

٧ ـ غاية المرام فى علم الكلام للآمدى .

٨ ـ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد .

٩ ـ القصيدة النونية لابن القيم .

١٠ ـ مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام .

١١ ـ مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم .

١٢ ـ المغنى فى التوحيد والعدل للقاضى عبد الجبار المعتزلى .

أخلاق أمراء الصحابة

لما تم الصلح بين أمير جيوش المسلمين فى فتح الشام وبين أحد قواد الروم، جاءه أمير الروم بطعام فاخر، وقال له :

هذا طعام الأمير .

فقال له أبو عبيدة : وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام؟ .

قال : لم يتيسر مثله للجند .

فقال أبو عبيدة :

لا حاجة لنا فيها يقتصر علينا وحدنا من ألوان الطعام. وبئس المرء أبو عبيدة إن صحب جندا من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه ، أو لم يهرقوا ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه . لا والله لا نأكل إلا مما يأكلون .


الفقه
و
أصوله

نظام الإثبات في الفقه الإسلامي

دراسة مقارنة

للدكتور عوض عبد الله أبو بكر
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

- ٤ -

الحكم بالفراسة والقرائن

أولا : الحكم بالفراسة :

من وسائل الإثبات المختلف فيها عند فقهاء الشريعة الحكم بالفراسة ، وهل تصلح دليلا يعتمد عليه القاضي في بناء أحكامه ، أم لا تصلح دليلا لبناء الأحكام القضائية . وقبل أن نعرض آراء الفقهاء ينبغي معرفة المقصود من الفراسة .

الفراسة لغــة :

الفـراسـة بالكسـر من التفـرس . يقال تفرس الشيء إذا توسمه ، وتفرست فيه خيرا ، توسمته ، وهو يتفرس يتثبت وينظر، فالتفرس والتوسم معناهما واحد أي يفسر أحدهما بالآخر[١] .

الأصل في الفراسة ومعناها الفقهي :

الأصل في الفراسة قوله تعالى : ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾ . (الحجر: ٧٥) .

فذكر أهل التفسير أن المتوسمين يعني المتفرسين، وذلك اعتمادا على ما أثر عنه ﷺ . فقد روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله . ثم تلا الآية»[٢] .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن لله عبادا يعرفون الناس بالتوسم»[٣] .

---

(١) تاج العروس «فصل الفاء من باب السين» .
(٢) نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول للحكيم الترمذي ص٢٧١ . ط . العثمانية .
(٣) مجمع الزوائد للهيثمي ١/ ٢٦٨ .

يقول الألوسى : «قال الجلال السيوطى : هذه الآية أصل فى الفراسة»[1].

معنى هذا أن الفراسة قد ورد اعتبارها فى القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأنها سمة من سمات المؤمنين، إذ أن الأحاديث مادحة للمتفرسين وأن الفراسة مدرك من مدارك المعانى لأن المؤمن المتفرس ينظر بنور الله، فالله عز وجل هو الذى يريه ويفيض عليه.

فإذا ثبت هذا فلينظر كيف سارت تفسيرات العلماء للفراسة :

يقول ابن العربى المالكى فى تفسير الآية السابقة : التوسم - هو تفعل من الوسم وهى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها. وهى الفراسة وحقيقتها الاستدلال بالخَلْق على الخُلق، وذلك بجودة القريحة، ووحدة الخاطر، وصفاء الفكر[2].

ويقول القرطبى : «هى العلامة التى يستدل بها على مطلوب غيرها... **وقال ثعلب**[3] : النظر من القرن إلى القدم واستقصاء وجوه التعريف. وذلك يكون بجودة القريحة، وحدة الخاطر، وصفاء الفكر، وزاد غيره وتفريغ القلب من حشو الدنيا وتطهيره من أدناس المعاصى، وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا»[4].

ويفسرها الحكيم الترمذى بقوله : «والتفرس أن يركض بقلبه فارساً بنور الله إلى أمر لم يكن فيدركه... وإذا امتلأ القلب من نور الله تعالى نظرت عينا قلبه بنوره فأدرك فى صدره مالا يحاط به وصفا»[5].

ويفسرها ابن الأثير بقوله : «الفراسة بمعنيين : **أحدهما** ما دل عليه ظاهر الحديث، وهو ما يوقعه الله فى قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس. **والثانى** : يعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق[6].

نلاحظ أن هذه التفسيرات مترددة بين اتجاهين :

الأول : إن الفراسة علامة يستدل بها على مطلوب غيرها - وأصحاب **هذا التفسير** يوافقون المعنى اللغوى، ويقولون إن العلامات لما كانت متفاوتة منها ما يظهر من أول وهلة

(١) تفسير روح المعانى لشهاب الدين الالوسى. ط. دار احياء الكتب العربية وأنظر تفسير ابن كثير. ط. المنار.
(٢) أحكام القرآن ج٣ ص١١١٩.
(٣) هو أحمد بن يحي بن زيد الشيبانى المعروف بثعلب امام الكوفيين فى النحو واللغة كان رواية للشعر ومحدثا مشهورا ومن كتبه «معانى القرآن» و«مجالس ثعلب»، «وما تلحن فيه العامة» توفى سنة ٢٩١هـ.
(٤) تفسير القرطبى ج١٠ ص٤٤.
(٥) نوادر الأصول ص٢٧١.
(٦) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج٣ ص١٩١. ص١٩١. ط. العثمانية.

ولكل فرد من الناس، ومنها ما كان خفيا لا يدرك ببادىء النظر، كان الخفى منها لا يعرفه إلا ذوو التجربة وصفاء الفكر، والفراسة فى جميع هذه الأحوال استدلال بالعلامة لا مدخل للالهام فيها، بل إن أصحاب هذا القول استنكروا على الصوفية وغيرهم ممن يرون أن الفراسة نوع من الالهام والكرامة .

وقد تمثل هذا الإتجاه فى قول ابن العربى وبه أخذ القرطبى وثعلب، وهو المعنى الثانى عند ابن الأثير .

الثانى : إن الفراسة خاطر إلهامى يوقعه الله سبحانه وتعالى فى قلوب الصالحين من عباده، فيعرفون به أحوال الناس، ويطلعون على مالا يطلع عليه العامة، وقد يدركون به أمرا لم يكن بعد .

وهذا يتمثل فى تفسير الحكيم الترمذى والمعنى الأول عند ابن الأثير وإليه أشار القرطبى بقوله : إنها تكون لمن صفى قلبه من كدورات الأخلاق وتفريغ القلب من حشو الدنيا . . . الخ .

سواء كانت الفراسة استدلالاً بالعلامة أوخاطراً الهامياً، فإن المتفق عليه فى هذه التفسيرات هو أن سبيل الإدراك بالفراسة مستتر، وطريق المعرفة بها طريق خفى، وخطوات الاستنتاج فيها غير ظاهرة إلا لمن صفى فكره وكان حاد الذكاء، أوكان من المؤمنين الصادقين الذين مدحتهم الآية والأحاديث وذكرت أنهم ينظرون بنور الله فتكون فراستهم صادقة ويطرد صوابها .

وجدير فى هذا المقام، وحتى يتبين لنا معنى الفراسة، أن نذكر جانباً من الآثار التى أوردها الفقهاء تمثيلا للفراسة .

أولا : ما روى من فراسة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه :

(١) إنه قال : يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى . ونزلت الآية ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾ . (البقرة: ١٢٥) .

(ب) إنه قال : يارسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن . فنزلت آية الحجاب .

(ج) إنه قال حين اجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة : عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن . فنزلت كذلك . (التحريم : ٥)[١] .

(١) صحيح مسلم مع شرح النووى ج١٥ ص١٦٦ وفيه جاء قال عمر: وافقت ربى فى ثلاث مقام إبراهيم وفى =

(هـ) إنه دخل عليه قوم فيهم الأشتر فصعد فيه النظر وصوبه، وقال : أيهم هذا؟ قالوا : مالك بن الحارث، فقال : ماله قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا، فكان منه فى الفتنة ما كان[1].

ثانيا : ما روى عن ذى النورين عثمان ـ رضى الله عنه :

(أ) إنه دخل عليه بعض الصحابة، وكان قد مر بالسوق فنظر إلى امرأة فلما نظر إليه عثمان قال : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنا. فقال له : أوحيا بعد رسول الله ﷺ. قال عثمان : لا ولكن فراسة صادق[2].

(ب) إنه لما تفرس أنه مقتول ولابد، أمسك عن القتال والدفع عن نفسه لئلا يجرى بين المسلمين قتال وآخر الأمر يقتل هو، فأحب أن يقتل دون أن يقع قتال بين المسلمين[3].

ثالثا : ما روى من فراسة عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ فى الحسين بن على ـ رضى الله عنهما لما ودعه قال : استودعك الله من قتيل، ومع الحسين ـ رضى الله عنه ـ كتب أهل العراق تناشده الحضور لنصرته، فكانت فراسة ابن عمر أصدق من كتبهم[4].

رابعا : ما روى من فراسة الشعبى ـ رحمه الله ـ أنه قال لداود الأزدى ـ وهو يماريه ـ إنك لا تموت حتى تكوى فى رأسك. فكان كذلك[5].

والأمثلة من هذا القبيل كثيرة تجل عن الحصر، ولكن الذى يبدو كما ذكرت هو خفاء طريق الاستنتاج، وأن المتفرس يدرك الأمر باسلوب مستتر، فقد يكون استنتاجه هذا مبنيا على علامات خفية تفرسها، وقد يكون مبنيا على خواطر الهامية قذفها الله فى قلبه ونطق بها لسانه .

= الحجاب وفى أسارى بدر. وفى رواية أخرى عند مسلم قال عليه السلام «إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم» ج١٥ ص١٦٦ . ومحدثون أى ملهمون ـ جاء فى تحفة الاحوذي ج٤ ص٣١٧. قال الأكثر: إنه ملهم وقيل تكلمه الملائكة من غير نبوة ـ وورد فى حديث أبى سعيد مرفوعا : قيل يارسول الله وكيف يحدث، قال: تتكلم الملائكة على لسانه وقد رويناه فى فوائد الجوهرى وحكاه القابسى اهـ .

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص٢٧١ .

(٢) الطرق الحكيمة لابن القيم ص٣٦. تبصرة الحكام لابن فرحون ج٢ ص١٠٣ .

(٣) الطرق الحكمية ص٣٦ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) تفسير الفخر الرازى ج٥ ص٤٩٦ .

القضاء بالفراسة فى آراء الفقهاء :

لما كان الاستدلال بالفراسة لا يقوم على أسس واضحة ظاهرة حيث أن خطوات الاستنتاج فيها خفية غير معروفة لغير المتفرس فقد منع جمهور الفقهاء بناء الأحكام القضائية على الفراسة، وقالوا إنها لا تصلح مستندا للقاضى فى فصل الدعوى، إذ أن القاضى لا بد له من حجة ظاهرة يبنى عليها حكمه .

يقول الشيخ الدردير المالكى فيما يتصف به القاضى : «فالمطلوب الدهاء ويندب ألا يكون زائدا فيه عن عادة الناس، خشية أن يحمله ذلك على الحكم بين الناس بالفراسة وترك قانون الشريعة من طلب البينة وتجريحها، وتعديلها، وطلب اليمين ممن وجهت إليه وغير ذلك»(١) .

ويقول ابن العربى المالكى : «إذا ثبت أن التوهم والتفرس من مدارك المعانى، ومعالم المؤمنين، فإن ذلك لا يترتب عليه حكم، ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرس، فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا، مدركة قطعا، وليست الفراسة منها»(٢) .

وجاء فى تبصرة الحكام لابن فرحون قوله : «والحكم بالفراسة مثل الحكم بالظن والحزر والتخمين، وذلك فسق وجور من الحكم، والظن يخطىء ويصيب(٣)، ثم بين الشاطبى فى كتابه الموافقات: أن الفراسة لا تصلح مستندا للقاضى فى حكمه لأن الاعتبارات الغيبية لا دخل لها فى بناء الأحكام القضائية، فالرسول ﷺ ـ وهو أعظم المتفرسين ـ لم يعتبرها دليلا يعتمد عليه فقال: «انكم تختصمون إلىّ ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها». فقيد الحكم بمقتضى ما يسمع وترك ما وراء ذلك»(٤) .

كما أن صاحب معين الحكام الحنفى قد ذكر من القول فى منع الحكم بالفراسة مثل ما قدمناه عن صاحب تبصرة الحكام، وأن الحكم بها حكم بالظن والتخمين(٥) .

---

(١) الشرح الكبير بهامش حاشية الدسوقى ٤ /١٣٦ .
(٢) أحكام القرآن ٣/١١١٩ .
(٣) تبصرة الحكام ٢ /١٠٤ .
(٤) أنظر الموافقات للشاطبى ٢ /١٨٥ والحديث رواه البخارى عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ صحيح البخارى كتاب الشهادات باب «من أقام البينة بعد اليمين» .
(٥) معين الحكام للطرابلسى ص٢٠٤ . ط. الأميرية .

رأى ابن القيم :

خالف ابن القيم جمهور الفقهاء وذهب إلى القول بجواز الحكم بالفراسة وقال إنها مدرك صحيح للأحكام، واستخراج الحقوق وفصل الدعاوى، ومن قوله فى ذلك: «ولم يزل حذاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والامارات، فإذا ظهرت لم يقدموا عليها شهادة ولا اقرارا»(1).

وهو فى ذلك يرى أن الفراسة من القرائن، ويفسرها بالعلامة، ويظهر ذلك من فحوى اعتراضه على تفرقة أبى الوفاء بن عقيل - أحد فقهاء الحنابلة - بين الفراسة والامارات. قال: وسئل أبو الوفاء بن عقيل عن هذه المسألة - أى مسألة الحكم بالقرينة والأمارات - فقال: إن الحكم بالقرينة ليس من باب الحكم بالفراسة التى تختفى فيها خطوات الاستنتاج.

فاعترض ابن القيم قائلا: «وقول أبى الوفاء بن عقيل ليس هذا فراسة فيقال: لا محذور فى تسميته فراسة، فهى فراسة صادقة، وقد مدح الله الفراسة وأهلها فى مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى: ﴿**إن فى ذلك لآيات للمتوسمين**﴾. وهم المتفرسون الآخذون بالسيما وهى العلامة(2).

ومن هذا يتضح لنا أن ابن القيم لا يفرق بين الاستدلال بالعلامات كانت هذه العلامات خفية لا تدرك إلا للمتفرسين، أم كانت ظاهرة تدرك لكل أحد، ومع أنه قد ذكر جانبا من الأمثلة التى تقدمت عن الفراسة التى يختفى فيها طريق الاستدلال بالعلامة ويتضح فيها جانب الإلهام كتلك التى قدمناها عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إلا أنه يرى أن كل ذلك استدلال بالعلامة ويجوز بناء الأحكام القضائية عليه.

وزيادة على ذلك فقد استدل ابن القيم على القضاء بالفراسة بما كان يفعله إياس بن معاوية وشريح، إذ اشتهر عنهما ذلك، وذاع ذكاؤهما وحسن فراستهما - وقد أورد ابن القيم فى الطرق الحكمية آثاراً كثيرة عنهما تنم عن ذكاء وصفاء فكر وحدة فراسة تميزا بها فى إرجاع الحقوق إلى أهلها.

تعقيب :

ومن رأينا أن الفراسة لا تصلح مستندا لحكم القاضى وفصل الدعاوى وهو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء خلافا لابن القيم، وذلك للأسباب التالية :

---

(1) الطرق الحكمية ص28

الأول : إنه لم يرد فى الشرع الحكيم ما يدل على اعتبارها والأخذ بها فى القضاء، ومع أن الله عز وجل قد مدح المتفرسين، وأنه تعالى هو الذى يفيض عليهم ويهديهم هذه المعارف التى لا يدركها غيرهم، إلا أن مدارك الأحكام القضائية معلومة شرعا، وقد وضحها النبى ﷺ، وأنه ﷺ خير المتفرسين وأفضلهم وأعرف الناس بالناس. قال: انكم تختصمون اليّ . . . الحديث. فلم يجعل للاعتبارات الخفية مدخلا، ولم يترك لوسائل الاستنباط غير المنضبطة والمستترة مجالا .

ثانيا : لما كانت الفراسة غير مدركة بالعين الحسية، فقد يكون الاحتجاج بها مدخلا لذوى النفوس المريضة والأغراض والدعاوى الباطلة، فيحكمون بما يوافق أهواءهم وأطماعهم مما يؤدى إلى اختلاف الأحكام وفساد القضاء .

ثالثا : إذا كنا قد وافقنا الفقهاء القائلين بعدم السماح للقاضى القضاء بعلمه لكون طريق الاثبات غير معروف لغير القاضى، فمن باب أولى ألا نوافق فى القضاء بالفراسة لنفس السبب. وإن كان فساد الزمان من أسباب منع القاضى أن يقضى بعلمه فهو أيضا سبب كاف لمنع الحكم بالفراسة(1).

رابعا : قول ابن القيم ـ رحمه الله ـ إن الفراسة من الاستدلال بالعلامة محل نظر لوجود حالات كثيرة للفراسة يختفى فيها الاستدلال بالعلامة، وفيما قدمنا من أمثلة دليل صادق على صحة قولنا. أما الفراسة التى يكون الاستدلال فيها مبنيا على العلامة الظاهرة فحكمها ملحق بحكم العمل بالقرائن والعلامات وهو ما سيأتى الحديث عنه إن شاء الله تعالى .

أما فعل إياس بن معاوية وشريح، فقد رجعت إلى كثير من القضايا المأثورة عنهما ووجدت استدلالهم بالعلامة الظاهرة واضحا، غير أنه يظهر جليا ذكاؤهما وفراستهما فى الوصول إلى هذه العلامة. ثم إن القضاة ليسوا كأياس وشريح حتى يسيروا سيرهما. كما أن جمهور الفقهاء لا يتفق معهم على الأخذ بمنهجهما فى القضاء .

وعلى هذا أرى أن الفراسة لا تصلح أن تكون طريقاً من طرق الاثبات فى الفقه الإسلامى .

---

(1) يراجع مقالنا فى العدد (٦٠) من هذه المجلة .

ثانيا : الحكم بالقرائن :

معنى القرينة لغـــة :

القرينة، جمعها قرائن، قارن الشىء يقارنه مقارنة وقرانا، اقترن به وصاحبه. وقارنته قرانـا: صاحبتـه، وقـرينـة الرجل امرأته، وسميت الزوجة قرينة لمقارنة الرجل إياها. وقرينة الكـلام ما يصـاحبـه ويدل على المراد به. والقرين المصاحب والشيطان المقرون بالإنسان لا يفارقه وفى الحديث «ما من أحد إلا وكل به قرينه»[1]أى مصاحبة من الملائكة والشياطين[2].

معنى القرينة اصطلاحـا :

لم أعثـر فيـما أطلعت عليـه من كتب الفقـه القديمة على تعريـف للقرينة إلا ما ورد فى كتـاب «التعـريفات» للجرجانى جيث يقول: «القرينة أمر يشير إلى المطلوب»[3]. وما نقله العلامة ابن نجيم المصرى الحنفى عن ابن الغرس من قوله: «من جملة طرق القضاء القرائن الدالة على ما يطلب الحكم به دلالة واضحة بحيث تصيره فى حيز المقطوع به»[4]. وأيضا ما جاء فى مجلة الأحكام العدلية من أن: «القرينة القاطعة هى الأمارة البالغة حد اليقين»[5].

هذه التعـريفـات وان اختلفت كلماتهـا إلا أنهـا تتفق على أن القـرينـة أمر أو أمارة أى علامـة تدل على أمـر آخـر وهـو المراد، بمعنى أن هناك واقعة مجهولة يراد معرفتها فتقوم هذه العـلامـة أو مجمـوعـة العلامات بالدلالة عليها، وهى لا تختلف عن المعنى اللغوى لأن هذه العلامات تصاحب الأمر المجهول فتدل عليه، أى تدل عليه لمصاحبتها له .

والقـرينـة فى مجال الإثبـات هى العـلامات التى تدل على الواقعة المجهولة التى يراد اثباتها عند انعدام أدلة الاثبات الأخرى الأقوى من اقرار أو بينة .

مثال ذلك : أن يرى شخص يحمل سكينا ملطخة بالدماء وهو خارج من خربة خائفا يرتجف، فيـدخـل شخص أو أشخـاص الخربة على الفور فيجدون آخر مذبوحا لتوه مضرجا بدمائه وليس فى الخربة غيره. فالواقعة المراد اثباتها هى شخصية القاتل والعلامات التى تدل عليها هى خروج ذلك الرجل وبتلك الهيئة التى تحمل على الاعتقاد أنه القاتل، وذلك عند

---

(١) الحديث رواه مسلم انظره مع شرح النووى ١٧/ ١٥٦ وتمامه «قالوا يارسول الله وإياك، إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى إلا بخير» .

(٢) لسان العرب (حرف النون فصل القاف) تاج العروس (فصل القاف فى باب النون) الصحاح (مادة قرن) .

(٣) التعريفات للجرجانى ص١٥٢ .

(٤) البحر الرائق ٧/١٥٢ .

(٥) مجلة الأحكام العدلية المادة (١٧٤١) .

عدم اعترافه أو قيام البينة على القاتل. فالاعتراف والبينة دليلان يتناولان الواقعة المجهولة مباشرة، أما العلامات فإنها تدل عليها دلالة أي يؤخذ منه بالدلالة والاستنتاج حكم الواقعة المجهولة .

الفرق بين القرينة والفراسة :

بناء على ما قدمنا من تعريف للقرينة، وبناء على ما قدمنا من قول في الفراسة فيمكن تلخيص الفرق بين القرينة والفراسة في النقاط التالية :

أولا : إن القرينة علامة ظاهرة مشاهدة بالعيان، كمن يرى رجلا مكشوف الرأس وليس ذلك من عادته يعدو وراء آخر هاربا وبيد الهارب عمامة وعلى رأسه عمامة، فهذه قرينة مشاهدة بالعين الحسية ودلالتها كما يقول العلماء واضحة على أن العمامة للرجل مكشوف الرأس، ولا يقال عمن يرى هذه العلامة ويستنتج هذا الحكم إنه متفرس .

ثانيا : إن رؤ ية القرينة لا تتطلب مواصفات معينة في الرائي، كصدق الإيمان وصفاء الفكر وحّدة الذكاء، وذلك لأن خطوات الاستنتاج فيها ظاهرة واضحة، حتى أن الدقيق منها كتلك التي تقوم على التجارب العلمية لها اسسها وضوابطها وقانونها الذي يسهل الاطلاع عليه ومعرفته، أما الفراسة فهي تتطلب مواصفات معينة في المتفرس، صدق إيمان أو حّدة ذكاء وصفاء فكر، وذلك لأن خطوات الاستنتاج فيها مسترة خفية .

ثالثا : إنه يمكن ان تقام البينة على وقوع القرينة ويتأكد القاضي من ثبوتها ففي المثال المتقدم قد يشهد أثنان أو أكثر على رؤ ية الواقعة، أما الفراسة فلا يتوفر فيها ذلك، فلا يستطيع أحد الشهادة عليها وإن صح وقوعها على قلب اثنين أو أكثر فتلك حالة نادرة .

رابعا : القرينة قد تصلح دليلا لبناء الأحكام القضائية ومستندا للقاضي في فصل النزاع كما سنبين ذلك. أما الفراسة فلا يصح الحكم بها على قول جمهور الفقهاء خلافا لابن القيم .

القرينة والعرف :

وقبل أن نبين آراء الفقهاء في القضاء بالقرينة نشير إلى ما لاحظناه من ارتباط وثيق بين القرينة والعرف .

والعرف هو ما تعارف عليه الناس وساروا عليه من قول أو فعل أو ترك بحيث لا يخالف دليلا شرعيا أو يحل حراما أو يبطل واجبا، والعرف بهذا المفهوم قد راعته الشريعة طالما أن

الناس تعارفوا عليه واتفق مع حاجاتهم ومصالحهم، فقد راعى الشارع الحكيم عرف العرب ففرض الدية على العاقلة واعتبر العصبية فى الأرث ولهذا يقول الحنفية : «المعروف عرفا كالمشروط شرطا» و «الثابت بالعرف كالثابت بالنص» وقد غير الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ بعض أحكام مذهبه بعد أن ذهب إلى مصر لاختلاف أعرافهم عن أعراف أهل العراق(١).

ويظهر ارتباط القرينة بالعرف فى صور يشكل فيها العرف قرائن تجب مراعاتها وملاحظتها، مثال ذلك : لقد تعارف الناس على البيع بالتعاطى وهو التبادل بين المتعاوضين من غير لفظ، فهذا عرف وهو فى نفس الوقت قرينة دالة على رضا الطرفين بالبيع، وقد استجاب الفقهاء لمتطلبات العرف وتحرروا بموجب هذه القرينة عن التقيد بشكلية اللفظ .

ومن أظهر الصور التى جعلوا فيها العرف قرينة تجب مراعاتها فى فهم الدعوى مسألة تنازع الزوجين فى متاع البيت وفى هذا يقول القرافى المالكى : «إن الإشهاد بين الزوجين يتعذر لأنهما لو اعتمدا ذلك، وأن من كان له شىء أشهد عليه أدى إلى المنافرة وعدم الوداد بينهما، وربما أفضى إلى الطلاق والقطيعة فهما معذوران فى عدم الإشهاد وملجآن إليه، وإذا الجآ لعدم اشهاد فلو لم يقض بينهما بالعادة لأنسد الباب بينهما»(٢).

ومن ذلك أيضا قولهم إن الزوجين إذا اختلفا فى قدر المعجل والمؤجل فى المهر ولا بينة لأحدهما فالقول لمن شهد له العرف(٣).

يستفاد من هذا أن العرف قد يكون قرينة تدل على ما يطلب معرفته فلذلك كان لابد من ملاحظته ومعرفته عند نظر الدعوى. لأجل هذا فقد نبه الفقهاء على القاضى بالتعرف على أحوال الناس وعاداتهم وما تواضعوا عليه لأنه بذلك تتبين له الدعوى ويعرف المحق من المبطل. ومن يرجع إلى ابن القيم فى كتابيه الطرق الحكمية واعلام الموقعين، وابن فرحون فى تبصرته، والطرابلسى فى كتابه معين الأحكام، لوجد ما فيه الكفاية من حث القاضى على معرفة العرف. ثم إن الفقيه الحنفى ابن عابدين قد ألف رسالة فى هذا الشأن أسماها «نشر العرف فى بناء بعض الأحكام على العرف»(٤)

---

(١) الاشباه والنظائر لابن القيم وشرح الجموى على الاشباه ١ /١٢٦ وانظر علم اصول الفقه وخلاصه تاريخ التشريع الإسلامى للمرحوم عبد الوهاب خلاف ص٩٧ .

(٢) الفروق ٣ /١٤٩ .

(٣) الاختيار لتعليل المختار ٢ /١٧٧ .

(٤) رسائل ابن عابدين ٢ /١٢٨ .

ومع هذا التداخل بين القرينة والعرف يجب ألا يغيب عن نظرنا التفرقة بينهما، فالقرينة كما قدمنا هى العلامات التى يستنتج منها الواقعة المجهولة التى يراد اثباتها أو الحكم فيها، فقد تكون هذه العلامات مستفادة من أعراف الناس وما تواطأوا عليه، وقد تكون من غير ذلك. بمعنى آخر إن للقاضى أن يبنى حكمه بناء على قرينة تعارف الناس على كذا، وقد يبنيه على علامات أخرى فى الدعوى ليست مستفادة من العرف والعادة. ومن ثم فإن دائرة القرينة فى مجال الإثبات أوسع لأنها تضم العرف وغيره .

القضاء بالقرينة :

لم تحظ القرينة بالاتفاق على صلاحيتها كدليل لبناء الأحكام القضائية إلا أنه بالرغم مما يبدو لنا من خلاف حول تحكيم القرائن فى فصل النزاع القضائى، فإن جميع المذاهب لا تخلو من اعمال القرائن فى بعض المسائل حتى ولو كان ذلك تحت ستار العرف والعادة. ولكن هذا التحكيم للقرائن يختلف من مذهب لآخر، فيتسع مداه لدى فقهاء المالكية ومتأخرى الحنابلة ويتوسط لدى الحنفية ويضيق عند فقهاء الشافعية والظاهرية .

وقبل أن نعرض أمثلة توضح أخذ المذاهب المختلفة بالقرائن نطرح أولا أدلة الفريقين، القائلين بتحكيم القرائن والمانعين لها .

أدلة القائلين بالقرينة :

أولا : القرآن الكريم :

لعل من نافلة القول أن نذكر إنه ليس فى القرآن الكريم نص قطعى الدلالة على اعتبار القرينة فى الأحكام أو عدم اعتبارها. ولكن القائلين بالقرينة قد استنبطوا اعتبارها بدلالة ظنية لبعض النصوص فى القرآن الكريم ورأوا جواز الأخذ بها .

والآيات التى استنبط منها الفقهاء جواز الأخذ بالقرينة فى الأحكام هى :

(١) قوله تعالى : ﴿**وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون**﴾. (يوسف : ١٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿**واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم. قال هى راودتنى عن نفسى، وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم**﴾. (يوسف : ٢٦ـ ٢٨) .

ومحل الاستدلال الوارد فى هذه الآيات ما ذكره المفسرون من أن يعقوب ـ عليه السلام ـ استدل بقرينة سلامة القميص من التمزيق على كذب دعوى اخوة يوسف ـ عليه السلام ـ بأن الذئب قد أكله . وكذلك استدل الشاهد بقرينة قد القميص من دبر على كذب امرأة العزيز وبراءة يوسف ـ عليه السلام .

ونرى الآن منهجهم فى استنباط حكم القرينة من هذه الآيات .

الشاهد الأول :

يقول ابن العربى المالكى عن قوله تعالى : ﴿**وجاءوا على قميصه . . . الآية**﴾ فيها ثلاث مسائل ـ نذكر منها :

المسألة الأولى : إنما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم فروى فى الاسرائيليات أن الله تعالى قرن بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التلبيب . والعلامات إذا تعارضت تعين الترجيح ، فيقضى بجانب الرجحان وهى قوة التهمة لوجوه تضمنها القرآن ، منها طلبهم إياه شفقة ولم يكن من فعلهم ما يناسبها فيشهد بصدقها بل كان سبق ضدها وهى تبرمهم ، ومنها أن الدم يحتمل أن يكون فى القميص موضوعا ، ولا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من تخريق ، وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات (العلامات) وتعارضها .

المسألة الثانية : القضاء بالتهمة إذا ظهرت كما قال يعقوب «بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل» ولا خلاف فى الحكم بالتهمة . وإنما اختلف الناس فى تأثير أعيان التهم . (١) .

ومن ذلك أيضا قول القرطبى فى تفسيره «استدل فقهاؤنا بهذه القرينة على اعمال الأمارات فى مسائل الفقه كالقسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب ـ عليه السلام ـ استدل على كذبهم بصحة القميص وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت فما ترجح منها قضى بجانب الترجيح وهى قوة التهمة ولا خلاف فى الحكم بها» (٢) .

---

(١) أحكام القرآن ٣/١٠٦٥ .
(٢) تفسير القرطبى ٩/١٥٠ .

الشاهد الثانى :

إنه لما نشب النزاع بين يوسف ـ عليه السلام ـ وامرأة العزيز التى قذفته بها قذفته من إرادة الفاحشة ، قال يوسف ـ عليه السلام ـ مكذبا لها ، ودفعا لما نسب إليه ، ﴿**قال هى راودتنى عن نفسى**﴾ فعند ذلك جاء دور الشاهد الذى وصفه القرآن الكريم بأنه من أهلها والذى فصل الخطاب بما ذكره من القرائن التى بان بها الحق وانفض بها النزاع .

والقرائن التى ذكرها الشاهد هى أنه إذا كان قميص يوسف قد من القبل فالمرأة صادقة فى دعواها بأنه هو الذى أرادها ، أما إذا كان قد من دبر فهى كاذبة ويوسف برىء من التهمة . والحاصل أن القميص قد من دبر وهذا دليل إدباره عنها وهو دليل براءته[1] .

وقد يعترض على العلامة المذكورة إذ أنها لا تدل قطعا على براءة يوسف ـ عليه السلام ـ لاحتمال أن الرجل قصد المرأة بطلب الفاحشة فغضبت عليه المرأة فعدت خلفه لتضربه ، فعلى هذا الوجه قد يتمزق القميص من دبر ، والمرأة بريئة من الذنب .

وأجيب على هذا الاعتراض بأن القرائن كانت كثيرة وكفيلة بصرف هذه التهمة عنه ، أما القرينة المذكورة فى الآية إنما جاءت دليلا مرجحا ومقويا لتلك القرائن ، ومن هذه القرائن التى ذكرها المفسرون أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان عبدا فى ظاهر الأمر والعبد لا يمكن أن يتسلط على مولاه إلى هذا الحد ، كما أنهم رأوا أن المرأة زينت نفسها على أكمل الوجوه ، ولم يكن على يوسف ـ عليه السلام ـ أثار للتزين . ثم إن أحوال يوسف ـ عليه السلام ـ فى المدة الطويلة تدل على براءته إذ لم يروا منه حالة تناسب إقدامه على مثل هذا الفعل المنكر وذلك مما يقوى الظن . وقيل إن زوج المرأة كان عاجزا وآثار طلب الشهوة فى حق المرأة كانت متكاملة[2] .

فلما حصلت هذه الأمارات الدالة على أن مبدأ هذه الفتنة كانت من المرأة استحيا الزوج وتوقف وسكت لعلمه بأن يوسف هو الصادق والمرأة كاذبة ، أظهر الله ليوسف دليلا يقوى تلك الدلائل فجاءت تلك القرينة على لسان الشاهد .

كما اعترض على هذه القرينة من ناحية الشاهد المذكور، فقد اختلفوا فيه فقيل إنه كان ابن عم المرأة وكان حكيما يستشره الملك ، وقيل إنه طفل تكلم فى المهد . فقالوا إن كان

(١) أحكام القرآن ٣/١٠٧٣ ـ تفسير الطبرى ١٢/١١٦ ، تفسير الرازى ٥/١٧٩ .
(٢) تفسير الرازى ٥/١٧٩ ، تفسير الخازن ٣/١٦ .

الشاهد طفلا تكلم فى المهد لا يكون فى الآية دليل على اعمال الأمارات إذ أن الدليل هو كلام الصبى فى مهده .

وقد دفع هذا الاعتراض بانه يستبعد أن يكون الشاهد صبيا بل كان رجلا حكيما وهو الذى يناسب سياق الآية، فلو أنطق الله الطفل لكان كافيا قوله إنها كاذبة ولما احتاج إلى نصب العلامة، ثم قوله تعالى ﴿**شهد شاهد من أهلها**﴾ ليكون أولى بالقبول فى حق المرأة ولو كان صبيا لا يتفاوت الحال كونه من أهلها أو من غير أهلها. كما أن لفظ الشاهد لا يقع فى العرف إلا لمن تقدمت معرفته بالواقعة وإحاطة بها[1].

وقيل انه لا تعارض بين كونه صبيا تكلم فى المهد وبين الأمارة المنصوبة، فقد يتكلم الصبى. ومع ذلك ينبههم إلى الدليل الذى غفلوا عنه وهى أمارة القميص[2]

وهناك اعتراض ثالث هو أن هذه الآية تبين شرع السابقين وشرع من قبلنا لا يلزمنا. وقد أجيب على هذا الاعتراض بالأدلة التى يحتج بها مثبتو العمل بشرع من قبلنا إذا لم يرد دليل على نسخه عنا .

ثانيا : السنة الشريفة وعمل الصحابة ـ رضوان الله عليهم :

كذلك احتج القائلون بالقرينة فى الأحكام بآثار كثيرة وردت عن النبى ﷺ وصحابته، ومن هذه الآثار :

(١) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : «بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن احداهما، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك. وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود ـ عليه السلام ـ فقضى به الكبرى فخرجتا على سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ فأخبرتاه فقال : أئتونى بالسكين اشقه بينهما. فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها. فقضى به للصغرى»[3].

فاستدل بقرينة رضا الكبرى أن يشقه نصفين وعدم شفقتها عليه أنه ليس ابنها، بينما اشفقت الصغرى وأمتنعت عن الدعوى حتى لا يذهب الطفل فهذا يدل على أنه ابنها إذ أن الله أودع فى قلوب الأمهات الشفقة على ابنائهن .

---

(١) روح المعانى ٢٢٢/١٢ ـ أحكام القرآن لابن العربى ١٠٧١/٣، والكشاف بهامشه الانتصاف ٩٣/٢ .
(٢) أحكام القرآن لابن العربى ١٠٧٣/٣، تبصرة الحكام لابن فرحون ٩٣/٢ .
(٣) صحيح البخارى ١٠٤/٤ «كتاب الفرائض» .

(١) ما روى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: أردت السفر إلى خيبر، فقال لى رسول الله ﷺ: إذا جئت وكيلى فخذ منه خمسة عشر وسقا فإذا طلب منك آية فضع يدك على ترقوته[١].

فأقام العلامة مقام الشهادة.

(٣) عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال: لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا يارسول الله وكيف إذنها قال: إذنها صماتها. أو قال: أن تسكت[٢].

فجعل عليه الصلاة والسلام صماتها قرينة على الرضا.

(٤) إنه ﷺ حينما صالح يهود خيبر كان لحي بن أخطب مال كثير فأخفوه عن النبى ﷺ، فسألهم عنه فقال ابن أبى الحقيق عم حي ابن أخطب. أذهبته الحروب والنفقات، فقال ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك. ثم دفعه إلى الزبير فضربه حتى أقر بمكان المال[٣]. فيظهر اعتماده ﷺ على الأمارات وشواهد الحال قرب العهد وكثرة المال.

(٥) عن زيد بن خالد الجهنى أن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن اللقطة فقال عرفها سنة ثم اعرف وكاءها ووعاءها وعفاصها ثم استنفع بها فإن جاء ربها فأدها إليه[٤].

فأمر رسول الله ﷺ الملتقط أن يدفع اللقطة إلى صاحبها بمجرد الوصف لآن وصفه لها بما يطابق الواقع قرينة على ملكيته.

(٦) أن ابنى عفراء لما تداعيا قتل أبى جهل قال لهما رسول الله ﷺ: هل مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا. قال: فأريانى سيفيكما. فلما نظر فيهما. قال لأحدهما: هذا قتله وقضى له بسلبه[٥].

(٧) أنه ﷺ حكم بالقافة وجعلها من أدلة ثبوت النسب وليس فيها إلا مجرد العلامات والأمارات[٦].

---

(١) سنن أبى داود ٣/٣٥١.

(٢) صحيح البخارى كتاب «النكاح» ٣/٢٠٧.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام ٣/٣٣٧. قال فى فتح البارى. أخرجه البيهقى باسناد رجاله ثقات. انظر فتح البارى ٧/٣٨٦.

(٤) رواه الترمذى وقال: حسن صحيح ـ سنن الترمذى ٦/١٣٧. ط. الصاوى ـ مصر.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/٦٢.

(٦) القافة جمع قائف كبائع وباعة وهو من يعرف النسب بالشبه. وفى الصحيحين أن مجززا المدلجى رأى اسامة =

(٨) حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - برجم المرأة التى ظهر حملها ولا زوج لها ولا سيد. كما ورد فى المتفق عليه قوله فى شأن الرجم. «وإن الرجم حق فى كتاب الله على من زنى إذا احصن من الرجال والنساء إذا قامت البينة أو كان الحبل أو الاعتراف»(١).

(٩) كذلك ما ورد فى الموطأ وكذلك عن مسلم عن عمر وعثمان وابن مسعود - رضوان الله عليهم - بحد من وجدت منه رائحة الخمر(٢).

هذا نذر قليل من الأدلة الكثيرة التى أوردها مثبتو العمل بالقرائن فى القضاء راعيت فى اختياره قوة الثبوت ووضوح الدلالة، ولنقف الآن قليلا مع أدلة المانعين لأعمال القرائن فى بناء الأحكام القضائية.

أدلة المانعين :

تتركز حجة هؤلاء فى خطورة الأخذ بالقرائن لما يحوطها من الاحتمالات من شأنها أن تؤدى إلى القصاص من متهم برىء، أو إنزال العقوبة على شخص لا يستحق العقاب. ومن الآثار التى وردت فى هذا المعنى :

(١) ما روى أنه أتى برجل وجد فى خربة بيده سكين متطخة بدم. وبين يديه قتيل يتشحط فى دمه، فسأله على - رضى الله عنه - فقال: أنا قتلته. قال على: اذهبوا به فأقتلوه، فلما ذهبوا به أقبل رجل مسرعا. فقال: ياقوم لا تعجلوا ردوه إلى علىّ. فردوه. فقال الرجل: ياأمير المؤمنين ما هذا صاحبه. أنا قتلته فقال علىّ للأول: ما حملك على أن قلت أنا قتلته ولم تقتله؟ قال: ياأمير المؤمنين وما استطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرجل يتشحط فى دمه وأنا واقف وفى يدى سكين وفيها أثر الدم. وقد أخذت فى خربة. فخفت ألا يقبل منى وأن يكون قسامة فاعترفت بما لم أصنع واحتسبت نفسى عند الله. فقال علىّ: بئسما صنعت فكيف كان حديثك؟ قال: إنى رجل قصاب وخرجت إلى حانوتى فى الغلس فذبحت بقرة وسلختها. فبينما أنا أصلحها والسكين فى يدى أخذنى البول فأتيت

= وزيدا قد غطيا رءوسها وبدت أقدامها فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسر رسول الله ﷺ لكون المشركين كانوا يشككون فى نسبها لاختلاف لونيهما.

انظر البخارى (باب الفرائض) ٣/١٣٩، مسلم بشرح النووى ١٠/٤٢.

(١) بلوغ المرام مع سبل السلام ٤/٨.

(٢) الموطأ مع المنتقى ٣/١٤٢. ط. السعادة. مصر، وانظر صحيح مسلم مع شرح النووى ١١/٢١٦.

خربة كانت بقربى ، فدخلتها ، فقضيت حاجتى ، وعدت أريد حانوتى فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط فى دمه ، فراعنى أمره فوقفت أنظر إليه والسكين فى يدى ، فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا وأخذونى . فقال الناس . هذا قتل هذا ، ما له قاتل سواه ، فأيقنت أنك لا تترك قولهم لقولى ، فاعترفت بما لم أجنه . فقال علىّ للمقر الثانى : فأنت كيف كانت قصتك؟ فقال : أغوانى الشيطان فقتلت الرجل طمعا فى ماله ، ثم سمعت حس العسس ، فخرجت من الخربة واستقبلت هذا القصاب على الحال التى وصف فاستترت منه ببعض الخربة حتى أتى العسس فأخذوه وأتوك به ، فلما أمرت بقتله علمت أنى سأبوء بدمه أيضا ، فاعترفت بالحق . فقال للحسين ـ رضى الله عنه : ما الحكم فى هذا؟ قال : ياأمير المؤمنين إن كان قد قتل نفسا فقد أحيا نفسا ، وقد قال الله تعالى : ﴿**ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا**﴾ . (المائدة : **٣٢**) فخلى علىّ عنهما وأخرج دية القتيل من بيت المال(١) .

وقد وقع نظير تلك القضية فى عهده ﷺ إلا أنها ليست فى القتل .

عن علقمة بن وائل عن أبيه : أن امرأة وقع عليها رجل فى سواد الصبح وهى تعمد إلى المسجد بمكروه من نفسها ، فاستغاثت برجل مر عليها ، وفر صاحبها ، ثم مر ذوو عدد فاستغاثت بهم ، فأدركوا الرجل الذى كانت استغاثت به فأخذوه ، وسبقهم الآخر . فجاءوا به يقودونه إليها فقال : أنا الذى أغثتك وقد ذهب الآخر ، فأتوا به النبى ﷺ . فقال الرجل : إنما كنت أغثتها على صاحبها ـ فأدركنى هؤلاء فأخذونى . فقالت : كذب ، هو الذى وقع علىّ . فقال رسول الله ﷺ : انطلقوا به فارجموه . فقام رجل فقال : لا ترجموه وارجمونى ، فأنا الذى فعلت بها الفعل واعترف . فاجتمع ثلاثة عند رسول الله ﷺ ، الذى وقع عليها والذى أغاثها والمرأة . فقال : أما أنت فقد غفر لك . وقال للذى أغاثها قولا حسنا . فقال عمر ـ رضى الله عنه ـ أرجم الذى اعترف بالزنا . فأبى رسول الله ﷺ وقال : لا ، لأنه قد تاب . وفى رواية فقالوا : يارسول الله أرجمه . فقال : لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم(٢) .

وعند الترمذى أمر برجمه ، فقال أرجموه لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم(٣) .

مما لاشك فيه أن هذين الأثرين يوهنان الأخذ بالقرينة ويفتان فى عضد الاحتجاج بها ويقويان شبهة المانعين للعمل بها من حيث أن شواهد الحال كثيرا ما تكذب ، وأن الأمر قد

---

(١) الطرق الحكمية ص٦٧ .

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه ٤/٢٣٣ مع حاشيته عون المعبود .

(٣) سنن الترمذى ٦/٢٣٦ .

يكون خلاف مادلت عليه القرائن الظاهرة. فلو أخذنا بها لذهبت دماء وأموال لمجرد الاحتمال. غير أنه لا يفوتنا فى هذه المقام أن نورد ما ذكره الإمام ابن القيم - رحمه الله - عن هذين الأثرين.

يقول ابن القيم عن القضية التى عرضت على أمير المؤمنين على - رضى الله عنه: «وهذا إن كان صلحا وقع برضا الأولياء فلا اشكال، وإن كان بغير رضاهم فالمعروف من أقوال الفقهاء أن القصاص لا يسقط بذلك، لأن الجانى قد اعترف بما يوجبه ولم يوجد ما يسقطه فيتعين استيفاؤه، وبعد فلحكم أمير المؤمنين وجه قوى»(١).

رأى ابن القيم أن القصاص قد وجدت موجباته فليس هناك ما يمنع استيفاءه، اللهم إلا أن يكون قد تم ذلك برضاء الأولياء، فكأنه يرى نقصان الرواية لكونها لم تبين وجه عدول أمير المؤمنين علىّ عن استيفاء القصاص.

أما الحديث الثانى فيقول عنه: «وهذا الحديث إسناده على شرط مسلم، ولعله تركه لهذا الاضطراب فى متنه» ويقصد بالاضطراب فى المتن ورود رواية بعدم رجم الذى اعترف بالزنا. ورواية الترمذى أنه أمر برجمه. **قال ابن القيم**: «إن الراوى إما أن يكون قد جرى على المعتاد برجم المعترف، وإما أن يكون اشتبه عليه أمره برجم الذى جاءوا به أولا، فوهم وقال إنه أمر برجم المعترف. ثم بين أن الذين رجمهم رسول الله ﷺ معروفون، ولم يكن هذا من بينهم. والظاهر أن راوى الرجم فى هذه القصة استبعد أن يكون قد اعترف بالزنا عند رسول الله ﷺ ولم يرجمه، وعلم أن من هديه رجم الزانى فقال: وأمر برجمه.

وبعد أن بين ابن القيم - رحمه الله - هذا الاضطراب فى متن الحديث، ووهم أحد رواته ذكر أن القرائن فى هذا الحديث مع أنها دلت على خلاف الواقع، إلا أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حكم القرائن أيضا، وإلا فكيف أمر رسول الله ﷺ برجم المتهم الذى كان مغيثا للمرأة مع عدم اقراره ولم تقم شهادة على رؤ ية الزنا. **قال**: «فيقال - والله أعلم - إن هذا مثال إقامة الحد باللوث الظاهر القوى، فإنه أدرك وهو يشتد هاربا بين أيدى القوم، واعترف بأنه كان عند المرأة، وأدعى أنه كان مغيثا لها، وقالت المرأة: هو هذا. وهذا لوث ظاهر، وقد أقام الصحابة حد الزنا والخمر باللوث الذى هو نظير هذا أو قريب منه وهو الحمل والرائحة... ولما انكشف الأمر بخلاف ذلك تعين الرجوع إليه، كما لو شهد أربعة بزنا المرأة لم يحكم برجمها إذا ظهر أنها عذراء أو ظهر كذبهم»(٢).

---

(١) الطرق الحكمية ٦٧.

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ - ٧١.

يتبين من هذا أن الإمام ابن القيم يرى أن هذين الأثرين لا يمنعان العمل بالقرينة، إنما يؤيدان الحكم بالقرائن إذ أنه عليه السلام أمر برجم الرجل الذى وجد عند المرأة وادعى أغاثتها وليس هناك ما يدعوه إلى اصدار هذا الحكم بالرجم إلا القرائن الظاهرة. ويرى ابن القيم أن فى هذا الحديث تأييدا لمذهبه القاضى باعمال القرائن فى اثبات الحدود.

رأينا فى الموضــوع :

تبين مما سبق أن الحديث الذى استدل به من رفض القرينة اختلفت فيه أقوال الرواة فظهر الاضطراب فى متنه، ومع ذلك ففيه الدلالة على تحكيم القرائن. وكذلك الأثر المروى عن على ـ رضى الله عنه ـ وأعوانه فيه اتهام بنقصان الرواية حيث لم تبين كل ظروف القضية المطروحة، ومع ذلك فمن رأيي أن القرائن فى هذا الأثر مع أنها دلت على خلاف الواقع إلا أن فيه دلالة على اعمالها أيضا، فالمتهم الأول بالرغم من أنه لم يرتكب الجريمة إلا أنه علم أنه لا يستطيع دحض القرائن الظاهرة فآثر الاعتراف بما لم يجنه. ونفس هذه القرائن هى التى جعلت عسكر على ـ رضى الله عنه ـ يلقون القبض على المتهم ولو لم تكن القرائن دليلا فى الدعوى لما قبضوه ولما ذكروا أنه القاتل. وإلا كيف يكون الحال إذا وجدنا رجلا مذبوحا وإلى جواره آخر يحمل سكينا مضرجة بالدماء ثم نتركه لاحتمال أن يكون القاتل غيره، فإن صح وجود قاتل غيره كما فى هذا الأثر فإنه فى حكم النادر.

ففى اعتقادى أنه لا خلاف فى أن القرائن لا تخلو من بعض الاحتمالات التى توهن اعتبارها وتضعفها كدليل، ولكن يمكن القول بأن هذه الاحتمالات ـ كما تدخل فى القرينة ـ قد تدخل فى غيرها من طرق الاثبات فالبينة قد يتطرق إليها كذب الشهود أو نسيانهم، والاقرار قد يدخل الغرض وتحقيق مصلحة ذاتية، ومع ذلك لم يلغ الشارع الحكيم اعتبارهما واعتمادهما كأدلة للاثبات لتوهم هذه الاحتمالات، فالشريعة لها الظاهر والله يتولى السرائر. فإذا كان الاحتمال قد يدخل فى أقوى الحجج الشرعية، فليس هو بحجة يمنع بها اعتبار القرائن، وكما يكون هناك ضحايا فى القرائن فى مثل هذه الاحتمالات، فلا تخلو الأدلة الأخرى أيضا من ضحايا.

ولكن هذه الاحتمالات ليس هى الغالب فى أحوال القرينة كما أنها ليست الغالب فى الاقرار والبينة. والشارع الحكيم قد عول على الظاهر ودلالة الحال فى مواطن كثيرة لا يمكن تجاهلها منها ما ذكرنا ومنها مالا يتسع المجال لذكره. والرسول عليه الصلاة والسلام يقول:

«إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالايمان»(١). فجعل الشهادة على إيمانه مبنية على الظاهر من حاله وهو ارتياد المساجد. وما الحكم بعدالة الشهود إلا بناء على الظاهر من حالهم، فالغالب من الأحوال أن الظاهر يطابق الواقع. أما الاحتمال فهو فى حيز التوهم، فيجب ألا نلقى بالتعويل على القرائن لمجرده. ثم أننا بهذا القول الذى نطلب فيه من القاضى النظر إلى القرائن والأمارات نشترط عليه انعام النظر والفكر والتثبت فلا يحكم بالقرائن الضعيفة المتهافتة التى لا يقوى بها الظن على ظهور الحكم. فلابد أن يؤسس حكمه على قرائن ظاهرة يتبين فيها وضوح الدلالة وقوة الحجة بحيث يكون مطمئنا لذلك الحكم منشرح الصدر.

ثم إن هؤلاء المانعين للعمل بالقرائن إذا كانوا قد عاشوا فى مجتمعات سليمة غلب على الناس فيها الأمانة والصدق والورع، مما جعلهم يتورعون إلى هذا الحد ويوجبون على القاضى ألا يتعدى فى أدلته على المذكور، فإن أعراف اليوم قد تغيرت تماما، وتعقد اسلوب الحياة، ومع هذا التعقيد انعدم الضمير والوازع، وانتشر الفساد وضرب أطنابه، وتكونت للسلب والنهب والسطو عصابات وجمعيات ليس فى البلد الواحد فحسب بل أصبحت لها شبكات وفروع عالمية، وانتشرت دعاوى التزوير والغش، وسهل التعدى على النفس والعرض والمال، وكل ذلك يتم وقلّ أن يكون فى حادثة منها شاهد عيان واحد، أو إقرار ممن قام بها، وليس هناك من الوازع الدينى أو الأخلاقى ما يجعل المتهم يقر بحق عليه أو جريمة ارتكبها، ولو تركناه لليمين لحلفها وحلف عليها ألفا أنه ما فعل ولا أخذ. فلو قصرنا الاثبات على الأدلة المذكورة لما ثبتت جريمة ولا استخلص حق. ولعمرى أن رجال هذا المذهب - مع قلتهم بالنسبة للقائلين بالقرائن - لو وقعت عليهم مثل ما يقع اليوم من الحوادث والقضايا، أو لو أنهم عاشوا حتى رأوا ما نرى لما توقفوا فى الإفتاء بما يوافق متطلبات هذه الحوادث والمنازعات، خصوصا وقد عرف منهم حرصهم الشديد على إقامة الحق والعدل.

ثم إنه مع هذا التقدم العلمى الذى يشهده عالم اليوم أمكن التوصل إلى قرائن قوية تبين الحق وتعين على فهم الدعوى كالتحليلات المعملية من فحص للدم وغيره ومطابقة بصمات الأصابع ومضاهاة الخطوط وغير ذلك. فإننا إذا أهملنا هذه القرائن وألقينا بها فى البحر بحجة ما يتطرق إليها من الاحتمال لعرضنا الشريعة الإسلامية لتهمة الجمود وعدم

---

(١) سنن الدارمى ١/٢٢٢ وفى تخريج أحاديث الدارمى يقول عبد الله هاشم اليمانى: رواه أيضا أحمد والترمذى وقال: «حديث حسن غريب» وابن ماجة والحاكم وقال صحيح الاسناد.

مسايرة العصر، وهذا مالم يقله إلا المكابر، فهى شريعة كل وقت وقانون كل جيل، وما هذه الفتاوى المأخوذة من أصولها المعروفة إلا دليل مرونتها وقابليتها لحكم الأجيال المتعاقبة .

وعليه فإنه لا مناص من الأخذ بالقرائن والرجوع إليها فى بناء الأحكام القضائية إذا لم يكن من دليل غيرها وفقا على فتوى الكثيرين من الفقهاء - كما رأينا وسنرى إن شاء تعالى .

على أننا حينما نؤيد الأخذ بالقرائن ونرى ضرورة مراعاتها عند بناء الأحكام القضائية لا نلقى هذا القول على عواهنه ونطلقه بلا حدود، فالقرائن التى نرى الأحتكام إليها هى تلك القرائن التى تكون واضحة الدلالة فى الدعوى ظاهرة فى محل النزاع، لا القرائن الضعيفة التى يتسع فيها باب الشك والاحتمال .

كما أننا نرى ضرورة المحافظة على مقاصد الشرع الحكيم ومراعاة منهجه فى الإثبات، فالدعاوى التى تكون منهج الشارع فيها التشدد فى الاثبات والحيطة فى تطبيق عقوباتها كجرائم الحدود ينبغى ألا يكون هناك توسع فى اثباتها أو اعمال للقرائن لدرجة يخل بنظام الشارع، إذ أن هذا النوع من القضايا ليس متروكا لاقتناع القاضى بارتكاب المتهم للجريمة، ولذا فقد جعل له الشارع نظاما مقيدا فى الاثبات، وزاد فى أمر التثبت والنظر دون ماهو معهود فى غيرها من القضايا، كما طلب من القاضى أن يفسر كل شك يطرأ فى الدعوى لصالح المتهم، فإذا وجد أى شبهة تصرف الحد عن المتهم دفع عنه الحد لأن الحدود تدرأ بالشبهات .

القرائن فى نصوص الفقهاء :

ليس مقصودى فى هذه الفقرة أن أسجل دراسة نصية للقرائن عند الفقهاء فإن ذلك لا يتسع له المجال. ثم إنى قد جعلت هذه الدراسة فى كتاب أعد لطبعه بإذن الله تعالى . تناولت فيه أنواع القرائن وتطبيقاتها على الدعاوى سواء كانت دعاوى الجنايات أو المعاملات أو الدعاوى التى تقع فى دائرة الأحوال الشخصية كما تناولت فيه نظرة الفقه الإسلامى للقرائن المستحدثة التى أبرزتها العلوم المعاصرة. أما الذى أقصده من هذه الفقرة أن أبين فى عجالة ملاحظاتى عن تلك الدراسة .

الناظر فى مذاهب الفقهاء يبدو له من أول وهلة أن الفقهاء على فريقين، فريق يرى عدم الاعتداد بالقرينة ويقول أنها لا تصلح حجة فى بناء الأحكام القضائية وفريق آخر يراها حجة يجوز للقاضى عدها من أدلة الاثبات والفصل فى الدعوى بناء على دلالتها .

لننظر مثلا فى هذا النص الذى نقلناه عن العلامة الحنفى ابن نحيم المصرى يقول فى كتابه البحر الرائق : «إعلم أنه قد ظهر من كلام المصنف أن طرق القضاء ثلاثة : بينة، واقرار، ويمين ونكول عليه . أو القسامة أو علم القاضى بما يريد أن يحكم به . . . قال ابن الغرس ولم أره حتى الآن لغيره أو القرائن الدالة على ما يطلب الحكم به دلالة واضحة بحيث تصيره فى حيز المقطوع به، قال الخير الرملى - أى عن قول ابن الغرس فى القرائن - هذا غريب خارج عن الجادة فلا ينبغى التعويل عليه مالم يعضده نقل من كتاب معتمد[1] .

هذا النص يبين لنا اختلاف فقهاء المذهب الحنفى فى الاحتجاج بالقرينة، ولكن عند التحقيق نجد أن فقهاء المذهب الحنفى قد اتفقوا على الاعتداد بالقرائن فى بعض المواضع، ولذا فإننا نقول إنه لا يخلو مذهب من هذه المذاهب من الاحتجاج بالقرينة . ولكن هذا الاحتجاج يختلف من مذهب لآخر، فبينما يتسع مداه عند فقهاء المالكية ومتأخرى الحنابلة ليشمل اعمال القرائن فى الحدود والقصاص، يضيق لدى فقهاء الشافعية والظاهرية الذى اقتصدوا فى الاختجاج بها ولم يأخذوا بها إلا حيث بلغت من القوة مبلغ اليقين وأصبح عدم الأخذ بها يخالف بداهة العقول أو يخالف النص الصريح .

ونبرهن على صحة هذا القول بعرض موجز لبعض القرائن التى تحدث عنها الفقهاء، وساكتفى بسرد موجز لآرائهم مشيرا إلى المواطن التى اعتمدت عليها فى النقل عنهم حتى يتمكن من يريد الاستزادة فى هذا الخصوص من الرجوع إلى هذه المصادر .

(أ) قرينة الحيازة ودلالتها على الملك :

والحيازة هى وضع اليد على الشىء والاستيلاء عليه[2] . ولا فرق بين الحيازة ووضع اليد عند فقهاء الشريعة إذ المقصود هو الاستيلاء على الشىء بصورة مختلفة . فإذا وضع شخص يده على دار أو أرض تصير تلك الدار أو الأرض فى حيازته، وترتب على ذلك حماية تلك الحيازة واحترامها، وعد ذلك المال المحاز من أملاكه وذلك بناء على أمرين هامين :

الأول : القاعدة الفقهية التى تقضى بأن «الأصل فى الإنسان البراءة» وأن الناس محمولون على السلامة، فما لم يثبت أن الشخص مقيد أو غاصب فالأصل أنه برىء .

---

(١) البحر الرائق ٧/٢٠٥ وانظر بهامشه منحة الخالق وكذلك رسائل ابن عابدين ٢/١٢٨ .

(٢) الشرح الكبير للدرديرى بهامش حاشية الدسوقى ٤/٢٣٣ .

الثانى : ما جرت عليه العادة وما عرف من غالب أحوال الناس أنهم يتصرفون فى أملاكهم، فإذا حاز الإنسان شيئا وتصرف فيه، فالغالب أنه يتصرف فى ملكه مالم يقم دليل على عكس ذلك .

وبناء على ذلك فإن أقل أحوال ثبوت هذه اليد عند الفقهاء أنها تفيد الملك كما يدل عليه ظاهر الحيازة، وعليه فإنه يجب حماية هذه الحيازة وذلك بعدم انتقال الملكية من الحائز إلا بناقل أرجح من هذه القرينة الظاهرة، أى قرينة الحيازة، والناقل الأرجح عند الدعوى هو إما الاقرار أو البينة أو قرائن أخرى تكون دلالتها أقوى من دلالة الحيازة وأظهر فى حجيتها من دلالة الظاهر .

هذا المعنى فى الحيازة متفق عليه بين الفقهاء . ومن أهم مميزات هذه القرينة أنها وضعت حلا للمشكلات التى تبدو فى سبيل تمييز المدعى من المدعى عليه، مستفيدين بذلك من دلالة الظاهر التى تفيد أن الحائز يتصرف فى ملكه، وعلى مدعى الملكية فى مواجهة الحائز اثبات دعواه[1] .

(ب) قرينة الاستعمال وقرينة الصلاحية :

قلنا إن الفقهاء اتفقوا على أن الحيازة قرينة على الملكية لما تدل عليه شواهد الأحوال، غير أن الحيازة وحدها قد لاتضع حدا لكثير من المنازعات، وخاصة إذا كان الشىء المتنازع عليه فى أيدى المتداعيين يستعملانه أو يتجاذبانه بحيث تكون يد كل واحد منهما عليه، لم يقف الفقهاء عند ذلك مكتوفى الأيدى إنما رجعوا للقرائن المرجحة، والقرائن المرجحة هى :

(١) قرينة الاستعمال :

وفكرة هذه القرينة تقوم على أساس أن اليد دليل الملك كما قدمنا، فإذا تداعا اثنان فى الشىء وكان فى يد أحدهما، قدم من كان فى يده إذا لم يقدم المدعى بينة استحقاقه للشىء المتنازع فيه، فيترك لمن كان فى يده، أما إذا تداعيا الشىء وكان فى أيديهما، يقوم من كان استعماله للمال المحاز أظهر، ذلك أن الحيازة تقوم على أساس استعمال المال والتصرف فيه، إذ لا معنى لحيازة الشىء دون تصرف فيه، فالأموال جعلت للاستفادة منها . ومن ثم قالوا :

---

(١) يراجع فى فقه المذاهب الأربعة والظاهرية مايلى : بدائع الصنائع للكاسانى ٦/٢٦٧ . المبسوط للسرخسى ١٨/٣٤ . قوانين الأحكام الفقهية لابن جزى المالكى ص٣٢٢، البهجة شرح التحفه للتسولى المالكى ٢/٢٥٤، مختصر المزنى بهامش الأم للشافعى ٥/١٦١، شرح زكريا الأنصارى على متن البهجة لابن الوردى ٥/٢٣٥ المغنى لابن قدامة ١٠/٢٣٠ المحلى لابن حزم ٩/ ٥٣٣ .

كلما كان أحد المتداعيين مستعملا للمال المتنازع فيه، ومتصرفا فيه تصرفا يميزه عن الآخر بحيث يجعل سيطرته عليه أكثر وأرجح، ترجح جانبه وقضى له بناء على قرينة استعماله لهذا المال .

ويظهر جليا اعتداد فقهاء الحنفية والمالكية والشافعية بهذه القرينة فى المسائل التى بحثوها فى باب «مسائل الحيطان» أوباب «التنازع بالأيدى» أوباب «الشهادات» أوباب الدعاوى والبينات . ومن المسائل التى ظهر فيها اعتدادهم بهذه القرينة، قولهم : إذا تداعيا حائطا وكان لأحدهما عليه جذوع ولا شىء للآخر يقضى به لصاحب الجذوع لأنه مستعمل للحائط والاستعمال دليل الصدق . وإذا تنازعا فى دار يقدم ساكن الدار على الذى لا يسكنها . ومن حفر فيها بئرا أو أحدث فيها بناء يقدم على غيره . وإذا تنازعا دابة يقدم راكبها على المتعلق بلجامها . كل ذلك مع الاستهداء بما يقضى به العرف وشواهد العادات فى مثل هذه الأحوال(١)

ومن الذين اقتصدوا فى الاعتداد بهذه القرينة ابن حزم الظاهرى فيرى فيما ذكرنا أن يد المتنازعين متساوية فيقسم المتنازع فيه بينهما(٢) .

قرينة الصلاحية :

وتقوم فكرة هذه القرينة على أساس ترجيح أحد الجانبين بناء على صلاحية الشىء المتنازع فيه لأحد المتداعيين، يعنى أن يكون ذلك الشىء ملائما له بحسب العرف والعادة، كأن يكون أداة صنعته أو آلة حرفته، أو من مستلزمات مظهره حسب نفوذه أو مركزه فى المجتمع وما عرف به بين الناس، ومن أمثلة ذلك الجلد للدباغ أو العطر للعطار أو السفينة للملاح أو الفرس للأمير وذى الجاه وغير ذلك من الأشياء التى تصلح لأحد الجانبين، فى الوقت الذى يكون هذا الشىء ليس من مستلزمات أو أداة حرفة للجانب الآخر، وكما قلت أن أثر هذه القرينة يبدأ حينما يكون أيدى المتداعيين متساوية على الشىء المتنازع فيه .

وقد قال بالترجيح بهذه القرينة فقهاء المالكية والحنفية والحنابلة، ومنع من الترجيح بها الإمام الشافعى وابن حزم الظاهرى بحجة أن ذلك يخالف قاعدة الدعوة من أن كل من يدعى حقا فعليه اثبات دعواه ولا ينظر لصلاحية المدعى به له أو لغيره(٣) .

---

(١) جامع الفصولين فقه حنفى ٢ /٢٧٧، المبسوط ١٧ /٨٨ فتح القدير ٦ /٢٥١ الفروق للقرافى ٤ /١٠٣ المغنى ٩/ ٣٢٤ المهذب للشيرازى ٢ /٣١٦، الطرق الحكمية ١٣٤ .

(٢) جواهر الروايات للبشتاوى الحنفى ص٤٣ . مجموعة رسائل ابن عابدين ٢ /١٢٧ الفروق للقرافى ٢ /١٥٠ الطرق الحكمية ص١١١ ـ١١٤ الأم للشافعى ٥ /٩٥ . المهذب للشيرازى ٢ /٣٣٥ . المحلى لابن حزم ٩ /٥٣٣ .

(ج) **فى دعـوى ملكيـة اللقطـة** أخذ الفقهاء بقرينة مطابقة الوصف دليلا على ملكية الـواصف ـ بمعنى أن الـواصف للقطة إذا ذكرا وصفا مطابقا للواقع ، جاز للملتقط تسليمه اللقطـة ، ومن ثم لا يلزمـه ضمان المـال إذا اتضـح أن الـواصف ليس هو المـالك عند المالكية والحنابلة والظاهرية وهو الصحيح فى نظرى . ويلزم بالضمان عند الشافعية[1] .

(د) **قرينة التهمة** أدت إلى تقييد تصرفات المريض فى مرض الموت ، فلا تنفذ تصرفاته المنجزة سواء أكانت تبرعية أم بعوض إلا فى حدود ثلث أمواله مراعاة لحق ورثته . خالف فى ذلـك ابن حزم الظـاهـرى ، ولم يعتد بقرينة التهمة وجعل تصرفات المريض نافذة كتصرفات الأصحاء . ورأى الجمهور هو الظاهر الغالب[2] .

(هـ)**لم يعتد جمهور الفقهاء بالقرينة** فى اثبات الحدود ، وذهب فقهاء المالكية وابن تيمية وابن القيم وهـو قول عن الإمـام أحمـد إلى القـول بثبـوت الحدود ببعض القرائن وهى قرينة الحمـل فى الـزنـا فى المرأة التى لا زوج لها ولا سيد ، وقرينة الرائحة أو السكر أو القىء فى حد الخمر، والتعريض مع دلالة القرائن الأخرى فى حد القذف . ولكل من الفريقين أدلة تؤ يد مذهبه ، أقواها من جهة النقل أدلة المانعين لاثبات الحدود بالقرائن[3] .

(و) **يقول فقهاء المالكية والشافعية والحنابلة** إن الوسيلة المستخدمة فى القتل تدل على القصد الجنائى أو العمدية فإذا استخدم القاتل وسيلة معدة للقتل كالسلاح أو آلة تقتل غالبا كان ذلـك قرينـة على العمـدية ، وكان القتل قتلا عمدا ، ولم يأخذ بفكرة الوسيلة هذه مالك وابن حزم[4] .

(ز) **أخذ الفقهاء بالقرائن** فى اثبات القسامة ، وهى اللوث عند جمهور الفقهاء وقرينة وجود القتيل فى محله قدم عن الحنفية[5] .

(ح) **فى مجال إثبـات الحقـوق المـترتبـة** على عقـد الـزواج يعد فقهاء الحنفية والحنابلة الخلوة الشـرعيـة قرينـة على الـدخـول الحقيقى ، فإذا ما ثبتت خلوة الـرجـل بزوجتـه خلوة

---

(١) كشاف القناع للبهوتى ٤/٢٢٠ شرح الحطاب ٦/٧٠ المحلى ٨/٢٩٦ .

(٢) راجع مقالنا فى العدد ٥٩ من المجلة .

(٣) مختصر خليل وشرح الحطاب ٦/٢٩٤ ، الموطأ وشرح الزرقانى ٤/١٥ . السياسة الشرعية ابن تيمية ص١١١ . اعلام الموقعين ٤/٣٧٤ ، المغنى ٨/٢١١ ، المحلى ١١/٣٣٩ ، فتح البارى ١٢/١٣٠ .

(٤) الزيلعى على متن الكنز ٦/٩٧ الدر المختار ٥/٤٤٦ حاشية الشرقاوى . وتحفة الطلاب ٢/٣٥٧ كشاف القناع ٥/١٥١ .

(٥) المهذب ٢/٣٣٨ تبصرة الحكام ١/٢٥٥ الخرشى ٨/٥٦ المغنى ٨/٦٨ .

صحيحة - وهى التى ينعدم فيها المانع الحقيقى الذى يمنع اتصاله بها كمرضه أو مرضها أو المانع الشرعى كالصوم أو الاحرام فى الحج أو المانع الطبعى كوجود شخص ثالث - فالغالب أنه يجامعها. ولما كان اثبات هذا الجماع أمرا متعذرا قال هؤلاء بأنه يكفى المرأة اثبات الخلوة الصحيحة، لتنال حقوقها فى اثبات المهر وثبوت النسب والعدة، ووجوب النفقة والسكنى وغير ذلك، وجعل المالكية أيضا الخلوة قرينة على الوطء ولذا قالوا لن تصدق المرأة فى دعواها الوطء وعليها اليمين(١).

وجعل الفقهاء كذلك قرينة الصلاحية معيارا لفض النزاع بين الزوجين فى متاع البيت وذلك بجعل ما يصلح للرجال من كتب وسلاح وغيره للرجل، وما يعرف أنه من متاع النساء كالحلى والمغازل فهو للمراة. خلافا للإمام الشافعى الذى لا يرى فض النزاع بالصلاحية(٢).

وفى إثبات النسب بالقرائن، أخذ الفقهاء من قرينة قبول الرجل التهنئة وشراء لوازم الولادة قرينة على أن الولد منه، وقبل الحنفية وصف العلامة فى ثبوت نسب اللقيط. كما عد فقهاء المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية قرينة القافة - أى النظر إلى الشبه - دليلا على ثبوت النسب. وخالف فيها فقهاء الحنفية(٣).

(ي) قال فقهاء المالكية والحنابلة بثبوت الوقف بالقرائن، فيثبت وقف المسجد الذى بناه صاحبه وأذن بالصلاة فيه وإن لم يصرح بأنه وقف لأن القرائن تدل على الوقفية، ويثبت وقف الفرس إذا كان موسوما بعلامة الوقف، وتثبت وقفية كتب المدرسة التى يوجد عليها كتابة الوقف(٤).

والحق أن القرائن التى حفلت بها كتب الفقهاء كثيرة، ولكنى اكتفى بهذا القدر لعلى أكون به قد أبرزت جانبا من أهمية القرائن، وأنها دليل قوى قد يصل إلى درجة القطع، وأننا إذا أغفلناه نكون قد عطلنا مدركا هاما من مدارك الأحكام، فنعرض بذلك نظام الإثبات فى الفقه الإسلامى لتهمة الجمود، كما أننا إذا افرطنا فى استخدامها نكون قد ضيعنا كثيرا من الحقوق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الأمين.

---

(١) الفتاوى الطرسوسية ص٤٠ المغنى ٧٢٤/٦. تبصرة الحكام ٢٥٢/١.

(٢) المبسوط ٢١٣/٥، البدائع ٣٠٩/٢ الفروق ١٥١/٢، مختصر الخرقى والمغنى ٣٢٠/٩، الأم ومختصر المزنى ٩٥/٥.

(٣) المبسوط ٢٩٩/٦، البدائع ٢١٧/١٠، نهاية المحتاج ٣٥٢/٨ زاد المعاد ١١٦/٤ الفروق ١٢٥/٣.

(٤) تبصرة الحكام ١٠٠/٢ معين الحكام ص٣٠٥.

الإمداد بأحكام الحداد

- ١ -

للدكتور فيحان شالي المطيري
أستاذ مساعد بكلية الشريعة

الحمد لله الكريم المنان المتفرد بصفات الكمال والجلال وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له القوى المتعال وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله أكرم من مشى على وجه الأرض وتحت اديم السماء .

أما بعد : فقد كرم الله ابن آدم وميز بينه وبين سائر الحيوانات بنعمة العقل التى يفرق بها بين الخير والشر والضار والنافع فالإنسان يفكر ويتفكر ويأخذ ويعطى على حسب ما يراه من المصلحة ونتيجة لهذا العقل فهويتفاعل مع المجتمع ويقيم الروابط بينه وبين الآخرين ومن أهم هذه الروابط وأجلها رابطة الزوجية التى قال عنها القرآن الكريم ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ (الروم : ٢١) . فأى نعمة أعظم من هذه النعمة؟ . التى تكون بين الزوجين بسبب الرابطة الزوجية ولهذا فإن الشارع الحكيم جعل لكل منهما حقوقا على صاحبه . فالزوجة لها حقوق على الزوج عظيمة لا يسمح له الشرع بالاخلال بشىء منها والانتقاص منها وكذلك الزوج له حقوق عظيمة على زوجته لم يجعل الشارع سبيلا للزوجة كى تعبث بها وهى لا تستحق الإكرام إلا إذا قامت بهذه الحقوق خير قيام وهذا كله دليل على سماحة الشريعة الإسلامية وحرصها على جمع الكلمة وتقوية الروابط الفردية والاجتماعية وتأسيس الحياة الزوجية على أساس قوى يكتب له البقاء ردحاً من الزمن وفى هذا سعادة المجتمع وسعادة الفرد ولهذا وغيره من الأسباب أوجب الله الحداد على المرأة فى حق زوجها المتوفى إظهاراً لحق الزوج ووفاءً بالعهد الذى كان بينهما على حد قوله تعالى ﴿**ولاتنسوا الفضل بينكم**﴾ . (البقرة : ٢٣٧) .

نعم إن الفضل لا ينسى بين المسلمين وإنما يذكر أصحاب الفضل بالفضل . فالزوجة لا تنسى فضل زوجها وما كان بينهما من المحبة والمودة والعشرة الطيبة فمن الوفاء كل الوفاء القيام بحقه حياً وميتاً .

ومن هذا المنطلق فقد ساهمت بهذا الجهد المتواضع خدمة للشريعة الإسلامية فطالما كنت أفكر فى الكتابة فى هذا الموضوع لما له من الأهمية فى حياة الفرد المسلم اليومية والموت سنة إلهية لا ينكرها أحد حتى أولئك الذين لا يعترفون بالإسلام ديناً، نجد أنهم لا ينكرون هذه السنة الإلهية فربّما فقدت المرأة زوجها قبل الدخول أو بعده فتكون محتاجة إلى معرفة الأحكام المتعلقة بالإحداد ولا تجد ما يحقق رغبتها اللهُّم إلا ما كان مبعثراً فى المصادر القديمة مما يتعلق بالحداد وقد عزمت على الكتابة فى هذا الموضوع تيسيراً وتسهيلاً على من يحتاج إلى ذلك مسترشداً بأفكار المتقدمين على ضوء الدليل والاستدلال والمناقشة **وقد زادنى رغبة سؤال أتانى من فتاة تدرس فى معهد التمريض للبنات مفاده** أن زوجها توفى عنها فى حادثة سيارة قبل الدخول. فهل يجب عليها الإحداد؟. ثم إذا كان يجب عليها فهل يجوز لها الخروج للدراسة وتأدية الامتحان. بالرغم من انه لا يوجد لها عائل يعولها؟. **فأجبتها حسب علمى** وأحلتها على شيخنا سماحة الوالد عبد العزيز بن عبد الله بن باز ليطمئن قلبى وقلبها وبحمد الله أفتاها بمثل ما أفتيتها به ومن هنا عقدت العزم على الكتابة وبدأت فى جمع المادة من مصادرها وتقريبها فى هذا البحث راجيا الله عز وجل أن ينفع به كل من قرأه واطلع عليه، إنه على ذلك قدير، وبالاجابة جدير.

أما اسلوب البحث فهو يتلخص فى مايأتى :

(١) أذكر مذاهب الفقهاء الأربعة ما وجدت إلى ذلك سبيلا معتمداً على المصادر المشهورة فى كل مذهب ثم اعرج على المذاهب السنية الأخرى تتميما للفائدة.

(٢) اعرض المسألة وما فيها من الاختلاف فأذكر القول ودليله ومناقشة أدلة القول المرجوح ثم أخلص إلى الراجح حسبما يظهر لى ولا اعتمد فى القول الراجح على ترتيب معين.

(٣) أعزو الآيات والأحاديث والآثار إلى مصادرها فالآيات أعزوها إلى سورها فى المصحف الشريف والأحاديث أعزوها إلى كتب المحدثين والآثار إلى كتب المحدثين وقد أكتفى بعزوها إلى كتب الفقه أحياناً.

(٤) أجعل الفصل على مباحث والمبحث على مطالب والمطلب إلى فروع ماوجدت إلى ذلك سبيلا حسبما يتطلبه ذلك الفصل.

(٥) اقتبست أكثر أحكام الإحداد من الأدلة التى تفيد ايجاب العدة على المتوفى عنها واستفدت من أقوال الفقهاء فى هذا الباب وإلا فالأحكام التى ذكرت عن الإحداد قديماً

قليلة جداً لا تتجاوز عشر صفحات فى المطولات وإنما فعلت ذلك لكون الحداد وعدة المتوفى عنها - شقيقين - فهو يجب حيث تجب وينعدم حيث تنعدم، ولم أجد من أفرده بالتأليف قبلى وأحسب أن هذا البحث باكورة ما كتب فيه .

أما الخطة فبينتها على ستة فصول وخاتمة، **الفصل الأول** معنى الإحداد، **والفصل الثانى** حكم الإحداد، **والفصل الثالث** شروط الإحداد، وفى هذا الفصل المباحث الآتية **المبحث الأول** كون الحادة عاقلة، **المبحث الثانى** فى اشتراط البلوغ، **المبحث الثالث** فى شرط الإسلام **المبحث الرابع** هل من شرط وجوب الحداد كونه من الوفاة؟ **المبحث الخامس** هل من شرط وجوب الحداد كون النكاح صحيحاً؟ . **الفصل الرابع** فى أقسام الحداد والكلام فيه فى مبحثين. **الأول** فى الحداد الجائز **والمبحث الثانى** فى الحداد الممتنع وقسمت كل مبحث إلى قسمين. **الفصل الخامس** فى زمن الحداد وفيه مبحثان. **المبحث الأول** زمن الحداد على القريب الميت، **المبحث الثانى** زمن الحداد على الزوج وفيه مطالب. **المطلب الأول** عدة غير ذات الحمل وفيه مسائل مبيّنة فى موضعها، **المطلب الثانى** فى سبب وجوب الحداد، **المطلب الثالث** فى شرط وجوب عدة المتوفى عنها، **المطلب الرابع** فى وجوب الحداد على المطلقة إذا مات زوجها قبل انقضاء عدتها من الطلاق، **المطلب الخامس** فى إحداد المتوفى عنها الحامل، **الفصل السادس** الآثار المترتبة على الحداد، وفيه مباحث. **المبحث الأول** فى الطيب، **المبحث الثانى** عدم تزين المرأة فى نفسها، **المبحث الثالث** فى زينة الثياب، **المبحث الرابع** فى منع الحادة من الحلى، **المبحث الخامس** فى سكنى الحادة وفيه مطالب. **المطلب الأول** فى مبيت الحادة فى منزلها ليلا، **المطلب الثانى** خروج الحادة من منزلها نهاراً، **المطلب الثالث** فى وجوب السكنى وعدمها سكن الحادة، **المطلب الرابع** فى نفقة الحادة

وأما الخاتمة فقد تكلمت فيها على النتائج التى ظهرت لى من خلال البحث وإليك تحرير المقام فى ذلك كله .

الفصل الأول : معنى الإحداد :

الإحداد له معنى فى اللغة ومعنى فى الاصطلاح أما معناه لغة فهو المنع لأن الإحداد صفة تتعلق بالمرأة المحدة فهو يمنعها من كثير مما كان مباحاً لها قبله . قال فى القاموس : الحاد والمحدة تاركة الزينة للعدة تقول حَدَّتْ تَحِدُّ وتَحُدُّ حَدّاً وحِدَاداً وأحدت[1]ومنه سمى البواب

---

(١) انظر القاموس المحيط ج ١ ص ٢٩٦ (٢) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٥ .

حداداً لمنعه الداخل وسميت العقوبة حداً لانها تمنع عن المعصية وأما معناه فى الاصطلاح فهو أن تجتنب المرأة المعتدة المتوفى عنها زوجها كلما يدعو إلى نكاحها ورغبة الآخرين فيها من طيب وكحل ولبس ومطيّب وخروج من منزل من غير حاجة .

قال ابن درستوية : «معنى الإحداد منع المعتدة نفسها الزينة وبدنها الطيب ومنع الخطاب خطبتها والطمع فيها كما منع الحد المعصية[1] .

وقال الزيلعى : وهو «أى الإحداد» ترك الزينة والطيب[2] .

ونشير هنا إلى أن الإحداد فيه لغتان وهما احدت احداداً فهى محدة فهذا من باب افعال، والثانى تحد من باب ضرب يضرب، ونصر ينصر، حدّا فهى حاد[3] .

هذا ما يمكن أن يقال عن معنى الاحداد ومنه يتبين ما بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى من العلاقة فالمعنى اللغوى أعم من المعنى الاصطلاحى لأنه يراد به المنع مطلقا .

أما المعنى الاصطلاحى فيراد به منع المعتدة من أمور خاصة إلى غاية معينة محدودة وهى مدة العدة .

فالعلاقة بين المعنيين علاقة عموم وخصوص كما ترى وهذا هو الشأن فى معظم الأحكام التى لها معنى فى اللغة ومعنى فى الاصطلاح إن لم نقل كلها . . .

الفصل الثانى : فى حكم الإحداد :

هذا وبعد عرض المعنى اللغوى والاصطلاحى للإحداد نرى أنه من المفيد أن نذكر حكمه لأن ذلك هو الهدف الأول من دراسة ما يتعلق به من أحكام بالنسبة للمرأة إذا توفرت شروطه **فنقول** اتفق كل من يعتد بقوله من أئمة الفتوى على وجوب الإحداد على المرأة التى مات زوجها من غير فرق بين ما إذا كانت مدخولاً بها أو غير مدخول بها بل هو واجب على الكل فلو أرادت المتوفى عنها زوجها تركه لم يكن لها ذلك لأن الواجب هو ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه فى اصطلاح الأصوليين، فالمرأة التاركة للإحداد آثمة ولاشك لما ستعرف قريبا من المنقول والمعقول واجماع الصحابة على وجوب الإحداد ولم أجد فى هذا المعنى خلافا

---

(١) فتح البارى ج٩ ص٤٨٥ .
(٢) تبيين الحقائق ج ٣ ص ٣٤.
(٣) المصدر السابق .

اللهم إلا خلافا شاذاً مرويا عن الحسن البصرى والشعبى وسنذكر هذا الخلاف تتميما للفائدة وتبييناً للحق ، إذن المنقول فى ذلك من مذهبان مذهب الجمهور وهو المعتمد والمشهور والمعمول به ومذهب الحسن البصرى والشعبى .

ولنبدأ بمذهب الجمهور ونذكر أدلتهم ونثنى بالمذهب المخالف مع الإشارة إلى أدلة هذا المذهب وما أورد عليها من المناقشات .

فنقول وبالله التوفيق : ذهب جمهور الفقهاء قديما وحديثا من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وجوب الإحداد على المرأة المتوفى عنها زوجها على تفصيل فى ذلك نذكره قريبا إنشاء الله تعالى(١) .

وإنما ذهب الفقهاء هذا المذهب للمنقول والمعقول وإجماع الصحابة . أما المنقول فنورد منه مايأتى :

(أ) عن حميد بن نافع عن زينب بنت أم سلمة أنها قالت دخلت على أم حبيبة حين توفى أبوها أبو سفيان فدعت أم حبيبة بطيب فيه صفرة خلوق أوغيره فدهنت منه جارية ثم مست بعارضيها ثم قالت والله مالى بالطيب من حاجة غير انى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» . قالت زينب ثم دخلت على زينب بنت جحش حين توفى أخوها فدعت بطيب فمست منه ثم قالت والله مالى بالطيب من حاجة غير انى سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» . قالت زينب وسمعت أمى أم سلمة تقول جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله ان أبنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها افنكحلها؟ فقال رسول الله ﷺ : «لا مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا . ثم قال إنما هى أربعة أشهر وعشراً» . متفق عليه مختصراً .

(ب) عن أم سلمة أن النبى ﷺ قال : «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد فوق ثلثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشراً»(٢) .

فقد دل هذان الحديثان وما فى معناهما على وجوب الإحداد على المرأة المتوفى عنها زوجها وهما نص فى الموضوع ووجه الاستدلال من ذلك هو قوله ﷺ : «إلا على زوج أربعة

---

(١) تبيين الحقائق ج ٣ ص ٣٤ والمدونة الكبرى ج ٢ ص ٤٣٠ ومغنى المحتاج ج ٣ ص ٣٩٨ والكافى لابن قدامه ج ٣ ص ٣٢٦ .

(٢) صحيح البخارى ج ٧ ص ٧٦ وصحيح مسلم ح١٤٨٦ وسنن أبى داؤد ج ٢ ص ٧٢٣ وجامع الترمذى ح ١١٩٧ وسنن نسائى ج ٦ ص ٢٠٦ وسنن ابن ماجه ح ٢٠٨٤ .

أشهر وعشراً» وهذا على معنى الايجاب لا على معنى الاباحة لأن ذلك مستثنى من التحريم وهو قوله ﷺ: «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد» وهذا يقتضى أن لفظة افعل وهو قوله أربعة تكون بعد الحظر على بابها وهو الايجاب فالحظر هنا التحريم فاستثنى منه الايجاب كما نرى خلافاً لمن قال من الفقهاء انها تقتضى الاباحة .

فإن قيل الاستثناء فى الحديث وهو قوله ﷺ: «إلا على زوج . الخ» قد وقع بعد النفى فيدل على الحل فوق الثلاث على الزوج لا على الوجوب قيل إن الوجوب استفيد من دليل آخر بالاضافة إلى ما قلنا وهذا الدليل هو الاجماع وهو ما سنبينه فيمايأتى .

وأما الاجماع فإنه روى عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عمر وعائشة وأم سلمة وغيرهم ـ رضى الله عنهم ـ القول بوجوب الإحداد ولم يعرف لهم مخالف فى عصرهم فكان إجماعا من الصحابة ـ رضى الله عنهم[1]

ومستند الاجماع هو ماذكرناه من النصوص الدالة على وجوب الإحداد .

وأما المعقول فهو يفيد ايجاب الإحداد على المعتدة من الوفاة أيضاً لأن الحداد إنما وجب إظهاراً لحق الزوج على زوجته تأسفاً على ما فاتها من حسن العشرة ودوام الصحبة إلى وقت الموت زدَ على هذا أن الحداد يكون واجبا لسبب آخر وهو فوات النكاح الذى هو نعمة فى الدين خاصة فى حقها لما فيه من قضاء لشهوتها وعفتها عن الحرام وصيانة نفسها عن الهلاك بدرور النفقة وقد انقطع ذلك كله بالموت فلزمها الإحداد اظهاراً للمصيبة والحزن[2] .

فهذا هو النص والاجماع والمعقول كلها قاضية بايجاب الحداد إذا وجد سببه وهو بيّن كما ترى والله أعلم .

ثانيا : ذهب الحسن البصرى والشعبى إلى عدم وجوب الإحداد على المعتدة من الوفاة وهو قول شاذ مخالف لاجماع أئمة المسلمين ولهذا رده بعضهم فإن الخلّال نقل بإسناده عن أحمد عن هُشْيم عن داؤد عن الشعبى أنه كان لا يعرف الإحداد **قال أحمد**: ما كان بالعراق اشد تبحراً من هذين ـ يعنى الحسن والشعبى ـ **قال أحمد** وخفى ذلك عليهما. **قال ابن حجر فى الفتح**: بعد ايراده ماذكر (ومخالفتهما لا تقدح فى الاحتجاج وإن كان فيها رد على من ادعى الاجماع)[3].

---

(١) بدائع الصنائع ج ٣ ص ٢٠٩ ، والمغنى ج٧ ص٥١٧ .
(٢) بدائع الصنائع ج٣ ص٢٠٩ .
(٣) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦ .

وقال ابن قدامة فى المغنى بعد ان ذكر خلاف الحسن لأئمة الفتوى: (وهو قول شذ به عن أهل العلم وخالف به السنة فلا يعرج عليه[1].

هذا ما أورده أهل العلم على هذا القول الشاذ وعلى فرض التسليم بثبوته فالاستدلال له بمايأتى:

(١) ما روى عن عبد الله بن شداد بن الهاد عن اسماء بنت عميس قالت: لما اصيب جعفر بن أبى طالب قال لى رسول الله ﷺ: [2]تسَلِبى ثلاثا ثم اصنعى ما شئت[3]. (أخرجه أحمد).

(٢) عن اسماء بنت عميس أنها استأذنت النبى ﷺ أن تحد على جعفر وهى إمرأته فأذن لها ثلاثة أيام ثم بعث إليها بعد ثلاثة أيام أن تطهرى واكتحلى[4].

فهذا دليل على عدم وجوب الإحداد على المعتدة من الوفاة أكثر من ثلاثة أيام وهو نص فى محل النزاع والجواب عن هذا الاستدلال من وجوه.

الوجه الأول: أنه شاذ لا يحتج به ولا يصلح عمدة لاثبات الأحكام **قال ابن المنذر** مجيبا عن ذلك: (وقد دفع أهل العلم هذا الحديث بوجوه وكان أحمد بن حنبل يقول هذا شاذ ولا يؤخذ به وقاله اسحق[5].

الوجه الثانى: أن هذا الحديث مخالف للأحاديث الأخرى الصحيحة ولعلها لم تبلغ القائلين بهذا القول إذ إنها لو بلغتهم لم يسعهم إلا التسليم لأنه لا يصح لمسلم كائنا من كان يبلغه حديث رسول الله ﷺ دالٌ على حكم من الأحكام إلا القبول والتسليم **قال ابن المنذر**: بعد عرض المسألة وما فيها من خلاف: (كان الحسن البصرى من بين سائر أهل العلم لا يرى الإحداد وقد رد قول الحسن بأن الاخبار قد ثبتت عن النبى ﷺ بوجوب الحداد وليس لاحد بلغته إلا التسليم ولعل الحسن لم تبلغه أو بلغته فتأولها بحديث اسماء بنت عميس[6]. الآنف الذكر.

---

(١) المغنى ج ٧ ص ٥١٧.
(٢) عنه تسلبى - البى ثياب الحداد السود وهى السلاب ككتاب.
(٣) مسند الإمام احمد ج ٦ ص ٣٦٩.
(٤) المصدر السابق.
(٥) الجامع لاحكام القرآن ج ٣ ص ١٨١.
(٦) المصدر السابق.

الوجه الثالث : لو سلمنا بصحة هذا الحديث فالأحاديث الدالة على الوجوب مقدمة عليه لكونها أصح منه ولا ريب فى دلالتها على الوجوب فإن حديث التى شكت عينها والذى تم تثبته قريبا يفيد الايجاب والا لم يمتنع التداوى المباح وأيضا السياق يدل على الوجوب فإن كل ما منع منه ودل دليل على جوازه كان ذلك الدليل دالاً بعينه على الوجوب كالختان والزيادة على الركوع فى الكسوف[1].

هذا ما يمكن أن يستدل به لهذا القول وما يمكن ان يجاب به عن الاستدلال .

والذى يترجح عندى هو القول بوجوب الإحداد إذا وجد سببه وتوفرت شرائطه وذلك لدلالة السنة والمعقول واجماع الصحابة على ما بيّنا فهل يقول مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر وبرسالة محمد ﷺ بعدم وجوب الإحداد بعد معرفة النصوص النبوية الشريفة التى تفيد بمنطوقها ومفهومها إيجاب مادلت عليه . . . لا أعتقد أن احداً يقول بخلاف ذلك ولهذا انعقد اجماع الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على هذا المعنى وفى ظنى ان الحسن البصرى والإمام الشعبى لو بلغتهما هذه النصوص لما أحجما عن القول بوجوب الإحداد لما عرف عنهما من الفضل والتقوى وإرادة الحق وهذا شأن كل مسلم لأن المسلم إنما سمى مسلما لتنفيذه الأوامر الربانية واجتنابه النواهى السماوية وهو ما يفيده معنى الإسلام فإن الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة فإذا كان المسلم قائما بما أمر به مجتنبا لما نهى عنه استحق ان يوصف بوصف الإسلام والإيمان وإذا لم يكن كذلك فلا فرق بينه وبين سائر الناس الذين لا يؤمنون بالشرائع السماوية .

ونحن لا نقول إن المرأة المتوفى عنها زوجها إذا تركت الإحداد خرجت من الإسلام وإنما نقول إنها تركت واجباً من واجبات الإسلام يثاب فاعله ويعاقب تاركه فإن الايجاب وعدمه لا يعرف إلا من قبل الشارع وهو الذى أوجب الإحداد على كل من توفى عنها زوجها من غير تفصيل .

الفصل الثالث : فى شروط الإحداد :

عرفت فى الفصل الآنف الذكر حكم الحداد وأنه واجب فى الشريعة الإسلامية وقد دل على وجوبه صريح السنة وإجماع الصحابة والمعقول على ماتم ثبته قريبا وبما أن الحكم

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦ .

على حد قوله تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة (٥) وتكليف الصغير والنائم والمحنون ظلمٌ .

الشرعى قد لايوجد عادة إلا إذا توفرت له شروط خاصة ولكون الحداد من هذا القبيل كان من الضرورى أن نشير إلى الشروط اللازمة لوجوب الإحداد والتى لابد من وجودها لايجاب الإحداد على المرأة المحدة وهذه الشروط ليست محل اتفاق وإنما هى موضع خلاف عند أئمة الفتوى فما يراه البعض قد لايراه البعض الآخر كذلك وبيان هذه الشروط على النحو الآتى وطبقا لما يقتضيه فن التأليف وجودة التنظيم. ونظرا لتعدد هذه الشروط فقد رأيت أن أجعل هذا الفصل مبنياً على المباحث الآتية. وقبل أن ندخل فى التفصيل. نشير هنا إلى أن شروط الحداد على قسمين قسم متفق عليه وقسم مختلف فيه.

فالقسم المتفق عليه هو أن تكون المعتدة عاقلة بالغة مسلمة من نكاح صحيح. **وأما القسم المختلف فيه** فهو سوالب هذه الشروط وكذلك هل يشترط فى الحداد كون المرأة معتدة من وفاة أولا؟ ونحن نشير إلى ذلك كله بالتفصيل.

المبحث الأول : كون المرأة المعتدة عاقلة. اتفق الفقهاء على وجوب الحداد على المرأة العاقلة إذا وُجِدَت الشروط الأخرى التى سنذكرها قريبا وذلك لأن العقل نعمة أنعم الله بها على الإنسان وميزه بها عن سائر الحيوان فهو يميز بها بين الحلال والحرام، والضار والنافع، ولذلك جعل الشارع العقل مناطاً للتكليف لعلمه أن فاقد العقل لا يفرق بين الضار والنافع وبالتالى لا يستطيع القيام بالأحكام التكليفية على الوجه الذى أمر الشارع أن تكون عليه ومن هذا المنطلق **قالت الحنفية** : بعدم وجوب الحداد على المجنونة(1). أن العقل هو مناط التكليف كما قلنا والمجنونة فاقدة لهذه الوسيلة فلا يتوجه إليها أمر ولا نهى لأن الشريعة الإسلامية لا تكلف أحداً إلا بما هو فى مقدوره وتحت تصرفه على حد قوله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**﴾. (البقرة: ٢٨٦). وقوله تعالى: ﴿**فأتقوا الله ما استطعتم**﴾. (التغابن: ١٦). ولا يوجد شىء من ذلك بالنسبة للمجنونة التى ذهب عقلها وحُرِمَت تلك النعمة ولهذا قالت العلماء إنها غير مخاطبة بالأحكام التكليفية والحداد من الأحكام التكليفية فلا يجب عليها. يحقق ذلك كله قوله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق»(2). ورفع القلم هنا معناه عدم التكليف لأن من ذكر فى الحديث لو كان مخاطبا بالأوامر والنواهى لكان خطابا بما لايطاق والشريعة الإسلامية لا تقر هذا ولا يظلم ربك أحدا. هذا ما رآه الحنفية ولم ير

---

(1) بدائع الصنائع ج ٣ ص ٢٠٨.

(2) سنن ابن ماجه ج ١ ح رقم ٢٠٤١.

الجمهور هذا الرأى بل قالوا بوجوب الحداد على المجنونة(١) لأنها زوجة فهى داخلة تحت عموم قوله ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا»(٢) فهذا نص عام يفيد ايجاب الإحداد على كل زوجة من غير فرق بين ما إذا كانت عاقلة أو غير عاقلة، والقول بعدم وجوب الإحداد على المجنونة يحتاج إلى دليل مخصص لهذا العموم ولم يوجد فيبقى على عمومه دالاّ على ايجاب الإحداد مطلقا وستعرف فى المبحث الآتى مزيداً من الأدلة للفريقين لما بين المبحثين من العلاقة وذلك لاشتراك الجنون والصغر فى عدم التكليف .

المبحث الثانى : كون المعتدة بالغة :

البلوغ هو مظنة رشد المكلف فإذا بلغ الصغير فإنه قد يعرف مصالح نفسه ويكون رشيداً يحسن التصرف فى تعامله مع نفسه ومع غيره يبين ذلك قوله تعالى : ﴿**وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن انَستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم**﴾ . (النساء : ٦) .

والبلوغ ضد الصغر والصغير هو من لم يبلغ النكاح والصغر مظنة لعدم الرشد لكون الصغير فاقداً لآلة الفهم والتميز وإدارك الأشياء على حقيقتها التى تمكنه من معرفة مصالحه وعلى هذا فهل يجب الحداد على المرأة الصغيرة التى لم تبلغ مع اتفاق الفقهاء على وجوبه على المرأة البالغة العاقلة؟ .

أقول أختلف الفقهاء فى وجوب الحداد على الصغيرة على قولين. **القول الأول** ذهب الجمهور إلى وجوب الحداد على الصغيرة فلا فرق عند هؤلاء بين الصغيرة والكبيرة إلا فى الإثم(٣). وقول الجمهور هنا موافق لقولهم فى ايجاب الحداد على فاقدة العقل بسبب الجنون ـ كما تم ثبته قريبا ـ فلا فرق عندهم فى إيجاب الإحداد على الزوجة بين أن تكون عاقلة أو غير عاقلة مادام أن اسم زوجية شامل لها .

الاستدلال لهذا القول استدل أصحاب هذا القول بالمنقول والمعقول أما المنقول فهو العمومات التى تفيد إيجاب الإحداد على المرأة المتوفى عنها زوجها من غير فرق بين ما إذا كانت كبيرة أو صغيرة من مثل قوله ﷺ : «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» . وقد ذكرنا طرفا من هذه العمومات عند

---

(١) المغنى ج ٧ ص ٥١٧ والمنتقى للباجى ج ٤ ص ١٤٥ ومغنى المحتاج ـ ج ٣ ص ٣٩٨.
(٢) سبَق تخريجه فى الفصل الثانى.
(٣) المغنى ج ٧ ص ٥١٧ والمنتقى للباجى ج ٤ ص ١٤٥ ومغنى المحتاج ج ٣ ص ٣٩٨.

الكلام على الفصل الثانى وهى قاضية بوجوب الحداد. شاملة بعمومها لكل احد واخراج الصغيرة من هذا العموم يحتاج إلى دليل ولا دليل عليه .

وأما استدلالهم بالمعقول فمن وجوه :

(أ) إن العدة تجب على الصغيرة اتفاقا فإذا كان الأمر كذلك فإن الحداد يجب عليها لكونه حكما من احكام النكاح فهو يشترك مع العدة فى ذلك بالإضافة إلى ما فيه من اظهار التأسف على فراق الزوج ونحن نعلم يقينا فراغ رحم الصغيرة ومع ذلك وجبت العدة عليها. فالعدة إنما وجبت عليها لحق الشرع لأن فراغ رحمها من ماء الزوج أمر مقطوع به ومع هذا وجبت عليها العدة فكذلك الحداد يجب عليها .

(ب) إن الصغيرة يحرم العقد عليها بل تحرم خطبتها مادامت فى العدة وهذا المعنى يوجد فى حق الكبيرة فظهر انهما يشتركان فى حكم الحداد أيضا[1] .

(ج) إن غير المكلفة تساوى المكلفة فى اجتناب المحرمات كالخمر والزنا وإنما يفترقان فى الإثم[2] فإذا كان الأمر كذلك فإن ترك الحداد فعل محرم والصغيرة ممنوعة من ذلك ويكون المنع إلى وليها بمعنى أنه لا يمكنها من ترك الحداد كما أنه لايمكنها من ترك العدة فتحريم الطيب وسائر أنواع الزينة عليها إنما هو لحق الشرع فالشرع هو الذى منعها من ذلك والغرض من هذا هو إظهار حق الزوج وهذا المعنى يستوى فيه البالغة وغيرها .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى عدم وجوب الحداد على الصغيرة وجعلوا ذلك مخصوصاً بالمرأة البالغة وإنما قالوا بذلك لمايأتى[3] :

(أ) أن الحداد حق من حقوق الشرع ولهذا لو أمرها الزوج بتركه لا يجوز لها تركه فلا تخاطب الصغيرة بذلك وكذا شرط الإيمان فيه حيث قال رسول الله ﷺ : «لايحل لامرأة تؤمن بالله وباليوم الآخر» . الحديث . ثانيا إن منع الصغيرة المتوفى عنها زوجها من اللبس والطيب هو فعلها الحسّى محكوم بحرمته فلابد فيه من خطاب التكليف بخلاف العدة وانها قد تقال على كف النفس عن الحرمات الخاصة وعلى نفس الحرمات وعلى مضى المدة وهى اللازمة لها على كل حال بمعنى أنه يثبت بعد الموت صحة نكاح الصغيرة إلى انقضاء مدة معينة وهى مدة العدة فإذا باشروا لها عقد النكاح قبل انقضاء عدتها لا يصح شرعا ولا خطاب للعباد فيه تكليفى بل هو من ربط المسببات بالأسباب وهذا كله لايوجد فى الحداد لأن

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٥ والمنتقى للباجى ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢) المغنى ج ٧ ص ٥١٧ .

(٣) انظر فتح القدير ج ٤ ص ٣٤٠ والمبسوط ج ٦ ص ٠٦ وبدائع الصنائع ج ٣ ص ٩ .

الخطاب به خطاب تكليفى فلو اكتحلن أو لبسن المزعفر واختضبن لا يأثمن لعدم التكليف به[1].

هذا ما استدل به الفريقان بالنسبة لهذه المسألة وهى مشكلة كما نرى ووجه الاشكال هو ان الصغيرة لاتخاطب بفروع الشريعة من الصوم والصلاة والحج لأنها فاقدة للاهلية وهى التكليف فالخطاب إنما يتوجه إلى المكلفين وعموم السنة التى استدل بها الفقهاء على وجوب الحداد قاضية بوجوب الحداد على كل امرأة من غير فرق بين الصغيرة والكبيرة زد على هذا ان العدة واجبة من غير فرق أيضا وقد قلبت النظر فى هذه المسألة كثيراً لعلى أهتدى إلى الراجح منهما وبعد نظر طويل وتفكير عميق شرح الله صدرى بترجيح القول الأول وهو وجوب الحداد عليها وذلك لما يأتى :

(١) إن الصغيرة المتوفى عنها زوجها لا يجوز لها أن تفعل شيئا من المحرمات كالزنا والخمر والسرقة وغيرها المحرمات والولى مطالب بمنعها فإذا لم يمنعها من الوقوع فى الفعل المحرم فهو آثم ومن ذلك ترك الحداد وفعل ما ينافيه كالطيب وسائر أنواع الزينة فكما أن الولى لا يجوز له أن يمكنها من ارتكاب سائر المحرمات فكذلك لايجوز له أن يمكنها من ترك الحداد وهو مخاطب بذلك كما يفيده عموم قوله ﷺ : (مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع »[2]. فلو لم يفعل الولى ذلك فهو آثم ولاشك وكذلك ما نحن فيه .

(٢) أن وجوب العدة على الصغيرة لا خلاف فيه عند أئمة الفتوى فيما علمنا يوضحه قوله تعالى : ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ . (سورة البقرة : ٢٣٤) . والصغيرة زوجة والتنكير يفيد العموم والعدة عبادة وهى لازمة للصغيرة فهل يقول قائل انها تجب هنا ولا يجب الحداد هنالك فإن كان كذلك فهو مطالب بالدليل على وجود الفرق .

(٣) نعم الصغيرة لا تخاطب بفروع الشريعة وإنما الولى هو المطالب بمنعها من فعل المحرمات على ما بينا ألا ترى ان الولى لوليّ بالحج عن الصغيرة أو الصغير؟ . كانت احكام الحج لازمة لوليها بمعنى ان الولى لايمكنه من فعل محظورات الاحرام من الطيب واللبس ونحو ذلك فلو فعل ذلك كان آثما فأى فرق بين المسألتين اننى لا أجد فرقا .

---

(١) فتح القدير ج٤ ص٣٤٠/ والمبسوط ج٦ ص٦٠/ بدائع الصنائع ج٣ ص٩ .
(٢) سنن أبى داؤد (ح ٤٩٥) مسند احمد ج ٢ ص ١٨٠ . موطأ مالك ج ١ ص ١٩٧ .

(٤) العمومات التى استدل بها أصحاب القول الأول من مثل قوله ﷺ: «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج اربعة أشهر وعشر». لم تفرق بينها إذا كانت الزوجة كبيرة أو صغيرة بل هى شاملة بعمومها لكل أحد (فقوله لامرأة) نكرة تفيد العموم وقد أكد هذا العموم بذكره النكرة بعد النفى وهذا زيادة فى العموم كما تفيده قواعد الأصول وسيأتى تحرير المقام فى قوله ﷺ (ان تؤمن) عند الكلام على حكم الحداد من الكتابية. ولا حجة فى قوله ﷺ (امرأة) للقائلين بعدم وجوب الحداد على الصغيرة وذلك لأمرين :

الأمر الأول : أن الصغيرة تسمى امرأة فلها من الحقوق كالكبيرة وعليها ما عليها صحيح أنها لا تبتغى لطلب الولد لصغرها لكونها لايوطأ مثلها بيد أن اللفظ شامل لها .

الأمر الثانى : لوسلمنا انها لاتسمى امرأة فلا دلالة فيه للمخالفين لاننا نقول إنه خرج مخرج الغالب فإن الغالب الكثير ان المرأة لا يفارقها زوجها إلا وهى كبيرة وليس معناه ان الحداد لا يجب على الصغيرة .

المبحث الثالث كون الحادة مسلمة :

اتفق الفقهاء فيما علمنا على أن الحداد يجب على المرأة الكبيرة العاقلة البالغة المسلمة على ما بيّنا واختلف الفقهاء فى سوالب ذلك ومنه اختلافهم فى وجوب الحداد على الكتابية وتجدر الاشارة هنا إلى أن أئمة الفتوى لم يختلفوا فى اباحة الحداد لكل من ذكرنا ومن سنذكر قريبا وإنما الخلاف فى الوجوب أو السنية .

وبيان اختلافهم فى وجوب الحداد على الكتابية كالآتى :

١ ـ ذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد إلى وجوب الحداد على الكتابية وقد استدلوا لذلك بأدلة بيانها كالآتى : العمومات التى تفيد وجوب الحداد على الكتابية لانها من جملة النساء والأحاديث لم تفرق بينها إذا كانت المرأة مسلمة أو كتابية واخراج الكتابية من هذا العموم يحتاج إلى دليل ولا دليل عليه ومن ادعى خروج الكتابية فعليه الدليل اضف إلى هذا ان الكتابية زوجة وقد أوجب الله تعالى العدة على الزوجات من غير تخصيص. يوضحه قوله تعالى : ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾. فهذا ايجاب من الله تعالى العدة على الزوجات من غير

---

(١) شرح الخرشى ج ٤ ص ١٤٨ والمهذب ج ٢ ص ١٩١ وكشاف القناع ج ٥ ص ٤٩٦ .

فرق ولا تجب عدة الوفاة إلا حيث يجب الحداد لأن الحداد حق للزوج فهو يلتحق بالعدة فى حفظ النسب فتدخل الكافرة فى ذلك بالمعنى كما دخل الكافر فى النهى عن السوم على سوم أخيه(١).

فإن قيل كيف يكون الحداد واجباً على الكتابية وقد شرط رسول الله ﷺ فى وجوبه الايمان بدليل قوله ﷺ: (لايحل لامرأة تؤمن بالله ان تحد. الخ). فهذا دليل على عدم وجوبه على الكتابية؟ **قيل الجواب** عن ذلك من أوجه :

(أ) ان شرط الايمان إنما ذكر تأكيداً للمبالغة فى الزجر فلا مفهوم له كما يقال هذا طريق المسلمين وقد يشاركهم غيرهم(٢).

قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم مجيبا عن هذا الاعتراض ومبينا انه لا دليل فيه (وان المؤمن هو الذى يستثمر خطاب الشارع وينتفع به وينقاد له فلهذا قُيِّد به(٣).

اضف إلى هذا ان السبكى نقل فى فتاويه عن بعضهم ان الذمية داخلة فى (تؤمن بالله واليوم الآخر)(٤).

(ب) إن الحداد حق للزوجية على ما بينا فهو ملتحق بالنفقة والسكن فكما ان الزوج تجب عليه نفقة زوجته وسكنها فكذلك يجب على الزوجة الحداد على زوجها(٥).

(ج) ان العدة لا تجب على الذمية إلا إذا كان زوجها مسلما أما إذا كان زوجها ذميا فإن الحداد لايجب عليها وأهل الذمة مطالبون بتنفيذ عقودهم مع المسلمين وهذا منها. **قال ابن القيم فى الهدى** مشيراً إلى ما قلنا (ولكن عذر الذين أوجبوا الحداد على الذمية انه يتعلق به حق الزوج المسلم وكان منه الزامها به كأصل العدة ولهذا لا يلزمونها به فى عدتها من الذمى ولا يتعرض لها فيها فصار هذا كعقودهم مع المسلمين فإنهم يلزمون فيها باحكام الإسلام وإن لم يتعرض لعقودهم مع بعضهم بعضا). (٦). **وذهب الحنفية وبعض المالكية وأبو ثور إلى عدم وجوب الحداد على الذمية سواء كان زوجها مسلما أو ذميا**(٧).

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦.
(٢) فتح البارى ج ص ٤٨٦.
(٣) شرح النووى على صحيح مسلم ج ١٠ ص ١١٢
(٤) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦.
(٥) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦.
(٦) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٦٩.
(٧) المبسوط ج ٦ ص ٥٩ وفتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦ والجامع لاحكام القرآن ج ٣ ص ١٧٩

وقد استدل أصحاب هذا القول بمايأتي :

(١) إن الكتابية غير مخاطبة بحقوق الشرع والحداد من جقوقه يوضحه قوله عليه الصلاة والسلام : (لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر. الخ) .

فالايمان شرط لوجوب الحداد وهو لايوجد فى الكتابية لكونه حقا من حقوق الشرع والذمية ليست أهلا لذلك يوضحه أن المسلمة لو أمرت بترك الحداد لم يكن لها ذلك فدل على أنه تكليفى والأحكام التكليفية خاصة بالمسلمين **قال ابن القيم فى الهدى** مستدلا لهذا القول بأن النبى ﷺ (جعل الإحداد من احكام من يؤمن بالله واليوم الآخر فلا تدخل فيه الكافرة ولأنها غير مكلفة بأحكام الفروع فعدوله عن اللفظ العام المطلق إلى الخاص المقيد بالايمان يقتضى ان هذا من أحكام الايمان ولوازمه وواجباته فكأنه قال من التزم الايمان فهذا من شرائعه وواجباته)[1] .

هذا ما يمكن ان يستدل به بهذا القول وقد عرفت الجواب عن اشتراط الايمان فى وجوب الحداد عند الكلام على أدلة الجمهور ونضيف هنا ماذكره ابن القيم عند عرضه للمسألة حيث قال : (والتحقيق ان نفى حل الفعل عن المؤمنين لايقتضى نفى حكمه عن الكفار ولا اثبات الحكم لهم أيضا وإنما يقتضى ان من التزم الايمان وشرائعه فهذا لايحل ويجب على كل حال ان يلزم الايمان وشرائعه ولكن لا يلزم الشارع شرائع الايمان إلا بعد دخوله فيه وهذا كما لو قيل للمؤمن ان يترك الصلاة والحج والزكاة فهذا لايدل على أن ذلك حل للكافر وهذا كما قال فى لباس الذهب لاينبغى للمتقين فلا يدل إنه ينبغى لغيرهم وكذا قوله لاينبغى للمؤمن أن يكون لعانا)[2] .

كما عرفت مزيداً من أدلة الفريقين عند الكلام على وجوب الحداد على الصغيرة وسبب اختلاف الفقهاء فى هذه المسألة راجع من حيث الجملة إلى أمرين : **الأمر الأول** الاختلاف فى خطاب أهل الذمة بفروع الشرع هل يخاطبون بها أولا؟ . فمن قال إنهم يخاطبون بها قال يجب الحداد على الذمية ومن قال إنهم لايخاطبون بها قال لايجب الحداد عليها . **الأمر الثانى** الاختلاف فى العدة هل هى حق لله أم حق للزوج فمن قال انها حق لله قال لاتجب العدة على الذمية ومن قال انها حق للزوج قال تجب العدة عليها والذى يترجح عندى هو ان الذمية لايجب عليها الحداد إلا إذا رفع ذلك إلى الحاكم المسلم فإنه يلزمها حينئذ بالحداد .

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٦٩ .

(٢) زاد المعاد المصدر السابق .

وأمـا إذا لم يترافعـوا إلينـا فلا نتعـرض لهم ومن المعلوم انهم لاينـزجرون عن ارتكاب الـذنـوب والآثـام ولا يتـورعـون عن فعـل المحرمات على اختلاف أنواعها من ترك الصلاة والصوم والحج والزكاة وغير ذلك من صنوف الذنوب والآثام ولا ذنب اعظم من الكفر فكيف يرجى منهم فعل الحداد وهم لا يفعلون ماهو اعظم من الحداد وإلى ما قلنا اشار ابن القيم فى الهـدى بقـولـه (وسـر المسألـة أن شرائـع الحلال والحرام والايجاب إنما شرعت لمن التزم أصل الإيمان ومن لم يلتزمه وخلي بينه وبين دينه فإنه يخلى بينه وبين شرائع الدين الذى التزمه كما خلي بينه وبين أصله مالم يحاكم إلينا وهذه القاعدة متفق عليها بين العلماء[1].

فهـذا ابن القيم يرى أن الحـدود لايجب على الـذمية بإيجـاب الشـرع إلا أن يحصل الـترافـع منهم إلى المسلمـين فحينئـذ يلتـزمـون بأحكـام الإسلام وإلا فهم لا يتورعون عن ارتكـاب المعـاصى من الكبـائـر والصغـائـر والإسـلام لم يوجب على اتباعه إلزام أهل الذمة بشـرائـع الإسـلام وإنـما يخلى بينهم وبـين أحكام الدين الذى يدينون به مالم يترافعوا إلينا أو يتعرضوا للإسلام أو أحدٍ من اتباعه بالاهانة لأنهم بعقدهم الذمة مع المسلمين وفرض الجزية عليهم وهم صاغـرون إنـما هو لحفـظ دمـائهم وأموالهم وعدم التعرض لهم إلا فى الأمور التى فيها ضرر على الإسلام والمسلمين وإيجاب الحداد على الذمية ليس فيه شىء من ذلك نعم الله عز وجـل أراد منهم الإسـلام ولكن هم لم يمتثلوا فإذا دخلوا فى الإسـلام وجب عليهم ما يجب على المسلمين

المبحث الرابع : هل شرط وجوب الحداد كونه من الوفاة :

اتفق الفقهاء على أن الحداد يجب على المعتدة من الوفاة إذا توفرت الشروط الأخرى التى ذكـرنـاهـا آنفـا والتى سنـذكـرها قريبا ولا نعلم فى هذا خلافا إلا خلافا شاذا ذكرناه فى الفصل الثانى .

أما المعتدة من طلاق فهى على قسمين رجعية وبائن . **فالرجعية لا يجب** عليها الحداد اتفـاقـا لأنهـا فى حكـم الـزوجـات لها أن تتـزين لزوجهـا وتستشرف له ليرغب فيها[1] فنعمة النكاح لم تفت بعد لأن الزوج له أن يراجعها والتزين مما يبعثه على مراجعتها فتكون مندوبة إلى التزين لهذا المعنى[3].

(١) زاد المعاد ج ٤ ص ٢٦٩ .
(٢) المغنى ج ٧ ص ٥١٨ شرح العناية ج ٤ ص ٣٤٠ .
(٣) المبسوط ج ٦ ص ٥٩ .

أمـا البـائن فقـد اختلف الفقهاء فى وجوب الحداد عليها على قولين مع اتفاقهم على إباحة ذلك لها ونحن نبين هذين القولين وإدلة كل قول وما قد يرد على الدليل المرجوح من المناقشة مسترشدين فى ذلك بالمراجع المعتمدة فى كل مذهب **فنقول** :

(١) ذهب الجمهور ومنهم مالك والشافعى فى الجديد وأحمد فى أحد قوليه وبه قال عطا وربيعة وابن المنذر إلى عدم وجوب الحداد على المبتوتة(١).

الاستدلال لهذا الرأى :

وقد استدل أصحاب هذا الرأى بالمنقول والمعقول .

اما المنقول فقد استدلوا منه بقوله ﷺ : «لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث ليال إلا على زوج أربعة أشهر وعشر»(٢). وهذه عدة الوفاة فيدل على أن الإحداد إنما يجب فى عدة الوفاة(٣).

وأما استدلالهم بالمعقول فمن وجوه :

(أ) إن الحداد فى عدة الوفاة إنما هو لاظهار الأسف على فراق زوجها وموته وهذا مالا يوجد فى الطلاق فإنه فارقها باختيار نفسه وقطع نكاحها فلا معنى لتكليفها الحزن عليه .

(ب) إن المتوفى عنها لو أتت بولد لحق الزوج الميت لكونه ليس له من ينفيه على فرض انـه ليس له فاحتيـط عليهـا بالإحـداد لئـلا يلحق بالميت من ليس منـه بخـلاف المطلقة فإن زوجها باق فهو يحتاط عليها بنفسه وينفى ولدها إذا كان من غيره .

(ج) إن المبتوتة معتدة من غير وفاة فلا يجب عليها الحداد قياسا على الرجعية والمؤطوة بشبهة .

ثانيا وذهب أبوحنيفة وأصحابه وأحمد فى احدى الروايتين والشافعى فى القديم وبعض المالكية وأبو ثور وأبو عبيد إلى وجوب الحداد على المبتوتة(٤).

الاستدلال لهذا الرأى .

استدل أصحاب هذا الرأى بالمنقول والنظر .

---

(١) المنتقى للباجى ج ٤ ص ١٤٥ مغنى المحتاج ٣ ص ٣٩٨ المغنى ج ٧ ص ٥٢٧ .

(٢) تقدم تخريجه فى الفصل الثانى .

(٣) المغنى ج ٧ ص ٥٢٨ .

(٤) المبسوط ج ٦ ص ٥٨ المغنى ج ٧ ص ٥٢٧ مغنى المحتاج ج ٣ ص ٣٩٨ فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦ .

أمـا المنقـول فقـد استدلوا منه بهايأتى ما روى أن النبى ﷺ : «نهى المعتدة ان تختضب بالحناء وقال الحناء طيب»(١) .

فأنت ترى أنـه لم يفـرق بين معتـدة الـوفاة وغيرها فدل هذا على وجوب الحداد على المعتدة مطلقا كما يفيده عموم الحديث .

ويجاب عن هذا الاستدلال بأمرين :

(أ) إنـه ضعيف لاتقـوم به حجـة لأنـه لم يذكر فى كتب السنة المعتبرة ولوكان صحيحا لذكروه . والحديث الضعيف لا يحتج به فى الأحكام .

(ب) لو سلمنا بصحته لم نسلم بعمومه فى كل المعتدات فالرجعية لايجب عليها الحداد اتفـاقـا فعلى هذا يكـون محمـولا على المعتـدة من الـوفـاة وتخـرج البائن من هذا العموم كما خرجت الـرجعيـة(٢) . روى الطحـاوى فى شرح الآثـار بإسنـاده إلى حماد عن إبراهيم قال : المطلقة والمختلعة والمتوفى عنها زوجها والملاعنة لايختضبن ولا يتطيبن ولا يلبسن ثوبا مصبوغا ولا يخرجن من بيوتهن .

وابراهيم ادرك عصر الصحابة وزاحمهم فى الفتوى فيجوز تقليده(٣) .

ويجـاب عن هذا الاستـدلال بانـه قول تابعى وقـول التابعى ليس بحجة فإنه إذا وقع الاختلاف بين الفقهاء فى الاحتجاج بقول الصحابى فعدم الاحتجاج بقول التابعى أولى زد على هذا أنه معارض لقول من قدمنا من الصحابة .

وامـا استـدلالهم من طريق النظر فهو الحاق المبتوتة بالمتوفى عنها زوجها بطريق الدلالة وتقـريـره ان النص ورد فى وجـوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها بلا خلاف ومناط حكمه اظهار التأسف على فوت نعمة النكاح الذى هو سبب لصونها وكفاية مؤنها والإبانة اقطع لها من المـوت حتى كان لها ان تغسله ميتـا قبـل الابانة لا بعدها فكان الحاق المبتوتة بالمتوفى عنها زوجها كالحاق ضرب الوالدين بالتأفيف(٣) .

والجواب عن هذا الاستدلال من وجهين :

(أ) إن القياس غير صحيح وذلك لوجود الفارق بين المقيس والمقيس عليه فإن الحداد إنـما وجب على المتـوفى عنهـا زوجهـا إظهـاراً للتأسف على فوت زوج وفّى لها حتى المـوت

---

(١) فتح القديرج ٤ ص ٣٣٨ .

(٢) شرح معانى الآثارج ٣ ص ٨١ .

(٣) شرح العناية ج ٤ ص ٣٣٨ .

(٤) المصدر السابق .

بخلاف المبتوتة فإن زوجها لم يكن وفياً لها بل على العكس من ذلك فإنه أوحشها بالابانة فلا تتأسف بفوته .

ومن جهة أخرى فإنه لا مناسبة بين البينونة وبين الموت إذ أن البينونة لا يمتنع معها عود النكاح بعقد جديد بخلاف الموت فإنه لا يتصور عود النكاح بعده ثم لو سلمنا بهذا فى المطلقة لم نسلم به فى المختلعة لانها قد افتدت نفسها برضاها لطلب الخلاص منه فكيف تتأسف .

(ب) لو سلمنا بأن الحداد يجب على المبتوتة لفوات نعمة النكاح لقلنا بوجوبه على الازواج أيضا لأن نعمة النكاح مشتركة بينهما .

وهكذا تتصور المسألة بين القول والدليل والاستدلال والمناقشة والحق واحد ومصيبه واحد وسبب اختلاف الفقهاء فى هذه المسألة راجع إلى أمرين :

الأمر الأول هل وجوب الحداد على المرأة لإظهار التأسف على الزوج أو لاظهار التأسف على فوات الزوجية ؟ فمن قال هو لاظهار التأسف على فوات الزوج قال بعدم وجوب الحداد على المبتوتة ومن قال هو لاظهار التأسف على فوات الزوجية وبيان ذلك هو أن الحداد لاظهار التأسف على فوت نعمة النكاح والوطء الحلال بسببه قال بوجوب الحداد على المبتوتة لأن عين الزوج ما كان مقصوداً لها حتى يكون التحزن بفواته بل كان مقصودها نعمة النكاح وهذا يفوتها فى الطلاق والوفاة بصفة واحدة .

الأمر الثانى هل الحداد حق لله أو حق للزوج ؟

فمن قال هو حق لله قال بوجوب الحداد على البائن ومن قال هو حق للزوج قال بعدم وجوب الحداد عليها .

والذى أراه راجحا فى هذه المسألة هو عدم وجوب الحداد على البائن وإنما رجحت هذا القول لمايأتى :

(١) الأدلة التى استدل به القائلون بهذا القول اقوى فى نظرى من أدلة المخالفين فحديث الصحيحين الذى ذكرناه فى الاستدلال يفيد ان الحداد لا يكون إلا على ميت كما هو ظاهر اللفظ ثم قيد الجواز بما ذكر فى الحديث واستثنى من ذلك الحداد على الزوج الميت وبين المدة التى يكون بها الحداد فالمستثنى هنا من جنس المستثنى منه وكذلك الأدلة التى ذكرناها هنالك كلها تلتقى حول هذا المعنى وقد عرفت الجواب عن أدلة المخالفين عند ذكرها وهى كلها محتملة والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال .

(٢) إن الحداد حكم أوجبه الشارع على المرأة المتوفى عنها زوجها لأن تركه (أى الحداد) بفعل ما ينافيه من التطيب واللبس والتزين يدعو إلى الجماع فمنعت المرأة منه زجراً لها عن ذلك فكان ذلك ظاهراً فى حق الميت لانه يمنعه الموت عن منع المعتدة منه عن التزويج ولا تراعيه هى ولا تخاف منه بخلاف المطلق الحى فى كل ذلك ومن ثم وجبت العدة على كل متوفى عنها وإن لم تكن مدخولا بها بخلاف المطلقة قبل الدخول فلا إحداد عليها اتفاقا[١].

(٣) إن المطلقة البائن يمكنها العود إلى الزوج بعينه بعقد جديد وليس الأمر كذلك فى المتوفى عنها زوجها فإن عودتها إلى الزوج الميت مستحيلة فليس ثمة ما يدعو إلى إيجاب الحداد على المبتوتة فإن قيل هذا لا يستقيم فى الملاعنة فإن تحريمها على الملاعن تحريم أبدى ومع هذا فلا حداد عليها **قيل** الجواب عن ذلك من وجهين : **الوجه الأول** ان تحريم الملاعنة على الملاعن ليس محل اتفاق عند أئمة الفتوى بل من الفقهاء من قال انها لاتحرم تحريما ابديا وإنما يكون الملاعن بعد الفرقة خاطبا من الخطاب وقد قال بهذا فقهاء الحنفية .

الوجه الثانى لو سلمنا بان الملاعنة تحرم على الملاعن على التأبيد لم نسلم بالاعتراض لاننا نقول إن وجوب الحداد إنما هو لفقد الزوج بعينه لا لفقدان الزوجية .

(٤) إن الزوج الميت فارق زوجته وهو على نهاية الاشفاق عليها والرغبة فيها ولم تكن المفارقة من قبله فلزمها لذلك الإحداد واظهار الحزن والمطلقة فارقها مختاراً لفراقها مقابحاً لها فلا يتعلق بها حكم الإحداد كالملاعنة[٢].

(٥) روت أم سلمة ان النبى ﷺ قال : «المتوفى عنها زوجها لا تلبس المعصفر من الثياب ولا الممشق ولا الحلى ولا تختضب ولا تكتحل»[٣]. رواه أبو داود والنسائى فهذا الحديث نص فى وجوب الحداد على المعتدة من الوفاة وهو مخصص لعموم الحديث الذى استدل به المخالفون على فرض صحته **فإن قيل** هذا الحديث لا يدل على عدم وجوب الحداد على المبتوتة بدليل آخر؟ . **قلنا** بل هو يدل على عدم وجوب الحداد عليها إذ أنه لم يوجد دليل أقوى منه بل ولا مساوياً له يفيد هذا الوجوب فلما لم يوجد ذلك دل على ان المصير إلى مدلوله واجب .

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٦ .
(٢) المنتقى للباجى ج ٤ ص ١٤٥ .
(٣) سنن ابى داؤد ج ٢ ص ٧٢٧ سنن النسائى ج ٦ ص ٢٠٣ .

والحاصل ان الاقتصار على مورد النص هو الذى تقتضيه قواعد الشرع عملا بالبراءة الأصلية فيما عداه فمن ادعى وجوب الحداد على غير المتوفى عنها زوجها فعليه الدليل إذا تبين هذا فاعلم انهم لم يختلفوا فى عدم وجوب الحداد على المعتدة الرجعية على ما بينا بيد أن فقهاء الشافعية اختلفوا فيما بينهم هل يسن لها الحداد أو لا على **قولين** احدهما **يسن** والثانى **لا يسن** لها الحداد بل أولى لها ان تتزين بما يدعو الزوج إلى رجعتها وضعف هذا الاحتمال أن يظن أنها فعلت ذلك إظهاراً للفرح بفراقه وعلى تقدير صحته فينبغى تخصيصه بمن ترجو عودته(١). والمعمول به الأول .

كذلك لم يختلفوا فيما أحسب فى إباحة الحداد على المبتوتة بل إن فقهاء الشافعية يرون إن أقل اقواله الاستحباب لئلا تدعو الزينة إلى الفساد .

وقد نقل صاحب المبدع الاجماع على جواز الحداد من المبتوتة وبين أنه لا يُسَنُّ لها(٢) .

وبهذا تعلم ان اختلاف الفقهاء فى هذه المسألة إنما هو فى الوجوب فقط .

المبحث الخامس : هل من شرط وجوب الحداد كون النكاح صحيحا ؟

النكاح الصحيح هو المستكمل لأركانه وشروطه من الايجاب والقبول والشاهدين والولى والمهر وخلو الزوجين من الموانع فإذا وجد النكاح على هذه الصورة وحصلت الفرقة بين الزوجين بالموت وذلك بأن توفى الزوج قبل الزوجة وجب الحداد على الزوجة العاقلة البالغة المسلمة من غير خلاف اعلمه عند أئمة الفتوى اللهم إلا ما نقل عن الحسن البصرى والشعبى من القول بعدم وجوب الحداد كما تمّ ثبته قريبا .

ولهذا اجمع الفقهاء على عدم وجوب الحداد على المرأة المنكوحة بنكاح فاسد أو نكاح شبهة .

أما المنكوحة بنكاح فاسد فلأنها ليست زوجة حقيقية والنبى ﷺ إنما أوجب الحداد على الزوجات وذلك بقوله ﷺ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله باليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» فقوله ﷺ إلا على زوج يفيد بمنطوقه وجوب الحداد على الزوجة كما يفيد بمفهومه عدم وجوب الحداد على غيرها زد على هذا ان المنكوحة بنكاح فاسد لا تحزن على فقد الزوج لانها لايجب لها ما يجب للزوجة من الحقوق

---

(١) مغنى المحتاج ج ٣ ص ٣٩٨ .
(٢) المبدع ج ٨ ١٤٠ .

فليس ثمة سبب يدعو إلى حدادها وأما المنكوحة بشبهة فكذلك لما بينا ولانها أى المنكوحة بنكاح فاسد أو شبهة ما فاتها نعمة النكاح والأصل هو الاباحة فى الزينة لاسيما فى النساء : يحققه قوله تعالى ﴿قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ .[1] (الاعراف: ٣١) .

فهذا دليل على اباحة الزينة مطلقا بما فيها زينة المرأة المعتدة بنكاح فاسد أو شبهة وتحريم ذلك عليهما يحتاج إلى دليل ولا دليل . ثم إن النكاح الفاسد ووطأ الشبهة كل منهما معصية فى الدين فيلزم الشكر على فواته لا التأسف عليه[2] .

الفصل الرابع : أقسام الإحداد :

عرفت فى الفصل الأول معنى الحداد وأنه فى اللغة المنع مطلقا وفى الإصطلاح منع المرأة نفسها الزينة والطيب وكلما يدعو إلى الرغبة فيها زمن الحداد وذكرنا هنالك فى أن المعنى اللغوى أعم من المعنى الاصطلاحى لأنه مجرد المنع مطلقا أما المعنى الاصطلاحى فهو المنع بالنسبة إلى شيء خاص وبناء على ذلك نرى أنه من المفيد أن نذكر أقسام الحداد الجائز منها والممنوع ليكون القارىء على بصيرة لأن الأشياء لا تعرف إلا باضدادها (وبضدها تتميز الأشياء) فالجائز يعرف ليعمل به والممنوع يعرف لتركه وإليك تحرير المقام فى ذلك ينقسم الحداد من حيث الجملة إلى قسمين جائز وغير جائز، والجائز قسمان حداد المرأة على زوجها الميت وحدادها على قريبها الميت فالتقسيم هنا من حيث النوع لا من حيث الحكم لأن الحكم لا يختلف فى القسمين إنما الإختلاف فى النوع أما زوجها الميت فليس فى وجوب الحداد عليه خلاف إلا خلافا شاذاً على ما بينا وقد عرفت الخلاف فى وجوب الحداد عليها عند أئمة الفتوى إذا كانت مبتوتة كذلك لم يختلف الأئمة فيما علمت فى جواز الحداد منها على قريبها الميت والمتتبع لنصوص الشرع وقواعده العامة يرى أن الحداد إنما يشرع للنساء دون الرجال فالمرأة هى التى تحد على زوجها أو على قريبها لما بينا وما سنبينه قريبا وهاك الأدلة التى تفيد هذا لمعنى وإن كنا قد ذكرناها قريبا إلا أن المقام يقتضى اعادتها هنا بايجاز

١ ـ قوله تعالى ﴿**والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ . فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين **الأمر الأول** أن التربص خاص بالمرأة التى مات زوجها خاصة بها وأن مدة التربص فى حقها أربعة أشهر وعشراً .

---

(١) شرح العناية ج ٤ ص ٣٤٢ .

(٢) حاشية الشلبى .

الأمر الثانى أن الزوج لا يجب عليه التربص بوفاة زوجته وبالتالى لايجب عليه الحداد بل له أن يتزوج ثانية دون أن يكون منوطا بمدة معينة والأول يفيده منطوق الآية والثانى يفيده مفهومها **قال الشوكانى فى شرح الآية ، ومعنى الآية ﴿والرجال الذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا﴾** أى ولهم زوجات فالزوجات يتربصن بعدهم وهو كقولك السمن منوان بدرهم أى منه **وحكى المهدوى عن سيبويه** أن المعنى وفيما يتلى عليكم الذين يتوفون وقيل التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يتربصن ذكره **صاحب الكشاف** وفيه أن قوله ويذرون أزواجا لايلائم ذلك التقدير لأن الظاهر من النكرة المعادة المغايرة وقال بعض النحاة من الكوفيين أن الخبر عن الذين متروك والقصد الاخبار عن أزواجهم بانهن يتربصن(١) .

ثانيا : قوله ﷺ : (لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ان تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً) فقد تضمنت هذا الحديث ثلاثة أمور الأمر الأول جواز الحداد على القريب الميت وإن مدة ذلك ثلاثة أيام .

الأمر الثانى : الحداد على الزوج الميت أربعة أشهر وعشراً .

الأمر الثالث : هو أن حكم الحداد خاص بالنساء دون الرجال فالحديث وافق الآية الآنفة الذكر فى وجه الدلالة فى الأمرين الثانى والثالث وتضمن حكماً زائداً على مادلت عليه الآية وهو الأمر الأول .

ثالثا : الاجماع :

اجمع المسلمون من عصر الصحابة - رضى الله عنهم - إلى يومنا هذا على جواز القسمين السابقين وان الرجال لا يدخلون فى هذا الجواز وإنما هو خاص بالنساء .

وقد عرفت قريبا عند الكلام على حكم الإحداد مزيداً من الأدلة التى تتعلق بهذا الموضوع وحاصلها بالأضافة إلى ما قلنا هو أن المرأة هى التى بحاجة إلى الرجل ولذلك وجب الحداد عليها لضعفها ولفوات نعمة النكاح عليها بموت العائل الذي يصونها ويحفظها ويرعى مصالحها على حد قوله تعالى **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم﴾** . (سورة النساء : **٣٤**) ولهذا كان مطالبا بالانفاق على زوجته وكسوتها وسكنها إذا لم تكن ناشزة وهذا كله لا يوجد فى الرجل ولذلك اجمع أئمة الفتوى كما بينا أكثر من مرة على أنه لايجب الإحداد على الرجل لعدم وجود الحكمة التى من أجلها شرع الحداد فيه .

---

(١) فتح القديرج ١ ص ٢٤٨ .

القسم الثانى من قسمى الحداد : الحداد الممنوع فى الإسلام :

عرفت آنفا القسم الأول من قسمى الحداد وهو القسم الجائز فى الإسلام وعرفت أنه قسمان من حيث النوع ، بقى أن تعلم القسم الذى لا يجوز وهو على ضربين **أحدهما** ماكان قبل الإسلام .

وثانيهما الإحداد فى عصرنا الحاضر بالنسبة للدول ونحن نفصل القول فى هذين الضربين بحسب الامكان والله المستعان فنقول :

الحداد فى الجاهلية :

كانت المرأة فى الجاهلية إذا توفى عنها زوجها تتجنب كل ملذات الحياة وتشق على نفسها فلا تستعمل طيبا ولا تغسل جسما ولا تقلم ظفراً وتلبس شرّ ثيابها وتعتزل المجتمع فى بيت صغير وقديم تمكث فيه حولا كاملا تخرج بعده وهى فى أقبح صورة وأشنع منظرا وأسوء حالاً مما كانت عليه فتعمد إلى دابة فتغتسل بها فقلّما تغتسل بشىء إلا مات يحقق هذا قوله ﷺ للمرأة التى قالت له يارسول (إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها افتكحلها فقال رسول الله ﷺ لا مرتين أو ثلاثا كل ذلك يقول لا ثم قال رسول الله ﷺ إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول .

قال حميد فقلت لزينب وما ترمى بالبعرة على رأس الحول فقالت زينب كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا حتى تمر بها سنة ثم توتى بدابة حمار أو شاة أو طائر فتفتض به فقلما تفتض بشىء إلا مات ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تراجع بعدما شاءت من طيب أو غيره[1] .

وقد تضمن هذا الحديث : ما كانت تعانيه المرأة فى الجاهلية من الظلم بسبب وفاة زوجها فمن حزن على فراق الزوج إلى حياة قاسية بعده لمدة حول كامل بقيت المرأة فى الجاهلية على هذا الحال واستمرت زمناً وهى تعانى منها فى بداية الاسلام يوضحه قوله تعالى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ . (سورة البقرة: ٢٤٠) .

وبما أن الشريعة الاسلامية قائمة على العدل والانصاف وتحقيق المصالح الخاصة لأفراد المجتمع الاسلامى بشرط أن لا يتضرر أحد الطرفين بدفع الضرر عن الآخر فهى لا

(١) صحيح البخارى مع فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٤ .

تقر ظلما ولا تضيع حقا فقد نسخت ما كانت تعانى منه المرأة بسبب وفاة زوجها واستبدلته بحكم آخر يحفظ حقوق الطرفين أعنى الزوج والزوجة على السواء وذلك بقوله تعالى ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾ (تقدم تخريجه) .

فنسخت السنة المذكورة فى الآية الآنفة الذكر بالمدة المذكورة فى هذه الآية وحد الشارع للمرأة المتوفى عنها حدوداً وسن لها قيوداً فى الإسلام ونسخت القيود التى كانت تعانى منها فى الجاهلية وذلك بالاحاديث التى تم ثبتها قريبا قال ابن حجر فى الفتح بعد تقريره لهذا الحكم نقلا عن ابن دقيق العيد قال ابن دقيق العيد فيه (يعنى الزمن الذى يجب على الحادة فى الإسلام اشارة إلى تقليل المدة بالنسبة لما كان قبل ذلك وتهوين الصبر عليهما ولهذا قال بعده وقد كانت إحداكن فى الجاهلية ترمى بالبعرة على رأس الحول وفى التقييد بالجاهلية اشارة إلى أن الحكم فى الإسلام صار بخلافه وهو كذلك بالنسبة لما وصف من الصنيع لكن التقدير بالحول استمر فى الإسلام بنص قوله تعالى ﴿**وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج**﴾ ثم نسخت بالآية التى قبلها وهى ﴿**يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً**﴾ [1] .

القسم الثانى الحداد فى العصر الحاضر

إعلم أنها قد انتشرت فى عصرنا الحاضر ظاهرة مخالفة للإسلام التبس أمرها على بعض زعماء المسلمين وهى الحداد وتنكيس الأعلام لوفاة زعيم من الزعماء مدة معينة تقدر غالبا بثلاثة أيام أو سبعة أيام أو ثلاثين يوما أو أربعين يوما أو أكثر أو أقل وبما أن ذلك مخالف لتعاليم الإسلام فالواجب على العلماء تبيين أمر هذه الشبهة لأبناء المسلمين الذين جهلوها أو تجاهلوها ودحضها بالأدلة الشرعية المستمدة من الكتاب والسنة أداء للواجب على حد قوله تعالى ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾ . (آل عمران : ١١٠) . وقوله تعالى ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾ . (آل عمران : ١٠٤) وحيث أننى واحدُ من المتخصصين فى علوم الشريعة فقد رَأيتُ أنه من الواجب عليَّ القيامُ بهذه المهمة حسب الإمكان لأن أمرها قد شاع وذاع فى الأوساط الإسلامية حتى أصبحت من الأمور العادية المألوفة وصدق القائل حيث يقول (إذا كثر الامساس قل الإحساس فأقول وبالله التوفيق المسلم هو الذى يطبق أحكام الإسلام بفعل الأوامر واجتناب النواهى والأحكام الشرعية لا تعرف إلا بالأدلة الشرعية وقد دلت

---

(١) فتح البارى ج ٩ ص ٤٨٤ .

النصوص النبوية والأدلة العقلية واجماع الصحابة الذين عاشوا أيام الرسالة على أنه لا يجوز العمل بحكم مّا الا إذا كان له اصل يدل عليه دَليل من الأدلة التى قررها أئمة الفتوى مصدراً للاستدلال ومن ذلك الحداد فى العصر الحديث فانه لا دليلُ على جوازه ولا إباحته ويظهر ذلك فيما يأتى .

(١) لا ريب ان الحداد لا يشرع الا للمرأة فى حق زوجها أو قريبها الميت وقد دلّ الدليل من الكتاب والسنة واجماع الصحابة على أنه ليس لغير المرأة أن تحد على ميت بل ذلك خاص بها فلأحاديث الصحيحة التى تم ثبتها قريباً كلها تنهى عن الحداد وتحذر منه الا فى حق الزوجة فانها تحد على زوجها أربعة أشهر وعشراً كما جاءت الرخصة عنه ﷺ للمرأة خاصة أن تحد على قريبها ثلاثة أيام فأقل كذلك الآيات القرآنية التى تفيد ايجاب العدة على المرأة المتوفى زوجها قاضية بعدم جواز الا حداد من غيرها وكذلك اجماع الصحابة الذى تم ثبته قريبا .

أما ما سوى ذلك من الحداد فهو ممنوع شرعاً وليس فى الشريعة الكاملة من كتاب ولا من سنة ولا اجماع ولا قياس صحيح ولا قول صحابى ما يدل على ذلك فدل على أنه لا يجوز على ملك ولا زعيم ولا غيرها .

(٢) ان هذا العمل فيه مخالفة صريحة للشريعة المطهرة وأمر تترتّبُ عليه اضرار كثيرة وتعطيل المصالح والتّشبه بأعداء الإسلام وهو ممنوع شرعاً .

(٣) أنه قد مات فى حياة النبى الكريم ﷺ ابنه ابراهيم وبناته الثلاث رقية وأم كلثوم وزينب وعمه حمزة واعيان آخرون فى غزوة مؤته فلم يحد عليهم ثم توفى النبى ﷺ وهو اشرف الخلق وافضل الأنبياء وسيد ولد آدم والمصيبة بموته أعظم مصائب لأن بموته ينقطع خبر السماء لكونه آخر الأنبياء ومع هذا لم يحد عليه الصحابة رضى الله عنهم ثم مات ابو بكر الصديق رضى الله عنه وهو افضل الصحابة واشرف الخلق بعد الأنبياء فلم يحد عليه ثم قتل عمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم وهم افضل الخلق بعد الأنبياء وبعد ابى بكر الصديق فلم يحدوا عليهم وهكذا مات الصحابة جميعا فلم يحد عليهم التابعون وهكذا مات أئمة الإسلام وأئمة الهدى من التابعين ومن بعدهم كسعيد بن المسيب وعلى بن الحسين زين العابدين وابنه محد بن على وعمر بن عبد العزيز والزهرى والإمام أبى حنيفة وصاحباه والإمام مالك ابن أنس والازاعى والثورى والإمام الشافعى والإمام احمد بن حنبل واسحق بن راهويه

وغيرهم من أئمة العلم والهدى ولم يحد عليهم المسلمون ولو كان خيراً لكان السَّلفُ الصالح اليه اسبق والخير كله فى اتباعهم والشر فى مخالفتهم .

(٤) ان الدين الإسلامى قد اكتمل بوفاة النبى الكريم على حد قوله تعالى ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ . (المائدة : **٣**) **فهل** فى شريعة الإسلام ما يشير ولو من طرف خفى الى جواز هذا الأمر ؟ اننا لا نجد ما يدل على ذلك وفعله من زعماء المسلمين وقادتهم مع عدم وجوده فى الشريعة المطهرة مخالفة ظاهرة لهذه الشريعة وقدح فى كمالها وانتقاص لها وأنها لم تفى بما يجدُّ من الاحكام وقد قرر أئمة الهدى ومصابيح الظلام قديماً وحديثا أنها صالحة لكل زمان ومكان شاملة لمصالح العباد ماضيها وحاضرها ومستقبلها (٥) إن الأحكام الشرعية توقيفية أعنى أنه لا يجوز إثباتها إلا من طريق الشارع خصوصا ما يقدر بالزمن منها والا لجاز لكل احد أن يقول برأيه ما شاء فدل على أنه لا يجوز الحداد الا ما ورد به الحكم عن الشارع خصوصاً ما كان مقدراً بزمن معين وهذا الامر فيه تقدير بزمن وهو الحداد ثلاثة أيام أو سبعة أيام أو ثلاثون يوماً أو أربعون يوماً وهذا لا يكون إلا بخبر السماء وخبر السماء لا يعرف الا من طريق الأنبياء ولم يعرف عنهم جواز هذا العمل فدل على أنه مخالفُ لمنهج الله القديم .

إذا تبين هذا فالواجب على قادة المسلمين وأعيانهم ترك هذا الاحداد والسير على منهج سلفنا الصالح من الصحابة ومن سلك سبيلهم والواجب على أهل العلم تنبيه الناس على ذلك وأعلامهم به أداءً لواجب النصيحةُ وتعاونا على البر والتقوى ولما أوجب الله سبحانه وتعالى النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم



اللقاء على العقيدة

في الإسـلام يلتقي النـاس على العقيدة في الله يلتقون لأن كلًا منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة ، ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخـرين ، إنـما يكـون الجانب البارز هو الحب ، والحب عنصر سريع التلاحم شديد الالتصاق . . .

والإنسـان المـؤمن ليس في حاجـة إلى توكيد ذاته بالبروز الزائد عن الحـد ، إنـه موجود بالفعل ، مطمئن إلى وجوده ، يجد ذاته متكاملة في هذه العقيدة ويطمئن قلبه بذكر الله . . .

«من كتاب : منهج التربية الإسلامية»


ثقافة إسلامية

الكتاب والسنة

أثرهما ومكانتهما والضرورة إليهما في إقامة التعليم في مدارسنا

للدكتور ربيع هادي مدخلي

أستاذ مشارك بقسم الدراسات العليا بالجامعة

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه.

وبعد: فإن الإسلام العظيم يحث على العلم ويشيد به ويمجد أهله ويرفع من شأنهم قال تعالى: ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾. (سورة الزمر: الآية ٩) وقال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. (سورة فاطر الآية ٢٨).

وبين الرسول الكريم سيد العلماء وخاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام أن طلب العلم نوع من أنواع الجهاد فقال:

«من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع».

وأن البحث عنه وتطلبه يفضى بصاحبه إلى الجنة.

«من سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقا إلى الجنة»(١) وللعلماء عند ربهم درجات رفيعة عالية قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾.

---

(١) أخرجه البخارى ٣ـ كتاب العلم بدون إسناد، وأخرجه مسلم ٤٨ من كتاب الذكر والدعاء باب ١١ـ حديث ٢٧٠١ ضمن حديث طويل ـ وأبو داود ١٩ ـ العلم باب ١ ـ حديث ٣٦٤١ ضمن حديث طويل ـ والترمذى ١٩ كتاب العلم حديث ٢٦٨٢ ـ وأحمد فى المسند ٢/٢٥٢.

وبين تعالى الفرق الكبير بين العالم والجاهل فقال :

﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ .

وحكومتنا الرشيدة وفقها الله وثبت أركانها وسدد خطاها إدراكاً منها لمكانة العلم ومخاطر الجهل جندت إمكانيات هائلة ورصدت الميزانيات الضخمة ليشمل العلم والتعليم كل أفراد شعبها الكريم ذكوراً وإناثا وصغاراً وكباراً تتدرج بهم فى سلم العلم من المراحل الإبتدائية إلى أعلى مراحل التعليم الجامعية وما بعد الجامعية (الدراسات العليا) فى مختلف العلوم والفنون .

وهذه نعمة كبرى على هذا البلد العظيم مهبط الوحي ومنبع النور الذي أضاء العالم فبدد ظلمات الجهل والشرك والكفر فيجب على هذا البلد العظيم حكومة وشعباً أن يدرك قيمة هذه النعمة الكبرى ليبذل أقصى جهده فى إرضاء ربه والقيام بواجب شكره حتى تدوم هذه النعمة الكبرى وتستمر قال تعالى .

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولإن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ .

ويجب أن يدرك أنه لم يحتل هذه المكانة الرفيعة إلا بالعلم الذي أنزله على أفضل خلقه وأكرم رسله ألا وهو علم الكتاب والسنة والذي يحاول أعداء الإسلام بطرق خطيرة غاية الخطورة أن يحولوا بيننا وبينه فيضعون بيننا وبينه الحواجز والسدود الظاهرة والخفية حتى نعيش فى ظلمات كثيفة من الجهل ونحيا حياة البهائم لا هم لنا إلا الأكل والشرب والمتاع الدنيوي .

إننا جميعا حكومة وشعبا نعتز بالإسلام ونحبه ونجله ونفتديه بأموالنا وأرواحنا وكل غال ونفيس ومع كل هذا ـ ونحن فى غمرة السباق مع أعدائنا فى ميادين العلوم الدنيوية السباق الذي لا يمكن أن ندرك شأوهم فيه لأنهم قوم لا هم لهم إلا الارتواء من متع الدنيا وشهواتها وملذاتها ولا يبالون بها وراء ذلك من جنة أو نار أو حساب أو عذاب بل هم بذلك كافرون **﴿بل هم فى شك منها بل هم منها عمون﴾** .

إن اكثرنا اليوم : يقفون على حافة هوة خطيرة من الجهل بالقرآن والسنة ويوشك أن يصدق فينا قول الرسول الكريم :

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا .

فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) متفق عليه [1] .

---

(١) أخرجه البخارى ٣ـ العلم باب كيف يقبض العلم حديث ١٠٠ ـ ومسلم ٤٧ ـ كتاب العلم ١٤ حديث ٢٦٧٣ .

إن ما جاء به محمد ﷺ غيث مغدق لا بد أن ينهل منه أبناؤ نا حتى التضلع كأسلافهم واتباعهم باحسان إلى يومنا هذا .

قال رسول الله ﷺ :

«مثـل ما بعثنى الله به من الهـدى والعلم كمثـل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير .

وكـان منهـا أجـادب أمسكت المـاء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصاب طائفـة منهـا أخـرى إنـما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم .

ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به»(١) .

إننـا نريـد أن يكون أبناؤ نا من الطائفتين الأوليين ونعيذهم بالله أن يكونوا من الطائفة الثالثة ولا يتم ما تطمح اليه إلا بالتركيز على دراسة الكتاب والسنة لأننا والحمد لله قد رضينا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً فمن البدهي أن يكون أسمى أهداف حياتنا أن نعرف مصدر عزنا وسعادتنا في الدنيا والآخرة ألا وهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديـه ولا من خلفـه وبيـانه وشرحه وتفصيله سنة رسول الله ﷺ اللذين غيرا مجرى تاريخ البشرية على وجه الأرض بعد أن أحيا من رفاة الأمة العربية ولم من شتاتهم وأخرج منهم خير أمة اخرجت للناس . وما كانت الأمة الأسلامية والعربية إلا بهذا القرآن ولا كان لها دوله ولا صولة إلا به ولننظر إلى تأثير هذا القرآن .

١ـ تأثير القرآن الكريم في أنفس العرب :

لقد أحدث هذا القرآن المعجز أكثر تحول فى حياة البشر فقلب طباع الكهول والشباب وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علماً وعملاً بما لم يعهد له نظير فى تأريخ الإنسانية .

فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره **بالتبع** لكونه آية معجزة للبشر فى لغته وأسلوبه .

وبعد أن قلب حياة العرب في الجزيرة العربية من جهل إلى علم ومن شرك الى توحيد ومن فرقة وفوضى إلى اجتماع وتنظيم اندفعوا كالسيل الآتى على الأقطار من نواحي الجزيرة

---

(١) أخرجه البخارى ٣ ـ العلم . الحديث ٧٩ .

كلها فأطاحوا بعروش الأكاسرة والقياصرة أعظم ملوك الأرض واقتلعوا جذور الشرك والظلم ونشروا التوحيد والحق والعدل ودخل الناس في دين الله افواجا مختارين الاهتداء بهذا القرآن . لاجرم أن سبب هذا كله هو تأثير القرآن العظيم بهذا الأسلوب الذي نراه فى المصحف فقد كان النبى ـ ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره ﴿**فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً**﴾ ثم كان يربى المؤمنين ويزكيهم وبهدايته والتأسي بِمُبلغِهِ ربّوا الأمم وهذبوها وقلما يقرؤه أحد كما كانوا يقرأون الاويهتدى به كما كانوا يهتدون ثم حكموا الدنيا وساسوها بهذا القرآن إذالم يكن عندهم شيىء من العلم بسياسة الأمم وإدارتها إلا هذا القرآن والأسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الأول وبسنته المطهرة أقواله وافعاله وتقريراته ﷺ ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم إلا إذا عادوا إلى هدايته لقد كان لهذا القرآن العظيم فى حياة الناس مسلمهم وكافرهم تأثير بعيد الغور أما تأثيره فى الكافرين فبنفوذ بلاغته ، وعظمة نظمه وأسلوبه الجاذب لفهم دعوته والإيمان به إذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها وكانوا يتفاوتون فى الفهم تفاوتا عظيماً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لأبي جهل التى اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلوولا يعلى والذي يحطم ما تحته .

وهذا التأثير هو الذي كان يجنب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ فى بيته على ماكان من نهيهم عنه ونأيهم عنه وتواصيهم وتقاسمهم بألا يسمعنّ له ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ويتلاقون في الطريق متلاومين .

وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه .

من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلاً لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام وعللوا ذلك بأنه يفتن نساءهم وأولادهم ، بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي ﷺ بالقوة عن تلاوة القرآن فى البيت الحرام وفى أسواق الموسم ومجامعه ، وعلى نواصيهم بها حكاه الله عنهم في قوله :

﴿**وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون**﴾ . (فصلت : ٢٦) .

(٢) «تأثير القرآن فى انفس المؤمنين»

أما تأثيره فى المؤمنين فكان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلقن مانزل من القرآن ليعبد الله بتلاوته ويُعلم الصلاة ولم يفرض فى مكة من أركان الإسلام غيرها فيرتل ما

يحفظه فى صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذا فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الإسلام قال تعالى فى أول سورة «المزمل» : ﴿**يـاأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا**﴾ .

ثم قال فى آخرها : ﴿**إن ربك يعلم أنك تقوم أدني من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرأوا ماتيسر من القرآن**﴾ . (المزمل : ٢٠) أي فى صلاة الليل وغيرها .

وقد قال تعالى فى وصفهم : ﴿**والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما**﴾ . (الفرقان : ٦٤) .

وقال تعالى : ﴿**إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**﴾ . (السجدة : ١٥ -١٦) .

ومما ورد فى وصفهم - رضي الله عنهم - أن الذين كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن .

وقد شدد بعضهم على أنفسهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبى ﷺ- عن ذلك فتزكية الصحابة وتربيتهم بهذا القرآن هى التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تزكية عالية وهى التى أحدثت أعظم تحول روحى واجتماعي فى التاريخ هذا كله إنما كان بكثرة تلاوة القرآن فى الصلاة وغير الصلاة وتدبره وربما كان أحدهم يقوم الليل بآية واحدة يكررها متدبراً لها وكانوا يقرأونه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله .

﴿**الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم**﴾ . (آل عمران : ١٩١) .

وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه وسننه فى خلقه وأفعاله فى تدبير ملكه(١) .

«منزلة السنة من القرآن ومكانتها فى نفوس المسلمين» .

السنة المطهرة هي ما صدر من النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير وهي وحي الهي قال تعالى : ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي**﴾ . وهي بيان القرآن وتفسيره فهي تبين مجملة وتقيد مطلقه وتخصص عامة وهي واجبة اتباع بنص القرآن الكريم .

---

(١) راجع تفسير المنار ١١/ ٢٠١ -٢٠٥ .

قال تعالى : ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا**﴾ . (الحشر: ٧) .
وقال تعالى : ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ . (النور: ٩٣) .
وقال تعالى : ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾ . (النساء: ٦٥) .
وامر الله فى كثير من آيات القرآن بطاعة هذا الرسول الكريم قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول**﴾ . (النساء: ٥٩) .
وأخبر تعالى أن طاعة الرسول إنما هي طاعة الله قال تعالى : ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ .
وقرر الله انه ليس للمؤمنين أي خيار أمام قضاء رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم**﴾ . (الأحزاب: ٣٦) .

والحياة الحقيقية والصحيحة إنما هي في الاستجابة لهذا الرسول.
قال تعالى : ﴿**ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون**﴾ . (الأنفال: ٢٤) .

من هذه التوجيهات القرآنية أدرك المؤمنون عظمة السنة ومكانتها وادركوا أنه يجب عليهم التزامها فى كل شأن من الشؤون الإسلامية العقائدية والعبادية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية لا فرق بينها وبين القرآن من حيث وجوب الالتزام والطاعة والانقياد والتصديق إن توجيهات وتعاليم القرآن والسنة المطهرة متمازجة متساندة فى كل المجالات التى خاضها القرآن لا يعد مؤمنا من يفرق بينها فى النواحي العقائدية او العملية ذلك لأنه يستحيل تطبيق القرآن بفهم بدون هذه السنة المطهرة وكيف يفرق بينهما من يؤمن بقول الله تعالى : ﴿**بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم ولعلهم يتفكرون**﴾ . (النحل: ٤٤) . وما جرى مجراها فى بيان منزلة الرسول ﷺ وسنته .
من أين نعرف أعداد ركعات الصلوات الخمس وأوقاتها وهيآتها واذكارها إذا كنا لا نعرف السنة .

وكيف نعرف شروط الزكاة ومقادير انصبتها إذا لم تكن لدينا سنة محمد ﷺ وبيانه .
ومن أين نعرف حد شارب الخمر ورجم الزاني وقطع يد السارق إذا لم نرجع إلى السنة

المطهرة هذه وغيرها من الأمور الكثيرة التى يتوقف الإيمان بالقرآن وتطبيقه على الإيمان بالسنة ومعرفتها وتطبيقها والتزامها واتباعها. قال تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾ .

«**مكانة السنة فى نفوس الأمة**».

من هنا أدركت الأمة الإسلامية عظمة السنة ومكانتها فحفظوها كما حفظوا القرآن وصانوها كما صانوا القرآن ودونوا فيها الدواوين من الجوامع والمسانيد والمعاجم والأجزاء والمصنفات والفوا فى رجالها وأسانيدها الكتب التى لا تحصى والفوا الصحاح والسنن وفى الموضوعات والعلل بعد أن ميزو الصحيح من الضعيف فى الموضوع والوف المحدثين جندو أنفسهم لخدمتها وكابدوا فى سبيلها المشاق والسهر والرحلات الطويلة الى مختلف بلدان العالم الاسلامي من شرقه الى غربه ومن شماله الى جنوبه .

أما المؤلفات فهذه مكتبات الدنيا تزخر بها حتى مكتبات أوربا وأمريكا والهند حيث استحوذت على إعجابهم وأدركوا أنه أعظم كنز يتباهون به فى مكتباتهم .

وأما الرحلات فى سبيلها التى بذلها المسلمون فى فجر تاريخهم فلا يحصيها إلا الله وكتب التاريخ والرجال حافلة بذلك .

إلا أننا نختار هنا أربعة نماذج للتدليل على تقدير الأمة الإسلامية لسنة نبيهم واهتمامهم بها ومكانتها فى انفسهم .

١ـ خرج أبو أيوب الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ من المدينة النبوية إلى عقبة بن عامر بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم الى منزل مسلمة بن مخلد الانصاري وهو أمير مصر فأخبر به فعجل فخرج اليه فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ .

فقال: «حديث سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة بن عامر فابعث من يدلني على منزله قال: فبعث معه من يدله على منزل عقبة فأخبر عقبة به فعجل اليه فعانقه وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب» فقال حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك فى ستر المؤمن قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنا في الدنيا على خزية ستره الله يوم القيامة» .

فقال له أبو ايوب صدقت«ثم انصرف أبو ايوب إلى راحلته فركبها راجعاً الى المدينة فما ادركته جائزة مسلمة بن مخلد الا بعريش مصر[1]» .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند مختصراً (٤/ ١٥٣) والرحلة للخطيب ص١٢٠ .

٢ ـ قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ بلغنى عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ حديث سمعه من رسول الله ﷺ لم اسمعه منه قال: فابتعت بعيراً فشددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى أتيت الشام فاذا هوعبد الله بن انيس الأنصاري قال: فأرسلت إليه أن جابراً على الباب قال: فرجع اليَّ الرسول فقال؛ جابر بن عبد الله فقلت: نعم.

قال: فرجع الرسول اليه فخرج فاعتنقنى واعتنقته قال: قلت: حديث بلغنى أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمعه فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه فقال: سمعت رسول الله ـ ﷺ يقول: يحشر الله العباد او قال يحشر الله الناس قال: وأومأ يده إلى الشام عراة غرلا بهُما قلت: «وما بهما» قال: «ليس معهم شيء» الحديث.

٣ ـ جاء رجل إلى الشعبى فقال: يا أبا عمرو إن ناسا عندنا يقولون:

«إذا اعتق الرجل أمته ثم تزوجها فهو كاالراكب بذلته».

قال الشعبي: حدثنى ابو بردة بن ابى موسى عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: الرجل من أهل الكتاب كان مؤمنا قبل أن يبعث النبي ﷺ فله أجران ورجل كانت له جارية فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران»(١) خذها بغير شيء فلقد كان الرجل يرحل فى أدنى منها إلى المدينة.

٤ ـ قال شعبة: حدثنى أبو اسحاق عن عبد الله بن عطاء عن عقبة بن عامر قال: كنا نتناوب رعية الإبل على عهد رسول الله ﷺ فجئت ذات يوم والنبي حوله أصحابه فسمعته يقول:

«من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين فاستغفر الله إلا غفر الله له».

قال: فقلت لأبي اسحاق: من عبد الله بن عطاء قال: فغضب ومسعر بن كدام حاضر قال: فقلت له لتصححن لي هذا الحديث أو لأحرقن ما كتبت عنك فقال لي مسعر: عبد الله بن عطاء بمكة. قال شعبة فرحلت إلى مكة لم أرد الحج أردت الحديث فلقيت عبد الله بن عطاء فسألته؟ فقال: «سعد بن ابراهيم حدثني».

فقال لي مالك بن انس: «سعد بن ابراهيم بالمدينة لم يحج العام».

قال شعبة: فرحلت إلى المدينة فلقيت سعد بن ابراهيم، فسألته.

فقال: الحديث من عندكم لزياد بن مخراق حدثني قال شعبة فلما ذكر زياداً. قلت:

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند ٣/ ٤٩٥ والبخارى فى الأدب المفرد ٢/ ٤٣٣. وأخرجه فى صحيحه تعليقاً بصيغة الحزم ١/ ٢٢ والحاكم فى المستدرك وصححه ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨. ووافقه الذهبى. والرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ص١١١.

أي شيء هذا الحديث بينما هو كوفى إذ صار مدنيا اذ صار بصريا قال: فرحلت الى البصرة فلقيت زياد بن مخراق فسألته؟ .

فقال: ليس هو من يأتيك قلت: حدثني به قال: لا ترده قلت: حدثنى به قال: حدثني شهر بن حوسب عن ابي ريحانة عن عقبة بن عامر عن النبى ﷺ- قال شعبة: «فلما ذكر شهر بن حوسب قلت دمر علي هذا الحديث لو صح لي مثل هذا عن رسول الله ﷺ كان احب الي من اهلى ومالي والناس» أجمعين»[(١)].

على أي شيء تدل مثل هذه الرحلات الطويلة الشاقة من أجل حديث واحد ألا تدل على إيمان صادق وحب صادق لرسول الله ﷺ وسنته وهديه ومعرفة بمكانتها وأنهم قوم يعرفون القيم الحقيقية للأشياء وأن حديثا واحداً عندهم خير من الدنيا وما عليها لهذا استحقوا أن يعزهم الله وأن يبوءهم سنام المجد والعز والتمكين .

سمعوا قول الله ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد**﴾. وسمعوا قول رسول الله «لوكانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى منها كافراً شربة ماء» .

وسمعوا قوله «لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما عليها» .

وسمعوا قوله «لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» .

فهانت الدنيا وصغرت فى أعينهم وعظم أمر الاسلام والقرآن والرسول وسنته فى أعينهم ونحن على النقيض صغرت هذه الأمور الكبيرة العظيمة فى أعيننا وكبرت الدنيا وشهواتها وملاذها فى أعيننا وصرنا نركض ونلهث لتخفيف أكبر متاع منها .

فهُنا على الله وسلط علينا الأعداء وحاق بنا فى الذل والهوان مالا ينزعه عنا إلا العودة الجادة إلى الله والاعتزاز بهذا القرآن وهذه السنة كما اخبرنا بهذا لمصير رسول الله ﷺ .

«اذا تبايعتم بالعينة ورضيتم بالزرع واتبعتم أذناب البقر سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم» وديننا هو القرآن والسنة وأول خطوة فى طريق العودة إلى الله يتمثل فى أمور :

١ - إصلاح المناهج . ٢ - إختيار المدرس . ٣ - اختيار الطلاب الأذكياء .

٤ - تهيئة الجو لتربية الطلاب تربية إسلامية صالحة .

---

(١) الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ص١٥١، وأصل الحديث فى صحيح مسلم ١ / ١٤٤ .

أولا ـ إصلاح المناهج .

لست بصدد وصع خطة شاملة أو وضع مناهج تفصيلية لكل المراحل العلمية فهذه لها من يقوم بها وهم المسؤولون عن هذه المناهج .

ولا شك أنهم حريصون على ما يسعد أمتهم ويرفع من شأنهم فى الدنيا والآخرة. ولا شك أيضا أنهم على استعداد لتقبل ما يقدم لهم من الاقتراحات النافعة .

وهم والحمد لله قد وضعوا مادة القرآن كمادة أساسية ضمن المناهج المقررة في المدارس فى مختلف المراحل ظناً منهم أن هذا الأمر كان لتربية أبنائهم تربية إسلامية .

غير ان الأيام أثبتت والتجارب برهنت أن نصيب القرآن فى هذه المناهج غير كاف ولا مؤثر فى أبنائنا التأثير المطلوب .

إذن لابد من إعادة النظر ولابد من العمل الجاد فى وضع منهج يخرج شبابا محمديا يفهم الإسلام ويحفظ القرآن ويعتز بمبادئه ومثله ويطبق شعائره ويجاهد من أجلها حتى آخر رمق من حياته .

إن واقع المناهج الحالية يعجز أن ينجب هذا النوع الذي نتطلع اليه وهذا شيء لا نريده جميعا ولا نرضاه ولكنه وقع من حيث لا نشعر فمثلا لو استعرضنا منهج المرحلة الإبتدائية لوجدنا أننا كلفنا أبناءنا وبناتنا فوق طاقاتهم وهي مرحلة أساسية فى بنائهم فلابد أن نراعى مداركهم واستعدادهم وأن يقدم اليهم ما يرغبهم ويشجعهم إلى المضى قدماً فى طريق الإسلام عن فهم وحب ورغبة فى العلم .

وليكون الأمر واضحاً أضع أمامكم منهج سنتين من سنوات المرحلة الابتدائية :

أولا : مقرر السنة الثالثة ابتدائي :

١ ـ مادة الرياضيات كتاب يقع فى ١٨١ صفحة
٢ ـ مادة العلوم كتاب يقع فى ١٠٤ صفحة
٣ ـ أناشيد كتاب يقع فى ٨٤ صفحة
٤ ـ مادة المطالعة كتاب يقع فى ١٤٠ صفحة
٥ ـ مادة القرآن يضاف اليها المجموع ٥٠٩ صفحة

ثانيا : مقرر السنة الخامسة ابتدائى للبنات :

١ ـ الرياضيات فى ٢١١ صفحة
٢ ـ المطالعة فى ١٦٧ صفحة
٣ ـ التربية النسوية فى ١٦٥ صفحة

٤ ـ الجغرافيا فى ٦٧ صفحة
٥ ـ العلوم فى ١٤٥ صفحة
٦ ـ الحـديث والتـوحيـد والفقـه
والتجويد فى ١٨٦ صفحة
٧ ـ القواعد اللغوية فى ١٥٨ صفحة
٨ ـ التاريخ فى ٨٠ صفحة
المجموع
١١٧٩ صفحة

إلى جانب مادة القرآن والخط .

كيف يستطيع هؤلاء البراعم أن يهضموا أو يفهموا هذه المواد التى قد يعجز كثير من أساتذتهم أن يفهموهم إياها وإذا واجه أحد الطلاب مشاكل لا يستطيع أهله ولا جيرانه أن يحلوها وربما الأمر أدهى فيما بعد المرحلة الإبتدائية أما القرآن فحدث عنهم ولا حرج فإن الكثير أو الاكثر يتجاوزون المراحل كلها بما فيها الجامعية وهم لا يحسنون تلاوته من المصحف فضلا عن حفظه وفهمه هذا حقيقة والواقع أكبر شاهد وهذه خسارة فادحة لا تقدر بثمن ولا تعوض وإذن فما الحل وما هو الطريق الذي يجب أن نرسمه ونقيم حياتها عليه .

الحل الصحيح فى نظري يتمثل فيما يأتى :

أولا : تكثيف مدارس تحفيظ القرآن تنصبُّ العنايةُ فيها على تحفيظ القرآن ثم يضاف إليه ما يساعدهم على إجادة قراءته كالخط والإملاء إلى السنة الرابعة ثم تضاف مادة الحساب الجمع الطرح الضرب الجمع فى السنة الرابعة- الطرح فى الخامسة الضرب فى السادسة مع كتاب لطيف يشرح لهم العقيدة والصلاة.

وليكن التركيز فى هذه المرحلة على حفظ نصف القرآن على الأقل.

ويشرف على اختبار الطلاب فى نهاية كل سنة لجان من حفاظ القرآن الثقات بحيث لا ينتقل الطالب من صف الى آخر إلا بعد التأكد من حفظ مقرر القرآن فى الصف الذي ينتقل. والطالب الذي يعجز عن حفظ المقرر .

يبق فى سنته تلك للقيام بواجب حفظه القرآن فى سنته التى يبق فيها ولا يجتاز هذه السنة إلا بعد التأكد من حفظه لمقررها.

ثم تستمر هذه المدارس فى تحفيظ القرآن ودراسة علومه في المرحلة المتوسطة ولتكن هذه المرحلة خمس أو ست سنين.

ويكـون الـتركيـز في هذه المـرحلة على حفـظ النصف البـاقي من القرآن مع مراجعة النصف الأول مراجعـــة جادة حتى لا ينســـاه الطـلاب ثم يضـاف إلى حفـظ القـرآن مادة التجـويـد ومـادة التوحيد والفقه والحديث يختار لهم الأمور المهمة في العقيدة والفقه ويكلفون بحفظ أربعين حديثا على الآقل في كل سنة.

ثم الجغرافيا في السنة الأولى والتاريخ في باقي السنوات.

ثم تستمر هذه المدارس في العناية الجادة بحفظ القرآن في المرحلة الثانوية ولتكن هذه المرحلة أربع سنوات أيضاً.

يعتنى فيهـا بمـراجعـة حفظ القرآن عناية جادة مع دراسة علوم القرآن وعلوم الحديث والحديث والفقه والفرائض ويستمر اختبارهم في حفظ القرآن عن طريق اللجان المذكورة في كل سنة من السنوات على الوجه السابق.

ثم بعـد اجتيـازهم المـرحلة الثـانـوية يوزعون على كليات الشريعة والحديث والقرآن الآتى ذكرها.

ثانيا: المدارس القائمة حاليا تكون المرحلة الابتدائية على غرار ما ذكرته في الابتدائية من مدارس تحفيظ القرآن في كل شيء.

ب ـ المرحلة المتـوسطـة: لتكن ست سنـوات ويعنى فيهـا بحفظ النصف الباقى من القرآن ويجرى الامتحان في حفظ القرآن على غرار ما ذكرناه في مدارس تحفيظ القرآن والذي لا ينجح في مقرر السنة التى هو فيها يبقى فيها إلى أن يجتازها بنجاح ويقرر في هذه المرحلة مواد المرحلة الابتدائية الحالي مع استحسان تخفيفها باختصار بعض المواد الصعبة وتوضيحها وابعادها عن الرموز والتعقيد وتصفيتها من الشوائب مع ربطها بالعقيدة الإسلامية الحقة.

ج ـ المـرحلة الثـانـويـة: لتكن أربـع سنـوات وفي هذه المـرحلة يحسن تقسيمهم على حسب ميـــولهم واستعـدادهم للتخصصـات المستقبلة فقسم للطب وقسم للهنـدسـة وقسم للقرآن وعلومه وقسم للحديث وعلومه وقسم للشريعة وقسم للاقتصاد الإسلامي وهكذا مع العنـايـة بمـراجعـة حفظ القرآن والاختبار فيه في نهاية كل سنة يتقدم الناجح ويبقى الراسب إلى ان يجتاز سنته بنجاح.

ومـع دراسـة قضـايا مهمة في العقيدة والفقه وشيىء من حفظ الحديث في كل سنة من سنوات قسم الطب والهندسة والاقتصاد.

ثم يتخرج طلاب كل قسم الى الكلية التى فيها اختصاصه.

المرحلة الجامعية :

ينبغي أن تقوم فى كل جامعة من جامعات المملكة كليات .

(١) للقرآن (٢) للحديث (٣) للشريعة .

ثم يستمر فى المرحلة الجامعية فى كل الكليات كلية الطب كلية الهندسة . الخ .

فى مراجعة حفظ القرآن وحفظ مقدار مناسب من الحديث .

فى كل سنة من السنوات ويختبرون فى الحفظ ولا يجتاز الطالب سنة إلى أخرى إلا بعد النجاح فيما يقرر مراجعة حفظه فى القرآن ومقرر الحفظ من الحديث . مع إضافة شيىء من علوم القرآن والحديث إلى المواد المقررة فى كل كلية من الكليات .

وإضافة مادة للرد على شبهات المستشرقين وغيرهم من أعداء الإسلام .

الشبهات التي يوجهونها ضد الإسلام فى كل سنة من سنوات جميع الكليات هذا مع اشعار الطلاب جميعاً وفى كل المراحل أنهم أخوة فى الله وأن غايتهم جميعا واحدة وأنهم جميعاً جند فى سبيل الله وأنهم لبنات فى صرح مجتمع إسلامي واحد يشد بعضهم بعضاً وأن تزال كل أسباب التنافر الموجودة بينهم وأن يساوى بين خريجي مختلف الكليات فى الرواتب والمراتب وأن توجه كل طاقاتهم ضد أعداء الإسلام الذين تكالبوا على الإسلام والمسلمين والذين تداعوا على المسلمين كما تتداعى الأكلة على قصعتها .

أعداء الإسلام على اختلاف أديانهم وعقائدهم من استعماريين وشيوعيين وصهيونيين ومبشرين الذين يجمعهم التعصب الأعمى والحقد المميت ضد الإسلام والمسلمين .

إن أعداء الإسلام الذين يدركون تمام الإدراك تأثير القرآن والسنة فى حياة المسلمين فيحاولون بدهاء وخبث أن يفصلوا بين المسلمين وبين كتابهم الخالد وسنة نبيهم المطهرة اللذين يبعثان فى المسلمين بين الفينة والأخرى الحياة الصحيحة حياة الإيمان الصادق ويبعثان فيهم روح الجهاد ويكسبانهم النصر على أعدائهم لأنهم حينما يعتصمون بكتاب ربهم وسنةنبيهم يكون الله معهم فيؤيدهم وينصرهم على أعدائهم .

فتحت شعار البحث العلمي وحرية الفكر تناول المبشرون والمستعمرون والصليبيون والصهيونيون والشيوعيون القرآن شر تناول .

وباسم الحضارة والمدنية قضوا على ما فيه من تشريع وعبادة .

وباسم حرية الفكر واطلاقه من أغلال العقيدة زعزعوا قواعد دين الاسلام فى نفوس المهزوزين .

وباسم البحث العلمي نزعوا عن القرآن قداسته من نفوس الضعفاء وهذا أشد وأنكى على الإسلام والمسلمين من الحروب العسكرية .

ولا يرد هذا الكيـد الخبيث والعمـل الـرهيب إلا أن نحصن أبنـاءنـا بتعـاليم الكتاب والسنـة وأن نسلحهم بالحجـج الـدامغـة المـزهقـة لباطل ومفتر يات أعداء الإسلام وإلا أن نخرج الجندى المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم والمحدث الواعي والفقيه المتبصر.

وكل هذا سيحققه إن شاء الله المنهج الذي رسمناه وتحدثنا عنه .

ثانيا : اختيار المدرس :

المدرس له اثره البالغ على التلميذ فهو أسوته ومثله فيجب اختيار المدرس الرباني التقى .

قال تعالى : ﴿**ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكمة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ .

والعلماء هم ورثة الأنبياء فى علمهم وأخلاقهم ودعوتهم إلى الله ، فلا بد للمدرس أن يتمتع بحظ وافر من هذه الوراثة .

فى علمـه أن يكـون عالمـا بدينـه وفى أخـلاقـه من الأخـلاص والصبر والحلم وصدق الحديث والفعل إلى جانب الذكاء والحرص على تنشئة تلاميذه على الإسلام الحق وأخلاقه وآدابه ومثله .

ولا ينبغى بحال من الأحوال أن يكون الاعتماد فى اختيار المدرس على الشهادات بل يجب أن يراعي فى الـدرجـة الأولى عقيـدتة وأخلاقه الإسلامية وتمسكه بدينه . وهذا أمر مهم جداً لا مناص من اعتباره .

فالمدرس الذى انجرف فى عقيدته وفكره أو الضعيف الاخلاق والسلوك او المتهاون فى العبـاده والصـلاة أخطـر على أبنـائنا من الأمراض الفتاكه وما نشاهده من انحراف فى سلوك كثـير من الطـلاب أو تهاونهم فى أداء الصلوات بل استثقـالهـا وما نراه من زهدهم فى القرآن وتـلاوتـه وحفظـه وفهمـه يعـود معظم وزره على كثير من المدرسين الذين أثروا بسلوكهم فى أبنائنا وفلذات أكبادنا .

فعلينـا أن نستمـر عن ساعد الجد لعلاج المصابين منهم في أخلاقهم وسلوكخم وعلينا أن نبذل كل ما نستطيع من طاقات لحمايتهم ووقايتهم من الأمراض الفكرية والخلقية أشد مما نبذله لعلاج أجسادهم وحمايتها .

فكـما لا نثق بالطبيب الـذي يقـدم الإبـر المسمـومـة والـدواء الفـاسد الذى قد يؤدي بحياتهم كذلك يجب أن نحميهم ممن يفتك بأخلاقهم وسلوكهم من المدرسين .

وكما يجب أن نختار الطبيب الأمين المخلص كذلك يجب أن نختار المدرس الأمين الصادق المخلص أكثر وأكثر وأهم وأهم .

ثالثاـ إختيار الطلاب الأذكياء

الطلاب هم أبناء اليوم ورجال الغد فهم رجال المستقبل الذين سيكون منهم الأستاذ المسلم والقاضي المسلم والجندى المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم .

وهذه أمور مهمة وعظيمة جداً فلا بد من دراسة مواهبهم واستعداداتهم ولا بد لكل ثغر من ثغور الإسلام أن يملأ برجاله وأهل الكفاءات فيه فمن المرحلة الثانوية يبدأ التقسيم ، تقسيم الطلاب إلى الاختصاصات التى ذكرتها سابقا لا بمجرد أن يختار كل طالب ما يريد .

بل لابد من الاستعانة برأى الأساتذة الاذكياء المخلصين الذين يعرفون المواهب والاستعدادات بفراستهم وتوسمهم وخبرتهم وتجارتهم .

إن الأذكياء من أبنائنا اليوم ينصرفون عن العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وتفسير وفقه لأسشباب يعلمها الله .

والمعاهد العلمية والكليات الشرعية لا يوجد فيها إلا النادر من الآذكياء لقد كان الأذكياء والعباقرة فى عهود الإسلام الزاهية يتجهون إلى دراسة العلوم الإسلامية وتدريسها والتأليف فيها خصوصاً علوم الحديث فوصلوا بالعلوم الإسلامية وبالأمة الإسلامية إلى مستوى لا يوجد له نظير فى تاريخ الإنسانية كله .

ونحن اليوم بأشد الحاجة والضرورة إلى هذا لنوع من عباقرة الرجال ليعيدوا لنا مجد الإسلام .

وليسددوا الضربات القاتلة بفكرهم وأخلاقهم إلى أعداء الإسلام من مبشرين وغيرهم من منطلق الهجوم إلى ثغرات الأعداء التى لا تحصى فى عقائدهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم .

إننا اليوم بخلوِّ الميادين من أمثال هؤلاء فى مركز دفاع هزيل عن الإسلام وأهله لا يحمي الأبناء ولا يصد هجوم الأعداء .

فلا بد إذن من ملء هذا المجال بالعباقرة والأذكياء بدل أن تضيع كثير من طاقاتنا او تذهب إلى مجالات أخرى لا تفيد منها بل قد تضر بأمتها ودينها كما تحوَّل كثير من أبناء الأمة الإسلامية إلى معاول بأيدى خصومنا وتوجههم لهدم كياننا وديننا .

رابعا- تهيئة الجو لتربية الطلاب تربية إسلامية صالحة

يجب أن يفهم الطلاب أن المدرسة معقل من معاقل الإسلام ومحضن يتربي فيه أبناء المسلمين ليؤدي كل واحد دوره فى خدمة دينه وعقيدته.

وعلينا أن نفهمهم دينهم دين اخلاق عالية ومثل رفيعة وأن رسولهم خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم عقال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقد قال الله فى حقه: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾.

ويجب أن يكون مديرو المدارس والأساتذة على مستوى عالٍ من الدين والخلق الرفيع.

كما يجب أن يحببوا الصلاة الى نفوس الطلاب وأن يشعروهم أنها عماد الإسلام لن يقوم الدين إلا بها وأنها أهم شيء فى حياتهم بعد الشهادتين فليقيموها جماعة فى المسجد إن كان: بجوار المدرسة مسجد وإلا ففى المدرسة حتى يتم بناء مسجد يجاورها ومما يؤسف له مر الأسى أن بعض المدارس لا تقام فيها الصلاة وذلك يرجع فى الأغلب إلى سوء الإدارة وتهاون بعض المديرين فى أمر الصلاة كما يساهم إلى حد بعيد بعض المدرسين الذين لا يخافون الله فى أنفسهم ولا فى أمتهم ولا يدركون فداحة الجناية التى يرتكبونها فى حق الأمة ودينها.

هذه الصلاة تركها كفر قال رسول الله ﷺ: «إن العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة» من تركها فقد كفر[1] وكان الصحابة لا يرون شيئا من العمل كفرا سوى ترك الصلاة وقد افق العلماء أن من تركها جحداً فهو كافر ويقتل على هذا الكفر وإن تركها تكاسلاً وتهاونا فبعضهم يرى أنه كافر وهو مذهب قوى وله أدلته والآخرون يرون أنه يقتل حداً ومن يرى السجن دون القتل مذهبه ضعيف.

من المحتم علينا أن نشعر الطلاب باحترامها وأهميتها والذى تحدثه نفسه بالتهاون فبها فعلى المسؤلين أن يرغموه عليها إرغاما كما قال رسول الله ﷺ (علموهم الصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع).

والذي لا تنجع فيه وساءل الترغيب والترهيب والعقوبة فالواجب ابعاده عن المدرسة لأنه جرثومة فاسدة قد يسرى بلاؤه فيمن حوله كما أن هذه الجدية والصرامة يجب أن تلاحقهم حتى فى خارج الدوام كالأندية الرياضية ومما يؤسف له أشد الأسف أن كثيراً من الأندية تمر بهم الصلاة وهم فى غمرة اللهو واللعب فلا يستحون من الله ولا يخجلون من الأمة

---

(١) أخرجه النسائى: باب الحكم فى تارك الصلاة ١١٧/١. وأحمد فى المسند ٣٤٦/٥.

وقـد يكـون فيهم بعض الأسـاتـذة وقـد يكون معهم بعض الشخصيات ان هؤلاء يجب أن تنـالهم يد العـدالـة وان تنكـل بهم تنكيـلا شديـداً يكـون رادعا لأمثالهم ممن تسول له نفسه الاستخفاف بشيىء من تعاليم الأسلام كالصلاة.

إن التهرب من الصلاة واستثقالها من سمات المنافقين الذين همّ رسول الله باحراقهم والذين قال الله فيهم: .

﴿وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا﴾.

ما يجري فى الأندية الرياضية فى العالم الإسلامي يجب على المسلمين أن يتخلصوا أو يخلصـوا أبنـاءهم منـه فإن له دوراً كبـيراً فى قتل الوقت وقتل الدين والخلق وينبغى ان يكون فقـط فى حدود الاطـار الـذي ابـاحـه الاسلام دون ان يصتطدم بشيىء من مبادىء الإسلام وأخلاقه ومثله.

كذلـك وسـائـل الإعـلام من إذاعـة وصحافة من واجبها أن تقدم النافع من البرامج للأمـة وان تبتعـد عما لا يتفق مع تعـاليم الإسـلام وعلى الأبـاء أن يراقبـوا أبناءهم فى متابعة الـبرامـج حتى لا تضيـع أوقـاتهم فى ملاحقتهـا فتصـرفهم عن الدراسة الجادة وحفظ القرآن وينبغى أن يكون هناك توعية وتنبيه الأباء والأمهات فى دعامة أولادهم والمحافظة على وقتهم فلا يسمحـون لأبنـائهم فى متـابعـة البرامج إلا بوقت محدود وبالنافع منها فقط وإبعادهم عن الضار إن كان هناك ما يضر بدينهم أو خلقهم.

هذا ما بدا لي حول ربـط اجيـالنـا بالقـرآن والسنـة كما كان أسلافهم فى أزهى عصور الإسلام. وأرجو أن أكون قد وفقت كما أرجو أن يجد آذانا صاغية وامة واعية مستعدة للعودة إلى ربها والتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

بحث حول :

طبيعة العقوبة فى الشريعة الإسلامية ومثاليتها

للدكتور محمد الحماد
كلية الشريعة

إن الأشياء التى تعتبر فى نظر الشريعة جرائم إنما نهى عنها لأن فى ارتكابها أضراراً جسيمة تلحق بنظام المجتمع وعقائده أو بأمنه وكرامته أو بحياة أفراده وأموالهم وأعراضهم ومشاعرهم .

وعمل العقوبة هو أن تشعر المذنب بذنبه وأن تنبهه إلى خطئه عسى أن يقوده هذا إلى التوبة والإصلاح وبذلك تصبح الجريمة كالملغاة .

وإذا أمكن الوصول إلى هذه الغاية بوسيلة أخرى أقل كلفة لم يكن من الحزم الإصرار على استخدام العقوبة فى غير الحدود طبعاً لذا كان العفو أحيانا صورة من صور العقوبة بمعنى أنه قد يحقق غرضها من الإصلاح غير أنه له نفوس خاصة وظروف خاصة وذنوب خاصة .

وقد شرع العقاب لمنع الناس من ارتكاب المحظور وحملهم فعل المأمور حيث أن الأمر بفعل شىء والنهى عن فعل شيء لا يكفي فى تنفيذه فالعقاب هو الذى يحمل على التنفيذ ويجعل للأمر والنهى معنى مفهوماً ونتيجة حقيقية وهو الذى يزجر ويردع الناس عن المعاصى ويقضى على الفساد فى الأرض .

قال الماوردى : «والحدود زواجر وضعها الله تعالى للردع عن ارتكاب ما حظر وترك ما أمر به لما فى الطبع من مغالبة الشهوات الملهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة فجعل الله تعالى من زواجر الحدود ما يردع به ذا الجهالة حذراً من ألم العقوبة وخيفة من نكال الفضيحة ليكون ما حظر من محارمه ممنوعاً وما أمر به من فروضه متبوعاً فتكون المصلحة أعم والتكليف أتم»[1] .

إن تطبيق العقوبات فى الشريعة يحقق ما تقدم إلى جانب أنه سوف يطارد الجريمة

---

(١) الأحكام السلطانية ص٢٢١ طبعة مصطفى الحلبى (الطبعة الثالثة) .

ويحصرها فى مجال ضيق بل يقضى عليها قضاء تاما فيعيش المجتمع ملتزما إيجابيا بعيداً عن المخالفات وبذلك يتحقق صلاح حال البشر .

وإذا كان تطبيقها يحقق ما تقدم فإن تعطيلها يهدر ذلك كله وبسببه تتعطل أحكام الشرع من أمر ونهى لعدم وجود ضمان لها يحمل عليها من لا ينفذها طوعاً وتعود حياة المجتمع إلى مثل حياة الغاب يتسلط فيها القوى على الضعيف نهباً وسلباً وقتلاً واعتداء بل تعود الحياة إلى مثل قطعان البهائم لا شرف ولا كرامة ولا عرض مصان .

فتعطيل عقوبة الزنا مثلاً معناه إباحة الزنا الذى حرمته جميع الأديان الإلهية لما فيه من المفاسد العظيمة والمضار الشديدة .

وتعطيل عقوبة السرقة معناه إباحة لها كذلك فيؤدى ذلك إلى الإعتداء على ممتلكات الناس فيكون الإنسان غير آمن على طعامه وشرابه وكسائه ومسكنه وأداة عمله .

وتعطيل عقوبة الردة معناه إباحة الإعتداء على نظام المجتمع المسلم والخروج على مبادئه والتشكيك فى صحة دينه ولا يمكن ان تستقيم الأمور فى هذا المجتمع إذا وضع نظامه موضع التشكيك والطعن .

وتعطيل القصاص معناه إباحة الإعتداء على حياة الأفراد من ناحية واعتداء على نظام المجتمع من ناحية أخرى .

وتعطيل عقوبة القذف معناه إباحة الإعتداء على نظام الأسرة حيث أن القذف هنا قاصر على الأعراض والذى يمس الأعراض يشكك فى صحة نظام الأسرة . . . كما يترتب على القذف إشاعة الفاحشة فما ترامى الناس بها إلا شاع فعلها بينهم فإن القول يسهل الفعل . ﴿**إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب اليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون**﴾ . (النور: ١٩) .

وتعطيل عقوبة الخمر معناه إباحة للفساد فى الأرض عموماً إذ هو يؤدى إلى فقدان الشعور وإذا فقد الشارب شعوره فقد أصبح على استعداد لإرتكاب جميع الجرائم فضلاً عن أن شربها يضيع المال ويفسد الصحة ويضعف النسل ويذهب العقل الذى هو ملاك التكليف .

وعلى العموم فإن تعطيل هذه العقوبات مدعاة إلى تعطيل أحكام الشرع وانتشار الفساد والفوضى فى المجتمع ، وتطبيقها هو الضمان الوحيد لتفيذ أحكام الشرع وقطع دابر الفساد والحفاظ على النظام والأمن والاطمئنان .

وما يُرى الآن فى بعض المجتمعات من مفاسد وفوضى واضطراب واختلال أمن وكثرة جرائم إنما هوبسبب تعطيل العقوبات فى الشريعة الإسلامية التى شرعها وأنزلها العليم الخبير بهذا الكون وما يصلحه. ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾. (المائدة: ٥) .

وتأديب الجانى ليس للانتقام والتشفى منه وإنما لإصلاحه، والعقوبات على اختلاف أنواعها تتفق ـ كما يقول الفقهاء ـ فى أنها «تأديب استصلاح وزجر يختلف بحسب اختلاف الذنب»(١) .

فهى إنما شرعت رحمة من الله تعالى بعباده فهى صادرة عن رحمة الخلق وارادة الإحسان إليهم ولذا يجب على من يؤدب المذنبين أن يقصد بذلك الإحسان إليهم والرحمة لهم كما يقصد الوالد تأديب ولده وكما يقصد الطبيب معالجة المريض .

هذا وقد نشأت مذاهب مختلفة فى العقوبه تعددت اتجاهاتها فى الغرض منها .

فمذهب يقول: إن العقوبة يجب أن تكون انتقامية فلابد أن ينال الجانى جزاء ما اقترفت يداه حتى يشعر بأن النتائج الشريرة لجرائمه وبال عليه هو .

ومذهب يقول: يجب أن تكون العقوبة رادعة فالغاية منها ردع الجانى وزجره عن العودة للجناية .

ومذهب يقول: يجب أن تكون العقوبة واعظة للغير فالغاية منها زجر الناس عن ارتكاب جرائم تشبه جريمة الذى يعاقب المجرم من أجلها فهى تعظ قوما ليسوا مجرمين لكيلا يصبحوا يوماً مجرمين

ومذهب يقول: يجب أن تكون العقوبة مصلحة فمعاقبة الجانى الغاية منه أولاً وآخراً هو إصلاح الجانى لا الانتقام منه وإكتفاء شره ولا عظة غيره(٢) .

وبالنظر إلى هذه المذاهب نجد كل واحد منها نظر إلى العقوبة والغرض منها من زاوية واحدة ولو نظر إليها من جميع الجهات فقد يجد الأغراض الأخرى يمكن أن تأتى تبعاً للغرض الذى يراه هو المقصود، وكما تقدم أن العقوبات فى الشريعة الإسلامية هى فى الدرجة الأولى استصلاحية بيد أن هذا لا يمنع أن تردع العقوبة وأن تزجر فى نفس الوقت كما لا يمنع أن تكون قصاصاً من الجانى فيه معنى الانتقام فتتحقق الأغراض جميعاً، وكل ما تقدم لا يمنع أن يكون هناك مسائل استثنائية مثل قتل المرتد وقتل القاتل قصاصاً إذ لا يتأتى إصلاح

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ص٢٣٦ .
(٢) انظر فلسفة العقوبة لمحمد مهدى علام ص٣٦ .

الشخص بعـد إزهـاق روحـه ومثل هذا روعى فيه مصالح أخرى تتعلق بنظام المجتمع وأمنه يجب أن تراعى قبل مراعاة مصلحة الجانى .

ومما يؤيـد القـول بأن العقـوبـات فى الشريعة الإسلامية استصلاحية نظرية العفوفى الشريعة الإسلامية فى مجال التعازير والقصاص والديات . . . فلولى الأمر أن يعفوعن تعزير من استحق التعزير إذا رأى أن المصلحة فى ذلك مثلما إذا تاب المذنب وندم على ذنبه واستقام وهكذا .

أمـا الحـدود فلا مجال للعفـو فيها إذا وصلت إلى الحاكم إنما شرع التستر على المسلم ومنـع التجسس عليـه ، والحدود تدرأ بالشبهات وكل ذلك يؤيد أن الاستصلاح مراعى فيها بالدرجة الأولى .

والعقـوبـات فى الشريعة الإسلامية ـ وخاصة الحدود ـ أُحيطت بضمانات كثيرة حتى تنحصر فى أضيق دائرة ممكنة فالحدود تدرأ بالشبهات والإثبات فيها اقتر ن بضمانات قوية تمنع الكذب كما أن الإسلام فى تطبيقه القضائى ما سوغ لأحد التتبع والتجسس على الناس ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا . . .**﴾ . (الحجرات : ١٢) .

وقـال الـرسول ﷺ فيما رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا . . . »[١] .

إن الإسـلام يعـاقب على الجـرائم إذا أعلنهـا فاعلهـا وكشف أمره فيها ولم يستتر عن الناس إذ فى الإعلان تحريض عليها ودعوة إليها . «أيها الناس قد آن لكم تنتهوا عن حدود الله من أصـاب من هذه القـاذورات شيئـاً فليستـتر بستر الله فإنه من يبدى لنا صفحته نقم عليه كتاب الله»[٢]. إذاً فلا تجسس ولا تتبع للعورات بل إن العقاب يكون حيث يتحقق الإثبات .

إن الإسلام حينما قرر هذه الحدود قررها أساساً للمحافظة على الأصول الخمسة التى جاءت الـديـانـات السـماويـة بالمحافظة عليها وهى : النفس ، والدين ، والنسل ، والعقل، والمال «فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل ما يفوت هذه الأصول

---

(١) البخـارى بشـرح فتـح البـارى الطبعـة السلفيـة ١٠ / ٤٨١ . حديث رقم ٦٠٦٤ ومسلم تحقيق محمـد فؤاد عبـد البـاقى ٤ / ١٩٨٥ حديث رقم ٢٨ من كتاب البر والصلة .

(٢) رواه مالـك فى المـوطأ ترقيم محمـد فؤاد عبـد البـاقى ٢ / ٨٢٥ ضمن حديث مرسـل وقـد وصـل ذلك الحاكم فى المستدرك ٤ / ٣٨٣ والبيهقى فى السنن ٨ / ٣٣٠ وهو حديث مشهور معروف العمل عليه .

فهو مفسدة ودفعها مصلحة وهذه الأصول الخمسة حفظها واقع فى رتبة الضرورات فهو أقوى المراتب فى المصالح»[1].

والحدود تقوم على دعامتين هما :

(١) حمايـة المجتمـع من الشرور والآفات التى تفتك به وتروع أمنه وعلى مقدار ما فى الجريمة من ضرر وفساد وترويع وإفزاع تكون غلظة العقوبة بقدر ذلك .

(٢) عمـوم العقـاب فى أحكـام الشـريعـة الإسـلامية فالحدود تطبق على الجميع ولا يعفى منها أحد لمركزه أو شخصه أو لغير ذلك من الاعتبارات .

الموازنة بين الضرب والسجن :

إن المشرعين فى القوانين الوضعية يعيبون على الإسلام أن العقوبات فيه أكثرها بدنى بالضـرب المبرح وقـالـوا إن هذه العقـوبـات ليست إنسـانية بل فيها استهانة وحط للكرامة الواجب توفيرها للإنسان .

ويرد على هذا بأن الإسلام لاحظ فى العقوبات ما لاحظه فى كل تشريعه وهو ملاحظة أكبر منفعة والموازنة بين الضرر الواقع والنفع المطلوب من حيث المقدار وتحمل أقل الضررين ولاشك أن العقاب كيفما كان ضرره لابد منه لأنه يترتب عليه نفع أكبر من الضرر اللاحق بالمعاقب .

وقد لاحظ الإسلام فى العقاب الرادع أن يكون ضرره غير وخيم العاقبة بحيث يكون عاجلاً غير معطل للقوى أو مفضياً إلى ماهو أشد ضرراً فى عاقبته .

والناظر فى عقوبة السجن التى تعتمد عليها القوانين الوضعية إلى حد بعيد يوازن بين ضرر السجن وضـرر الضـرب أيهـما أوخم عاقبـة وأيهما أحسم للداء، إنه يلاحظ فى السجن أضراراً كثيرة وبالغة الخطورة منها :

١ ـ إنقطاع الجانى عن أهله وأولاده مدة قد تطول لا يرعونه ولا يرعاهم .

٢ ـ أنـه يعـاشـر فى السجن المجـرمين فتصل إليه عدواهم ـ وعدوى الجريمة كعدوى المرض يسر بالمجاورة والاختلاط ـ فيدخل مريضاً بجريمة واحدة ربما كان وقوعه فيها بسبب عارض وليس متمكنـاً من نفسـه ولكنه يخرج وقد أصيب بعدة أمراض أخرى ربما حولته إلى إنسان شاذ فى المجتمع .

---

(١) المستصفى للغزالى ص٢٥١ تحقيق محمد مصطفى أبو العلا .

٣ ـ أن السجن تهان فيه الكرامة وحيث فقدت الكرامة واستمر السجين أمداً ذليلاً مهيناً فإن قلبه يفسد ويكون مستعداً لإرتكاب الكثير من الجرائم لأن الجريمة مهانة تسهل عند المهين وتصعب على الكريم .

٤ ـ أن السجناء وقت سجنهم قوة إنسانية معطلة وبذلك يوقع السجن ضرراً بالمجتمع .

٥ ـ أن السجين يعاقب أثناء السجن بعقوبات بدنية إذا ارتكب ما يخالف لوائح السجن وقليل من ينجو من هذه المخالفات وآثارها وبهذا يقعون فيما فروا منه .

هذه بعض أضرار السجن فوق ما فيه من تقييد الحريات وعدم الردع الكافى عن ارتكاب الجرائم .

أما عقوبة الضرب فإنها وإن كانت لا تخلو من إمتهان لكنه لا يدوم وسرعان ما يسترد المعاقب بالضرب اعتباره إذا عمل بعد ذلك صالحاً ونفسه لم تتدرن بدرن يأكل الكرامة وإذا مازالت جراحه إستأنف نشاطه واستئناف النشاط يرد إليه اعتباره ويستمر بين أهله يرعاهم ويرعونه ولا تصل إليه عدوى من أمراض أخرى كما لا يوقع الضرب ضرراً بالمجتمع كما هى الحال فى السجن .

وقولهم إن فى الضرب استهانة وحطاً للكرامة فكرة لا محل لها فى العقاب ولا يصح أن يحتج بها لمن لا يوفر الإحترام لنفسه .

وبعد فإن العقوبات فى الحدود وغيرها شرعت لمنع الكافة عن الجريمة وزجرهم عنها فهى ضمانات لتطبيق أحكام الشريعة وليس كما يتصورها الجاهلون بها وبحقيقتها وبطبيعة المجتمع المسلم حيث يتصورونه أويصورونه مجتمعاً مقطع الأيدى فى كل زاوية رجل مصلوب وفى كل شارع رجل مجلود أومرجوم ويكفينا لتقرير هذه الحقيقة ورد هذه التصورات الجاهلة أننا حينما ننظر فى المجتمع الملتزم باحكام الله وحدوده أن هذه الجرائم لا تقع إلا فى حالات قليلة بل نادرة فى بعض أنواعها ، فى حين أننا نلاحظ أزدياد جرائم السرقة مثلاً فى المجتمعات التى لا تطبق فيها الشريعة الإسلامية رغم أنها تعاقب عليها أحياناً بالاعدام .

آمنا بالله وبشرعه فهو العليم الخبير أعلم بطبيعة خلقه وبما يصلحهم وما تستقيم به أحوالهم وشئون حياتهم .

﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾

بعض مراجع البحث غير ما ذكر فى الهامش

١ ـ التشريع الجنائى فى الإسلام لعبد القادر عودة
٢ ـ الجرائم فى الفقه الإسلامى لأحمد فتحى بهنسى .
٣ ـ جرائم الحدود فى التشريع الإسلامى لمحمد عطية راغب .
٤ ـ التعزير فى الشريعة الإسلامية للدكتور عبد العزيز عامر .
٥ ـ الجريمة فى الفقه الإسلامى للشيخ محمد أبو زهره .
٦ ـ العقوبة فى الفقه الإسلامى له .

غنى وملك

رأى زينون الحكيم رجلاً على شاطىء البحر مفكراً حزيناً على الدنيا فقال له :

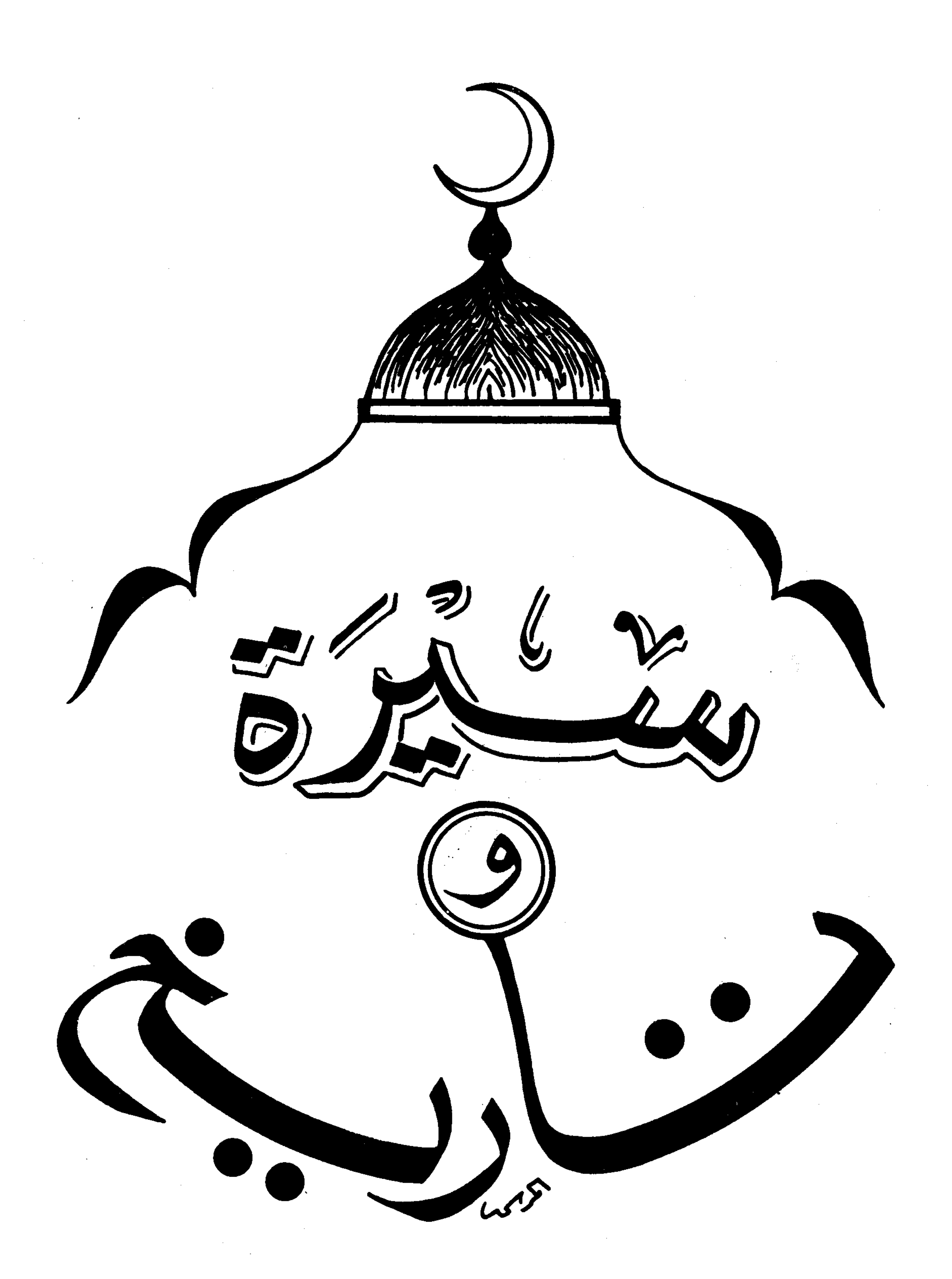
يافتى ما تلهفك على الدنيا . . . ؟ لو كنت فى غاية الغنى وأنت راكب لجة البحر وقد انكسرت بك السفينة واشرفت على الغرق ! ! أما كانت غاية مطلوبك النجاة وأن يذهب كل ما بيديك .

قال : نعم .

قال : ولو كنت ملكا واحاط بك من يريد قتلك ، أما كان مرادك النجاة من يده ولو ذهب جميع ما تملك .

قال : نعم .

قال : فأنت ذلك الغنى الآن وأنت ذلك الملك ، فتسلى الرجل بكلامه .


سيرة
و
تاريخ

الملك عبد العزيز آل سعود بين نصره لله ونصر الله له

- ٢ -

للشيخ إبراهيم محمد حسن الجمل
المدرس بالمعهد الثانوى التابع للجامعة

لقد وفق الله الملك عبد العزيز آل سعود فى كل ما قام به، والتوفيق أمر عظيم لا يهبه الله إلا لرجل عظيم، ومما لا شك فيه أن عبد العزيز كان عظيما، وتظهر هذه العظمة واضحة جلية فى توفيق الله له، ونصره إياه فى وقعة الرياض وفتحها.

كان عبد العزيز فى سن دون العشرين من عمره المبارك، وما تزال ترن فى أذنه نصائح أبيه الرجل الصالح الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، الذى كان دائماً يقص عليه تاريخ الآباء والأجداد، ومواقف الضعف والقوة فيهم، ويذكر بالخير مواقف الصلحاء والأتقياء منهم، ويحرص كل الحرص على أن يبث فى نفس ابنه عبد العزيز الروح الدينية، ويغرس فى قلبه حب الجهاد والتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله، ويذكّره بالعهد الذى تم بين جده محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله، الذى يقضى بالعمل على نشر العقيدة السلفية، وجذب الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى، وإقراره بالعبادة، ودحض حجج الآثمين والمشركين، وإقامة الأدلة والبراهين الناصعة على ثمرة التمسك بكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، وما يجنيه الإنسان من وراء ذلك من سعادة فى الدنيا والآخرة.

لقد رأى حوادث جساماً، وهو صغير، رأى الأعداء على أبواب عاصمة الآباء والأجداد، وشاهدهم وهم يحاولون الاستيلاء على الرياض وما حولها، ثم استسلم للبيداء بقسوتها وبحرّها وبردها، حتى انتهى به المطاف إلى الكويت وفى الكويت عرف الكثير عن أمرائها وعلمائها، كان يجلس صامتا، ويسمع أكثر مما يتكلم، وكان ما يسمعه ويقرؤه ويتعلمه يلقى به فى بئر آماله وأحلامه العريضة ويضطرب كل ذلك فى بحر لجى تتدافقه الأمواج العالية، التى تصل به إلى قمة التفكير ألا وهو كيف يخلص بلاده الغالية من يد الغاصبين.

لقد ذهب إلى الرياض مسقط رأسه، ومحط آماله، وملعب طفولته غازياً، ومكث بها أربعة أشهر، لكنه تركها أمام مالا قبَل له به، فوقعة الصريف[1] وانتصار الأعداء بها، والهزيمة التى لحقت بجيش الشيخ مبارك كان لها أكبر الأثر فى التأثير على مجريات الأحداث فى ذلك الوقت.

ولقد مرت الأيام، وبلغ عبد العزيز الواحدة والعشرين، وما تزال تراوده فكرة الرجوع إلى بلده، فإما أن يعيش فيها، وإما أن يستشهد فى سبيلها، لقد اختمرت فى ذهنه فكرة إسترداد الحق المغتصب، والمُلك الذى سلب، ونُهب قسراً عن أهله، والذى لا يُسْتَطاع بغيره أن يُمْتَلك الزمام، فتقام حدود الله، وتطبق أسس الدعوة التى كاد يقضى عليها، إلا من أنفس ما تزال تعض عليها بالنواجذ، ثم أقسم ليستردن مجد آبائه وأجداده، ولينشرن الدعوة لربه جل وعلا، كما قام بها أجداده الأوائل.

ثم كاشف بما جال فى خاطره الأصفياء من ذويه، وأقاربه الشباب، فوافقوه على ما دعا إليه، وذهب إلى والده الإمام، واستأذنه فى السفر، بعد أن بين له الدافع الشديد الذى دعاه إلى ذلك؛ فإيمانه القوى بنصر الله، وتوكله عليه، وإطمئنان قلبه إلى توفيقه تعالى، جعله متأكداً من عون الله، وشد أزره له.

وتنفس الصعداء الرجل العارف بأخبار العدو وقوته، وحرصه على ما اغتصبه، وقد أدرك أن عبد العزيز الذى رباه وعلمه لساعة آتية، قد أدرك الآن أنه أصاب الهدف، واعتمد على من عليه الاعتماد، وأوى إلى ركن حصين وسند عظيم، ولذلك لم يتردد فى الإذن له بالعمل، ودعا له بالتوفيق والنجاح.[2]

وإذا وجد الإيمان والتوفيق، والنصر والتوكل على العليم الخبير، فكل ما عداه من الأسباب هين لتحقيق الرغبة القوية.

لقد تمكن عبد العزيز الشاب من الحصول على أربعين جملاً، وثلاثين بندقية، وبعض الزاد، ومعه أربعون رجلاً من عائلة آل سعود الذين بالكويت، ومن المقربين إليه، ثم راح يغزو الأرض التى استولى عليها ابن الرشيد، والناس يجتمعون معه، ويتفرقون عنه، حتى وصلوا إلى الألفين، لم يبق منهم فى آخر الأمر إلا عشرون ضمهم إلى الأربعين،

---

(١) وقعة الصريف كانت بين قرية الطرفية وماء الصريف بين الشيخ مبارك شيخ الكويت وابن الرشيد عام ١٣١٨ هـ، وبالرغم من أن الأمير عبد العزيز كان مستقلا عن هذه الوقعة إذا إتجه بحملته إلى الرياض إلا أن هزيمة الشيخ مبارك فى هذه الوقعة كان لها تأثير عليه ففضل الانسحاب هذه المرة.

(٢) الإمام العادل الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ح١ ص١٩.

فاصبح جيش عبد العزيز ستين رجلا، واتجه ببصره إلى الرياض، واستطاع القائد الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن بما وهبه الله من الذكاء أن يخطط للاستيلاء على الرياض.

ففى الخامس من شوال عام **١٣١٩**هـ كان الشاب عبد العزيز والستون شاباً على مسافة من الرياض. قالوا: إنها كانت على بُعْد ساعتين، ترك فيها عشرين شابا ممن معه، وتقدم بالأربعين الآخرين، فلما وصل إلى البساتين خارج سور المدينة، ترك أخاه محمدا، ومعه ثلاثون رجلاً، ومشى بالعشرة فى الظلام الدامس، حتى تمكن من اقتحام الأسوار، والوصول إلى حاكم الرياض من قبل ابن الرشيد، وقتله فى مغامرة مثيرة، رافقه فيها تأييد الله له، وتوفيقه واظلته العناية الإلهية التى شدت من أزر الشاب عبد العزيز، حتى تم له النصر، واستولى على الرياض.[١]

....

أرسل من ينادى فى الناس، فى محل تجمعاتهم، وفى الأسواق، وكان الخبر قد سرى فى كل مكان، والبشر والفرح يعلو الوجوه، وهم يشكرون الله الذى أرجع الحق إلى أصحابه، كان المنادى يقول بأعلى صوته:

«الله اكبر.... الحكم لله ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود»[٢].

هذا الفتح العظيم جدير بأن نسميه«فتح الفتوح فى العصر الحديث» فلقد كان بداية لسلسلة من الانتصارات التى مَنَّ الله بها لا على عبد العزيز وحده، بل على العالم الإسلامى، وهذا ما اثبته مرور الأيام.

لقد تناول المؤرخون والكتاب والأدباء هذا الحدث العظيم بالدرس والتحليل والثناء والإكبار، واتفقوا على أن هناك توفيقا إلهيا، سار فى ركب تلك الفتية التى آمنت بربها، فظلت عناية الله تحرسهم وترعَاهم فحققوا النصر على أول طريق الجهاد والكفاح حتى أتم الله نوره.

يقول نجيب نصار فى كتابه(الرجل):

«إن ابن سعود الذى تعلم الصعود إلى مراقى العظمة، فى مدرسة الإسلام، كما تعلمه فيها أبو بكر وعمر وعلى وخالد ومعاوية، وغيرهم من الصحابة الكرام، وتمرن على

---

(١) القصة الكاملة لفتح الرياض رواها بتواضع جم الملك عبد العزيز رحمه الله، نقلها عنه فؤاد حمزة فى كتابه «البلاد العربية السعودية» ونقل جزءا منها الكاتب خير الدين الزركلى فى كتابه «شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز» وكذلك نقلها الكاتب أمين الريحانى فى كتابه «تاريخ نجد وملحقاتها» بتصرف، وتناولها جميع الكتاب الذين كتبوا عن المغفور له عبد العزيز من عرب وأجانب بالشرح والتحليل.

(٢) المتوكل على الورود عبد العزيز آل سعود ص٩٠.

الخشونة، وشظف العيش، والشدة فى مدرسة بنى مرة الساذجة، ارتقى أول درجة من سلّم العظمة بالإستيلاء على الرياض»(١)

وقال حافظ وهبة :

«إن هذه القصة تشبه قصص أبطال اليونان، وترينا عظم الأخطار التى أحاطت بابن سعود»(٢)

لقد جاء الناس من كل مكان، وتجمعوا فى قصر الحكم، يرحبون بالأمير عبد العزيز، ويبايعونه زرافات ووحدانا، والفارس الشجاع يدعوهم إلى تناسى ما حدث فى الماضى، وإلى المحبة والتعاون، والاستعداد للمستقبل.

لم يضيع الأمير عبد العزيز لحظة من وقته؛ فقام بالبناء والتحصين والاستعداد لكل ما يطرأ من أحداث، وكتب للوالد الإمام عبد الرحمن أن يأذن لأخيه سعد بالقدوم إليه، ومعه نجدة من الرجال والعتاد، ثم أرسل إلى والده بالكويت، يطلب إليه العودة إلى الرياض؛ فسير الحوادث نفضى أن يكون بجواره، فودع الإمام والشيخ مبارك، وغادر الكويت تلبية لولده، وسلك طريقا غير معروف، فابن الرشيد ما يزال يسيطر على البلاد، وليس من الصواب أن يعرف طريقه فى ذلك الوقت.

لم يمض زمن طويل بل أيام معدودات حتى وصل الإمام عبد الرحمن إلى الرياض بسلام، وأسرعت الوفود من كل مكان للتهنئة والتحية والسلام، وتجديد البيعة لآل سعود، ثم دعا الإمام شيوخ العاصمة وعلماءها إلى إجتماع طلب عقده فى المسجد الكبير بالرياض بعد صلاة الجمعة، وبعد الصلاة وقف الإمام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ، وأعلن أمام الجميع تنازله عن جميع حقوقه فى الإمارة والإمامة إلى ابنه عبد العزيز.

ولكن الابن البار الذى تربى فى رحاب الإسلام، ووعى قضاء الله للوالدين رد قائلا :

«الإمارة لكم وأنا جندى فى خدمتكم».

فجمع الإمام العلماء، وأرسل إلى عبد العزيز، وخاطبه قائلا.

«إذا كان قصدك فى استدعائى إلى الرياض، لأتولى الإمارة فيها، فهذا غير ممكن ولا أقبله مطلقا....»

وبعد مناقشات طويلة، قال الحاضرون من العلماء للقائد عبد العزيز: «على الابن أن يطيع أباه»

(١، ٢) شبه الجزيرة ج١ ص٨٧ .

وقالوا للإمام: «أنت كوالد عبد العزيز رئيس عليه، وبالتالى على أهل نجد»
فقال الإمام رحمه الله:
«ولكن الإمارة له»
فقال عبد العزيز:
«إنى قابلها بشرط أن يكون والدى مشرفا على أعمالى دائما، فيرشدنى إلى ما فيه خير البلاد، ويرد عنى عما يراه مضرا فى مصالحها»[1]

موقف فريد فى زمنه، زمن قتل الطامع أخوته فى سبيل الملك، وتنمر الابن فيه للأب، وضاعت فيه مُثُل الإسلام العليا إلا من فئة قليلة، ظلت محافظة على تعاليم الحنيفية السمحة، تمثلت فى أصل عبد الرحمن وفرعه وعين الله ترعاهم، وتوجههم إلى الطريق المستقيم.

تمت البيعة لعبد العزيز، وأصبح قريبا من الله، متحملا مسئولية من تولى أمرهم، فليضاعف النشاط، وليسهر على راحة رعيته، وليتجه إلى ربه، يطلب منه العون والمساعدة والتوفيق.

....

لو أسرع ابن الرشيد إلى الرياض بجيوشه الجرارة، وقوته الكبيرة لتغير وجه التاريخ، ولقضى على تلك العصابة التى أخذت على عاتقها نشر الدعوة، وإقامة حدود الله.

قال الإمام عبد العزيز:
«أما ابن الرشيد، فقد أشار عليه بعض رجاله بأن يسير من «ثادق» ويضبط الحفر، ولكنه رفض، والحقيقة لو أطاع رأى قومه، ورحل إلى الحفر، لكانت ضربة قوية علينا»[2]

ولكن الله شغل ابن الرشيد بآماله، وتطلعاته التى دار فى فلكها، وشغلته عما سواها، فهو يخطط ليستولى على الكويت، فقد طغى عليه التفكير فى امتلاكها، وأخذها من الشيخ مبارك، وحسبها هى الأصل، والرياض هى الفرع. وإذا امتلك الأصل، فإن الفرع يأتى إليه بأقل جهد.

لقد مناه الأتراك بالمساعدة، ورسموا له كيفية الاستيلاء على الكويت، ولكنه ما كاد يقترب منها، حتى كان له الانجليز ـ حلفاء الشيخ مبارك ـ بالمرصاد، فقد قضوا على آماله وتطلعاته، وأخيراً وبعد فوات الوقت، عرف أنه أمام قوة لا قبل له بها.

---

(١) نجد وملحقاتها ص١٢٩.
(٢) فتح الرياض كما يرويها الملك عبد العزيز آل سعود من كتاب «المتوكل على الرزود عبد العزيز آل سعود ص٣٢٢.

كان كلما ذكروا له عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سـعود، واستيلاءه على الرياض، أجـاب بلا مبـالاة، وأظهـر عدم الاهتـمام بهذا الاستيلاء، وأن الأمر لا يستحق أقل مجهود، وحينما ألحوا عليه في الذهاب إليه، قال المثل المشهور وهو غير مكترث: «أرنبة محجرة وأهلها مقيمون» أي أنه يستطيع أي يوم شاء أن يخرج عبد العزيز من الرياض»[1] .

ومـرت شهـور، وأتى ابن الرشيد، وفي حَسبانه أنه سوف يتسلم الرياض، وأن ساعة تخليصهـا له قد دنت، ولكنـه ارتـد على عقبـه أمام قوة لم تخطر على باله، بل إنه كلما حاول الاقـتراب منهـا لم يستطع، فنكص على عقبيه، ورجع غير موفق فصرف النظر عنها مؤقتا، لكن كانت له جولات، ومـواقـع في أمـاكن أخـرى، لازم النصـر فيهـا الإمام عبد العزيز آل سـعود رحمه الله.

....

ظلت الحرب سجالاً بين الإمام عبد العزيز وابن الرشيد، وربما كان ابن الرشيد قويا وذا بأس، وكان أكثر عدة وعتاداً، إلا أن الإمام كان أصلب عوداً وأكثر تحملا، وأشد إيمانا؛ فهـو يحارب من أجـل حق اغتصب، وسُطِيَ عليـه، ومن أجل دعوة ودين خف الوازع إليه، وإن له لمبدأ عظيماً يستمد منه الحماسة والقوة.

كانت الجيوش تصول وتجول من قبيلة إلى قبيلة، ومن أرض إلى أرض، والناس قد قلّ تمسكهم بالـدين، فتـاهـوا في البيـداء الواسعة، يسعون لمغنم دنيوى، وقد يكونون معك بالنهـار، فإذا ما أتى الليـل تراهم قد انقلبـوا عليك، وتعقدت الأمور بالتقارب الذى لم يكن يخطـر على بال، هذا التقـارب الـذى تم بين الشيـخ مبـارك وابن الـرشيـد، وكـان هذا مما يستبعـد، والعـداء ما يزال مستحكما بين طرفي الجزيرة، وبدأ النفاق في بعض القبائل ظاهرا جليـا، وبـين رجـال تنكبـوا الطـريق، فكانوا متذبذبين بين الطرفين فأخذ الإمام عبد العزيز الحذر والحيطة منهم، وظل يتنقل وهو في أوج حماسه وقوته وتخطيطه، والمولى جل وعلا يدبر له الأمر، ويوفقه إلى الطريق الذى سيوصله بإذنه تعالى إلى النجاح الذى يريده.

لقد وصل ابن الرشيد إلى روضة مهنا، بعد سلسلة من التنقلات والمناوشات ولحق به الإمـام عبـد العزيز، وشرع يجمع رجاله، ثم بدأ هجوما على خط الدفاع الأول ليلا، على من تقدم من رجال ابن الرشيد، وتواقعا في ٨ صفر سنة **١٣٢٤**، وتمكن جيش الإمام من أن يزيح جيش ابن الرشيد قليلا، ويقهقره، ويحتل مكانه.

---

(١) نجد وملحقاتها لأمين الريحاني ص ١٢٧ .

وفجأة وبـدون تدخـل من البشر، والليل حالك الظلام، والنجوم ترسل شعاعا خافتا على الرمال، والبصر محدود الرؤ يا، والحرس يضعون أيديهم على الزناد استعدادا لإخراج الطلقات، وعين الله الحارسة تتولى الأمور، وتصرفها كما يشاء لها رب الكون، وفجأة يحدث ما لم يكن فى الحسبان، ولم يخطر على بال إنسان، وما أراه إلا من صنع الله العلى القدير.

لقـد ركب ابن الـرشيـد فرسه، وراح يدور فى معسكره مستنهضاً همم القوم ممن معه، ومحرضاً للضرب والنزال، يجرى هنا وهناك، حتى وصل إلى المكان الذى كان له فيه فرقة من جنوده، ظن أنها لا تزال هناك، وأنْسِى أنها تراجعت، وتركت مكانها لجيش الإمام عبد العزيز.

صاح بحـامـل البـير ق يحرضـه على الهجـوم، وما حسب أنه بين القوم الذين يحرض عليهم، ويدبر لهم الشر، ويبتغى الغلبة عليهم.

كان يصيـح باسم حامـل البـير ق، وعـرف رجـال الإمـام الصـوت، وعـرفوا أنه ابن الرشيد، فصوبت عليه البنادق، ونفذت إرادة الله!!

وحمل سيفه وخاتمه إلى الإمام(١)

أمـا الإمـام عبـد العزيز آل ســعود فكان حينما يبشر بنصر من الله سبحانه وتعالى يخر ساجـداً، ويطيـل التضـرع والـدعـاء، حامـداً شاكـراً فضله سبحانه على ما أولاه من نصر وتأييد، وبهذا قُضِى على أكبر قوة كانت أمام الإمام رحمه الله.

....

لقد شمل تأييد الله جل وعلا لعبده عبد العزيز رحمه الله فى كل ما دخل من معارك، وإن كان قد خف أوارهـا فى ملحقـات الـرياض، رغم تشعبها وكثرتها، إلا أنها كانت تنتهى دائماً بنصر من الله، وفى النهاية الاستقرار والهدوء.

وشـاء الله أن ينتقـل الصـراع من نجـد إلى الحجـاز، وكأن ما حدث ما هو إلا مقدمة لتنفيـذ إرادة الله، حتى يوفى سبحـانـه وتعـالى بوعده، فيستجيب دعاء سيدنا ابراهيم عليه السلام كلما اشتد البأس، وانعدم الأمن والطمأنينة بأرضه المقدسة.

﴿**رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام**﴾. (ابراهيم: **٣٥**).

وكان ذلك فى أرض الحجاز حيث البيت العتيق. والحرم الآمن، وحيث يجب أن تقام

---

(١) نجد وملحقاتها ص١٥٨ .

شريعـة الله ، وتنفـذ حدوده ، والله أشـد غيرة من أحـدنـا على حرمـاتـه ، ولكن الله يؤخر، ويمهل ولا يهمل .

لقـد ظلت حدود الله معطلة زمنـا طويـلا ، وشرائعه مستباحة ، والمكان الطاهر مسرحا للمسـاومـة والمـزايـدة ، والنهب والسلب فى كثـير من الأوقـات . تقـام فيه البدع والمنكرات ، ويساق الناس . وكأنهم قطعان ما شية ، وكأنما هذه الأرض الطاهرة ما هى إلا ضيعة لفئة من الناس بلا وازع ، فليس لهم ـ كما يقال ـ من الإسلام إلا اسمه ، ولا من الدين إلا رسمه .

والدليل القوى على ذلك قانون(أبو نمى) وهو الدستور الذى كانت تسير عليه الأمة فى الحجـاز فى معـاملتهـا مع السـادة الأشراف ، فشرعت قوانينه لأشراف الحجاز ، وضعه(أبو نمى) الـذى تولى إمـارة مكـة سنة ٩٣٢هـ ، وظل يعمل به إلى أن قضى عليه الإمام العادل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سـعود ، حينما طهر الأرض المقدسة من الرجس والآثام .

إن قانون(أبو نمى) يمثل أفدح الظلم فى أطهر بقعة على وجه البسيطة ، وهو بعيد كل البعد عن التشريع السماوى ، ولم يسمع بمثله إلا فى العصور الوسطى ، ومحاكم التفتيش .

يقول حسين محمد نصيف :

«وهـذا القـانـون على ما أعتقـد لم يوضـع أقسى ولا أظلم منه . وإذا بحثنا عن معنى الظلم فى أى قاموس ، فلا نجده وافياً بمعناه الحقيقى إلا فى هذا القانون»(١)

. . . .

كانت انتصارات الإمام عبد العزيز فى نجد وما يجاورها مثار إعجاب وإكبار من أبناء شبه الجزيرة ، وهو واحد من أبنائها ، وهذا ما أوغر صدر حكام الحجاز واقض مضجع الحاكم فى ذلـك الـوقت ، وبخـاصـة أن الإمـام كلما أخضع جهة ، أقام فيها حدود الله ، ونفذ حكم الشـرع ، والنـاس قد استجـابـوا ، وسكنـوا إلى أحكام الله ، وحار الشريف فيما يفعل ، وقد أصبحت بلاد نجد قوة لا يستهان بها !!

ماذا يفعـل؟ إنـه كلما حاول مسـاعدة البقية الباقية من الخارجين ، أو معاونة واحد من أعداء نجد الذين يحاربهم الإمام ، ارتدت إليه سهامه .

كان الشـريف بين المـد والجـزر ، والبعد والقرب ، فهو يتقرب إلى الإمام أحياناً ، حتى ليظن الإمام أن الصفاء والمودة ستمحو كل ما سبق من عداء ، وفجأة لا يلبث أن يقلب ظهر المجن ، فيظهـر ما يضمـر ، فإذا به عداء مستحكم ، لا يستقـر به على حال ، والإمـام عبـد

(١) تاريخ الحجاز ص١٧ .

العزيز ينظر إلى تحركاته نظرة الواعى المستفيد من كل هذه التحركات، إلى أن ظهرت نواياه اخيرا، وهى قوله: إن الجزيرة بما فيها من نجدٍ من رعاياه، وأن كل هذه البلاد من حق الشريف.

وتذرع الإمام بالصبر والأناة كعادته، وتركه يقول كل ما يريد أن يقوله وكانت هناك عهود ومواثيق لحلفاء الشريف من الانجليز، احترمها الإمام، ولم يثر أى مشكلة لهؤلاء الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى، حتى كانت القشة التى قصمت ظهر البعير. وهى مسأله الخلاف على الحدود بين نجد والحجاز، وبالأخص تربة والخرمة: وهما قريتان على الحدود.

الشريف يرى أنها من قرى الحجاز، والإمام عبد العزيز يؤكد أنها من نجد وكلاهما يدلى بحججه.

لقد كان من المتعارف عليه أنهما من نجد، وأن جبل «حَضَن» هو الفاصل بين نجد والحجاز وأنه يبعد عن القريتين بمسافة قدرت بسبعين كيلومترا بالنسبة لتربة، وبخمسين كيلو بالنسبة للخرمة، وأن البلدين وعربانهم حنابلة المذهب من زمن بعيد، وأن كثيرا من تجار نجد يعيشون بين ظهرانيهم، كذلك ما يزال ولاؤهم لآل سعود قائما منذ زمن بعيد.

ولما لم تنفع المكاتبات، ولم تغن الوساطات، ولم يجد الشريف ملاينة من الإمام عبد العزيز، وقد استقل الشريف بالحجاز، وطرد الأتراك، وأصبح يتمنى حكم الجزيرة كلها عزم على غزو نجد مبتدئا بتربة والخرمة، وهو يعتقد أنه سيفتحها، بعد أن تكتسح جيوشه كل من يقف أمامه: ومما تجدر الإشارة إليه، ما حصل بين خالد بن لؤى أمير الخرمة والذى يعتبر عاملا من قبل الشريف على هذه الجهة وبين ابن الشريف الأمير عبد الله بن الحسين، وكان بالعيص قريباً من المدينة المنورة بعد أن إشترك مع الأمير عبد الله فى القضاء على الحكم التركى بالمدينة المنورة، فقد ضرب خالدا على وجهه أحدُ المقربين إلى الأمير عبد الله هو فاجر بن شليويع أحد شيوخ الرقة، فاشتكى خالد إلى الأمير، ولكن الأمير لم يهتم كثيراً لخالد، لحاجة فى نفسه وكل ما فعله أنه حبس فاجراً ثم أطلق سراحه بعد أيام.

لم يرض خالد عن هذا الحكم، ولما خاطبَ الأمير فى ذلك لم يأبه به، فغضب خالد، واستأذن على خلاف المعهود فى الرحيل، فأذن له غير مكترث به، ولا بما سيتم عليه الأمر، ورجع خالد إلى الخرمة.(١)

---

(١) صقر الجزيرة ج١ ص٢٠٧.

إن آثـار هذه الحـادثـة البسيطـة كانت السبب فى تغيـير مجرى الحـوادث، ولا نكـون مبـالغـين إذا قلنـا إنهـا غيرت وجـه التاريخ، فبمجرد أن وصل خالد إلى موطن إقامته، وثق علاقتـه مخلصـا بالإمـام عبـد العزيز، وقد كان على علاقة طيبة به، إذ كانت تجمعهما وحدة المذهب ويرى أنه من رجاله. وربما كانت هذه من الأسباب التى أوغرت صدر الأمير عبد الله.

صار خالـد من رجـال الـدعـوة، ومـا عاد يخفى شيئـاً، فقد أخلص لها، واستعد لأن يضحى فى سبيلهـا بكـل شىء، وكأنـما رسمت المقـاديـر لخالـد دوراً، كان له أكـبر الأثـر فى الاستيلاء على الحجاز.

قطع خالد كل صلته بحكام الحجاز، فكان كلما أرسل إليه الشريف بالحضور والمثول بين يديه، تخلص من هذا بحيلة من الحيل، وتكرر منه ذلك، وعلم الشريف أن خالداً غير راغب فى مقـابلتـه، ورأى أن القـوة هى الفيصـل بينه وبين خالد الذى هو واحد من رجاله، واعتبره خارجاً على طاعته، فأرسل إليه جيشاً تلو جيش، فكان نصيبه الهزيمة، ففكر فى أن يرسل إليه جيشاً قوياً بقيادة صهره، الشريف عبد الله بن محمد فلما وصل إلى جبل «حَضَن» كان القدر له بالمرصاد، فقد تفشت فيه الأمراض فأفنته[1] وكفى الله المؤمنين القتال.

ويقـال: إن الشـريف طلب من صهره ألا يباشر عملاً عسكرياً وأن يلتزم مكانه حتى يصل الأمير عبد الله قائد الجيوش[2]

....

عبأ الشـريف كل قوتـه استعـداداً لإعـلان الحرب على الخارجين على طاعته أولا ثم على الإمـام عبـد العـزيز، واستحث ابنه الأمير عبد الله الذى ولاه قيادة الجيوش الغازية أن يعجل بإخضاع القبائل فى تربه والخرمة، وأن يقضى على من فيها من الولاة والخارجين، ثم يتجه إلى الرياض.

بدأ الأمـير عبـد الله فى الإغـارة والتأديب، واستـمالـة القبائل على حدود تربة، وقتل بعض التجـار النجـديـين، واستكـان له الأعـراب المتفـرقة فى هذه الجهات، فأخده الزهو، واستصغر شأن خصمه حينما نظر إلى جيشه وكان تعداده ١٢٠٠٠ مقاتل، على أن هناك من يقـول إن تعـداد الجيـوش وصلت إلى ٢٥٠٠٠ مقـاتـل[3] منهم خمسـة آلاف من الجيش

(١) صقر الجزيرة ح١ ص٢١٠ .
(٢) المتوكل على الودود عبد العزيز آل سعود ص١٨٩ .
(٣) تاريخ الحجاز ص٦٤ .

النظامى ، والباقى من المتطوعة والأعراب ، ومعهم المعدات وآلات الحرب والقتال التى لا تعد ولا تحصى مما أخذ من الإنجليز ، وغنما من الأتراك فنظر إلى كل هذا الأمير القائد ، وأرسل إلى والده قائلا :

«إنى فى ٣٠ يوماً سأطوى نجداً بأجمعها وأخاطبكم من البحرين»[١]

كان الإمام يراقب ما يجرى فى تربه ، وتأتيه الأخبار تحت جناح السرعة ، فأعد جيشا قوامه ١٢,٠٠٠ مقاتل ، تحرك به من الرياض ، إلا أنه حينما وصل إليه أخبار جيش الشريف أرسل سريعاً إلى سلطان بن بجاد كبير هجرة الغُطْغُط ، أن يلتحق بسرعة وسرية مع جيشه بخالد بن لؤى بالخرمة لنجدته ، حتى يصل هو ومن معه ، وأسرع سلطان بن بجاد ، والتقى بخالد ، وجلسا يفكران فى كيفية الوصول إلى هذه الجيوش ، وكيف يدفعان هذه القوه العظيمة التى لا قبل لهما بها .

وراودهما التفكير أن ينتظرا ابن سعود ، ومدده الذى سيأتى به إليهما ، ولكن إيمان خالد بالله كان أقوى من كل شىء ، وأن من معه متعطشون إلى الجنة ، وهُدِىَ إلى خطة عجيبة ، راح يخطط لها : وهى مهاجمة جيش الأمير عبد الله ، واتفقا على كيفية الهجوم .

اتفقا على تقسيم القوة إلى ثلاثة أقسام :

الأول : يهاجم مخيم الأمير عبد الله .

الثانى : ينازل القوات النظامية .

الثالث : ينتشر على الخطوط لقطع خط الرجعة عليها .

وما إن سكن الليل ، وهدأ كل شىء ، واستسلم الجيش والأمير القائد للنوم ، وإذ بخطة خالد تبدأ فى التنفيذ وإذا بالأصوات تملأ عنان السماء تنادى الجنة الجنة الجنة ، ودارت معركة رهيبة ، استخدمت فيها مختلف الأسلحة ، وكان فى مقدمتها السلاح الأبيض ، واختلط الحابل بالنابل ، وصار جنود الأمير عبد الله يضرب بعضهم بعضا فى وسط الظلام على غير هدى ، ووصل خالد بن لؤى إلى مخيم الأمير ، وأحاطوا به من كل جانب يريدون قتله ، فاستيقظ من نومه مذعوراً ، فشق له خادمه الخيمة ، وخرج منها ، وأقبل على فرس فامتطاه بملابس نومه ، وأطلق له العنان ، ولم يتوقف به العَدْو إلى أن بلغ الطائف ، وكانت نجاته من تلك المجزرة التى لم ينج منها إلا النزر القليل من رجاله أعجوبة الأعاجيب .

أما الذين نجوا من المعركة ، ومن المذبحة ، ولم يستطيعوا الفرار ، فقد التجأوا إلى

---

(١) نفس المصدر ص٦٤ .

حصن من الحصون القريبة، فهجم عليهم جيش خالد وابن بجاد فى اليوم التالى، فجعلوا خاتمة المذبحة كأولها.

تراكمت الجثث بعضها فوق بعض، ولم ينج إلا من سابق الريح، ومن انضم إلى جيش خالد، وكان أكثرهم من عتيبة، وكان عدد القتلى خمسة آلاف، بينما خسر خالد وابن بجاد من جنودهما حوالى خمسمائة، أربعمائه من رجال الغُطْغُط، ومائة من أهل تربة والخرمة.

....

تمت هذه المعركة التى قضت على كل آمال الشريف، والتى قصمت الظهر، ليلة **٢٥** شعبان **١٣٣٧هـ** على مقربة من تربة، واستولى خالد بن لؤى وسلطان بن بجاد ومن معهما على معدات جيش الشريف وذخائره، وكان أكثرها لم يزل فى صناديقه[١].

ثم وصل الإمام عبد العزيز على رأس جيشه، وكان تعداده **١٢٠٠٠** اثنى عشر الف. مقاتل بقيادته إلى تربة بعد إنتهاء المعركة، ولم يعلم بها إلا وهو فى الطريق. رأى ضحايا الواقعة، ولم يطق الإمام رؤ ية هذه المناظر الرهيبة، فقد جيفت الجثث، ولعبت برائحتها الريح، ونقلتها من مكان إلى مكان، فأطرق رحمه الله حزيناً، وتساقطت الدموع من عينيه[٢] ثم أمر بدفن الجثث، وقد حمّل الشريف نتيجة كل ما لها حدث.

....

بعد هدوء الحالة فى منطقة تربة والخرمة، واستقرار الوضع بها، إجتمع الإمام عبد العزيز بجيوشه وقواده، واستعرضوا موقف الشريف، وبينوا أنه هو الذى إعتدى، وعليه دارت الدائرة، وأن هذا النصر من الله وحده، فله الحمد فى الأولى والآخرة.

كان فى قيادة الإمام من يرى أن ساعة الخلاص من حكام الحجاز قد قربت، وأنه ينبغى الزحف إلى مكة، وكان الجنود متحمسين لإنهاء الأمر، وتخليص الأراضى المقدسة من كل دنس إلا أن الإمام عبد العزيز رأى أن الأمر يقتضى التر يث حتى يُسْمَع الصدى الذى ستأتى به هذه المعارك، وأن الاحتياط واجب، فليس المهم الآن ما عليه الشريف وإنما مَنْ هم وراء الشريف.

لقد كان الإمام رحمه الله يخاف من تدخل قوة خارجة عن المنطقة، ويرى أن ما أصاب الدعوة ورجالها من كوارث فى الماضى كان بسبب تدخل هذه القوة، وأنه يسير بتؤدة وتأن وصبر، ليفوت على الجميع أمراً قد لا تحمد عقباه، ومن هنا نرى براعة الإمام فى معرفته

---

(١) شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ح١ ص٣٢٣.
(٢) نفس المصدر ج١ ص٣٢٣.

ووعيه للتاريخ، ودراسة أحداثه، والخوف كل الخوف أن يتجمع الصليبيون مرة أخرى مع المسلمين الجاهلين بأمور الدين وتشريعاته، ولكنهم والحمد لله كانوا مشغولين بأمورهم، ففرنسا منصرفة إلى حروبها ونتائجها، وتركيا أصبحت وليس لها من الأمر شىء، أما الإنجليز الذين يهمهم أمر المنطقة، والذين يعتقد الشريف أن لهم التأثير الكبير، ويرى أنهم يستطيعون أن يمدوا له يد العون والمساعدة، فإنهم يدورون فى فلك مصلحتهم وحدها، وقد يكونون معك، ولكن حينما لا يرجون الخير منك، فإنهم سينصرفون عنك حتماً، ولقد كانوا فى طريق الانصراف عن الشريف، حينما رأوا أن التوفيق تخلى عنه.

....

لقد هال الشريف ما حدث فى تلك المأساة المروعة، وحار فيما يفعل، وأخيراً استغاث. بحلفائه الانجليز الذين أخذتهم الشفقه والرثاء لحاله، وأرادوا أن يفعلوا له شيئاً، فأرسلوا إلى الإمام هذا الكتاب.

«ترجوكم حكومة جلالة الملك ـ ملك الانجليزـ أن تعودوا إلى نجد عند وصول هذا الكتاب إلى أيديكم، وتتركوا تربة والخرمة منطقة حرة، وغير مملوكة لأحد، حتى عقد الصلح، وتحديد الحدود، وإذا لم تعودوا فإن حكومة بريطانيا تعد كل اتفاق بينكم وبينها ملغى، وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدوانية، ونأسف كل الأسف لما حصل بين أصدقائها، وكانت ترجو ألا يقع» (١).

كانت الحكمة تقضى بأن يتريث الإمام حتى تهدأ العاصفة فيتجه بجيشه إلى الرياض، وقد كان هذا ما قام به فعلاً، فأخذ طريقه إلى العاصمة، بعد أن حذر رجاله من عدم التحرك حتى تحين الفرصة وهى قريبة إن شاء الله.

حقيقة إن الذى كان يشغل الإمام الخوف من التدخل الأجنبى، ومن إثارة الرأى العام الإسلامى فى الخارج.

«إننى إذا أمنت من جانب تدخل بريطانيا فى الأمر من أجل الشريف، فما يدرينا لعلها تتدخل فيما بعد من أجل العالم الإسلامى إذا أنا بسطت نفوذى على الحرمين الشريفين، وحاولت إقامة الدين الحق، ولذلك فلا بد أن أنتظر، وأنتظر طويلاً حتى يأذن الله لى وهو خير الحاكمين»(٢)

---

(١) المتوكل على الودود عبد العزيز آل سعود.

(٢) الإمام العادل عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود ج١ ص٧٩، ٨٠.

ولكن الله مؤيده وناصره، ومن كان الله معه، فكل شيء يهون، وكل الأمور تحل بتوفيقه سبحانه وتعالى، وقد بدأ هذا التوفيق بأن أرسلت له جمعية الخلافة المعروفة بشدة تعصبها للدين، وللدولة العثمانية تطالبه بتحرير الحجاز من المظالم، وأن يعمل على عقد مؤتمر إسلامي يقرر فيه مصير البلاد.

وكان أول الغيث قطرة، استراح لها قلب الإمام، وهدأت نفسه قليلاً، وحمد الله سبحانه وتعالى، ولكنه مازال يفكر في مخرج مما قد يحدث، وإذا بالبشير يجيئه ليقول له:

«إن جيش خالد بن لؤى وسلطان بن بجاد قد دخلا مكة ملبيا طائعا كما يريد من غير إراقة قطرة واحدة من الدماء، ودون أن يلحق بأحد من جيرة بيت الله أى أذى»(١).

سجد الإمام لله شاكراً، معددا فضله عليه، وكرمه له، ثم شرع رحمه الله فى الإعداد ليتوجه إلى مكة فكتب إلى جميع ملوك المسلمين وأمرائهم يشعرهم بسفره إلى مكة المكرمة غير باغ ولا آثم، وأنه عازم على عقد مؤتمر هناك، يفكر فيما يراه كفيلا بتوطيد الأمن، ونشر السلام.

وجمع كبار قومه ومعهم العلماء، وخطب فيهم خطبته التاريخية.

بدأ الخطبة بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه.... وكان مما قاله:

«إنى مسافر إلى مكة لا للتسلط عليها، بل لرفع المظالم التى أرهقت كاهل عباد الله، إنى مسافر إلى حرم الله لبسط أحكام الشريعة وتأييدها؛ فلن يكون بعد اليوم سلطان إلا للشرع، الذى يجب أن تطأطىء جميع الرءوس له.

إن مكة للمسلمين كافة، فيجب أن يكون أمر إدارتها وتنظيمها طبق رغائب العالم الإسلامى.

إننا سنجتمع بوفود العالم الإسلامى هناك، وستتبادل معهم الرأى فى كل الوسائل التى تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية، وتحفظ راحة قاصدى حرم الله»(٢).

....

غادر الإمام عبد العزيز آل سعود الرياض يوم **١٣** ربيع الثانى عام **١٣٤٣**هـ فى موكب كبير فى طريقه إلى الحجاز، ومعه كبار القوم وعلماؤها، وألوية من أهل الحضر، وسكان الهجر، والفرحة قد عمت الوجوه، وسار الموكب على بركة الله، وجاء البريد من مكة، وهو

---

(١) شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز ج١ ص٣٣٣.
(٢) صقر الجزيرة ج٢ ص٣١٥.

على آبار المصلوم (المصلوق) مساء ٢٢ ربيع الثاني عام ١٣٤٣هـ، فأمر بفتحه في الحال - على عادته - وعُرِضَ عليه، فإذا به كتاب موقع عليه من معتمدي قناصل الحكومات البريطانية، والإيطالية، والفرنسية، والهولاندية والإيرانية، وهذا نصه: .

جده في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢٤م

إلى خالد بن لؤي، وسلطان بن بجاد.

بعد الاحترام

وصلنا كتابكما. ولا يخفا كما أن حكومتنا ملتزمه الحياد التام في الحرب بين نجد والحجاز، وعلى ذلك فنحن محايدون، ولا يمكننا التداخل بأي وجه كان في هذا الخصام، وقد أخذنا علماً بتصريحكما بأن ليس لكما نظر في رعايانا، ونؤيد مضمون كتابنا الأول المختص بهم والسلام.

....

إمضاءات (١)

وعندما انتهى من قراءة الكتاب، خر الإمام عبد العزيز ساجداً لله، ورفع رأسه يشكر الله، ثم قال: «**قد لزموا الحياد**».

يقول الزركلي:

«فعرفنا أن سبب قلقه ترقبه ما سيكون عليه موقف بعض الحكومات الأجنبية، فلما اطلع على الرسالة زال ما كان يساوره»(٢).

كانت جموع الله وعلى رأسها الإمام عبد العزيز قد وصلت إلى قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد، فأحرموا بالعمرة، وانحدر الجمع من فوق جبال الهَدى حتى كانوا بأعلى مكة، بمكان يقال له «الأبطح».

ثم امتطى الإمام عبد العزيز فرساً، وسار وسط الحشود المتراصة، والتي أتت لاستقباله، ثم دخل المسجد الحرام خاضعا خاشعا لله ملبيا، دخل من باب السلام، وطاف بالبيت. وصلى بمقام إبراهيم الخليل، ثم سعى بين الصفا والمروة، ولسانه لا يفتر عن ذكر الله وشكره، وبيان ما أولاه من فضله ونعمه. ثم جلس إلى الناس يتحدث معهم بصراحته وصدقه الذي عرف به فكان مما قاله:

---

(١) جريدة أم القرى العدد ٢ السنة الأولى، وتاريخ الحجاز ص١٥١ .

(٢) شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز ج١ ص٣٤٠ .

«. . . . . ولم يكن يخطــر على بالى أن أحضــر مكــة على هذه الصــورة، بل إننى لو رأيت فى المنام ما تم لى الآن، لما عبرت رؤياى لدى أحد المشايخ (العلماء) مخافة أن يسخروا منى، لكن فضل الله لا يحد، وهذا من محض إحسانه جل وعلا، وإكرامه لى، أسأله تعالى أن ينصر دينه، ويعلى كلمته، وأن يوفقنى للعمل بكتاب لله، وإحياء سنة سيد المرسلين إنه سميع مجيب الدعوات»(1).

ومما لا شك فيه أن هذا من فضل الله وكرمه وعطفه الذى أولاه لقائد المسيرة عبده وابن عبده الذى كان يستصغر نفسه أمام عطاء الله، وتأييده له، ولقد اثبتت الأحداث أن الله كان دائما معه موفقا وناصرا.

. . . .

كان حاكم الحجاز قد ترك مكة إلى جده، يريد أن يلعب بآخر ورقة معه، فراح يعد العده، ويجمع جيوشا، وحاول أن يعمل شيئا، لكنه لم يستطع، ولم يجد مالاً يدفعه لجنده، فثاروا عليه، وهاج الناس بجده بسبب ما وقع عليهم من النهب والسلب، وعمت جدة فوضى عظيمة، ولم يستطع الحاكم أن يسيطر عليها، فيئس، وقد ضاعت كل أمانيه (2)، فتقدم بموافقته على تسليم آخر البلاد.

أما الملك عبد العزيز فقد بقى خارج جده، وكلما طالبه جنده بالسماح لهم بدخول جده، دعاهم إلى الصبر والتؤده، وطال الحصار لجدة وعبد العزيز واثق من توفيق الله له، ويؤكد خير الدين الزركلى هذا التوفيق ببعض ما حدث فى أثناء هذا الحصار فقال:

جهز الشريف عليّ طائرة بمدفع رشاش، وكلف الطيار بأن يغير على قيادة جيش الملك عبد العزيز، ولم يكن عنده مدافع مضادة ولا مخابىء، ووصل الخبر إلى الملك عبد العزيز فقال: «وقانا الله شّرها».

وقال الزركلى مكملا:

«وحلقت الطائرة فوق الخيام، ومن فى الخيام ينظرون، وحامت حول أكبر سرادق فى المخيم، حيث يجلس عبد العزيز وخاصته، وكان الوقت قبيل الظهر، ومن فى الطائرة يرى من فى الأرض بالعين المجردة، وكان مع قائدها شاب أعرفه، روى لى من تمنى له النجاح فى مطار جدة قبل قيام الطائرة، وأنه رآه يحمل قنبلتين من اللواتى تقذف باليد وسمعه يقول: سألقيها على رأس عبد العزيز. . .

---

(1) الإمام العادل عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ج1 ص3.
(2) تاريخ الحجاز ص199.

ولم يكن بين الطائرة ورأس ابن سعود أكثر من مئات الأمتار، وقد أحكم القائد جعل السرادق هدفا له، وهيىء الرشاش واحدى القنبلتين.

ولكن التوفيق يقظ، فإذا بالقنبلة تنفجر فى الطائرة، وإذا بالنار تشتعل فى الجو، وتهوى الطائرة، ثم تصبح ومن فيها كومة من الرماد أمام خيمة عبد العزيز» . (١)

وبينما رجال عبد العزيز يواصلون الحاحهم عليه بدخول جدة، وهو يأمرهم بالتأنى والصبر وردت رسالة الملك عَلِىّ بالتسليم، وأجابه عبد العزيز بالموافقة، ورحل عن جدة والبلاد، وتم الحكم لله **ونودى بعبد العزيز فى مكة المكرمة فى ٢٢ جمادى الثانية ١٣٤٤هـ الموافق ٨ يناير سنة ١٩٢٦ ملكا على البلاد**(٢) .

كلمتان لأبى بكر وعلى

كان من دعاء خليفة رسول الله أبى بكر الصديق إذا مدحه الناس أن يقول :

«اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم اللهم أجعلنى خيرا مما يحسبون، واغفر لى، واجعلنى خيرا مما يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون» . . .

وكان أمير المؤمنين على يقول لمن يتملقه مغاليا فى مدحه :

«أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك» . . .

---

(١) شبه الجزيرة العربية فى عهد الملك عبد العزيز ج٢ ص٥٨٤ .

(٢) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص٣٩٤ .

مِن مَراحِل الدَّعوَةِ الإِسلامِيَّة في مَكّة

الدكتور جميل عبدالله المصري
أستاذ مساعد بكلية الدعوة وأصول الدين

تحتاج الأمة أية أمة وهي تتلمس طريقها نحو النهضة إلى ما يسمى بالحس التاريخي تعي فيه ذاتها وتحقق أصالتها، وأي أمة خلت من هذا الحس التاريخي هي أمة تابعة مقلدة لاهثة، لا تعي ذاتها وبالتالي لا تملك ذاتها، ومصيرها يكون إلى زوال .

والأمة العربية والإسلامية لم تتميّز ولم تعرف إلّا بالإسلام وبدعوته، والكشف عن جذور هذه الدعوة وأصالتها يجعلها أمة متميّزة شاهدة على الناس، فلا تبعية ولا تقليد ولا ذوبان في حضارة شرقية أو غربية، ويوم تعي هذه الأمة ذاتها تشمخ عملاقة تسير في دروب الخير والعطاء للإنسانية جمعاء، تمديدها لانقاذ الإنسانية من مهاوي الردى، تنير لها سبيل الخلاص، وتخرجها من الظلمات إلى النور فيصدق فيها قوله سبحانه وتعالى : ﴿**كنتم خير أمة اخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ . (سورة آل عمران : ١١٠) .

وتاريخ الإسلام هو تاريخ للدعوة الإسلامية، يتلازمان صعوداً وهبوطاً وطبيعة تاريخ الدعوة تنبع من طبيعة الدعوة الإسلامية ذاتها التي من اخصّ خصائصها الشمول والاتساع والعالمية ـ فهي لا تعترف بحدود جغرافية أو جنسية أو لغوية أو سياسية حتى في الوقت الذي تمزّق فيه المسلمون إلى دول ودويلات وإمارات ـ لم يتأثر المسلمون بهذا التقسيم بل كانوا ينظرون إلى ذاتهم كأمة دون الناس يطلقون على عالمهم دار الإسلام، يستطيع كل مسلم أن يدخل أي قطر يقيم فيه ويتخذه وطنا هويته الإسلام وجنسيته دار الإسلام .

هكذا كان المسلمون يدركون ذاتهم ويتميّزون عن غيرهم إلى أن عصفت بالمسلمين موجات الاستعمار الغربي التي حملت معها افكار القومية والتغريب والعلمانية، فبهت حسّهم التاريخي وتعثروا في تلمس انتمائهم بين يمين ويسار، ورجعية وتقدمية، وشعارات بعيدة عن ذاتهم وعن أصولهم .

ودراسة الدعوة الإسلامية فى مراحلها الأولى طريق إلى ايجاد الحس التاريخى فى هذه الأمة، وانعاشه وبلورته إلى عمل فعّال فى استثارة كوامن الطاقات الإسلامية وتجميعها وتوجيهها نحو الخير والعطاء. وسأتحدث عن ثلاث مراحل من مراحل الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة .

المرحلة الأولى : الدعوة سّراً :

بعدما نزل الوحى على الرسول ﷺ وكلفه حمل الرسالة وأمره بتبليغها بقوله : ﴿**قم فأنذر**﴾ . أخذ يدعو لدين الله فبدأت المرحلة السرية التى استمرت ثلاثة أعوام، فكان فيها ﷺ يدعو من آنس فيه الاستعداد لقبول هذه الدعوة بغضّ النظر عن سنه ومكانته وبغضّ النظر عن جنسه وأصله، فكان يدعو جميع من يتوسّم فيهم القبول والتعقل، فأسلم خلالها جماعة من ذوى العقل والرأي والنضج مثل خديجة بنت خويلد زوجه، وزيد بن حارثة مولاه، وعلى بن أبى طالب وكان صبياً، وأبو بكر وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعيد بن زيد وخالد بن سعيد بن العاص والأرقم بن أبى الأرقم وجميع هؤلاء من الأسر المتنفّذة القوية، كما كان من السابقين إلى الإسلام أغنياء وفقراء، أقوياء وضعفاء، احرار وموالى، عرب وعجم، تجار وعمال، وبعض الكتابيين امثال صهيب الرومى، والأرقاء أمثال بلال الحبشى وياسر وزوجته سمية وابنهما عمار. فالإسلام من بدايته لم يكن لفئة دون فئة من الناس ولا لجنس دون جنس أو طبقة دون طبقة، بل جاء للناس كافة، وخلاصاً للإنسانية جمعاء. قال تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ . (سورة الأنبياء : ١٠٧) .

أخذ الرسول ﷺ يعلم هؤلاء المؤمنين ما ينزل عليه من القرآن الكريم بعيداً عن أعين المشركين، واتخذ دار الأرقم بن الأرقم مركزاً لبث الدعوة فكانت أول مدرسة فى الإسلام، كان يلتقى بالمؤمنين سراً فى هذه المدرسة أو فى شعاب مكة أثناء الليل أو فى الهاجرة، فيحفظهم القرآن الكريم ويثير فيهم الفكر بالتأمل فى آيات الله والتدبر فى مخلوقاته، ويعوّدهم الصبر على الأذى ويروّضهم على الطاعة والانقياد لأوامر الله حتى خلصوا لله العلى القدير، وكان أثناء ذلك يتصل بالعرب سراً يبلغهم الرسالة (١) فاستجاب نفر غير قليل من قريش الظواهر التى كانت تتألف من بطون قريش المستضعفه وحلفائها (٢) وكان ﷺ يرسل

---

(١) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى : (ج١ ص٧٠) .
(٢) ابن هشام : السيرة : (ج١ ص٢١٨) .

لمن يدخل فى الإسلام من يعلمه القرآن ممّن اسلموا من قبل وفقهوا فى الدين، فقد أرسل مثلاً خباب بن الأرت يعلم زينب بنت الخطاب [1].

المرحلة الثانية : الدعوة جهراً :

نضج الصحابة السابقون فى الإسلام وأصبحت عقليتهم عقلية إسلامية ونفسيتهم نفسية إسلامية، وأصبح إدراكهم لصلتهم بالله بارزة آثاره على أعمالهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾. (سورة الشعراء: ١٤). فجمع ﷺ قومه من بنى عبد المطلب وكانوا يومئذ اربعين رجلاً، واتبع معهم ضروب الملاينة، وتحدث معهم فى لطف وشرح لهم الدعوة فى بساطة وعطف فقال لهم :

«إنى ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فلقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»[2].

ثم نزل قوله سبحانه وتعالى : ﴿**فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين**﴾. (سورة الحجر: ٩٤) فأظهر ﷺ الدعوة وخرج فى أصحابه إلى الكعبة فى نظام دقيق لم تعهده العرب من قبل، فطاف بهم حول الكعبة، ونادى قريشاً وابلغهم الدعوة فهتف به عمه أبو لهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا؟. فنزل قوله سبحانه: ﴿**تبّت يدا أبي لهب وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب**﴾. (سورة المسد: ١-٣). فانتقلت الدعوة من دور الاستخفاء إلى دور الإعلان، ومن دور الاتصال بمن يأنس فيهم الاستعداد إلى دور مخاطبة الناس جميعاً، فلقى المسلمون من عداوة مشركى قريش وعنتهم الشىء الكثير، ولكن الدعوة سارت فى سبيلها، ولم يرفع المسلمون سيفاً أويشرعوا رمحاً، إنما كانوا يدعون إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، يتفاعلون مع المجتمع، وتتنزل الآيات تصارع عقائد المشركين وعاداتهم وتقاليدهم دون مهادنة لزعمائهم .

كان الرسول ﷺ يصارع بدعوة الإسلام عقائد الجاهلية جاهداً لإحلال العقيدة الإسلامية محل العقائد الزائفة ببيان زيف تلك المعتقدات وسخافة عقول معتنقيها، يتلو عليهم ما ورد فى القرآن الكريم من قصص الأمم السابقة التى تشبههم فى عبادة الأوثان ليوقظ تلك العقول الجامدة لعل أصحابها يتعمقون فى التفكير، وينذرهم بالعذاب الشديد لعكوفهم على عبادة الأوثان، فكان يتلوعليهم : ﴿**إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون**﴾. (سورة الأنبياء: ٩٨) .

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام : (ج١ ص٧٨) .

(٢) البداية والنهاية ج٣ ص٢٤ .

وتعدّى الأمر ذلك إلى مهاجمة نظمهم القبلية وعاداتهم وتقاليدهم البالية التى يستمدون منها نظام حياتهم كالربا وجواز استئجار الجوارى للزنا والميسر واستشارة الكهنة والعرافين، ووأد البنات وقتل الأولاد والنسيء، وتتنزّل الآيات تحمل الردود العنيفة القاسية على زعماء قريش وسادتهم وكبرائهم واغنيائهم وطغاتهم - كقوله تعالى: ﴿**كلّا لئن لم ينتهِ لنسفعا بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، فليدع ناديه**﴾. (سورة العلق: ١٥-١٧) [١]. وقوله سبحانه: ﴿**ولا تطع كلّ حلّاف مهين، همّاز مشاء بنميم، منّاعٍ للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين، سنسمه على الخرطوم**﴾. (سورة القلم: ١٠-١٦). وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**ويل لكل همزة لمزة، الذى جمع مالاً وعدّده، يحسب أن ماله أخلده، كلّا لينبذنّ فى الحطمة**﴾. (سورة الهمزة: ١-٤).

كان الرسول ﷺ يتلو عليهم هذه الآيات ومثلها غير مبالٍ بقوتهم وضعفه وكثرتهم وقلته، جرأة فى الحق وعدم خشية أحد فيه، فكان المثل الأعلى لأصحابه الدعاة، فلم يهادنوا عظيماً ولم يراعوا فى الحقّ جباراً، ولم يغضوا البصر عن جانب من جوانب الفساد، ولم يتركوا باباً لتبليغ دعوتهم إلّا طرقوه، ولم يجدوا مسلكاً إلّا سلكوه.

مواقف قريش المضاد للدعوة الإسلامية فى مكة :

واجهت الدعوة الإسلامية من اللحظة الأولى لظهورها الوثنية وتزعمتها قريش، وبشكل خاص بعد أن اعتنق الدعوة كثير من اهل الفضل منهم ووقفوا فى سبيلها بمختلف الوسائل. ومن هذه الوسائل:

(١) اتهام الرسول ﷺ بمختلف التهم ليبعدوا الناس عنه، فكانوا يقولون: «هذا اساطير الأولين» - قال تعالى: ﴿**وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا**﴾. (سورة الفرقان: ٥).

واتهموا الرسول ﷺ بالجنون، ولم يقصدوا نعته بالجنون المرضى بل قصدوا بيان دهشتهم بما كان يتلوه عليهم فقال تعالى: ﴿**ويقولون إنه لمجنون**﴾. (سورة القلم: ٥١) وكان عمه أبو لهب يمشى وراءه، فكلما حّدثَ النبىّ أحداً. قال له: لا تصدقه فإن فيه مساً أو جنوناً[٢].

---

(١) ناديه : تعنى مجلس قومه، ولعلها دار الندوة.
(٢) البداية والنهاية : (ج٣ ص٤١).

ونعتـوا الـرسـول ﷺ بالكـاهن حيناً والكاذب المفتر ى حيناً والمتعلم المقتبس من غيره حينـاً وظلوا يكـررون ذلـك حتى آخر العهد المكيّ . قال تعالى : ﴿**وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب**﴾ . (سورة ص : ٤) . وقال سبحانه : ﴿**وقال الذين كفروا إن هذا إلاّ إفك افتراه واعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً**﴾ . (سورة الفرقان : ٥) .

ووصفـوا القـرآن بالسحر. قال تعالى : ﴿**وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلاّ سحر مبين**﴾ . (سورة سبأ : ٤٣) .

(٢) اتبعوا أسلوب الحِجاج فكانوا يحاجّون الرسول ﷺ وهو أسلوب أهل الكتاب ومن ذلك قصة النضر بن الحارث الذى حاول أن يخصم الرسول ﷺ فجاء بعظم بالٍ يتفتت بين يديه ويقول : أتزعم يامحمد أن الله يبعث هذا؟ . فأجابه محمد ﷺ : نعم ويدخلك جهنم . ونـزل قولـه تعـالى : ﴿**وضـرب لنـا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم**﴾ . (سورة يس : ٧٨-٧٩) .

ومن قوله سبحانه وتعالى يبينّ أسلوبهم فى الحجاج :-

﴿**سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ، كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟ إن تتّبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون**﴾ . (سورة الأنعام : ١٤٨) . وقوله تعالى : ﴿**وقالوا ماهى إلا حيـاتنـا الـدنيـا نمـوت ونحيـا ومـا يهلكنـا إلاّ الدهر ، وماهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنـون ، وإذا تتلى عليهم آيـاتنـا بيّنـات ما كان حجتهم إلاّ أن قالـوا ائتـوا بآبـائنا إن كنتم صادقين**﴾ . (سورة الجاثية : ٢٤-٢٥) .

(٣) **مطالبة الرسول بالمعجزات وتحدّيه** : فقد طالبوه بالمعجزات والآيات برهاناً على صدق دعـواه كما فعـل الأنبيـاء السـابقون ، قال تعالى على لسانهم : ﴿**فليأتنا بآية كما ارسل الأولـون**﴾ . (سـورة الأنبيـاء : ٥) . وقـال سبحانه : ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبـوعـا أو تكـون لك جنـة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت إلاّ بشراً رسولا**﴾ . (سورة الأسراء : ٩٠-٩٣) .

(٤) **محاولة استمالة الرسول ﷺ وإقناعه بالعدول عن الدعوة** : فقد عرض عليه زعماء قريش الملك والمال والنساء ، ارسلوا إليه عتبة بن ربيعة سيد قومه ، فذهب إليه وهويصلى فى

المسجد فقال له: «ياابن أخى، إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به احلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى. اعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها: إن كنت تريد بها جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من اموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبيب. وبذلنا فيه احوالنا حتى نبرئك منه». فقال ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟. قال: نعم. قال: فاسمع مني: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، حم، تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون**﴾. (سورة فصلت: ١-٣٨). حتى انتهى إلى آية السجدة فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد. فقام عتبة إلى أن جلس لقومه وقال: إنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . . يامعشر قريش أطيعونى وأجعلوها لى، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننْ لقوله الذى سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. فقالوا: قد سحرك يا أبا الوليد بلسانه. قال: هذا رأيى فأصنعوا ما بدالكم. فقال النضر بن الحارث: بماذا جاءنا محمد؟. واللات مامحمد بأحسن حديثا منى[1].

هكذا كان زعماء قريش يحاولون اقناع محمد ﷺ بالعدول عن الدعوة أو التنازل عن شىء منها مقابل تنازلهم عن أشياء، فكان قوله تعالى: ﴿**ودّوا لو تدهن فيدهنون**﴾. (سورة القلم: ٩). فثبت الرسول وأصحابه فى الموقف الذي لا يحتمل مساومة ولا تعدداً.

(٥) أسلوب التعذيب :

لما رأى زعماء قريش اصرار الرسول ﷺ وانتشار الإسلام توجهوا إلى مقاومة الإسلام عن طريق تعذيب العبيد والضعفاء من المسلمين ليعودوا إلى الشرك وليحولوا دون إسلام المزيد، فكان من صور هذا التعذيب أن يعرّى صدر المسلم ويطرح فوق الرمال والصخور المحرقة المتوهجة من شدة حرارة الشمس ويوضع على أجسادهم الصخور الثقيلة ويمنع عنهم الماء والطعام وتقيّد ايديهم وارجلهم بقيود الحديد ويجلدون بالسياط جلدا

(١) ابن هشام : السيرة: (ج١ ص٢٤٨).

شديدا، فزهقت أرواح بعضهم ومن بين الذين تعرضوا لمثل هذا العذاب ياسر وزوجته سمية وابنهما عمار، وبلال بن رباح وخباب بن الأرت، فكان المشركون يخرجون ياسراً وزوجه وابنه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرّها فيمرّ الرسول ﷺ فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[1]. وقد مات ياسر وهو يعذّب وأما زوجه فقد طعنها أبو جهل بحربة فقتلها[2]. وكان بلال يخرجه مولاه ويأمره أن يستلقى على الرمّل المتّقد تحت الشمس المحرقة فى الصحراء ثم يضع قطعا ثقيلة من الحجارة على صدره، ويبقى على هذه الحال إلى أن يُغشي عليه وهو يقول: «أحد. أحد» لايزيد على كلمة التوحيد، وقد ضرب المسلمون مثلاً خالداً للتمسّك بالعقيده وتحمّل أنواع الأذى والتضحية بالنفس، وكان بعضُ المسلمين الاغنياء وخاصة أبو بكر يشترون الأرقاء المضطهدين من مالكيهم وينقذونهم من الاضطهاد.

ثم خطا المشركون خطوة أخرى فى التعذيب فأخذوا يعتدون على المسلمين جميعاً ودون تمييز حتى شمل الاعتداء ذوي الثراء والوجاهة والقوة كأبى بكر وعثمان والزبير وطلحة وأبي عبيدة وعثمان بن مظعون، فقد شدّ نوفل بن خويلد وكان يسمى (أسد قريش) أبا بكر وطلحة القرشيين بحبل واحد، فسميا ـ القرينين[3]. وعذب أبو أحيحة ابنه خالد بن سعيد ابن العاص، فكان يضربه بقراعة فى يده حتى يكسرها على رأسه ثم يأمر بحبسه ويضيّق عليه ويجيعه ويعطشه حتى لقد مكث فى حرّ مكة ثلاثاً ما ذاق ماء[4].

ونتيجة لتعرض المسلمين جميعاً للعذاب أذن رسول الله ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة فى السنة الخامسة من بعثته، واختياره للحبشة يعود لشخصية النجاشى اصحمة بالذات لعدله، خلافاً لما يراه المستشرقون بأن الإذن بالهجرة كان لكون الحبشة على صلة ببيزنطة بانين ذلك على ما ورد فى سورة الروم من تنبؤ بنصر الروم على الفرس، وخلافاً لما ذهب إليه الأستاذ الكبير الصعيدى من أن الإسلام كان ناشئاً ولم تفسد السياسة بعد بينه وبين النصرانية فآثر المسلمون مصافاتها على مصافاة أعدائهم من مشركى قريش[5]. والأمر واضح فى قوله ﷺ لأصحابه:

---

(١) ابن الأثير: (ج٣ ص٣٠).
(٢) انظر ابن هشام: السيرة: (ج١ ص١٧٢-٢٠٢):
(٣) البداية والنهاية: (ج٣ ص٢٩).
(٤) انظر تاريخ الطبرى: (ج٢ ص٣٢٣-٣٢٦).
(٥) السياسة الإسلامية فى عهد النبوة: (ص٥١).

«لـو خرجتم إلى أرض الحبشـة فإن فيهـا ملكـاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق حتى يجعـل الله لكم مخرجـاً مما أنتم فيـه»(١). وقوله كما فى اليعقوبى : «ارحلوا مهاجرين إلى أرض الحبشة إلى النجاشى فإنه يحسن الجوار»(٢).

فتسلل بعض المسلمـين مهـاجـرين، ومـع الذين هاجروا جعفر بن أبى طالب، وقد يكون ندبه الرسول ﷺ ليكون وكيله فى المهاجرين ورسوله إلى ملك النجاشى، وبنو هاشم كانـوا ينصـرون النبى ﷺ مع احتفـاظ أكثـرهم بدينه وكان رئيسهم فى ذلك أبو طالب الذى تولى قيادة النصرة والتعصب للنبى ﷺ وجعفر هو ابنه .

(٦) تهديد الرسول ﷺ بالكف عن دعواه والعدوان عليه :

حين باءت أسـاليب مقـاومـة كفـار قريش بالفشـل لجأوا إلى عمـه أبى طالب وقـال زعماؤهم : يا أبا طالب إن ابن اخيك قد سبْ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه احلامنا، فإما أن تكفّه عنـا وإمـا أن تخلّى بيننـا وبينـه . فردّهم أبو طالب ردّاً جميلا دون أن يتوقف ﷺ عن نشاطه أو يتهـاون فى الـدعـوة، فعاودوا الكرة وخاطبوا أبا طالب بلهجة المتوعد المهدد وأنهم لن يصبروا على هذا الحال، وخيّروه بين أن يمنعه عمّا يقول أو ينازلوه وإياه حتى يهلك أحد الطرفين، فعظم الأمر على أبى طالب فكلّم محمداً ﷺ بما جاء به إليه قومه وقال له :

«يـاابن أخى، إن قومـك جاءونى وقـالـوا لى كذا وكـذا، فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمـر مالا أطيق» . فكـان ردّ المبلّغ الـداعيـة إلى الحقّ الـذى يحمل نفساً أبيّة لا تعرف الذل ولا تنحنى للوهن، ينظر إلى خصمه من علٍ لأنه يستمد القوة من عزيز حكيم، ينظر إلى زخارف الدنيا وكأنها أوراق الخريف تتطاير فى الهواء، ويحتقر أبهة المشرك وعظمته، يستعلى على الدنيا بإيمانه، فهو على الحق وان لقى العنت الشديد . قال ﷺ : «والله ياعم، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه»(٣). فطمأنه أبو طالب ووعده الاستمرار فى حمايته . فعاد زعماء قريش إلى أبى طالب يعرضون عليه عمارة بن الوليد اوسم شباب قريش ليسلموه إليه على أن يسلمهم محمداً ﷺ فردهم ساخـراً بقـولـه : «بئس ما تسـومـوننى، اتعطونى ابنكم اغذوه لكم، واعطيكم ابنى تقتلونـه !! . »(٤). فاتجـه بعضهم إلى انـزال الأذى بالـرسـول ﷺ مبـاشـرة، قال الهيثمى -

---

(١) ابن هشام : السيرة : (ج١ ص٣٤٣)- الكامل : (ج٢ ص٣٢٧) .
(٢) اليعقـــوبى : تاريخ : (ج٢ ص٢٩) .
(٣) ابن هشـــام : السيرة : (ج١ ض٢٧٨) .
(٤) ابن هشام : (ج١ ص٢٧٧-٢٧٩) الطبرى : (ج٢ ص٣٢٧) طبقات ابن سعد : (ج٤ ق١ ص٦٨) .

ورجاله ثقات ـ عن منبت الأزدى. قال: رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية وهويقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا، فمنهم من تفل فى وجهه ومنهم من حثا عليه التراب ومنهم من سبه حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعسّ من ماء، فغسل وجهه ويديه وقال: «يابنيّة لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة»(١). ومن الذين اشتدوا فى ايذائه ﷺ: أبوجهل عمروبن هشام، وأبولهب عمه، وأم جميل زوجة أبى لهب، وعقبة بن أبى معيط، ولكنّ إسلام حمزة ثم عمر بن الخطاب كفّ القرشيين عن بعض ما كانوا ينالون به الرسول ﷺ من أذى خوفاً منهما. وفى أثناء ذلك استمر القرآن الكريم يردّد مشاهد الشدة والعنف مع المشركين يندّد بهم وينذرهم بسوء المصير، ويصبّر الرسول ﷺ والمسلمين ويعدهم بالنصر والتأييد وحسن العاقبة.

أسلوب المقاطعة:

ازداد حنق المشركين من قريش إزاء صبر الرسول ﷺ والمسلمين على الأذى والتعذيب واصرارهم فى المضى بالدعوة وإزاء فشو الإسلام فى القبائل، فاجتمعوا وائتمروا وقرروا مقاطعة المسلمين وبنى هاشم دون أبى لهب، فلا يتزوجون منهم ولا يزوّجونهم، ولا يبيعون لهم شيئاً ولا يشترون منهم، وتعاهدوا وتواثقوا على ذلك، وعلقوا صحيفة المقاطعة بالكعبة(٢). فاضطر بنوهاشم وبنوعبد المطلب إلى النزوح إلى شعب أبى طالب شرقى مكة، وقطعت عنهم قريش كل أنواع المؤن، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بغيرهم من الناس إلاّ فى الاشهر الحرم حين يفد العرب إلى مكة لزيارة البيت الحرام. وبلغ بهم الجهد حدّاً لا يطاق، فذاقوا الجوع والحرمان حوالى ثلاث سنوات لا يصل إليهم القوت إلاّ خفية.

وأخيراً أخذت الحمية والرأفة نفراً من القرشيين منهم: هشام بن عمروبن الحارث العامري، وزهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومي، والمطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وأبو البخترى ابن هشام، والأسود بن عبد المطلب بن أسد، وتعاهدوا على نقض الصحيفة رغم اعتراض أبى جهل، وخرجوا إلى بنى هاشم وبنى عبد المطلب وطلبوا منهم العودة إلى منازلهم وشقوا الصحيفة فوجدوا الأرضة قد أكلتها إلاّ ما كان من: بسمك اللهم، وهى فاتحة ما كانت تكتب قريش(٣).

---

(١) الكاندهلوى: حياة الصحابة: (ج١ ص٢٨٩).
(٢) الطبرى: (ج٢ ص٧٤) ابن هشام: (ج١ ص٢٣١).
(٣) الطبرى: (ج٢ ص٨٠) ابن هشام (ج١ ص٢٣١).

المرحلة الثالثة : عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل :

فقد الرسول ﷺ بعد المقاطعة بقليل عمه أبا طالب وزوجه خديجة فخسر نصيرين كبيرين، وتألم لفقدهما، فسمي ذلك العام بعام الحزن(١). وأدرك ﷺ أن مجتمع الشرك فى مكة وصل مرحلة التحجر فلا تجدى الدعوة فيه، فأخذ يتلمسّ النصرة من قبائل العرب، فكان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول: يابنى فلان: إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وان تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبينّ عن الله ما بعثنى به(٢).

عرض الرسول ﷺ نفسه على بنى عامر بن صعصعة وغسان وفزارة وبنى مرة وبنى حنيفة وبنى سليم وبنى عبس وبنى نصر وكندة وكلب وبنى الحارث بن كعب وبنى عذرة، دون مساومة .

فقد دعا بنى شيبان بن ثعلبة فقال لهم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنى رسول الله، وأن تؤوونى وتمنعونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله ما أمرنى به». فقال له المثنى بن حارثة: ولعل هذا الأمر الذى تدعو إليه تكرهه الملوك، فأما ما كان مما يلى بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور وعذره مقبول، وأما ما كان مما يلى بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك مما يلى بلاد العرب فعلينا. فأجابه رسول الله ﷺ بحزم لا يقبل المساومة: «ما اسأتم الردّ إذا أفصحتم بالصدق. إنه لا يقوم بدين الله إلاّ من حاطه من جميع جوانبه»(٣).

وقال له أحد بنى عامر بن صعصعة: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟. فقال ﷺ: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»(٤).

وذهب ﷺ إلى الطائف يتلمسّ نصرة ثقيف فاتصل بسادتها واشرافها ودعاهم إلى عبادة الله وإلى نصرته فلم يجيبوه وخافوا على أحداثهم أن يتأثروا بدعوته، فأمروه بالخروج من بلدهم، واغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به، وقد اصطفوا على جانبى الطريق على مسافات طويلة فى داخل المدينة، فلما مرّ من بينهم جعلوا يرشقونه بالحجارة حتى أدموا

---

(١) ابن هشام : (ج١ ص٤١٦) .
(٢) حياة الصحابة : (ج١ ص٧١) اليعقوبى : (ج٢ ص٣٦) .
(٣) حياة الصحابة : (ج١ ص٧٤-٧٥) .
(٤) الطبرى : (ج٢ ص٨٤) .

قدميه، حتى إذا وصل شجرة فاستظل بظلها اتجه إلى ربه سبحانه يستمدّ منه القوة والعون ودعاء قائلاً :

«اللهم إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالى»(١) .

ورجع الرسول ﷺ إلى مكة فوجد قومه يقفون له بالمرصاد، ليمنعوه من دخول مكة، فاستجار بالمطعم بن عدي فأجاره، وتسلح هو وبنوه لحمايته حتى دخل مكة وطاف بالبيت ثم انصرف إلى منزله في حراسة المطعم واولاده ليعود إلى الكفاح من جديد وليستأنف تبليغ الدعوة في ذلك الجو العاصف المليء بالأخطار والمخاوف. فامتدت له يد الرحمن بالرحمة والخير والحنان وأحتضنت العناية الإلهية محمداً ﷺ لترتفع به إلى اسمى مكان، فاسري به من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، ثم عرج به من الصخرة المشرفة إلى سدرة المنتهى بجسده وروحه حيث فرضت الصلوات الخمس، واطّلع على جوانب الإعجاز الإلهى في الكون الكبير. قال تعالى: ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير**﴾. (الأسراء: ١) .

وبحادثة الأسراء والمعراج تأكد الرباط المتين الذى يشدّ البلدين مكة والقدس إلى بعضهما، حيث انطلق الأنبياء على مدار القرون يدعون إلى عبادة الله الواحد ورفض الأصنام والطواغيت، ففى مكة حيث أقام إبراهيم أبو الأنبياء وابنه إسماعيل - عليهما السلام - أول بيت وضع للناس لعبادة الله على الأرض، وفى القدس حيث انبعثت نبوات متتالية تكافح من أجل تعزيز دعوة إبراهيم، حيث اجتمع هؤلاء الأنبياء الكرام فى صلاة جماعية أمهّم فيها خاتمهم تعبيراً عن الدور الذى جاءوا إلى العالم لأدائه، واتجاهاً إلى الهدف الواحد الذى بعثوا لتحريك الناس إليه، وسجوداً لله الواحد الذى كرم الإنسان وشرّفه بالدين .

لقد سرّت الحادثة عن رسول الله ﷺ وايقن بنصر الله، وزادت من إيمان المؤمنين المخلصين من أصحابه، فاستمرّ يقدم نفسه إلى قبائل العرب فى موسم الحج، ويدعوهم إلى الله والإسلام ويقول: «من رجل يحملنى إلى قومه فيمنعنى حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى(٢).

وكانت قد لاحت بشائر النصر حين التقى ﷺ بستة من الخزرج من عرب يثرب التى انهكتها المنازعات القبلية ودسائس اليهود، فحدّثهم ﷺ عن دعوته وبيّن لهم أسس الدين

(١) البداية والنهاية : (ج٣ ص١٣٦) .
(٢) المقريزى : امتاع الاسماع : (ج١ ص٣٠) .

فاستجابوا له وقبلوا ما عرض عليهم من الإسلام ووعدوه أن يحدّثوا قومهم ، وقالوا : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجل أعز منك . »[1] .

وفى موسم الحج فى السنة الحادية عشرة من بعثته ﷺ قدم اثنا عشر رجلاً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، قابلهم الرسول ﷺ عند العقبة بمنى وبايعوه على الإسلام بيعة العقبة الأولى ، وسميت بيعة النساء لأنها لم تكن بيعة على القتال وإنما أخذاً للعهد والميثاق على الشروط التى ورد ذكرها فى سورة الممتحنة قال تعالى : ﴿**يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وارجلهن ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهنّ وأستغفر لهنّ الله ، إن الله غفور رحيم**﴾ . (سورة الممتحنة : ١٢) .

وأرسل ﷺ معهم مصعب بن عمير معلماً ومرشداً ، يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فأنتشر الإسلام فى يثرب وغزا كل بيت[2] . إما إيجاباً أو قبولاً أو رفضاً ومناهضة فتفاعلت الدعوة مع مجتمع يثرب تفاعلاً قوياً وتهيأت يثرب لتكون نقطة ارتكاز للدعوة تمهيداً لانطلاقها إلى شبه الجزيرة ثم العالم .

وفى موسم الحج التالى وفد مصعب إلى مكة ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من المسلمين ، واعلمه أن يثرب أصبحت جاهزة لتتلقى رسول الله ﷺ وان الغرس نما واشتد وبدأ يعطى ثماره ، واجتمع الرسول ﷺ بمسلمى يثرب اجتماع العقبة الثانية ليلاً وسرّاً بعيدا عن عيون قريش وعرض عليهم شروطه التى رآها ضرورية للدعوة والضمانات الضرورية ليترك مكة وينتقل إلى يثرب ، فكانوا على استعداد أن يمنعوه ما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم ، وأن يحاربوا معه الأسود والأحمر وأن ينصروه على القريب والبعيد وشرط لهم الوفاء بذلك والجنة[3] . فقال له أحدهم : يارسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً (يقصد عهودهم مع اليهود) وإنّا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ . فتبسّم الرسول ﷺ ثم قال : «بل الدم الدم ، والهدم الهدم ،

---

(١) ابن هشام : السيرة : (ج١ ص٤٢٩) .
(٢) الطبرى : (ج٣ ص٦٠) .
(٣) اليعقوبى : تاريخ : (ج٢ ص٣٨) .

أنا منكم وأنتم منى ، احارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»[1] . وطلب منهم أن يخرجوا من بينهم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم فأخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، وبايعوا الرسول ﷺ بيعة العقبة الثانية التى مهّدت لهجرة المسلمين إلى يثرب .

كانت زعامات قريش المشركة تدرك أبعاد اتصال الرسول ﷺ بالقبائل وبخطر ذلك على كيانها وعقيدتها وزعامتها الدينية والسياسية فكانت تعمل للحيلولة دون هذه الاتصالات ، وكان الرسول ﷺ يدرك قوة قريش وتزعمها للعرب وقوة تأثيرها ، ولذلك احاط اتصالاته هذه بمنتهى السرّية ، ورغم ذلك فقد تسللت الأخبار إلى قريش فجاء وفد منهم إلى اليثربيين وتهدّدوهم ، فحلف لهم عبد الله بن أبى أنه لا علم له بذلك ، وكان لا يعلم بالفعل ، وتعقب بعض قريش مسلمى يثرب وقبضوا على بعضهم وضربوهم وعذبوهم[2] .

بدأت بيعة العقبة الثانية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية فأذن الرسول ﷺ لأتباعه بالهجرة قائلاً : «إن الله عزوجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها» [3] . فأخذ المسلمون يتجهزون بسرعة وفى ستر وخفية ، فخرجوا جماعة بعد جماعة وفرادى ، وأخذت مكة تقفر من المسلمين يوماً بعد يوم ، وزعماء قريش يلحظون ذلك والغيظ يملأ قلوبهم وقد خرج الأمر من أيديهم ، حتى لم يبق فى مكة من المسلمين غير الرسول ﷺ وأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب ، فلجأوا إلى آخر سهم ليسددوه إلى الدعوة الإسلامية فى قلبها وصميمها ، للقضاء على محمد ﷺ نفسه ، فى الوقت الذى كان يعدّ للهجرة واللحاق بالمسلمين .

اجتمع مشركو قريش فى دار الندوة فتشاوروا فى أمر الدعوة الإسلامية ففكروا فى ثلاث وسائل وهى : حبسه ﷺ أو اغتياله أو نفيه . قال تعالى : ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**﴾ . (سورة الأنفال : **٣٠**) . واتفق رأيهم أخيراً على قتله شريطة اشتراك شبان من مختلف بيوتات قريش حتى يتوزع دمه فلا يستطيع آله المطالبة بدمه .

علم الرسول ﷺ بذلك فخرج من داره ليلاً بعد أن ترك علياً ليقوم بتأدية الأمانات ، وشق طريقه مع صاحبه أبى بكر - رضى الله عنه - إلى المدينة المنورة لتتشرف باستقبال رسول الله ﷺ وتبدأ الدعوة مرحلة جديدة مليئة بالكفاح والنضال والجهاد .

---

(١) ابن هشام : (ج٢ ص٤١٢) .
(٢) ابن هشام : (ج١ ص٤٦٨) .
(٣) ابن هشام : (ج٢ ص٧٦) .

وقد يتساءل المرء عن استجابة يثرب لدعوة الإسلام وللإجابة على ذلك :

كان نشاط الأوس والخزرج الاقتصادى والسياسى قد اتسع ، فلجأ اليهود إلى الدسّ والوقيعة بينهما وأخذوا يحالفون القبيلة المهزومة على المنتصرة حتى تضعف شوكتها فيحتفظون بالسيادة واحتكار الموارد الاقتصادية ، وكانت يوم بعاث آخر حرب عنيفة بين الأوس والخزرج فشعر الفريقان بالخطر فاتفقا على أن يضعا حدّاً لهذه المآسى ، وشعر اليهود مقدار الخطر الذى يهدد مصالحهم من جرّاء هذا التقارب فاتبعوا أسلوب الدسّ الذى برعوا فيه وتمكنوا أن يرشّحوا عميلهم عبد الله بن أبى ، ليكون ملكاً على الأوس والخزرج .

ولا ريب أن بعض المستنيرين من الأوس والخزرج أدركوا ما ينطوى عليه تتويج عبد الله من محافظة على مصالح اليهود حلفائه فأسرعوا لتصديق الرسول ﷺ لانقاذهم فبايعوه .

كما كان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح[1] . المخلص الذى ينتظر اليهود عودته فكان اليهود يستفتحون به على الأوس والخزرج بقولهم : إن نبيّاً الآن مبعوث قد أطلّ زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم ، فسارع الأوس والخزرج لتصديق الرسول ﷺ ، فقد قال النفر الذين بايعوه بعضهم لبعض : تعلمنّ والله أنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه»[2] .

وقد ارجع جورجى زيدان أسباب انتشار الإسلام فى يثرب إلى كثرة من فى المدينة من اليهود وهم أهل كتاب يعتقدون الوحى ويدركون معنى النبوة ، وليس فيهم من يخاف على تجارته إذ ابطلت عبادة الأصنام ، بل هم يفضلون إبطالها لتسقط مكة وتنهض مدينتهم وخصوصاً إذا هاجر إليها صاحب الدعوة نفسه وصارت مركزاً للدين الجديد[3] . وكأن جورجى يحاول أن يثبت ان الذين استجابوا لدعوة الإسلام كانوا من اليهود ، وواضح أن ذلك بعيد عن الحقيقة ومجافٍ لها فاليهود أول من وقف فى وجه الدعوة الإسلامية ، كما أن نص الطبرى السابق يوضح أن استجابة الأوس والخزرج كانت بناءاً على قناعتهم بصحة ما حدثهم به اليهود .

كما حاول جورجى أن يرجع الاستجابة إلى أثر العصبية الجاهلية فيقول : ناهيك بها

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام : (ص٤٢) .

(٢) الطبـرى : (ج٢ ص٣٥٤) .

(٣) التمدن الإسلامى : (ج١ ص٤٨) .

كان بين تينك المدينتين من المنافسة والمسابقة والتحاسد لتباعدهما فى الانساب ، لأن أهل مكة من العدنانيين وأهل المدينة من القحطانيين . . . (١)

ولسنا نريد تفنيد هذه المزاعم فهى واهية ويكفى أن نذكر من مظاهر العلاقة الحسنة بين المدينتين المصاهرات التى تمت بين قريش وأهل المدينة ، ثم محاولات الأوس قبل بعاث أن تستنجد بقريش ضد الخزرج فرفضت قريش حتى لا ترضى فريقاً دون آخر .

والحق ان استجابة الأوس والخزرج للإسلام كانت لحسن أدراك الزعماء فيهما لدعوة الإسلام نكاية باليهود ، ومحاولة للتخلص من استغلالهم الاقتصادى وللتخلص من فتنهم ودسائسهم ومن حليفهم الذى رشحوه لحكم المدينة ، ثم لا ننس أسلوب الرسول ﷺ فى عرض دعوته عليهم واجتذابهم . وإذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه .

●●●●●●●●●●●●●●●●

رسول الله ﷺ يربى أصحابه

كان ﷺ فى سفر فأمر بذبح شاة ، فقال رجل : يارسول الله علىّ ذبحها ، وقال آخر : علىّ سلخها ، وقال ثالث : على طبخها ، فقال ﷺ : «وعلىّ جمع الحطب» .

قالوا : يارسول الله نحن نكفيك ذلك . فقال : قد علمت ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه ، وقام ﷺ فجمع الحطب .

---

(١) نفســـه : (ج١ ص٤٨) .

العهدة العمرية

الدكتور شفيق جاسر أحمد محمود
رئيس قسم التاريخ بالجامعة

مناقشة نص كتاب الصلح الذي قيل إن عمر بن الخطاب قد منحه لأهل القدس

كان من عادة المسلمين أن **يمنحوا أهل الذمة**، في المدن التي يفتحونها صلحاً، عهوداً **يتعهدون** بموجبها، حمايتهم ومنحهم حرية العبادة وممارسة حياتهم المعتادة، مقابل دفعهم الجزية والدخول في طاعة المسلمين.

وقد تفاوتت هذه العهود في الشروط التي اشترطتها عليهم، والحقوق والامتيازات التي ضمنتها لهم. حتى أن نصوص العهد الواحد قد رويت بصيغ مختلفة. وقد كان التحريف أو التزوير يحدث من قبل أهل الذمة أنفسهم، طمعاً في اكتساب حقوق جديدة إضافه إلى الحقوق التي منحهم إياها المسلمون، او تخفيفاً لبعض الشروط التى اشترطها المسلمون عليهم. وهم فى هذا متأكدون بأن ذلك سينطلي على المسلمين، في **الأغلب**، ذلك أن المسلمين، في ذلك العهد المبكر، لم يكونوا يحتفظون بنسخ من هذه العهود، حتى أن بعض أهل الذمة قد وضعوا عهوداً ليسّ لها **أصول** على الاطلاق، وفي بعض الأحيان كان النصارى خاصة **يحرفون في عهودهم** عندما يلمسون ضعفاً من المسلمين فى بلادهم.

ومن العهود المشهورة التى شغلت المؤرخين والباحثين زمناً طويلاً (العهدة العمرية) وهو الاسم الذي أطلق على العهد الذي قيل إن الخليفة العادل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قد منحه لأهل القدس حينما جاء لتسلمها من بطريركها صفرونيوس **في العام الخامس عشر للهجرة!!؟**.

ومن الغريب أن المصادر الإسلامية الأولى لم تشر إلى ذلك العهد، فأول مصدر إسلامي اشار إليه هو اليعقوبي، ثم أورده من بعده ابن البطريق وابن الجوزي، والطبري، ومجير الدين العليمي، وأورد فيما يلي مجموعة الروايات المختلفة التى وردت فى هذه المصادر التاريخية لهذا العهد.

١ — نص اليعقـوبي

أورد اليعقـوبي المتـوفى عام ٢٨٤هـ ، نصـاً مختصـراً لهذا العهـد جاء فيـه : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم ، لا تسكن ولا تخرب ، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً . وأشهد شهوداً»[١] .

٢ — نص ابن البطريق

وقد أورد أفتيشيوس (ابن البطريق) المتوفى سنة ٣٢٨هـ ، صيغة تشبه صيغة اليعقوبي جاء فيـه : «بسم الله ، من عمـر بن الخطـاب لأهـل مدينـة إيليـاء ، إنهم آمنون على دمائهم وأولادهـم وأموالهم وكنائسهم ، لا تهدم ولا تسكن . » واشهد شهوداً[٢] .

٣ — نص ابن عساكر

أورد ابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ عهد عمر على صيغة شروط وضعها أهل الذمة على أنفسهم في كتاب وجهوه للخليفة عمر بن الخطاب عندما جاء إلى الشام وهذا نصه :ـ «عن عبد الله بن غنم أن عمر بن الخطاب كتب له النصارى حين صالحوه عهدا يقولون فيه :

بسم الله الـرحمن الـرحيم ، هذا كتـاب لعبـد الله عمـر أمير المؤمنين من نصارى أهل الشـام إنكم لما قدمتم علينـا سألنـاكم الأمـان لأنفسنـا وأهالينا وأموالنا وأهل ملتنا ، على أن نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون ، وعلى ألا نمنع أحداً من المسلمين أن ينزل كنائسنا في ليـل أونهار ، ونضيفهم فيهـا ثلاثـاً ، ونطعمهم الطعـام ونـوسع لهم أبوابها ، ولا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضرباً خفيفاً ، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة ، ولا نؤ وي فيها ولا فى شيىء من منـازلنـا جاسـوساً لعدولكم . ولا نحدث كنيسة ولا ديراً ولا صومعة ولا قلاية . ولا نجدد ما خرب منها ، ولا نقصد الاجتماع فيما كان منها من خطط المسلمين وبين ظهرانيهم ، ولا نظهر شركـاً ولا ندعـوا إليـه ، ولا نظهـر صليبـاً على كنـائسنـا ، ولا في شيىء من طرق المسلمـين وأسواقهم ، ولا نتعلم القرآن ، ولا نعلمه أولادنا ، ولا نمنع أحداً من ذوي قراباتنا الدخول في الإسلام إذا أراد ذلك ، وأن نجز مقادم رؤ وسنا ، ونشد الزنانير في أوساطنا ، ونلزم ديننا ، ولا نتشبه بالمسلمين في لباسهم ولا في هيئتهم ، ولا في سروجهم ، ولا في نقش خواتيمهم فننقشها نقشـاً عربيـا ، ولا نتكنى بكنـاهـم . وعلينـا أن نعظمهم ونـوقـرهـم ، ونقوم لهم من مجالسنا ، ونرشدهم في سبلهم وطرقاتهم ، ولا نطلع في منازلهم ، ولا نتخذ سلاحاً ولا سيفاً ، ولا نحمله في حضـر ولا سفـر في أرض المسلمـين ، ولا نبيـع خمراً ولا نظهرها ، ولا نظهر ناراً مع موتانا في

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ح ٢ ، ص ٤٦ .

(٢) ابن البطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، ح ٢ ، ص ١٤٧ .

طريق المسلمين، ولا نرفع أصواتنا مع جنائزهم، ولا نجاور المسلمين بهم، ولا نضرب أحداً من المسلمين، ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهامهم. شرطنا ذلك كله على أنفسنا وأهل ملتنا. فإن خالفنا فلا ذمة لنا ولا عهد، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل الشقاق والمعاندة»[(١)] .

وذكر مجير الدين المتوفى سنة ٩٢٧هـ أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما جيء إليه بهذا الكتاب زاد فيه «ولا نضر بأحد من المسلمين. شرطنا لكم ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا شيئاً مما شرطنا لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا.». وأضاف مجير الدين بأن هذا العهد قد رواه البيهقي أيضاً واعتمده أئمة المسلمين والخلفاء الراشدون وعملوا به[(٢)] .

٤ — نص ابنِ الجوزي

أورد ابن الجوزي المتوفي فى عام ٥٩٧هـ ما يلي: «كتب عمر (بن الخطاب) لأهل بيت المقدس إني قد أمنتكم على دمائكم وأموالكم وذراريكم وصلاتكم، وبيعكم، لا تكلفون فوق طاقتكم. ومن أراد منكم أن يلحق بأمته فله الأمان. وأن عليكم الخراج كما على مدائن فلسطين»[(٣)] .

٥ — نص الطبري ومجير الدين العليمى المقدسى.

أوردَ مجير الدين العليمى المقدسى المتوفي سنة ٩٢٧هـ نصاً منقولاً عن نص الطبري، الذي أسنده لسيف عن أبى حازم وأبي عثمان عن خالد وعبادة، بأن عمر بن الخطاب صالح أهل ايلياء بالجابية وكتب لهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر، أهل ايليا من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم ومقيمها وبريئها وسائر ملتها، انها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدها ولا من صلبانهم، ولا شيىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بايليا معهم أحد من اليهود، وعلى أهل ايليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن (يقصد مدن فلسطين)، على أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله

---

(١) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص ١٧٩. انظر مجير الدين: ح ١، ص٢٥٤. الطبري: ح٣ ص ٦٠٩. شذرات الذهب، ح ١، ص ٢٨ ذكر ان عقد الصلح كتب على جبل الطور بالقدس.

(٢) مجير الدين: الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ح ١، ص ٢٥٥. انظر جرجى زيدان، ح٤ ص١٠٩. تاريخ العرب.

(٣) ابن الجوزي: فضائل القدس، ص ١٢٣-١٢٤.

حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعتهم وصليبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعتهم وصليبهم حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان فيها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على ايليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أرضه، فإنه لا يؤخذ منه شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليه من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. كتب وحضر سنه خمس عشرة[1].

٦ـ النص المعتمد حاليا

وآخر هذه النصوص، النص المعتمد حالياً لدى كنيسة القدس الارثوذكسيه والذي نشرته بطريركية الروم الارثوذكس عام **١٩٥٣**م، وهو الأساس الذي ينظم العلاقه بين السطات الاسلامية الحاكمه للقدس، والنصارى فيها. وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي اعزنا بالإسلام، واكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه ﷺ، وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات والف قلوبنا، ونصرنا على الاعداء، ومكن لنا من البلاد، وجعلنا إخواناً متحابين، واحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة.

هذا كتاب[2] عمر بن الخطاب لعهد وميثاق اعطي إلى البطرك المبجل المكرم وهو صفرونيوس بطرك الملة الملكية في طورزيتا بمقام القدس الشريف في الاشتمال على الرعايا والقسوس والرهبان والراهبات حيث كانوا واين وجدوا، وأن يكون عليهم الأمان، وان الذمي إذا حفظ احكام الذمة وجب له الأمان والصون منا نحن المؤمنين وإلى من يتولى بعدنا وليقطع عنهم أسباب جوانحهم كحسب ما قد جرى منهم من الطاعة والخضوع، وليكن الأمان عليهم وعلى كنائسهم وديارهم وكافة زياراتهم التي بيدهم داخلاً وخارجاً وهي **القمامه** وبيت لحم مولد عيسى عليه السلام كنيسة الكبراء، والمغاره ذي الثلاثة أبواب، قبلي وشمالي وغربي، وبقية أجناس النصارى الموجودين هناك، وهم الكرج والحبش، والذين

(١) مجير الدين: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ح ١ ص ٢٥٣.

(٢) لديّ نسخه مطبوعه عام **١٩٥٣** نشرتها بطريركيه الروم الارثوذكس بالقدس، وفي اعلاها صورة للخليفة عمر بن الخطاب يقود جملاً يركبه خادمه امام اسوار القدس التى وقف عليها النصارى يشاهدون هذا النظر، وصفرونيوس يتقدم لاستقبال الخليفه.

يأتـون للزيـارة من الافـرنـج والقبـط والسـريـان والارمن والنساطره واليعاقبة والموارنة تابعين للبطرك المذكور. يكون متقدماً عليهم لانهم اعطوا من حضره النبي الكريم والحبيب المرسل من الله وشـرفـوا بختم يده الكريم، وامر بالنظر اليهم والأمان عليهم، كذلك نحن **المؤمنون** نحسن إليهم اكـرامـاً لمن أحسن إليهم، ويكـونوا معافاً **(معافيين)** من الجزية والغفر **(الخفر)** والمـواجب، ومسلمـين من كافـة البـلايـا في البر والبحور وفي دخولهم للقمامة وبقية زياراتهم لا يؤخـذ منهم شيء. وامـا الـذين يقبلون إلى الـزيـارة إلى القـمامه، يؤدي النصراني إلى البطرك درهم (درهما) وثلث من الفضه، وكل مؤمن ومؤمنة يحفظ ما أمرنا به سلطاناً كان أم حاكماً والياً يجرى حكمه في الأرض غني أم فقير من المسلمين المؤمنين والمؤمنات. وقد أعطى لهم مرسومنا هذا بحضور جم الصحابه الكرام، عبد الله، وعثمان بن عفان وسعد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وبقية الأخوة الصحابه الكرام. فليعتمد على ما شرحنا في كتابنا هذا ويعمل به، وابقاه في يدهم، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد واله واصحابه، والحمد لله رب العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل.

في العشـرين من شهـر ربيـع الأول سنـة خامس وعشـر للهجـرة النبـويـة. وكـل من قرى(قـرأ) مرسـومنـا هذا من المؤمنين وخالفه من الآن والى يوم الدين فليكن لعهد الله ناكثاً ولرسوله الحبيب باغضاً(١).

مناقشـة هذه النصوص

من المرجح أن مكانة القدس لدى النصارى، من أهم أسباب تعدد الروايات للعهدة العمـريـة، واختـلاف نصـوص هذه الروايات، وقد كان هذا الاختلاف قليلاً، كما نراه بين روايات اليعقوبي وابن البطريق وابن الجوزي، أو جزئياً احياناً أخرى كما هو الحال بين هذه النصوص ونص الطبري ومجير الدين. أوكلياً، في الصيغة والاسلوب والمحتوى، كما هو يبين الروايات المذكورة ورواية ابن عساكر. ورواية الوثيقة التى نشرتها بطريركية الروم الارثوذكس سنة **١٩٥٣**م.

ومكانة القدس لدى النصارى تعود إلى أنها تضم اقدس مقدساتهم، ومحجهم الذي يحجـون إليـه، ومقـر بطـريـركيـة الـروم الارثوذكس. فكان هذا التحريف تلبية لرغبتهم في الحصـول على أكـبر قسـط من الامتيـازات والتسهيـلات لهم، وللحجـاج من الطـوائف الأخـرى، وخـاصـه حجـاج الافـرنج، مستغلين في ذلك علمهم بأن المسلمين لا يحتفظون بنسخة من هذا العهد، وبعض فترات ضعف السلطة الإسلامية.

---

(١) انظر: احمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، رسائل الخلفاء الراشدين.

إن المطلع على اسلوب الكتابه عامة، وكتابة العهود والمواثيق والمراسلات الرسمية خاصة في عصر صدر الإسلام، يدرك أنها كانت تعمد إلى الاختصار، وتبتعد عن المقدمات، والفاظ التفخيم، والمحسنات، وتعالج الموضوع المقصود مباشرة، بأوضح الالفاظ وأقل الكلمات. كما أن من غير المحتمل ولا المقبول عقلاً أن ترد في هذه الروايات شروط وعهود تنظم أحوالاً وأوضاعاً لم تكن قد وجدت بعد.

لذلك يتوقع المطلع والمؤرخ أن يكون هذا العهد مصوغاً باسلوب ذلك العصر، وأن يتضمن نصاً يعطي لأهل الذمة أماناً على أنفسهم وأموالهم وذراريهم وعبادتهم، مقابل دفع الجزية والدخول في طاعة المسلمين[1].

وبناء على ذلك نستنتج أن اقرب النصوص توافقاً مع مثل هذه الصيغة المتوقعة، هو ما نقلناه عن اليعقوبي[2]، وابن البطريق[3]، وابن الجوزي[4]. وذلك لأن هذه النصوص قد جاءت مختصرة، ومعانيها والفاظها أقرب ما تكون لما هو متوقع من عهد كتب في ذلك العصر، وإنها، وإن اختلفت بعض الكلمات فيما بينها، تشير إلى إنها قد اخذت عن مصدر واحد. والأرجح أن اليعقوبي قد روى عن مصدر أقدم منه قد يكون سيف وإن لم يشر إلى ذلك، كما يرجح أن ابن البطريق قد نقل عن اليعقوبي أو عن مصدر نصراني. أما ابن الجوزي فإنه قد نقل عن أحدهما، على الاغلب.

أما النص الذي أورده الطبري عن سيف، والنص الذي أورده مجير الدين عن سيف أيضاً وعن آخرين، فبالرغم من ورود بعض الاختلافات بينهما، إلا أنه من المرجح أنهما أخذا عن مصدر واحد، وإن مجير الدين قد أخذ عن الطبري، مع بعض التصرف في النص. هذه واحده، أما الثانية فهي أن ما ورد فيهما من تحفظات وشروط قصد بها مصلحة النصارى، كالتعهد بعدم هدم الكنائس، وعدم اكراههم على دينهم، وعدم مساكنة اليهود لهم بالقدس، وغيرها[5]، يدعو للشك فيهما، ومما يقوى هذا الشك أنهما وردا مفصلين ومطولين، مع أن عهود المدن الأخرى جاءت مختصرة وبسيطة، بالغة البساطة كعهد حمص. ومما يؤكده أيضاً أن الطبري ومجير الدين الذي نقل عنه، اشارا إلى أنه اعطي لأهل القدس في الجابية، مع أن المشهور أنه اعطى لهم في القدس نفسها[6]، كما أن التحفظات المذكورة

(١) انظر البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٣٩.
(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ح ٢ ص ١٦٧.
(٣) ابن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ح ٢ ص ١٦.
(٤) ابن الجوزي: فضائل القدس، ص ١٢٥.
(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ح١، ص٢٤٠٥-٢٤٠٦.
(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٣١.

تنافي الواقع ولم تذكر الروايات الأولى ما يؤيدها. ومن المحتمل أن هذا العهد قد وضع في فترة لاحقة حيث يذكر الدكتور عبد العزيز الدوري «أن الامر لم يخل من ادعاءات يهودية»[1]. كما تدعي رواية يهودية بأن اليهود طلبوا من عمر بن الخطاب السماح لهم باستقدام مائتي عائلة يهودية من مصر للسكن في القدس، ولكن البطريق صفرونيوس عارض ذلك، فسمح عمر بن الخطاب لسبعين عائلة بالحضور من مصر وأسكنهم جنوب الحرم[2] القدسي. ويسهل كشف كذب هذا الادعاء ببساطه، فمصر قد فتحت بعد فتح القدس بأربع سنوات.

ومن المحتمل أن عبارة «الا يساكنهم فيها اليهود» المذكورة في النصين إنما تدل على أن القدس كما هو معلوم تاريخياً كانت خالية من اليهود، ولم يشأ النصارى أن يسكنها اليهود من جديد تحت حكم المسلمين. وليس كما فسرها اليهود من أن اليهود كانوا يسكنون في القدس، واشترط النصارى على المسلمين اخراجهم منها.

أما النص الذي أورده ابن عساكر، والذي أورد مجير الدين نصاً يشبهه بالاضافة للنص المذكور سابقاً، فمن المستبعد جداً أن يكون صحيحا، بالاضافة إلى أنه يفيد بأنه وضع لأهل الشام عامه وليس لأهل القدس خاصة كما ذكر مجير الدين. كما أنه من المستغرب أن يضع المغلوبون الشروط التي يرتضونها لينعقد الامان لهم على يد الغالب، كما أنه من غير المنطقي أن يتعهد النصارى بعدم قراءة القرآن فى الوقت الذي يستشهدون بآية منه فى النص نفسه ﴿**حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون**﴾. ويلفت النظر ايضاً اختلاف هذا النص المطول عن عهود المدن الأخرى التي كانت بالغة البساطة، وإنه نص يدل على وجود صلات قوية بين المسلمين والنصارى أقوى من الصلات الفعلية التى كانت في مستهل أيام الفتح. وأنه احتوى شروطاً لأمور لم تكن موجودة في ذلك الزمن، كجز المقادم وشد الزنانير ونقش الخواتم والتكنى بكنى المسلمين... ويبدو أن مثل هذا النموذج من العقود كانت تضعه المدارس الفقهية الإسلامية لتصور واجبات وحقوق لأهل الذمة كالنموذج الوارد في كتاب الأم للشافعي[3].

من هذا كله نرى أن هذه الروايات لنصوص العهود المسماة بالعهدة العمرية قد وسعت وطورت على الزمن تبعاً لتطور أحوال أهل الذمة منذ عهد عمر بن عبد العزيز وهارون الرشيد والمتوكل إلى عهود بعدها لأنها احتوت شروطاً لأمور لم تكن موجودة أو معروفة زمن الفتح، فطورت من نصوص مختصرة، اقرب ما تكون للحقيقة، كنصوص اليعقوبي، وابن البطريق وابن

---

(١) عبد العزيز الدوري: فكرة القدس فى الإسلام، بحث اعده للمؤتمر التاريخي لبلاد الشام (فلسطين) المنعقد بالجامعه الأردنية سنة ١٩٨٠م.

(٢) EncycLobidia Judacia, Art Jerusalem (٣) الامام الشافعي: الام، ج٤، ص١١٨.

الجوزي، إلى نصوص مطولة تحتوي شروطاً مستهجنة كنص الطبري ومجير الدين[1] أو نص مختلف في الصيغة والشروط والمحتويات كنص ابن عساكر.[2]

أما النص الأخير الذي نشرته بطريركية الروم الارثوذكس بالقدس عام **١٩٥٣** ميلادية، فإن جميع الدلائل، من اسلوب، والفاظ، واحكام، ومعلومات تاريخية، تشير إلى أنه غير صحيح. وسوف أقوم بتفنيده في بحث آخر إن شاء الله.

ولعل من المفيد أن نعلم في نهاية البحث أن المؤرخ فيليب حتي ينكر وجود العهدة العمرية[3] ذاتها، بدعوى أن مؤتمر الجابية الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب، لبحث الأمور الإداريه بالشام، لم يعرف بالضبط ما الذي دار فيه وما هي القرارات التى اتخذها[4]، معتمداً في ذلك مع المؤرخ ترتون[5]، وعلى اختلاف روايات تلك النصوص، واحتوائها على معلومات وأحكاماً وجدت في عصور تالية لعصر الفتح. وإنني لا أوافقه على نفي وجود مثل هذا العهد اصلاً. والله اعلم.

المراجع

١ — ابن البطريق، افشيشيوس الاسكندري، المتوفى عام ٣٢٨هـ؛ التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٤م.

٢ — ابن الجوزي، ابو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزي: المتوفى ٥٩٧هـ فضائل القدس، تحقيق د. جبرائيل سليمان بيروت ١٩٨٠.

٣ — ابن عساكر، على بن الحسن بن هبة الله . . . الدمشقي الشافعي أبو القاسم، المتوفى عام ٥٧١هـ، تاريخ تهذيب دمشق وأخبارها. . . (التاريخ الكبير)، دمشق دار المسيرة/ بيروت ١٣٢٩هـ.

٤ — أحمد زكي صفوت: جمهرة رسائل العرب مصر ١٩١٧م.

٥ — البلاذري/ أحمد بن يحي بن جابر بن داود البغدادي (القرن الثالث الهجري): فتوح البلدان، القاهره ١٩٥٦م.

٦ — Tritton (A.s) the caliphs and their non-moslim subjects oxford 1930

٧ — حتى، تاريخ العرب، مطول بيروت.

٨ — الشافعي، محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المطلبي الشافعي الحجازي المكي ابو عبد الله (١٥٠-٢٠٤هـ)، الام، القاهره ١٣٢٥هـ.

٩ — الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير(٢٢٤-٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، طبعة طهران.

١٠ — عارف الغارف: المسيحيه في القدس، القدس ١٩٥١م.

١١ — د. عبد العزيز الدوري: (فكرة القدس في الاسلام) بحث أعده للمؤتمر التاريخي لبلاد الشام (فلسطين) المنعقد بالجامعه الأردنيه سنة ١٩٨٠م.

١٢ — مجير الدين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي، (٨١٠-٩٢٧هـ)، الانس الجليل بتاريخ القدس عمان ١٩٧٧.

---

(١) مجير الدين: الانس الجليل فى تاريخ القدس والخليل، ج١ ص٢٥٣-٢٥٤.

(٢) ابن عساكر: تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ١٧٩.

(٣) انظر عارف العارف: المفصّل في تاريخ القدس، ص ٩١-٩٢. وعبد العزيز الدوري: بحث بعنوان (فكرة القدس في الاسلام، ص١١ : ٨ Tritton: The caliphe and their Non-moslim subjects, p.5

(٤) حتى، فيليب: تاريخ العرب، ج٣ ص١٩-٢٠.

(٥) انظر Tritton: The caliphe and their non-moslem suhjects. p. 12.


لغة
و
أدب



أختي العزيزة: «هل»

هذه هي الرسالة الثانية عشرة من رسائلي إليك، سوف أحدثك فيها عن الصيغة الرابعة وما بعد الرابعة من هذه الصيغ التى تدخل فيها همزة الاستفهام على (لا) النافية للفعل المضارع، وكنت قد حدثتك من قبل عن ثلاث صيغ من هذه الصيغ.

أما الصيغة الرابعة فهي ﴿**أولايرون**﴾ وقد وردت فى أربع آيات من آيات القرآن الكريم:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿**أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون**﴾. الآية(١٢٦) من سورة التوبة.

هذا الاستفهام ﴿**أولايرون**﴾ فى هذه الآية الكريمة يفيد الإنكار والتوبيخ:

فالله سبحانه وتعالى ينكر على أولئك المنافقين زمن الرسول ﷺ ويوبخهم أن لا يتوبوا من نفاقهم المنتن، وأن لا يتعظوا بما يريهم الله من آيات وحجج، مع أنهم يبتلون فى كل عام مرة أو مرتين بما هو حقيق أن يكون زاجرا يزجر، ورادعا يردع، وواعظا يعظ.

وفعل (يرون) فى هذه الصيغة يحتمل أن يكون بمعنى يبصرون فهو متعد إلى مفعول به واحد هو المصدر المؤول من (أنهم يفتنون)، ويحتمل أن يكون بمعنى يعلمون فهو متعد إلى مفعولين، والمصدر المؤول من (أنهم يفتنون) فى محل نصب سدّ مسدّ هذين المفعولين، وتقدير المصدر المؤول على كلا المعنيين: أولايرون فتن الله إياهم.

وإعراب (أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين) واضح، و(مرةً) منصوب على المصدرية فهو مفعول مطلق، و(مرتين) معطوف بأو على (مرة) وهو مثله منصوب على المصدرية مفعول مطلق.

(ثم لا يتوبون): جملة (لا يتوبون) معطوفة بثم على جملة (لايرون) فهى داخلة فى حيز الاستفهام ولا محل لها من الإعراب.

(ولاهم يذكرون) : جملة (لاهم يذكرون) معطوفة بالواو على جملة (لايتوبون) فهى مثلها داخلة فى حيز الاستفهام ولا محل لها من الإعراب.

وأصل (يَرَون)- عند علماء الصرف - (يَرْءَيون)- بسكون الراء وفتح الهمزة وضم الياء التى قبل واو الجماعة- : تحركت الياء التى قبل واو الجماعة وهى لام الكلمة وفتح ما قبلها فقلبت ألفا، فصارت الكلمة (يَرْءَاوْن) فالتقى ساكنان الألف وواو الجماعة فحذفت الألف لالتقاء الساكنين فصارت الكلمة بعد حذف الألف (يرْءَوْن)- براء ساكنة وهمزة مفتوحة وواو ساكنة - فنقلت فتحة الهمزة إلى الراء الساكنة قبلها فأصبحت الراء مفتوحة والهمزة ساكنة فالتقى ساكنان الهمزة وواو الجماعة فحذفت الهمزة لالتقاء الساكنين وصارت الكلمة بعد حذف الهمزة((يَرَوْن)- بفتح الراء وتسكين الواو- على وزن (يَفوْن)- بفتح الفاء وتسكين الواو- وقد حذفت لام الفعل وعينه وبقيت فاؤه وحدها.

الآية الثانية : فى قوله تعالى : ﴿**وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون(٥٨) ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألاترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين**﴾(**٥٩**)- الآيتان(٥٨-٥٩) من سورة يوسف.

استفهام هذه الصيغة (ألاترون) فى آيتها الكريمة هنا يفيد التقرير والترغيب والإغراء والإيناس والاستمالة على معنى قد رأيتم أنى أوفى الكيل لكم ولغيركم، ولا أبخسه أحدا، وأنا خير من أنزل ضيفا على نفسه فى هذا البلد، فإنكم إن أتيتم بأخيكم - يعنى بنيامين أخاه لأبيه وأمه - وجدتم خير نُزُل وخير مضيف، وازددتم به كيل بعير.

و(ترون) فى هذه الصيغة هنا بمعنى تبصرون، والمصدر المؤول من أن وخبرها مضافا إلى اسمها فى (أنى أوفى الكيل) فى محل نصب مفعول به لفعل (ترون)، والتقدير: ألاترون إيفائى الكيل. (وأنا خير المنزلين) هذه الجملة فى محل نصب على الحال من فاعل الفعل المضارع (أوفى) وهو ضمير مستتر فيه تقديره (أنا)، ورابط جملة الحال بصاحبها الواو والضمير معا.

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿**أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا**﴾. الآية(٨٩) من سورة طه.

الضمير فى (يرون) يعود على بنى إسرائيل عبدة العجل الذى أخرجه لهم السامريّ من حليّ كانوا قد استعاروها من قوم فرعون وحملوها معهم حين خروجهم من مصر مع موسى عليه السلام، وفى أثناء غياب موسى لمناجاة ربه جل وعلا ألقوا ما حملوه من زينة القوم وكذلك ألقى السامري، فأخرج لهم من هذه الحلي عجلاً جسدا له خوار، فقال السامرىّ

وأتباعه الذين افتتنوا به أول ما رأوه: هذا إلهكم وإله موسى، وقد نسي أن ربه الذى ذهب يريده هو هذا العجل.

والضمير المستتر فى (يرجع) و(يملك) يعود على هذا العجل المعبود من دون الله.

والاستفهام فى هذه الآية الكريمة ﴿**أفلا يرون**﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع: ينكر الله سبحانه وتعالى على عبدة العجل من بنى اسرائيل ويوبخهم ويسفه أحلامهم ويعيب عليهم أن يتخذوا العجل إلههم من دون الله، وأن لا يروا أن هذا العجل المعبود لا يقدر أن يرد عليهم قولا إن كلموه، ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا إن رجوا منه ضرا ونفعا. كيف يكون إلها من كان على هذه الصفة أيها الجاهلون الأغبياء؟!!.

و(يرون) فى هذه الصيغة هنا بمعنى يعلمون، و(أن) مخففة من الثقيلة، وليست الناصبة للفعل المضارع لأن الناصبة للفعل المضارع لا تجيء بعدما يفيد العلم، واسم (أن) المخففة من الثقيلة ضمير الشأن محذوف، و(لا) نافية، و(يرجع) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، والفاعل ضمير مستتر فيه تقديره هو يعود على العجل، و(قولا) مفعول به ليرجع. وبقية كلمات الآية واضحة الإعراب، والمصدر المؤول من أن المخففة من الثقيلة وخبرها مضافا إلى اسمها فى محل نصب سدّ مسدّ مفعولي (يرون) والتقدير أفلا يرون عدم رجعه إليهم قولا.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿**بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون**﴾ الآية (٤٤) من سورة الأنبياء.

يتضمن صدر هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد متع هؤلاء المشركين من قريش وآباءهم من قبلهم بهذه الحياة الدنيا حتى طال عليهم العمر وهم مقيمون على عبادة الأصنام لا يأتيهم عذاب ولا ينزل بهم عقاب جزاء كفرهم هذا، فنسوا نعمة الله عليهم، وضلوا طريق الشكر إليها.

والاستفهام الذى جاء بعد ذلك فى قوله تعالى ﴿**أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها**﴾ للإنكار والتوبيخ.

ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك المشركين أن لا يبصروا ما يحدثه الله جل وعلا فى الأرض من خراب بعد عمارة ومن موت بعد حياة ومن هلاك وعذاب وقهر وإذلال بعد حياة نعيم وعز، فيعتبروا بذلك ويتعظوا به، ويحذروا أن ينزل بهم من العذاب ما أنزله الله بالأمم التى كذبت الرسل من قبل.

أفبعد هذا النقص الذى يحدثه الله ـ جلّت قدرته ـ فى أطراف الأرض بالهلاك والتدمير والقهر، أفبعد هذا يظن هؤلاء المشركون أنهم الغالبون؟!!.

وأنَّى لهم الغلبة؟! أمن هذه الآلهة التى لا تستطيع أن تنصر نفسها ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا؟!.

الله القاهر فوق عباده هو الغالب على أمره ولا معقب لحكمه وهو الذى ينصر رسوله والذين آمنوا معه.

و(يرون) فى هذه الصيغة هنا بمعنى يبصرون، فهو فعل متعد إلى مفعول به واحد، هو المصدر المؤول من أن وخبرها مضافا إلى اسمها فى (أنا نأتى الأرض) والتقدير أفلا يرون إتياننا الأرض.

وجملة (ننقصها من أطرافها)- فيما يرى العكبرى - فى محل نصب حال من ضمير الفاعل فى نأتى أو من الأرض التى هى مفعول به لنأتى.

وأما الصيغة الخامسة: من هذه الصيغ التى تدخل فيها همزة الاستفهام على (لا) النافية للفعل المضارع فهي ﴿**أفلا تبصرون**﴾ وقد وردت فى أربع آيات من آيات القرآن الكريم:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون**﴾. الآية(٧٢) من سورة القصص، تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله محمد ﷺ قل يامحمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: أرأيتم يا هؤلاء إن جعل الله عليكم النهار دائما مستمرا إلى يوم القيامة من إله غير الله المعبود بحق يأتيكم بليل تستريحون فيه من عناء النهار ومتاعبه، أفلا تبصرون هذه النعمة التى أنعم الله بها عليكم وهو اختلاف الليل والنهار، فتعلموا أن العبادة لا تكون إلا لمن أنعم بها.

وهذا الاستفهام (أفلا تبصرون) الذى جاء فى ختام هذه الآية الكريمة يفيد الإنكار والتوبيخ:

ينكر الله سبحانه وتعالى على المشركين من قريش ويوبخهم أن لا يتبصروا فى هذه النعمة العظيمة التى أنعمها الله عليهم، فقد جعل الليل والنهار خلفة، جعل النهار ليكسبوا فيه ويبتغوا من فضله، وجعل الليل ليستريحوا فيه من عناء ويسكنوا من جهد، ينكر الله عليهم أن لا يتَبصّروا فى ذلك فيعلموا أن المنعم بهذه النعمة وهو الله جل وعلا هو وحده الذى يستحق العبادة ويستحق الشكر، فيعبدوه وحده لا شريك له، ويتبعوا ما جاء به رسوله ﷺ.

الآيـة الثـانيـة : قوله تعالى : ﴿**أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون**﴾ . الآية (٢٧) من سورة السجدة .

تضمنت هذه الآيـة الكـريمـة إقـامـة الحجة على الكافرين المنكرين للبعث، وبيان بعض النعم التى ينعم الله بها على عباده، فذكر جل وعلا فى هذه الآية أنه يسوق الماء إلى الأرض اليـابسـة الجـافة التى لا نبات فيها فيخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم ويأكلون، وفى ختام هذه الآية قال تعالى: ﴿**أفلا يبصرون**﴾ . وهو استفهام إنكار وتوبيخ :

ينكـر الله سبحـانـه وتعـالى على المكذبين بالبعث أن لا يبصروا ذلك بأعينهم إبصارا يشوبه التدبر والتفكر فيعلموا أن القدرة العظيمة التى تسوق الماء إلى الأرض المجدبة المغبرة فتخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم لا يعجزها أن تبعث الأموات من قبورهم أحياء يوم القيامة كما كانوا من قبل فى حياتهم الدنيا .

الآية الثالثة: فى قوله تعالى : ﴿**ونادى فرعون فى قومه قال أليس لى ملك مصر وهذه الأنهـار تجرى من تحتى أفـلا تبصـرون(٥١) أم أنـا خير من هذا الـذى هو مهـين ولا يكـاد يبين**﴾(٥٢). الآيتان: (٥١-٥٢) من سورة الزخرف.

يخبر الله سبحانه وتعالى فى هاتين الآيتين الكريمتين أن فرعون قد جمع قومه من القبط فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملكه مصر وما هو فيه من خير ونعيم، فقال أليس لي هذا الملك العظيم ملك مصر وهذه الجنان الناضرة الحسان وهذه الأنهار الجارية من بين يدي لا تقف ولا تجف؟!! أين موسى الذى هو مهين ولا يكاد يبين من هذا كله؟!!.

وقد جاء الاستفهام فى قوله(أفلا تبصرون) للفخر وتعظيم نفسه.

الآيـة الـرابعـة: فى قولـه: ﴿**وفى الأرض آيـات للمـوقنـين(٢٠) وفى أنفسكم أفـلا تبصرون**﴾(٢١). الآيتان: (٢٠-٢١) من سورة الذاريات.

تتضمن هاتان الآيتان الكريمتان أن الله سبحانه وتعالى قد جعل فى هذه الأرض التى دحاها وفى هذه الأنفس التى سواها آيات كثيرة للموقنين الذين ينظرون إليها نظرا صحيحا متدبرا معتبرا، فيؤمنون بعظمة خالقها وقدرته الباهرة، ويصدقون بما جاءت به الرسل دونما ريب.

وفى ختـام هاتـين الآيتـين قال تعالى: ﴿**أفلا تبصرون**﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ: ينكـر الله سبحـانـه وتعـالى على الكـافـرين ويوبخهم أن لا ينظروا النظر الصحيح السليم المتأمل المتبصر إلى ما فى هذه الأرض من آيات داله تثير التفكر، وإلى ما فى هذه الأنفس من

عجائب التركيب ودقائق الصنع التى تبعث على الاعتبار، فيعلموا وحدانية الذى خلقها وقدرته على أن يعيدهم إلى الحياة بعد الموت كما بدأهم أول مرة.

وأما الصيغة السادسة: فهي ما دخلت فيه همزة الاستفهام على (لا) النافية لمضارع (علم). وقد جاءت هذه الصيغة فى ثلاث آيات من ايات القرآن الكريم:

الآية الأولى: فى قوله تعالى: ﴿**وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند الله أفلا تعقلون(٧٦) أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾(٧٧). الآيتان: (٧٦-٧٧) من البقرة تبين الآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين أن منافقى اليهود فى المدينة زمن الرسول ﷺ كانوا يقولون للذين آمنوا إذا لاقوهم قد آمنا بما آمنتم به، ويذكرون أن سبب إيمانهم ما وجدوه فى التوراة من نعت النبي ﷺ والتبشير به، وإذا خلا اليهود بعضهم إلى بعض بعيدا عن المؤمنين أخذ الفريق الذى لم يؤمن ولم ينافق ينكر على الفريق الآخر المنافق أن يحدثوا المؤمنين بأن التوراة قد ذكرت صفة النبي ﷺ وبشرت به، لأن عاقبة ذلك أن يكون للمؤمنين فى هذا الحديث حجة عليهم عند ربهم، ثم يختمون إنكارهم قائلين (أفلا تعقلون) وهو استفهام إنكار وتوبيخ تقدم الحديث عنه فى الرسالة العاشرة.

وفى الآية الثانية من هاتين الآيتين الكريمتين قال تعالى: ﴿**أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون**﴾ وهو استفهام يفيد التقرير على معنى أن أولئك اليهود المنافقين واليهود اللائمين يعلمون أن الله تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنون.

ويفيد أيضا الإنكار والتوبيخ على معنى لا ينبغى لهم مع علمهم هذا أن يفعلوا ما فعلوا: فيأتى المنافقون منهم إلى المؤمنين قائلين لهم كذبا ونفاقا لقد آمنا بما آمنتم به، ويأتى الفريق الذى لم ينافق فيلوم فى الخفاء الفريق الذى آمن نفاقا على تظاهرهم بالإيمان وعلى تحديثهم المؤمنين بأن نعته عليه الصلاة والسلام قد ورد فى التوراة وأنها قد بشرت به. ألا ساء ما كانوا يفعلون!! وأَقْبِحْ بما كانوا يزرون!!.

الآية الثانية: فى قوله تعالى: ﴿**وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور(١٣) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾(١٤). الايتان: (١٣-١٤) من سورة الملك.

تتضمن الآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين أن السر والجهر يتساويان بالنسبة إلى علمه عز وجل، فالله سبحانه وتعالى عليم بما تهمس به الألسن وما تكنه الأنفس وما تخفيه الصدور، لا يخفى عليه شىء فى السماء ولا فى الأرض ولا فى أنفسكم أيها الناس.

وفى الآيـة الثـانيـة من هاتين الآيتين الكريمتين قال تعالى : ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ .

ينكـر الله سبحـانـه وتعـالى على أولئـك الـذين يزعمـون عدم إحاطة علمه عز وجل بالمظهـر والمضمـر، ويـوبخهم على ذلـك ، كيف لا يعلم الله الـذى خلق الأشيـاء من عدم وخلقكم أنتم أيضا أيها الناس ، كيف لا يعلم الخالق أحوال من خلقهم ما ظهر منها وما بطن وحاله أنه اللطيف الخبير المحيط علمه بخفيات الأمور وجلياتها؟!! .

الآية الثالثة : فى قوله تعالى : ﴿**إن الإنسان لربه لكنود(٦) وإنه على ذلك لشهيد(٧) وإنه لحب الخير لشديد(٨) أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور(٩) وحصل ما فى الصدور(١٠) إن ربهم بهم يومئذ لخبير**﴾(١١) . الآيات : (٦-١١) من سورة العاديات .

هذه الآيات الكريمة جاءت فى سورة العاديات ، وتعنى الآية السادسة من آيات هذه السـورة أن الإنسـان لجحـود لنعم ربـه ، لا يذكـرهـا ولا يشكـرها . وتعنى الآية السابعة أن الانسـان ليشهـد بلسـان حاله على جحوده هذا ولا يقدر أن ينكره لظهوره فى أقواله وأفعاله ، وتعنى الآية الثامنة أن الإنسان لشديد الحب للمال .

وفى الآية التاسعة جاء هذا الاستفهام : (**أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور**) وجاء بعده فى الآية العاشرة والآية الحادية عشرة ما يتصل بهذا الاستفهام ويتمم معناه .

وهـو استفهـام إنكـار وتهـديـد ووعيد على معنى لا ينبغى لهذا الإنسان الجحود لنعم ربه ، لا ينبغى لهذا الإنسان الذى استولى على قلبه حب المال ، لا ينبغى له أن ينسى شكر الله تعـالى على نعمـه التى لا تعـد ولا تحصى ، ولا أن ينسى العمل الصالح للدار الآخرة ، سوف يعلم هذا الإنسـان مآلـه ويـرى جزاءه يوم يبعث الأمـوات من قبـورهم ، ويـبرز ما فى صدورهم من خير وشر ، إن الله سبحانه وتعالى خبير بما عمل ، ومجازيه يومئذ على ما قدم ، وويل له يومئذ وثبورا! .

وإعـراب ﴿**أفـلا يعلم إذا بعثـر ما فى القبور وحصل مافى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير**﴾ : (أفلا يعلم) : الهمزة حرف استفهام ، والفاء عاطفة على ما قبل الهمزة ، ولا نافية ، ويعلم مضارع مرفوع وهو متعد إلى مفعولين .

(إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور) : إذا ظرف زمان مبنية على السكون فى محل نصب متعلقة بالفعل المضارع (يعلم) ومعمولة له ، وهي هنا لا تفيد الشرط فلا جواب لها ، وكـون (إذا) متعلقـة بالفعـل المضارع يعلم ومعمولة له هورأي العكبر ى والحوفى وجملة

(بعثر ما فى القبور) فى محل جر بإضافة إذا إليها. وجملة(حصل ما فى الصدور) معطوفة بالواو على جملة (بعثر ما فى القبور) فهي مثلها فى محل جر.

وجملة (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فى محل نصب سدت مسدّ مفعولى يعلم، والجار والمجرور (بهم) والظرف (يوم) المضاف إلى (إذ) يتعلقان بخبر إن وهو (خبير).

وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط: إن الرأي القائل (إذا) ظرف معمول ليعلم غير متضح لأن المعنى أفلا يعلم الآن وليس إذا بعثر ما فى القبور، ومن رأيه أن إذا متعلقة بمحذوف تقديره مآله أو أنه مجازى، وهذا المحذوف هو مفعول ليعلم المتعدية إلى مفعول به واحد، ومن رأيه أيضا أن جملة (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) تكون استئنافية دالة على مفعول يعلم وعلى متعلق إذا.

والأرجح - فيما يبدو لى - هو إعراب العكبري والحوفي من أن العلم سيكون إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور، لأنه الظاهر المتبادر من الآية فلا تقدير ولا حذف، ويؤيده فى أن العلم سيكون فى المستقبل وليس الآن قوله تعالى فى سورة التكاثر ﴿**كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون**﴾ فهو صريح فى أن العلم سيكون فى المستقبل، وفى كلتا الآيتين تهديد ووعيد.

أما الصيغة السابعة: من هذه الصيغ التى تدخل فيها همزة الاستفهام على (لا) النافية للفعل المضارع فهى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾. وقد وردت فى آيتين اثنتين من آيات القرآن الكريم.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾. الآية(٨٢) **من** سورة النساء.

هذا الاستفهام فى قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ يفيد الإنكار والتوبيخ: الإنكار على أولئك الذين أعرضوا عن الإيمان برسول الله ﷺ، ولم يصدقوا بأن هذا القرآن الذى يبلغهم إياه هو من عند الله تعالى، وتوبيخهم على ذلك.

ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك ويوبخهم أن لا يتدبروا القرآن ويتأملوا ما فيه وينعموا النظر فى إحكام آياته واتساق معانيه وصدق أخباره مع أنه نزل فى أزمنة متقاربة ومتباعدة، وفى أماكن متعددة، وفى أمور شتى، وأخبر عن الماضى والحاضر والمستقبل.

ينكر عليهم ويوبخهم أن لا يتدبروا القرآن وهو على هذه الصفات فيدركوا أنه لو كان من عند غير الله تعالى لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، لوجدوا أن بعض آياته يخالف بعضها الآخر، وأن معانيه يناقض بعضها بعضا، وأن أخباره جاء بعضها غير مطابق للواقع.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿**أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها**﴾. الآية(٢٤) من سورة محمد.

الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿**أفلا يتدبرون القرآن**﴾ للإنكار والتوبيخ .

ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين لم يؤمنوا بما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ ، ينكر عليهم ويوبخهم أن لا يتأملوا فى القرآن ويتفهموا ما اشتملت عليه آياته من حجج وبراهين ومواعظ وعبر فيعلموا أن ماهم عليه هو الباطل ، وأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق .

ولكن من أين لهم تدبر القرآن وتفهم ما جاء فيه وقلوبهم مقفلة ليس لها أبواب مفتوحة يدخل منها التدبر والتأمل فنور الهدى والأيمان؟!! .

أما الصيغة الثامنة : فهى : ﴿**أفلا يشكرون**﴾ . وقد وردت فى آيتين اثنتين من آيات القرآن الكريم .

الآية الأولى : فى قوله تعالى : ﴿**وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون(٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون(٣٤) ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون**﴾(٣٥) . الآيات (**٣٣-٣٥**) من سورة ياسين .

تتضمن هذ الآيات الكريمة الدلالة على قدرة الله تعالى على ما يشاء ، وعلى إعادة الحياة إلى الموتى كما كانوا عليه فى الحياة الدنيا ، فإحياؤه جل وعلا الأرض الميتة التى لا نبات فيها ، ينزل عليها من السماء ماء فيخرج به زرعا وحبا يأكل منه أولئك المشركون بالله المنكرون للبعث ، فإحياؤه هذا آية لهم محسوسة لا تردّ ولا تنكر .

وتتضمن أيضا أن الله سبحانه وتعالى قد جعل فى هذه الأرض التى أحياها بعد موتها عيونا يتفجر منها الماء وبساتين نخيل وأعناب يأكلون منها ثمرا طيبا لم تعمله أيديهم ولا كان بكدهم ولا سعيهم ، وإنما هو فضل من عند الله ورحمة .

وفى ختام هذه الآيات قال تعالى : ﴿**أفلا تشكرون**﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ : ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين يشركون به جل وعلا ويكذبون بالبعث ، ويوبخهم أن لا يشكروا له عز وجل تلك النعم العظيمة ذلك الشكر الذى ينبغى أن يتجلى فى إفراده تعالى بالعبادة وفى الإيمان بقدرته على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة .

الآية الثانية : فى قوله تعالى : ﴿**أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون(٧١) وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون(٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون**﴾(٧٣) . الآيات : (٧١-٧٣) من سورة ياسين .

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لبنى آدم ومنهم هؤلاء المشركون ، قد خلق لهم مما خلق هذه الأنعام من إبل وبقر وغنم ، وجعلهم يملكونها

ويضبطون أمورها، وجعلها مذلّلة لهم يتخذون منها ركائب يحملون عليها أنفسهم وأثقالهم فى تنقلاتهم وأسفارهم، ويتخذون من لحومها طعاما يأكلون منه ويطعمون.

وفوق هذا وذاك لهم فيها منافع شتى: فهم يتخذون من أصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها ملابس دافئة وأكنانا تقيهم الحر والقر، وأثاثا فارها به يستمتعون، ولهم فيها مشارب مختلفة كثيرة مريئة سائغة للشاربين.

وفى ختام هذه الآيات قال تعالى: ﴿**أفلا يشكرون**﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ: ينكر الله سبحانه وتعالى على هؤلاء المشركين ويوبخهم أن لا يشكروه تعالى على هذه الأنعام التى خلقها نعمة لهم وللناس جميعا، وشكر الله تعالى إنما يكون بطاعته وإفراده بالعبادة، وبالإيمان أنه الرازق الخالق لها ولكل شيء.

أما الصيغة التاسعة: فهى ﴿**ألا تأكلون**﴾ وقد وردت فى آيتين اثنتين من آيات القرآن الكريم: .

الآية الأولى: فى قوله تعالى: ﴿**إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون(٨٥) أئفكا آلهة دون الله تريدون(٨٦) فما ظنكم برب العالمين(٨٧) فنظر نظرة فى النجوم(٨٨) فقال إنى سقيم(٨٩) فتولوا عنه مدبرين(٩٠) فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون(٩١) مالكم لا تنطقون(٩٢) فراغ عليهم ضربا باليمين(٩٣) فأقبلوا عليه يزفّون(٩٤) قال أتعبدون ما تنحتون(٩٥) والله خلقكم وما تعملون**﴾(٩٦). الآيات (٨٥-٩٦) من سورة الصافات.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام، قال لهم منكرا موبخا: ما هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله؟!! إن عبادتكم لغير الله إفك، وإن الآلهة التى تعبدونها من دون الله لباطل. ثم ماظنكم أن يفعل بكم رب العالمين وقد عبدتم غيره؟!!.

وحين أرادوه على أن يخرج معهم إلى عيد لهم ليشاركهم فيه نظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم، فتولوا عنه مدبرين خائفين من أن تصيبهم عدوى مرضه، وتركوه وحده فى بيت أصنامهم، وتركوا وراءهم فى ذلك البيت الطعام الذى أتوا به ليأكلوه إذا رجعوا من عيدهم بعد أن تصيبه بركة الأصنام فيما يزعمون، فأقبل إبراهيم على أصناهم هذه يخاطبها مخاطبة من يعقل لأنهم أنزلوها تلك المنزلة، فقال ساخرا مستهزئا: مالكم أيها الأصنام لا تأكلون؟! طعام كثير لذيذ شهي!!.

ولما كانت الأصنام لا تعقل ولا تنطق ـ ومن أين لها العقل والنطق؟!ـ عاد إبراهيم عليه السلام يقول ساخرا زاريا: مالكم لا تنطقون، مالكم لا تجيبون؟! أيّ آلهة أنتم؟! إن

كنتم آلهة حقا وصدقا فادفعوا عن أنفسكم ما أنا فاعل بكم، وراحت يده اليمنى تهوى على رءوسهم بفأسه القوية ضربا ملؤه الغيظ والكراهية لآلهة الباطل.

والاستفهام - كما رأيت - فى قوله ﴿**ألا تأكلون**﴾ استفهام سخرية واستهزاء وزراية.

الآية الثانية: فى قوله تعالى: ﴿**هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين(٢٤) إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون(٢٥) فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين(٢٦) فقربه إليهم قال ألا تأكلون(٢٧) فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم**﴾(٢٨). الآيات: (٢٤-٢٨) من سورة الذاريات.

تتضمن هذه الآيات الكريمة أن جماعة من الملائكة أرسلهم الله سبحانه وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام، فجاءوه ضيوفا فى صور بشرية جميلة، فلما دخلوا عليه حيّوه وقالوا سلاما، فردّ عليهم التحية قائلا لهم سلام أيها القوم الذين لم نعرفهم من قبل، وما لبث أن ذهب إلى امرأته مسرعا لتعدّ لهم طعام الضيافة، وعاد به إليهم مسرورا بإكرامهم يحمل عجلا سمينا مشويّا، وقربه إليهم، ولكنه رأى أيديهم لا تمتد إليه، فأنكر ذلك منهم وقال مستغربا: مالكم لا تأكلون؟!! ولكنهم ظلوا ممسكين عن تناول طعامه، فأحس بالخوف منهم وبدت عليه علاماته، فقالوا وقد رأوا ذلك منه لا تخف، وبشروه بغلام سيكون على جانب عظيم من العلم.

وقد رأيت أن الاستفهام فى قوله ﴿**ألا تأكلون**﴾ قد جاء للإنكار والاستغراب: أنكر إبراهيم عليه السلام على ضيوفه أن لا يأكلوا من طعامه، واستغرب ذلك منهم، وحق له أن ينكر ويستغرب، فقد كان طعاما شهيا فيه سخاء وكرم، وما كان يعرف حينئذ أنهم ملائكة لا يأكلون ولا يشربون.

أما الصيغة العاشرة: فهي ﴿**أفلا تسمعون**﴾ وقد وردت فى آيتين اثنتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون**﴾. الآية(٧١) من سورة القصص.

تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لرسوله محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل دائما مستمرا لا يعقبه نهار إلى يوم القيامة من إله غير الله المعبود بحق يأتيكم بالنهار فتقدرون فى ضوء شمسه أن تبتغوا من رزقه الواسع وتذهبوا فى وجوه المعاش كل مذهب.

أفلا تسمعون هذا الذى أقوله لكم سماع تفهم وتبصر فتدركوا أن الله هو وحده الذى جعل لكم الليل والنهار خلفة وجعل الليل سكنة وراحة، وجعل النهار سعيا ومعاشا، فتفردوه بالعبادة.

وقد أفاد هذا الاستفهام (أفلا تسمعون) الإنكار والتوبيخ : .

أنكـر الله سبحـانـه وتعـالى عليهم ووبخهم ألا يكـون لديهم سمع يتفهم ما يسمعه ويتـدبـره، فيـدرك أن الله الذى خلق الليل والنهار يتعاقبان قادر على أن يجعل الليل مستمرا دائما إلى يوم القيامة فيكون لهم فى ذلك شقاء وفناء.

لو كان لديهم سمـع يدرك ويعتـبر لأدركـوا أن الله الـذى أنعم عليهم بليـل يعقبه نهار ونهار يعقبه ليل هو وحده الذى يستحق العبادة دون أن يكون له شريك.

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿**أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون**﴾ الآية (٢٦) من سورة السجدة.

فى هذه الآيـة الكـريمة ينكر الله سبحانه وتعالى على المشركين من أهل مكة وغيرهم أنْ لم يبين لهم وأن لم يعظهم كثرة من أهلكهم من الأمم بسبب كفرهم وتكذيبهم الرسل مع أنهم يمشـون فى مسـاكن أولئـك المهلكـين وهم مسـافرون إلى الشام وغيرها، ويتقلبون فى بلادهم ويشاهدون آثار العذاب الذى نزل بهم.

وقد جاء الاستفهام (أفلا يسمعون) فى ختام هذه الآية مفيدا الإنكار والتوبيخ : ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الذين لم يعظهم هلاك الأمم السابقة بسبب تكذيبهم الرسل وها هي ذى مساكنهم يمرون بها غدواً ورواحا تشهد وتذكر وتعظ، ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك المشركين من أهل مكة ويوبخهم أنْ لا يسمعوا آيات الله وعظاته وتذكيره إياهم سماع تفهم وتدبر واعتبار.

أختى العزيزة «هل» :

بقي من صيغ همزة الاستفهام الداخلة على (لا) النافية للفعل المضارع صيغ لم ترد فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وها أنا ذي أقدمها إليك (بحسب ورودها فى القرآن الكريم) فى الاستفهامات التالية :

الاستفهـام الأول : ﴿**أفـلا تتفكـرون**﴾ وقـد جاء فى قوله تعالى : ﴿**قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾. الآية(٥٠) من سورة الأنعام.

تتضمن هذه الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين : لا أقول لكم عندى خزائن الله التى منها يرزق ويعطي، فالرزق والعطاء بيد الله لا بيدى.

وهذا رد على ما كانوا يقولونه له وهو: إن كنت رسولا من عند الله فاطلب منه أن يهب لنا الغنى ويذهب عنا الفقر.

وقل يامحمد لهم: لا أقول لكم إنى أعلم الغيب.

وهذا رد على قولهم له إن كنت رسولا من عند الله فأخبرنا بما ينفعنا وما يضرنا فنعمل على تحصيل المصالح ودرء المضار.

وقل يا محمد: لا أقول لكم إنى ملك.

وهذا رد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل ويمشى فى الأسواق.

وقل يا محمد لهم: لا أتبع إلا ما يوحيه الله إليّ، ولا يستوى الذى عمى عن آيات الله وما جاء به الوحي والذى أبصر آيات الله واتبع ما جاء به القرآن، أفلا تتفكرون.

وهذا الاستفهام (أفلا تتفكرون) استفهام إنكار وتوبيخ: إنكار على هؤلاء المشركين وتوبيخ لهم أن لا يكون لديهم تفكر فى الأمور وتبصر فيدركوا أن ما جاء به الوحي هو الحق، وأن ما هم عليه من الشرك هو الباطل.

الاستفهام الثانى: (أفلا يتوبون) قد جاء فى قوله تعالى: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم(٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم**﴾(٧٤). الآيتان: (٧٣-٧٤) من سورة المائدة.

تتضمن الآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين يقولون إن الله أحد آلهة ثلاثة (يريدون بالثلاثة: الله سبحانه وتعالى، وعيسى، وأمه) إن الذين يقولون هذا قد كفروا كفرانا مبينا، فما من إله فى الوجود مستحق للعبادة إلا إله واحد أحد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له صاحبة ولا ولد، وما كان معه من إله، وهو الله سبحانه وتعالى.

وإن لم يرجع هؤلاء الذين كفروا وقالوا إن الله ثالث ثلاثة، إن لم يرجعوا عن مقالتهم ويتوبوا إلى الله تعالى ليصيبن الذين كفروا منهم عذاب أليم.

وفى الآية الثانية من هاتين الآيتين الكريمتين جاء هذا الاستفهام: (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه). وهو استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب.

ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك الكافرين القائلين إن الله ثالث ثلاثة ويوبخهم أن لا يرجعوا عن مقالتهم هذه ويتوبوا إليه تعالى ويستغفروه، فقولهم هذا لا يقبله عقل سليم، ولا تقوم به حجه بيّنة.

وهو استفهام يدل أيضا على التعجب بمعنى كيف لا يتوبون إليه تعالى ويستغفرونه

من هذا الذنب الذى ليس بعده ذنب وقد تهيأت لهم أسباب التوبة والاستغفار، فالله سبحانه وتعالى غفور لذنوب التائبين الراجعين عن معاصيهم، رحيم بهم بقبوله توبتهم والعفو عما سلف من كفرهم.

أختى العزيزة:

جاء فى تفسير البحر المحيط لأبى حيان أن ابن عطية يرى أن استفهام (أفلا يتوبون) للتحضيض على التوبة وطلب المغفرة. وقد علق أبو حيان على رأي ابن عطية هذا فقال: «وما ذكره من الحث والتحضيض على التوبة من حيث المعنى لا من حيث مدلول اللفظ، لأن مدلول (أفلا) غير مدلول (ألا) التى للحض والحث» اهـ أبو حيان.

وإنما كانت (أفلا) لا تدل على الحث والحض نصا ومباشرة - أو كما قال أبو حيان من حيث اللفظ لأن الفاء الفاصلة بين الهمزة و(لا) تحتم أن تكون الهمزة للاستفهام، وأن تكون الفاء للعطف، و(لا) نافية.

وأفاد هذا الاستفهام الحث والتحضيض من حيث المعنى والسياق لا من حيث دلالة اللفظ النصية لأنه استفهام إنكار وتوبيخ، **وإنكار عدم التوبة، والتوبيخ على تركها** يفيد بطريق غير مباشر الحث على التوبة والتحضيض عليها.

وقدسها أبو حيان فقال فى صيغة (أفلا تتفكرون) ما قاله ابن عطية فى صيغة (أفلا يتوبون)، قال فى تفسير البحر المحيط: « (أفلا تتفكرون) هذا عرض وتحضيض معناه الأمر أى ففكروا» اهـ أبو حيان.

وليس لى هنا إلا أن أقول لأبى حيان ما قاله أبو حيان نفسه لابن عطية من أن دلالة (أفلا تتفكرون) على العرض والتحضيض إنما هو من حيث المعنى لا من حيث مدلول اللفظ، لأن مدلول (أفلا) غير مدلول (ألا) التى للحث والحض.

وقد تقدم قبل قليل بيان ذلك وسببه.

الاستفهام الثالث: (أولا يذكر الإنسان) وقد جاء فى قوله تعالى: ﴿**ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا**(٦٦) **أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا**﴾(٦٧). الآيتان: (٦٦-٦٧) من سورة مريم.

تتضمن الآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين أن الإنسان الكافر المنكر للبعث يقول لن أخرج حيا من القبر بعد أن أكون قد مت وأصبحت عظاما بالية، إن هذا لن يكون.

وقد تضمنت الآية الثانية الرد على هذا بأن الله سبحانه وتعالى قد خلقه وأنشأه فى هذه الحياة الدنيا ولم يك شيئا قبل ذلك، فكيف ينكر قدرة الله تعالى أن يعيد خلقه وأن يبعثه

من قبره. إن الإنسان الذى يذّكرّ ويتبصرّ ويفكرّ ليرى بلا ريب أن الذى قدر على خلق الإنسان وإبداعه فى هذه الدنيا قادر على أن يعيد خلقه يوم القيامة.

وقد جاء هذا الاستفهام فى قوله تعالى ﴿**أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا**﴾ جاء مفيداً الإنكار والتوبيخ والتعجب.

أنكر الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان الذى لا يؤمن بالبعث يوم القيامة ووبخه أن لا يذّكرّ ويتبصر ويتفكر أن خلق الله تعالى إياه أول مرة ولم يك شيئا من قبل يدل دلالة بينة على قدرة الله تعالى على خلقه مرة ثانية.

ويفيد هذا الاستفهام التعجب على معنى كيف يعجز الله سبحانه وتعالى عن إعادة خلقك أيها الإنسان بعد موتك، وقد خلقك من قبل ذلك ولم تك شيئا.

وقد أعرب الزمخشرى الواو فى (أولا يذكر) عاطفة عطفت (لا يذكر) على (يقول) الواردة فى الآية المتقدمة على هذه الآية، وقد وسّطت همزة الاستفهام بين المعطوف وواو العطف.

وهذا من المواضع التى رجع فيها الزمخشري إلى مذهب سيبوية والجمهور، وهو أن حرف العطف إذا تقدمته همزة الاستفهام فإنه يعطف ما بعدها على ما قبلها، وكان مذهبه أن يقدر بين الهمزة وحرف العطف ما يصلح أن يعطف عليه وإعراب (ولم يك شيئا): الواو حالية، و(لم) نافية جازمة، و(يك) مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، وهذا الفعل المضارع يأتى ناقصا كماضيه، يرفع المبتدأ على أنه اسمه وينصب الخبر على أنه خبره، فالضمير المستتر فيه العائد على الإنسان اسمه، و(شيئا) منصوب على أنه خبره، وجملة (ولم يك شيئا) فى محل نصب حال من الهاء فى (خلقناه)، والرابط الواو والضمير المستتر فى يك) معا.

الاستفهام الرابع: (**أفلا يؤمنون**) وقد جاء فى قوله تعالى: ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيىء حى أفلا يؤمنون**﴾. الآية(٣٠) من سورة الأنبياء.

اختلف العلماء فى تفسير قوله تعالى فى هذه الآية: ﴿**أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما**﴾.

فقال الطبري فى تفسيره: «يقول تعالى ذكره: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بالله بأبصار قلوبهم فيروا بها ويعلموا أن السموات والأرض كانتا رتقا: يقول ليس فيهما ثقب بل كانتا ملتصقتين، ... وقوله (ففتقناهما) يقول فصدعناهما وفرجناهما» اهـ وقال أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط: وقالت فرقة: السماء قبل المطر رتق، والأرض قبل النبات رتق،

ففتقنـاهما بالمطـر والنبـات . قال ابن عطية وهذا قول حسن ، ويناسب قوله ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي من الماء الذى أوجده الفتق» اهـ .
وعلى الرأي الأول الذى قاله الطبري تكون الرؤية فى (أولم ير الذين كفروا) علمية ، وعلى الرأي الثانى الذى ذكره أبو حيان وحسّنه ابن عطية تكون الرؤية بصرية .

أما تفسير قوله تعالى : (وجعلنا من الماء كل شيء حي) فقد أفاد أبو حيان أن (جعلنا) إن كانت بمعنى خلقنا فالمعنى وخلقنا من الماء كل حيوان ، وإن كانت بمعنى صيرنا فالمعنى وصيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا بد له منه .
وأما الاستفهام (أفلا يؤمنون) الذى جاء فى ختام هذه الآية فهو استفهام إنكار وتوبيخ : ينكر الله سبحانه وتعالى على الذين كفروا ويوبخهم أن لا يؤمنوا بألوهية من قدر على ما تضمنته هذه الآيـة من فتق السمـوات والأرض وإنـزال الغيث من السماء وإخراج النبات من الأرض وخلق كل حيوان من الماء ، فيفردوه بالعبادة ولا يشركون به شيئا .
الاستفهـام الخـامس : **(ألا تحبـون)** وقـد جاء فى قوله تعالى : **﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾** الآية(٢٢) من سورة النور.
مما تضمنتـه هذه الآيـة الكـريمـة : لا يحلف الذين آتاهم الله فضلا منه وسعة رزق لا يحلفوا بالله أن لا يعطوا ذوى قراباتهم والمساكين المهاجرين من ديارهم وأموالهم فى سبيل الله ، وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليتركوا ما يعاقبونهم به من حرمانهم ما كانوا يعطونهم إياه من قبل .

ومما جاء فى تفسير ابن كثير لهذه الآية : «وهذه الآية نزلت فى الصديق رضى الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة (رضى الله عنها) ما قال . . . فلما أنـزل الله براءة عائشـة أم المـؤمنـين فى ذلك ، وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى - وله المنة والفضل - يعطّف الصدّيق على قريبه مسطح ، وكان ابن خالة الصـديق ، وكـان مسكينـا لا مال له إلا ما ينفق عليـه أبـوبكـر رضى الله عنـه ، وكـان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله **﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾** الآية . . . فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا ياربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا . . . » . اهـ تفسير ابن كثير مع حذف بعض الكلمات والجمل .
وهذا الاستفهام (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) يفيد التعطيف تعطيف أبى بكر رضي

الله عنه على ابن خالته مسطع بعد أن تاب ونال العقاب، ويفيد أيضا الترغيب ترغيب أبى بكر رضى الله عنه فى مغفرة الله الغفور الرحيم برجع ما كان يصل به مسطحا من نفقة.

والآية تعم كل من كان متصفا بهذا الوصف الذى تضمنته هذه الآية الكريمة وإن كان سبب نزولها خاصا.

والذى دل على أن (ألا) فى (ألا تحبون أن يغفر الله لكم) ليست للتحضيض، وإنما هى همزة الاستفهام دخلت على (لا) النافية، الذى دل على ذلك هو جواب الصديق رضى الله عنه بقوله (بلى) و(بلى) لا يجاب بها إلا النفي.

الاستفهام السادس: (ألا تستمعون) وقد جاء فى قوله تعالى: ﴿**قال فرعون ومارب العالمين(٢٣) قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين(٢٤) قال لمن حوله ألا تستمعون**﴾(٢٥) الآيات: **(٢٣-٢٥)** من سورة الشعراء.

بعد أن قال موسى وهارون عليهما السلام لفرعون إنا رسول رب العالمين، وبعد محاورة موسى لفرعون(قد سبق بيانها وتفصيلها فى الرسالة التاسعة من هذه الرسائل حين تحدثت عن استفهام (ألم نربك فينا وليدا) بعد ذلك (قال فرعون ومارب العالمين) فأجابه موسى (قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) فلما سمع فرعون هذا الجواب التفت إلى من حوله من أشراف قومه ورؤساء دولته قائلا (ألا تستمعون) وهو استفهام تهكم واستهزاء بموسى عليه السلام وتكذيب له فيما قاله وتعجيب لمن حوله من جواب موسى عليه السلام الدال على أن لهم إلها غير فرعون.

الاستفهام السابع: (ألا يظن) فى قوله تعالى: ﴿**ويل للمطففين(١) الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون(٢) وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون(٣) ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون(٤) ليوم عظيم(٥) يوم يقوم الناس لرب العالمين(٦)**﴾. الآيات: (١-٦) من سورة المطففين.

فى هذه الآيات الكريمة يتوعد الله سبحانه وتعالى بالعذاب الشديد المطففين الذين إذا استوفوا حقهم من الناس بالمكيال يستوفونه وافرا تاما، وإذا أدّوا حق الناس الذى هو عليهم، إذا أدّوا بالمكيال أو الميزان أنقصوا فى الكيل والوزن ولم يعطوهم حقوقهم كاملة.

وبعد أن توعد الله سبحانه وتعالى المطففين بسوء العذاب قال: (**ألا يظن** أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين) وهذا الاستفهام (**ألا يظن**) استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب: ينكر الله سبحانه وتعالى على أولئك المطففين ويوبخهم أن لا يظنوا ويوقنوا أنهم مبعوثون فمسؤولون عما يفعلون يوم القيامة العظيم الشأن والهول، يوم يخضع الناس

ويقفون خشّعا لله رب العالمين، ولو أنهم ظنوا وأيقنوا ما نقصوا فى كيل ولا وزن، ولخشوا عاقبة ذلك، وأعطوا الناس حقهم موفورا.

وهذ الاستفهام يفيد أيضا التعجب على معنى كيف يجرءون على ذلك كأنها لا يخطر لهم إثمة على بال، ولا يلمّ بعقباه ظن؟!!.

الاستفهام الثامن: ؟ أفلا ينظرون) وقد جاء فى قوله تعالى: **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت(١٧) وإلى السماء كيف رفعت(١٨) وإلى الجبال كيف نصبت(١٩) وإلى الأرض كيف سطحت﴾**(٢٠). الآيات(١٧-٢٠) من سورة الغاشية

تضمنت الآيات الكريمة المتقدمة على استفهام (أفلا ينظرون) تضمنت ما يلاقيه الكافرون يوم القيامة من عذاب ونكال، وما يلاقيه المؤمنون من نعيم وتكريم، ثم جاء هذا الاستفهام (أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت) جاء منكرا موبخا كفار مكة الذين كذبوا بيوم القيامة وأنكروا قدرة الله سبحانه وتعالى على أن يبعث الأموات أحياء فى ذلك اليوم العظيم.

أنكر عليهم ووبخهم أن لا ينظروا بعيونهم نظرا يصحبه التدبر والتفكر والاعتبار إلى هذه الإبل كيف خلقت خلقا بديعا فريدا لم يأت على سنن غيرها من الحيوان الداجن: فلحمها يؤكل، ولبنها يشرب، وفى أوبارها وجلودها منافع كثيرة، ثم هى ركائب أسفار طويلة مضنية، وحاملات أثقال إلى بلاد دانية ونائية، صبور على الجوع والعطش أياما وليالى، طعامها سهل المنال، وقيادها هينّ لينّ لا يعرف جماحا ولا نفورا.

وإلى السماء كيف رفعت من فوقهم عالية بعيدة فى علاها، لا تقوم على عمد، وليس فيها من فطور، زانها القمر والشمس والنجوم، فما أجمل وما أروع وما أعظم!!.

وإلى الجبال كيف نصبت من فوق الأرض أشكالا عجيبة وأحجاما غريبة وألوانا مختلفة، منها ما يملأ النفس بهجة وسرورا. ومنها ما يملأ القلب هيبة وجلالا، ومنها ما هو جمال ومتاع، ومنها مورعب وخوف وفزع، بعضها أجرد أقرع عريان عابس، وبعضها مكسوّ بالشجر والزهر والنبات الأخضر، من قممها تتفجر الأنهار، وعلى سفوحها تسيل العيون.

وإلى الأرض كيف سطحت، فقطع خضر لا يمل منها بصر، وصحارى واسعة تحبو على وجهها الرمال، وتطير فى أجوائها العواصف، وأنهار تدفّق فيتدفق على ضفافها المدن العامرة والجنان الناضرة، وعيون جارية فتجرى الحياة فى النبت والأنعام وبنى آدم، وبحيرات فى جنبات الأرض صغيرة وكبيرة، وجزر كثيرة هنا وهناك مبعثرة، وأبحر ومحيطات يطول فى أوصافها ومنافعها وألوان جمالها الحديث والبيان.

إن الأعين التى تنظر، والقلوب التى تبصر، والعقول التى تفكر وتعتبر، إنها لو نظرت بتأمل، وأبصرت بتدبر، وفكرت بدقة وعمق لأدركت أن القادر على خلق هذه الأشياء التى لا ينظر إليها كفار مكة بتدبر وتفكر قادر على إخراجهم وإخراج الناس جميعا أحياء يوم القيامة وإدخال المنكرين منهم نار جنهم وبئس المصير.

وإعـراب كلمات هذا الاستفهـام سهـل واضح ومع ذلك أعرب لك (كيف خلقت): (كيف) اسم استفهام مبني على الفتح فى محل نصب حال، وصاحب الحال الضمير المستتر فى خلقت العـائـد على الإبـل وهـو نائب الفاعل للفعل الماضى المبني للمجهول: (خلق). والتاء تاء التأنيث حرف مبني على السكون لا محل له من الإعراب. وجملة (كيف خلقت) فى محل جر بدل اشتمال من الإبل، والمعنى أفلا ينظرون إلى الإبل كيفية خلقها.

أختى العزيزة:

بهذا الـــذى قد مضى ينتهى حديثى إليــك عن همزة الاستفهـام الـداخلة على (لا) النـافيـة للفعـل المضـارع، على أنـه قد بقي فى هذه الرسالة أن أحدثك عن همزة الاستفهام الـداخلة على (لن) النـافيـة النـاصبة لهذا الفعل، وهو حديث قصير، فإن همزة الا ستفهام هذه لم ترد فى القـرآن الكـريم إلا مرة واحـدة، وكان ذلك فى قوله تعالى: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون(١٢٣) إذ تقول للؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثـلاثـة آلاف من المـلائكـة منزلين(١٢٤) بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين**﴾(١٢٥). الآيات(١٢٣-١٢٥) من آل عمران.

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمـؤمنـين الـذين كانـوا معه فى يوم بدر (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين).

وكـان هذا الاستفهـام للتقـريـر ولطمأنـة قلوب المـؤمنـين، ومعنى التقرير هنا طلب الاعتراف من المؤمنين بما تضمنه السؤال: إما بالإيجاب وإما بالسلب.

ولما كان من الواضح البيّن أن هذا العدد من الملائكة فيه الكفاية بادر السائل نفسه ﷺ إلى الإجابة بدلا من المؤمنين فقال: (بلى) أي إن هؤلاء الملائكة يكفون.

ويحسن هذا الأسلوب وهو أن يقوم السائل نفسه بالإجابة عن سؤاله، يحسن فى الأمور البينة التى لا مجال لاختلاف الجواب فيها كهذا الذى ذكر وكما فى قوله تعالى: ﴿**قل أي شيء أكبر شهادة قل الله**﴾.

أختى العزيزة :

بهذا تنتهى رسالتى هذه إليك وينتهى حديثى عن همزة الاستفهام الداخلة على الأدوات النافية للفعل المضارع : على (لم) وعلى (لا) وعلى (لن).

سوف أحدثك فى الرسالة القادمة إن شاء الله عن همزة الاستفهام الداخلة على أدوات الشرط ، أسأله تعالى أن يعين وأن يسدد الخطا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أختك

همزة الاستفهام

****

مراجع ما جاء فى هذه الرسالة :

ا ـ المراجع على وجه الإجمال : .

١ ـ تفسير أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ـ الطبعة الثالثة ـ الناشر : الحلبى بمصر.

٢ ـ تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ـ الناشر : مكتبة ومطبعة النصر الحديثة بالرياض .

٣ ـ تفسير أبى السعود ـ الناشر : دار المصحف ـ مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .

٤ ـ الفتوحات الإلهية المعروفة بحاشية الجمل على الجلالين ـ الناشر : الحلبى بمصر.

٥ ـ تفسير ابن كثير ـ الناشر : الحلبى بمصر.

٦ ـ تفسير الكشاف للزمخشرى ـ الناشر : الحلبى بمصر.

٧ ـ تفسير القرطبى ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ـ الناشر : دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

٨ ـ تفسير الفخر الرازى ـ الطبعة الثانية ـ الناشر : دار الكتب العلمية بطهران .

٩ ـ إملاء ما منّ به الرحمن لأبى البقاء العكبرى ـ الطبعة الأولى ـ الناشر : الحلبى بمصر.

١٠ ـ مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ـ تحقيق الدكتور مازن المبارك وزميله ـ الطبعة الثانية الناشر : دار الفكر.

ب : المراجع على وجه التفضيل :

١ - الآيـة : (١٢٦) التـوبة : الطبري : (ج١١ ص٧٣) . أبو حيان : (ج٥ ص١١٦) . أبو السعود (ج٤ ص١١٣) . الفتوحات : (ج٢ ص٣٣٠) .

٢ - الآيتان (٥٨-٥٩) يوسف : الطبري : (ج١٣ ص٨) . الفتوحات : (ج٢ ص٤٦٥)- أبو حيان (ج٥ ص٣٢١)- أبو السعود : (ج٤ ص٢٨٨)- ابن كثير : (ج٢ ص٤٨٣) .

٣ - الآية (٨٩) طه : الطبري : (ج١٦ ص٢٠٢)- الفتوحات (ج٣ ص١٠٨) أبو السعود : (ج٦ ص٣٦) .

٤ - الآية : (٤٤) الأنبياء) : الطبري : (ج١٧ ص٣١)- الفتوحات : (ج٦ ص٣١٥) العكبري : (ج٢ ص٦٥) .

٥ - الآية (٧٢) القصص : الطبري : (ج٢٠ ص١٠٣)- الزمخشري : (ج٣ ص١٨٩) .

٦ - الآيـة(٢٧) السجـدة : الطـبري : (ج٢١ ص١١٤)- الفتـوحـات : (ج٣ ص٤٢٠) أبو حيان (ج٧ ص٢٠٥)- ابن كثير : (ج٣ ص٤٦٣) .

٧ - الآيتان (٥١-٥٢) الزخرف : الطبري (ج٢٥ ص٨٠)- أبو السعود : (ج٨ ص٥٠)- ابن كثير (ج٤ ص١٢٩) .

٨ - الأيتـان (٢٠-٢١) الـذاريـات : الطبري : (ج٢٦ ص٢٠٤)- أبو حيان : (ج٨ ص١٣٦) ابن كثير (ج٤ ص٢٣٥) .

٩ - الآيتان (٧٦-٧٧) البقرة : الطبري : (ج١ ص٣٦٩)- أبو حيان : (ج١ ص٢٧٤) أبو السعود : (ج١ ص١١٨)- الفتوحات : (ج١ ص٦٨) .

١٠ - الآيتان : (١٣-١٤) الملك : الطبري (ج٢٩ ص٦)- أبو حيان : (ج٨ ص٣٠١)- أبو السعود (ج٩ ص٦)- الفتوحات (ج٤ ص٣٧٧) .

١١ - الآيـات : (٦-١١) العـاديـات : الطـبري : (ج٣٠ ص٢٨٠)- أبـو حيـان (ج٨ ص٥٠٥)- الفتوحات : (ج٤ ص٥٧٧)- أبو السعود : (ج٩ ص١٩١)- ابن كثير : (ج٤ ص٥٤٢) العكبري : (ج٢ ص٢٩٢) .

١٢ - الآيـة(٨٢) النسـاء : الطـبري : (ج٥ ص١٧٩)- أبـو حيان : (ج٣ ص٣٠٤)- أبو السعود : (ج٢ ص٢٠٧) .

١٣ - الآية : (٢٤) محمد : الطبري : (ج٢٦ ص٥٧)- أبو حيان : (ج٨ ص٨٣)- أبو السعود (ج٨ ص٩٩) .

١٤ - الآيـات (٣٣-٣٥) ياسـين : الطـبري : (ج٢٣ ص٤)- أبو السعود (ج٧ ص١٦٦) ابن كثير (ج٣ ص٥٧٠) .

١٥ - الآيات : (٧١-٧٣) ياسين : الطبري : (ج٢٣ ص٢٨)- ابن كثير : (ج٣ ص٥٨٠) .

١٦ - الآيـات : (٨٥-٩٦) الصـافات : الطبري : (ج٢٣ ص٧٢)- أبو السعود : (ج٧ ص١٩٨)- القرطبي : (ج١٥ ص٩٤) .

١٧ - الآيات (٢٤-٢٨) الذاريات : الطبري : (ج٢٦ ص٢٠٨)- أبو حيان : (ج٨ ص١٣٩)- أبو السعود : (ج٨ ص١٤٠) الفتوحات (ج٤ ص٢٠٥) .

١٨ ـ الآيـة(٥٠) الأنعـام : أبـو حيـان : (ج٤ ص١٣٣)ـ أبو السعود : (ج٣ ص١٣٧)ـ الرازى : (ج١٢ص٢٣٠)ـ الفتوحات : (ج٢ ص٣٢).

١٩ ـ الآيتان : (٧٣-٧٤) المائدة : أبو حيان : (ج٣ ص٥٣٦)ـ أبو السعود (ج٣ ص٦٧).

٢٠ ـ الآيتـان : (٦٦-٦٧) مريم : الطـبرى : (ج١٦ ص١٠٦) أبـو حيـان : (ج٦ ص٢٠٥) أبـو السعود : (ج٥ ص٢٧٤)ـ الزمخشري (ج٢ ص٥٢٨).

٢١ ـ الآيـة(٣٠) الأنبيـاء : الطـبرى : (ج١٧ ص١٩)ـ أبو حيان : (ج٦ ص٣٠٧)ـ أبو السعود : (ج٦ ص٦٥).

٢٢ ـ الآيـة : (٢٢) النـور: الطـبرى : (ج١٨ ص١٠١)ـ ابن كثير : (ج٣ ص٢٧٦). أبو حيان : (ج٦ ص٤٤٠)ـ أبو السعود : (ج٦ ص١٦٥).

٢٣ ـ الآيات : (٢٣-٢٥) الشعراء : ابن كثير : (ج٣ ص٣٣٣)ـ أبو السعود : (ج٦ ص٢٣٩)ـ أبو حيان : (ج٧ ص١٢).

٢٤ ـ الآيـات : (١-٦) المطففـين : الطـبرى : (ج٣ ص٩٠)ـ ابـو حيـان : (ج٨ ص٤٣٨) أبـو السعود: (ج٩ ص١٢٤)ـ الفتوحات : (ج٤ ص٥٠٢) القرطبي : (ج١٩ ص٢٥٤).

٢٥ ـ الآيات : (١٧-٢٠) الغاشية : الطبرى : (ج٣٠ ص١٦٥)ـ أبو حيان : (ج٨ ص٤٦٤) أبو السعـود : (ج٩ ص١٥٠)ـ الفتـوحـات : (ج٤ ص٥٢٧)ـ القـرطبى : (ج٢٠ ص٣٤) الزمخشرى : (ج٤ ص٢٤٧)ـ المغنى لابن هشام : (ج١ ص٢٢٧).

٢٦ ـ الآيات : (١٢٣-١٢٥) آل عمران : أبو حيان : (ج٣ صص٥٠)ـ الزمخشرى (ج١ ص٤٦١) الفتوحات : (ج١ ص٣١١).

٢٧ ـ الآيـة(٧١) القصص : الطبرى (ج٢٠ ص١٠٣)ـ (أبـو السعود (ج٧ ص٢٣) (الفتوحات ج٣ ص٣٥٨).

٢٨ ـ الآية (٢٦) السجدة : الطبرى (ج٢١ ص١١٣) أبو السعود (ج٧ ص٨٧).



الأدب الإسلامي ..
وعلاقته بالمجتمع والحياة

د. نجيب الكيلاني

عالجت كتب الدراسات الأدبية ذلك الموضوع القديم والجديد معاً، ألا وهو علاقة الأدب (أو الأديب) بالحياة. وعندما نقرأ آراء النقاد البارزين ومؤرخي الأدب، ورواد المدارس الأدبية المختلفة، ندرك أنهم يقتربون كثيراً في مفاهيمهم العامة، وان بدت الخلافات عميقة جداً في بعض الأحيان، كما يحدث بين الكلاسيكيين والرومانسيين مثلاً، أو كما يحدث بين الواقعيين والرمزيين، لكن يظل الأدب دائماً وأبداً وثيق الصلة بالحياة، سواء احتفى بالعقل كما هو عند الرومانسيين، أو ركز على العاطفة مثلما يحدث لدى الرومانسيين، وسواء ارتبط بالواقع المحسوس الملموس، أو اهتم بالمثاليات والغيبيات والسمو الروحي كالذي يفعله الرمزيون، فلكل أديب حياته الخاصة والعامة، وله معتقداته التي يؤمن بها.

ما نريد أن نقوله أن الحياة واسعة وعميقة، وهي تشمل ما هو داخل «الذات» أو خارجها، وتنصهر في بوتقتها المظاهر العديدة، والثقافات المتنوعة، والتقاليد الراسخة، والمعتقدات المتباينة، والحياة في حركة موارة دائبة، تزدحم بالأحداث، وترتج بالصراعات، وتضطرم بالانفعالات والتفاعلات الصاخبة، ومما لا شك فيه أن كل عصر يترك بصماته على البيئات، ويؤثر على الأفراد والجماعات وبايجاز كبير فإن مادة الحياة غنية، بحيث يجد الأديب أي أديب مهما كان منزعه, العناصر اللازمة لعمله الفني، وفقا لمزاجه وتصوراته ومعتقداته وأهدافه.

الأديب إذن يستمد من الحياة، وينهض أدبه وينمو ويتحرك بما فيه من عناصر تلك الحياة، باعتبار الأديب كائناً حياً. ويؤثر ذلك الأدب تأثيراً متفاوتاً في الأفراد والجماعات، فلكم سمعنا أو قرأنا عن أديب أو كتاب معين ساهم في دفع الحياة وتوجيهها، وكان سبباً في حركة تغيير كبيرة، وقد يتناول التغيير أو التأثير مستويات ثقافية بعينها، أو يتناول القاعدة الشعبية العريضة ككل..

وإذا كان الأدب ـ كما يقال ـ تعبير عن الحياة وسيلته اللغة، إلا أنه لا يقدم لنا صوراً فوتوغرافية، أو فعلاً حرفياً لتلك الحياة، «لكنه يعبر عنها أو يفسرها أو ينقدها، او ينقل إلينا فهم الأديب للحياة»، فضلاً عن عملية التأثير فى المتلقى، إذ أنها هدف أساسى وإيجابى للأديب الجاد .

من هنا نستطيع أن نقول إن الأديب الحق هو الأديب الذى يتخذ موقفاً عقائدياً أو فكرياً من المجتمع، ويؤثر فى ذلك المجتمع، وهكذا نرى أن اختيار الأديب لموقفه الفكرى أو لمضمون عمله الأدبى إنما يستند على دعامتين، أساسيتين :

الأولى : المعتقد الفكرى للأديب :

الثانية : التشخيص الصحيح لمشاكل المجتمع وسلبياته واحتياجاته والأسلوب الأمثل لحركته الشاملة .

الارتباط بين الدعامتين ارتباط عضوى، ومن ثم من الصعب الفصل بينهما، لما بين الدعامتين من علاقة متبادلة، وتأثير متبادل أيضا .

والأدب الإسلامى يتواءم مع هذه المفاهيم الاجتماعية للأدب، بل إن هذه العلاقة بين الأدب والحياة، أو الأدب والمجتمع، علاقة واضحة فى فكر الأديب المسلم، الذى يدرك أبعاد رسالته، ويعى تجاربه الحضارية، ويفهم التلاحم الوثيق بين المبادىء الإسلامية وحركة الحياة على مدار العصور، ولقد حفل الفكر الإسلامى بعناصر القوة والتجدد والحركة والابتكار طوال حقب التاريخ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كانت تلك الحركة العلمية، والتراث الفكرى، واتصال عملية الاجتهاد والتجاوب مع ما يجد من أحداث الحياة وصورها، ولما ساهمت هذه الأصول الحضارية فى إثراء الفكر الغربى، وإثارة الحماسة لنهضته الحديث، ولا ما فتحت الثقافة الإسلامية من قبل نوافذها وأبوابها أمام ترجمات التراث العالمى من االيونان والهند وفارس وغيرها، ولما قامت بحركة التقييم والتصحيح لما انحرف من هذا التراث القديم، أوضل الطريق، ومن ثم أخرجت فكراً إسلاميا مؤثراً متميزا مازال يتألق بروائعه، فى شتى الفروع، حتى عصرنا هذا . . .

والأدب الإسلامى، تحت مظلة العقيدة الإسلامية الشاملة، يهدف أول ما يهدف إلى تكوين الفرد المسلم، ثم المجتمع المسلم، ويهتم بكل صغيرة وكبيرة للأفراد والجماعات، ويتمثل أمراضهم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويثير فى النفوس الرغبة للعمل الجاد، والبناء الصامد، ويجعل من ذلك العمل قيمة لا تقل عن العبادة، بل

ويجعل من التفكير والتأمل أيضاً فرعاً من العبادة «لا عبادة كالتفكر»، ويمارس فى الواقع فعل الخيرات والتمسك بالايثار والحب والعدل، ومحاربة الرذائل والمفاسد والمظالم، وصور الاستغلال والتحلل والإباحية، ويربط حياة الفرد، وحركة الجماعة بآداب ونظم وشرائع محكمة، هى مقياس الايمان الصحيح، والطريق إلى مرضاة الله .

ذلك هو المضمون الفكرى للأدب الإسلامى، سواء أكان قصة أورواية أومسرحية أو قصيدة أو فيلماً سينمائياً أو تليفزيونياً، ويخطىء من يظن أن الأدب الإسلامى الصحيح ينافق المجتمع، أويمالىء السلطات الجائرَة، أويعتصم بالجمود والتخلف والرجعية الفاسدة، أو يعتسف حلولاً لقضايا الناس وعللهم لا تمت إلى الواقع بصلة، فالعلاقة بين المعتقدات وبين حركة الحياة كما قلنا علاقة فهم وتبادل، وليست علاقة جهل أو تعسف .

والمسلم الحق لا يعيش فى برج عاجى، أويعتزل موكب الحياة الصاخب، فهوعامل وصانع ومفكر وعالم وطبيب ومهندس وفلاح وحرفى، وهوباحث اجتماعى، وقوة سياسية فاعلة، وباحث نفسى متعمق، والمجتمع المسلم هو المجتمع الذى يكون لبناته أفراد مسلمون، لكن هذا الذوبان الاجتماعى، لا يلغى شخصية الفرد المسلم، ولا يقضى على تميزه أو فرديته، ورحم الله الشاعر الفيلسوف محمد إقبال إذ يقول فى إحدى قصائده .

هوفى المجمع خالٍ : وهوفى الحشد طليق.

مثل شمع الحفل فى الحفل : فـــريد ورفيق

وإذا تعمقنا هذا التصور تعمقاً صحيحاً، نجد أن الأدب كقيمة اجتماعية، هوفى الواقع قيمة إسلامية، نعم قيمة إسلامية من ناحية المضمون الفكرى، ومن ناحية المجتمع الإسلامى المثالى الذى ينشده ذلك الأدب الإسلامى، ولا افتئات فى ذلك، أومجافاة لواقع الحياة وحقيقتها، وعلى الرغم من نشوء تيارات وفلسفات فكرية مخالفة فى المجتمعات الاسلامية، وفى المجتمعات الشرقية أو الغربية، إلا أن التيار الإسلامى يبقى راسخاً صامداً، يواجه تلك النزعات المنحرفة، على ضوء التجارب التاريخية والمعاصرة، ومن خلال الممارسات التى أفرزت الكثير من الكوارث العالمية، على صعيد السياسة والأخلاق والاقتصاد، إن مجتمعا كالمجتمع الأمريكى تحدث فيه جريمة كل ثلاث ثوان، يعنى أن ذلك المجتمع والمجتمعات المشابهة له تقف على أبواب فاجعة كبرى، وهناك ملايين الأطفال الذين يموتون جوعاً، فى الوقت الذى تقذف فيه الدول الغنية بملايين الأطنان من المواد الغذائية فى البحار، للحفاظ على السعر المرتفع لتجاراتها، وهناك الحروب العنصرية، والمجازر الطائفية فى الهند وافغانستان والفلبين وآسيا وأمريكا اللاتينية وروسيا . . .

فليس بدعاً، أن يقف الأدب الإسلامى فى هذا العصر، ويدين بقوة تلك المآسى المدمرة، ويحاول ـ عبر الاشكال الفنية المستحدثة ـ أن يفسر ويحلل وينقد ويؤثر، ويزرع الأمل فى النفوس، موحيا إليهم بالحياة الفاضلة التى دعا إليها الإسلام، وإلى التجربة الحضارية الفذة لعصور الإسلام المزدهرة .

فهل إذا أدى الأدب الإسلامى هذه الرسالة يكون **منافياً** لروح العصر؟؟ .

أو يكون **مجافياً** لاحتياجات الواقع الاجتماعى؟؟ .

أو يكون **متعسفاً** وجائراً عندما يقدم الحل الإسلامى؟؟ .

إن صدق التعبير لا يعنى الرضا بالواقع المرير، وتكريس ما هو كائن، والسير فى ركاب الانحراف بحجة العصرية والحرية؟؟ إن تجسيد تلك المأساة، على أسس ومقاييس إلهية موضوعية هو الصدق، وان شفاء الأرواح والقلوب والعقول هدف أسمى، وبداية صحيحة، وإن إزالة الأنقاض والخرائب، تمهيداً لبناء صحى شامخ هو الحل، ولم يوظف الأدب الإسلامى الصحيح فى تأديب العنصرية والطبقية والإباحية، لكنه دائماً وأبداً مشعل حق، ومبعث هداية وعامل بناء وسعادة ورفاهية وطاعة، وتآلف وتراحم .

إن الأوضاع الراهنة قد توحى بالحسرة بل واليأس أحياناً، فالفساد قد تسلح بمختلف الأسلحة الحديثة من فكر وإعلام وفيالق مدربة وقوى خفية تعمل من وراء ستار، وأنوار النيون البراقة قد غطت على سمات الفضيلة والحب والمغريات قد غزت عقول الناس وأرواحهم، فتحولت الأشواق العلوية، إلى مطالب مادية، وملذات جسديه، واحتفت الآداب العالمية بالغرائز وعنفها واشتعالها، وركزت على اشباع الرغبات الرخيصة، وأنماط الحياة المترهلة الكسلى، والمتع الزائلة، وأصبح ذلك كله هدفا فى حد ذاته. وهذا ليس بجديد على تاريخ البشرية، فالناظر فى صفحات الماضى، سوف يجد مثيلاً أو شبيها له فيما مضى من حضارات ومدنيات وأحداث، ولا يصح أن نخدع باختلاف العصر والأسماء والأزياء ووسائل الحرب والحياة الجديدة .

لكن يبقى أن يكون الأدب الإسلامى كما نقول دائماً، على وعى كامل بنشوء تلك الظواهر الشاذة، وأسباب تلك الأمراض الاجتماعية وأعراضها، وأن يكون لديه حصيلة كافية من الممارسات والتجارب ومختلف الثقافات، حتى يلعب دوره الاجتماعى ـ أعنى الدينى ـ عن وعى وبصيرة، وأن يكون نداً لحملة الأقلام فى أى موقع، محلياً كان أم عالمياً، ولسوف يجد الأديب الإسلامى حافزاً قوياً، يحرك مشاعره، ويجلى موهبته، وينشط

فكـره : وليـترنم دائـماً بذلـك التعبـير القـرآنى الإلهى ، ﴿**قـل إن صلاتى ونسكى ، ومحيـاى ومماتى ، لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين**﴾ .

إن أحد نقادنا الكبار ـ د . عز الدين اسماعيل ـ يقول «مؤلفات كبار الكتاب تهدى إلى السلوك بأوسع معانيه ، لأنها تكشف عن النظام الدقيق ، وعن الحكمة والتوافق بين العناصر المختلفة ، وألا تبدد الحياة أجزاء لا معنى لها . والعمل الأدبى يرتاد بنا الحياة ويخلق بيننا وبينها علاقات جديدة من الفهم والمعرفة . . . » .

والآن أهنـاك شك فى أن التـزام أدبنـا المعـاصر بالإسلام تشريف لهذا الأدب ، وسمو بتلك المجتمعات التى عانت وتعانى مرارة القهر واليأس والحرمان منذ سنوات طويلة؟؟ .

تعلموا العلم

روى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنه قال :

تعلمـوا العلم ، فإن تعلمـه لله خشيـة ، وطلبـه عبـادة ، ومـدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة

وهـو الانيس فى الـوحدة والصاحب فى الخلوة والدليل على الدين ، والمصبر على البأساء والضراء .

يرفـع الله به اقـوامـاً فيجعلهم فى الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم ، أدلة فى الخير ، تقتصى أثارهم وترمق افعالهم . . .

يبلغ العبـد به منـازل الابـرار والدرجات العلا ، والتفكر فيه يُعدل بالصيام ومدارسته بالقيام . . .

به يطاع الله عز وجل ، وبه يعبد وبه يوحد ويمجد ، وبه يتورع وبه توصل الارحام ، وبه يعرف الحلال والحرام . . .

وهو امام والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . . .

صفحة لغة

لا تَقُلْ .. وَقُلْ :

للأستاذ الدكتور عبد العظيم على الشناوى
رئيس قسم اللغويات بالجامعة

● ملحوظـــة : قد يجوز فى بعض اللهجات بعض ما منعناه ولكن النحويين أهملوا تلك اللهجات لأنها لم تأخذ مكانها فى الأساليب العربية الفصيحة الواردة عن جمهور العرب ●

لا تقل : فتاة غيورة	وقل فتاة **غيور**
ولا تقل إمرأة صبورة	وقل امرأة **صبور**
ولا تقل هى طموحة	وقل هى **طموح**

وذلك لأن فعولا بمعنى فاعل لايقبل التاء ولوكان وصفا لمؤنث .

قال ابن مالك : ولا تلى فارقة فعولا : أصلا .

أى أن التاء لاتلى فعولا فارقة بين المؤنث والمذكر : إن كان أصلا أى بمعنى فاعل : فإن كان فعول بمعنى مفعول وجاء وصفا لمؤنث جاز دخول التاء وعدم دخولها نحو ناقة ركوب وركوبة . وشاة حلوب وحلوبة .

وقس على ما ذكرنا فلا تقل معدة هضومة وقل معدة هضوم وهكذا .

* * *

لا تقل نحن فخورون	وقل نحن **فُخُرُ**
ولا تقل نحن صبورون	وقل نحن **صُبُرُ**
ولا تقل نحن غيورون	وقل نحن **غُيُر**

وذلك لأنه يشترط فى الصفة التى تجمع جمع مذكر سالما قبول التاء.
وفعول بمعنى فاعل لا يقبل التاء ـ كما عرفت ـ فلا يجمع جمع مذكر سالما: وإنما يجمع جمع تكسير على فُعُل. كقول الصحابى: نحن صُبُرٌ عند اللقاء صُدُقٌ فى المقال وقول الشاعر:

ثم زادوا أنهم فى قومهم غُفُر ذنبهم غير فُخُر

* * *

لا تقل امرأة غضبانة	وقل امرأة **غضبى**
ولا تقل امرأة سكرانة	وقل امرأة **سكرى**
ولا تقل امرأة عطشانة	وقل امرأة **عطشى**

وذلك لأن جمهور العرب لم يؤنث فعلان صفة بالتاء وإنما أنثه بالألف كما مثلنا.

* * *

لا تقل هم سكرانون	وقل هم **سُكارى** أو **سكرى**
ولا تقل هم غضبانون	وقل هم **غضابى** أو **غضبى** أو **غِضاب**
ولا تقل نحن عطشانون	وقل نحن **عِطاش**

وذلك لأن هذه الصفة لا تقبل التاء فلا تجمع جمع مذكر سالما. وقد عرفت ذلك آنفا.

هذا وبالله التوفيق،،،



غريب يبحث عن غريب

للشيخ محمد بن عبد الله زربان الغامدي

مدير المعهد الثانوي التابع للجامعة

العشق يسكن فى القلوب فيقتل ... والحب تطلبه النفوس وتقبل
وتصارع الأشواق فى سكراتها ... حيناً فتمسكها وحيناً ترسل
كل يروم محبة لينالها ... يسعى إليها جاهدا ويهرول
يفنى الحياة لأجلها ولربما ... ضل الطريق إلى الحبيب فيفشل
فيظل طول طريقه متعثراً ... يتلمس الأعوان فيه فيخذل
أنا لى حبيب حبه فى مهجتى ... هو فى فؤادى ساكن متغلغل
هو راحتى هو قوتى هو عزتى ... من نبعه الصافى دواماً أنهل
ياصاح ما بال الحبيب فلم يعد ... كالأمس يدنو للمحب ويقبل
قد غاب عن عينى سوى أطيافه ... أتراه يتركنا وعنا يرحل
هيا بنا ياصاح نطلب إثره ... ونسير بين العالمين ونسأل
أرنى بلاد العرب فهو يحبها ... فلعله فيها يقيم وينزل
واقصد بلاد الشام وأطرق بابها ... فلعلنا نجد الحبيب فندخل
وادخل دمشق فربما عمر بها ... إن قيل من هو قل إمام عادل
قف فى ربا اليرموك هل ترى خالدا ... أو هل ترى القعقاع وهو يهلل
ماذا دها الشام الحبيبة لم تعد ... كالأمس هاهى قد بدت تتبدل
لاتنس أولى القبلتين نزورها ... ولكم تشد لها الرحال وتنقل
صلى إليها المسلمون وحينما ... أمروا إلى البلد الحرام تحولوا
من يخبر الفاروق أن القدس فى ... أيدى اليهود الغاصبين مكبل
ما كان يخطر للقلوب بأنه ... عن عالم الإسلام يوماً يعزل
واليوم فى لبنان ينزف جرحنا ... إنى لأذكره ودمعى يهطل

كم من رضيع يتموه وخوفوا ... من آمنين وكم نساء رملوا
عاثوا فساداً فى البلاد وأهلها ... ساموهمو سوء العذاب ونكلوا
فإلى متى والذل فوق رقابنا ... يا أمة الإسلام أمر مخجل
هيا بنا نحو العراق فكان فى ... بغداده دار الرشيد ومنزل
من خاطب المزن الثقال بقوله ... فى أى أرض شئت قطرك ينزل
فلسوف يأتينى خراجك إنه ... بالعدل يأتينا ولو لم نسأل
والقادسية هل ترى سعدا ومن ... قد كان صحبته أقول تمهلوا
حتى تروا ماذا جرى من بعدكم ... مما يشيب له الوليد ويذهل
وسألت أرض النيل هل عمروبها ... قالوا رويدك قد مضى أفتجهل
يا صاحبى عوداً إلى الحرمين إن ... لاقيت فيها من أحب وأقبل
يارب هل أنا فى بلاد العرب أم ... أنا لم أجدها بل إلى يخيل
إرحل بنا ياصاح نطلب غيرها ... هيا لأندلس ودعنى أسأل
ياأهل أندلس أجيبوا من همو ... من ضيعوا الملك العظيم وأهملوا
ياصاح عن أفريقيا أرأيت من ... يدرى حقيقتها فسارع يعمل
أو يترك الباغى يعيث بأهلها ... ظلماً فمن لمصيرها يتحمل
هيا إلى الأفغان إن جهادهم ... قد أعجز الإلحاد شعب أعزل
لكنه الإيمان أعظم قوة ... للمسلمين به الصعاب تذلل
كيف الخلاص لأمتى مما بها ... فالجسم منها بالهزائم مثقلُ
الله ينصر من يجيب لأمره ... والمستجيب لما سواه سيخذل
كثرت مصائب أمتى فتمزقت ... فالموت فى أشلائها يتسللُ
فى كل أرض نشتكى ألم الجرا ... ح وزهرنا فى كل يوم يذبل
النور ننبذه وراء ظهورنا ... لكننا نحو الظلام نهرول
ياويل قوم ضيعوا قرآنهم ... والسنة الغرا كذاك وأغفلوا
ولسورة الأنعام فيها منهج ... والنور والأحزاب والمزمل
ساد الشقاق مع التفرق بينهم ... وهناك من يذكى الخلاف ويشعل
ظنوا الكمال لدى العدل (الغرب) فتهافتوا ... فى حضنهم وهدى المهيمن أكمل
وتلمسوا نظماً تصاغ وفيهم ... أقوى نظام للحياة وأشمل

فى كل يوم والعدو يذيقهم   من بأسه وببعضهم قد أشغلوا
يأمة الإسلام هل من توبة   فالله يجزى بالجميل ويجزل
توبوا إلى الرحمن توبة صادق   فالباب مفتوح فهيا فادخلوا
أين الشباب اليوم هل من يقظة   للحق والأعدا لها تتزلزل
ونزيل أدران الهزائم كلها   عن جسم أمتنا الجريح ونغسل
فترسموا نهج الرسول وأيقنوا   بالنصر يأتيكم فلا تستعجلوا
وعلى المحجة فاستقيموا ولتكن   لله وجهتكم عليه توكلوا
وسلوا الثبات من المهيمن واثبتوا   كم نكبة أسبابها المستعجل؟
وأقولها والحزن يعصر مهجتى   وأكاد من ألم الحقيقة أقتل
كم من خبايا فى الزوايا إنما   الموت خير للجبان وأجمل
ياصاحبى وأراك تسأل من أنا   إنى أنا الإسلام يامن تسأل





للشاعر أبى إسحاق إبراهيم الإلبيرى الأندلسى

من ليس بالباكى ولا المُتَباكي ... لقبيح ما يأتي فليس بزاكِ
نادت بى الدنيا فقلْتُ لها: اقْصِري ... ما عد فى الأكياس من لَباكِ[1]
ولما صفا عند الإلهِ ولا دنا ... منه امرؤ صَافاكِ أو دَاناكِ
ما زلت خادعتى ببرق خُلَّبٍ ... ولو اهتديت لما انخدعت لِذاكِ
قالت: أغرَّكَ من جناحك طوله ... وكأن به قد قُصَّ فى أشْراكي[2]
تالله ما فى الأرض مَوْضِعُ راحة ... إلا وقد نصبت عليه شِباكى
طِرْ كيف شئت فأنت فيها واقع ... عان بها لا يرتجى لِفَكاك
من كان يصرع قرنه فى معرك ... فعلى صَرْعَتُهُ بغير عِراكِ[3]
ما أعرف العضب الصقيل ولا القنا ... ولقد بَطَشْتُ بذى السلاح الشَّاكي
كم ضَيْغَمٍ عفرته بعرينه ... ولكم فتكت بأفتك الفُتَّاكِ
فأجبتها متعجباً من غدرها ... أجزيت بالبغضاء من يَهْواكِ
لأجلت عينى فى بنيك فكلهم ... أسراك أو جرحاك أو صَرعاكِ
لو قارَضُوكِ على صنيعك فيهم ... قطعوا مدى أعمارهم بِقِلاَكِ[4]
طُمِسَتْ عقولهم ونور قلوبهم ... فتهافتوا حرصاً على حَلْواكِ[5]
فكأنهم مثل الذباب تساقطت ... فى الأرى حتى استؤصلوا بهَلاكِ[6]
لا كنت من أم لنا أكّالَةٍ ... بعد الولادة، ما أقل حياكِ!

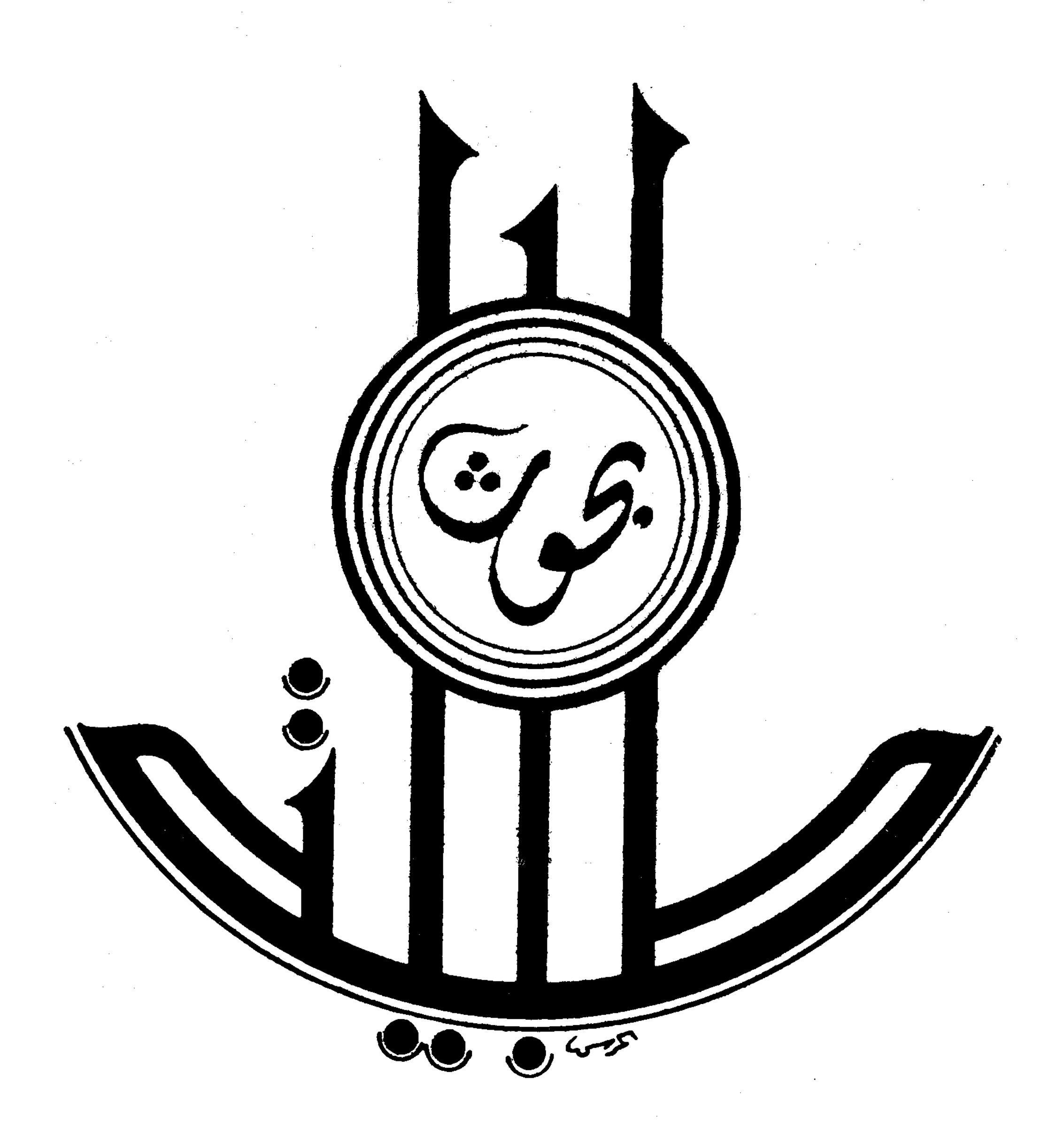
---

(١) أقصر (بهمزة القطع) : انتهى، وسهّلها الشاعر ضرورة .
(٢) ضبطت الكاف من (أغرك) و (جناحك) بالكسر فى الأصل المخطوط . قلت: وانظر الخطاب بعد ذلك .
(٣) القِرن بالكسر كفؤك فى الشجاعة، أو هو عام .
(٤) فى الأساس : فلان يقارض الناس مقارضة : يلاحيهم ويواقعهم . وعن أبى الدرداء : إن قارضت الناس قارضوك وإن تركتهم لم يتركوك .
(٥) فى الأساس : طمس الأثر، وطمسته الريح .
(٦) الأرى : العسل .

ولقد عهدنا الأم تلطف بابنها ... عطفا عليه وأنت ما أقْسَاكِ
ما فوق ظهرك قاطنٌ أو ظاعنٌ ... إلا سَيُهْشَمُ فى ثفالِ رَحاكِ(١)
أنت السراب وأنت داء كامن ... بين الضلوع فما أعز دَواكِ!
يُعْصى الإله إذا أطعت وطاعتى ... لله ربى أن أشق عَصاكِ(٢)
فرض علينا برنا أماتنا ... وعُقوقُهنَّ محرم إلآكِ !
ما إن يدوم الفقر فيك ولا الغنى ... سيَّان فقرك عندنا وغِناكِ
أين الجبابرة الألى ورِياشُهُمْ ... قد باشروا بعد الحرير ثَراكِ(٣)
ولطالما رُدُّوا بأردية البها ... فتعوضوا منها رداء ردَاكِ
كانت وجوههم كأقمار الدُّجا ... فغدت مُسَجَّاةً بثوب دُجاكِ
وعنت لقيوم السماوات العلا ... رب الجميع، وقاهر الأمْلاكِ(٤)
وجلال ربى لو تصح عزائمي ... لزهدت فيك ولابْتَغَيتُ سِواكِ
وأخذت زادى منك من عمل التقى ... وشددت إيماني بنقض عُراكِ
وحططت رحلى تحت ألوية الهدى ... ولما رآنى الله تحت لِواكِ
مهلا عليك فسوف يلحقك الفنا ... فترى بلا أرض ولا أفْلاكِ
ويعيدنا رب أمات جميعنا ... ليكون يرضى غير من أرضاكِ
والله ما المحبوب عند مليكه ... إلا لبيب لم يزل يَشْناكِ
هجر الغَواني واصلاً لعقائل ... يضحكن حبا للولي البَاكى
إنى أرقت لهن لا لحمائم ... تبكى الهديل على غصون أراكِ
لا عيش يصفو للملوك وإنما ... تصفو وتحمد عيشة النُّسّاكِ
ومن الإلهِ على النبى صلاته ... عدد النجوم وعِدَّةَ الأمْلاكِ(٥)

---

(١) الثفال : الحجر الأسفل من الرحى .
(٢) شق العصا . قال فى القاموس : هى مخالفة جماعة الإسلام .
(٣) الرياش والريش (بمعنى) وهو اللباس الفاخر، ومنه قوله تعالى ﴿وريشاً ولباس التقوى﴾ .
(٤) فى التنزيل الحكيم (طه ٢٠/١١١) ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما﴾ . والأملاك ج ملك .
(٥) قلت : الظاهر من البيت أن يريد بالأملاك : الملائكة .
وفى القاموس : الملك تجمع على ملائكة وملائك .


بحوث

الأقراص - الحبوب - الكبسول

CAPSULES PILLS TABLETS

صيدلى / حمدى إبراهيم على إبراهيم
مستشفى الجامعة الإسلامية

يمكن تعاطى العقاقير بطرق عديدة .

ويعتبر التعاطى عن طريق الفم هو أشهر هذه الطرق وأبسطها وأكثرها أمناً . بل وأفضلها من الناحية الإقتصادية .

وهناك بعض الاستثناءات النادرة التى نضطر فيها إلى أخذ الدواء عن طريق آخر .

فقد يتأثر العقار بإفرازات المعدة ويعتبر غير ذى فعالية كما فى الانسولين INSULIN والأدرينالين ADRENALINE . . وبعض الأدوية بالرغم من عدم تأثرها بالعصارات المعدية ولكنها عديمة الامتصاص. ولذلك لا يعتمد عليها إلا فى التأثير الموضعى داخل المعدة والأمعاء كما فى حالات الإصابات المعوية أو لتقليل البكتريا الموجودة فى الأمعاء الغليظة قبل إجراء العمليات الجراحية فيها .

ومن هذه الأدوية عديمة الإمتصاص عقار النيومايسين NEOMYCIN والسلفات الشحيحة الذوبان كما فى السلفاجواندين والسلفاثيازول . أيضا هناك بعض الأدوية تؤثر تأثيرا مباشرا على جدران المعدة GASTRIC MUCOSA ويمكن تقليل التأثير المباشر لها إذا أعطيت بعد الطعام أو كسوة الأقراص والكبسولات بالكسوة المعوية . وتعتبر الأمزجه MIXTURES هى الأدوية السائلة التى يمكن تعاطيها عن طريق الفم بكميات مناسبة عند الحاجة أو يتناولها المريض دفعة واحدة ADRAUGHT وهذا حديث عن الأقراص والحبوب والكبسولات . . مركزاً الجانب الأكبر على الأقراص وأسأل الله التوفيق .

الأقراص TABLETS

الأقراص هى مستحضر صيدلى جامد يشتمل على مادة فعالة أو أكثر . . مخففه أو غير مخففه بمادة خاملة أو أكثر DILUENTS . ومقسمة إلى جرعات متفردة فى كتل صغيرة متماسكة ومعدة للتعاطى بالفم عن طريق البلع أو عن طريق المضغ كما فى عقار الفينولفثالين PHENOLPHTHALINE أو بوضعها تحت اللسان حيث تمتص منها المواد الفعالة مباشرة كما فى مادة الأيزوبرينالين ISOPRENALINE .

ويمكن أن تكون الأقراص معدة للإستحلاب LOZENGES لتذوب ببطىء فى الفم فضلا عن تفتتها إذا لزم الأمر .

وهناك الأقراص الفوارة EFFERVESCENT -- TABLETS ليكون العقار أكثر إستساغاً . . كما فى أقراص البوتاسيوم .

ويوجد أيضا فى بعض الأحيان مستحضرات طبية ليست للتعاطى عن طريق الفم. ولكنها تحضر على شكل أقراص سريعة الذوبان فى الماء كما فى محاليل غسول الفم.

وأخيراً فإن الأقراص التى تحتوى على مواد سامة.. لابد أن تكون على شكل خاص وألوان محددة.

صناعـــة الأقراص

وصف الأقراص:

الأقـراص المكسـوة والغير مكسوة تكون على هيئة أجسام جامدة مستديرة بيضية أومزواة مسطحة الأوجه أو محدبتها.

ولا يزيد وزن كل منها فى المعتاد على ـ و١ جم.

وأسطحها ناعمة ملساء. وقد تكون مصقولة لامعة.

ومظهرها العام متجانس منتظم وحوافيها تامه كاملة غير متآكلة وهى غير هشة ولكنها صلبة بحيث تتحمل الصدمات فلا تتكسر إذا سقطت من إرتفاع متر على سطح خشبى.

ولا يحتوى القرص كله على المواد الفعالة فحسب.. وإنما يحتوى بجانب ذلك على سواغات ومواد مضافة إليها.

وهـذه المـواد بطبيعـة الحـال هى مواد غير ضارة وليس لها تأثـير طبى على القيمـة العلاجية للمواد الفعالة فى الأقراص.

وهذه المواد المضافة هى :ـ

— مواد مخففة.
— مواد مبللة.
— مواد مفتتة.
— مواد مزلقة.
— مواد مساعدة على التماسك.
— مواد ملونة ومحسنة للطعم.

ومن المواد المخففة: فسفات الكالسيوم ـ السيليكا الرغوى ـ الدكستروز المائى والغير مائى ـ سكر اللبن وملح الطعام.

والمـواد المبللة: تفيـد فى تحويـل مسحـوق المـواد إلى حبيبات أكبر تخلومن فقاقيع الهواء. ويتحدد نوعيتها وطريقة التعامل معها بالتجربة والخبرة فى صناعة الأقراص.

المواد المفتتـــة:

وهذه المواد تساعد على تفتيت الأقراص وسهولة إختراق المحاليل لها لامتصاص الدواء.

وقد تكون أساساً للمادة الفوارة فى الأقراص الفوارة. مثال حمض الليمون أو حمض الطرطريك مع بيكربونات الصوديوم أو البوتاسيوم. ومن المواد التى تساعد على تفتيت الأقراص أيضاً :ـ

سليكات الألمونيوم والمغنسيوم ـ ميثيل السليولوز والنشا.

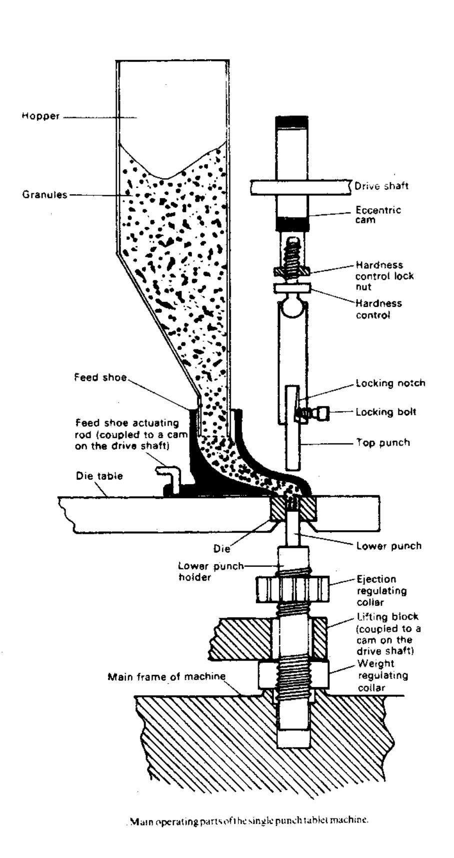
المـواد المزلقـــــة :

وهــذه لها أهميــة خاصــة فى عمليــة تصنيع الأقراص . . فهى تساعد على إنزلاق الخليط . ومثال لها بودرة التلك .

وتقليل الاحتكاك مع الآلات .

ومنع إلتصاق حبيبات الخليط أثناء عملية الضغط .

ومثال لذلك مادة حمض الستياريك (الدهنيك)، ستيارات المغنسيوم .



Main operating parts of the single punch tablet machine.

المواد المساعدة على التماسك :

وهى التى تســاعــد على إحتفــاظ الأقــراص بشكلها النهائى بعد التصنيع . ويجب أن توضع بعناية وبكميــات منــاسبــة لكى لا يتحــول القــرص إلى جسم صلب لا يتفتت فى المعدة أو الأمعاء . وبالتالى لا يستفاد من مواده الفعالة . ومن المواد التى تستعمل لهذا الغرض :ـ

الصمغ العربى ـ الجيلاتين ـ صمغ الكتيرة ـ محلول الجلوكوز والنشا .

كســـــوة الأقراص TABLET COATING :

قد تكسى الأقراص بطبقة أو بعدة طبقات من مادة خاصة أو أكثر للأسباب التالية :ـ

— إخفاء طعمها الغير مستساغ .

— حمايتها من تأثير تعرضها للجو والرطوبة .

— حمايتها من تأثير العصير المعدى الحمضى .
— تحسين مظهرهـــا .
— قد يصقل سطح الأقراص بالشمع أو بمادة أخرى مناسبة ليصير أملس ناعما .

ومن المواد المستعملة لكسوة الأقراص :ـ
— إيثيل السليولوز .
— بولى فينيل بير وليدون .
— السكـــــــــر .

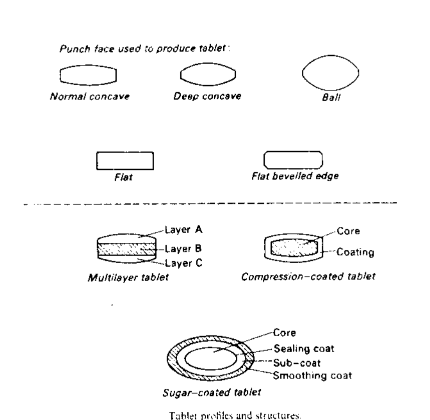
ويجب أن تكون مادة التغليف من طبقة رقيقة حافظة . علاوة على عدم تأثيرها على حجم أو وزن القرص خاصة إذا كان حجمه أو وزنه قبل الكسوة كبير .

الكســـوة المعويـــة : ENTERIC COATING

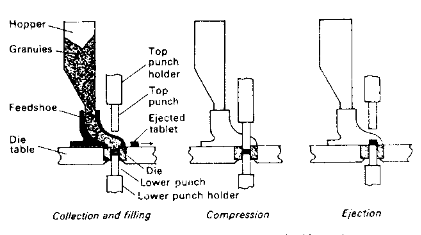
فى هذا النـوع تغطى الأقـراص بطبقـة من مادة خاملة أو أكثـر لا تتأثـر بالعصـير المعـدى . . فتمر الأقـراص من المعـدة سليمـة دون أن تتفتت ودون أن تؤثـر محتـويـاتها فى ظهارة المعدة . ولكنها تذوب فى العصير المعوى القلوى حيث تمتص موادها الفعالة .

ومثال ذلك الأقراص التى تحتوى على أملاح البزموت ، يوديد الإميتين والإرثرومايسين .
BISMUTH- SALTS, EMETINE-IODIDE, ERYTHROMYCIN

ومن أمثلة المواد المستعملة فى الكسوة المعوية :ـ
— الجيلاتين المعامل بالفورمالين FORMLIZED- GELATIN .
الكيراتين KERATIN .
السالول SALOL .
اللك المصفى SHELLAC .



Tablet profiles and structures



The compression cycle for a single punch tablet machine

الأقراص طويلة المفعــول SUSTAINED- ACTION :

فى هذه الأنــواع من الأقــراص : يذوب جزء منهــا فى المعــدة ليعطى تأثيراً سريعاً . . ثم يذوب باقى القرص فى الأمعاء . . ليعطى تأثيراً متجدداً .

ومن أمثلة ذلك الأقراص المحتوية على هالوجينات المعادن القلوية ALKALI METAL HALIDES والإرثرومايسين .

ومن هنا نجد أن مميزات تعاطى الدواء بواسطة الأقراص : أن التعاطى يتم بكمية ثابتة من العقار ذات خاصية طبيعية وكيميائية خاصة لمدة محدودة وله قوة علاجية .

ولكن تبقى صعوبة البلع عند بعض الأفراد . . خاصة عند الأطفال .

الحبــــوب PILLS

هى مستحضـرات على هيئـة كتـل صغيرة كروية أوبيضاوية الشكل . تحتوى على جرعات معينة من الأدوية المعدة للإستعمال الباطنى .

تزن الحبة ما بين (١ر ــ ٣ر) جرام عدا الكسوة إذا ما وجدت .

وتحضـر الحبـوب بخلط مادة دوائيـة أو أكثـر خلطـاً جيداً مع قاعدة التماسك (السواغ) المناسب . . بنسب تجعل الناتج عجينة شبه صلبة متماسكة متجانسة لدنة تحتفظ بقوامها وشكلها مع تخزينها .

ويجب أن تتفتت الحبوب بعد تعاطيها فى المعدة أو الأمعاء .

والسواغ المستعمل فى صناعة الحبوب يمكن أن يكون أحد المواد التالية :ـ

المـاء ـ الجلسـرين ـ الجلوكـوز ـ الشراب البسيط ـ سكر اللبن ـ النشا ـ الصمغ العربى ـ مسحوق الآجار ـ مسحوق العرقسوس .

كســـوة الحبـــوب :

وكـما فى الأقـراص . . قد تكسى الحبـوب لتحسـين مظهرها أولتغطية الطعم الغير مستساغ للمواد التى تحتـويهـا . . ولحفـظ محتـويـاتها من الفساد عند التخزين . . أو لحمايتها من العصير المعدى . . أولمنع تأثيرها على جدار المعدة .

والمواد المناسبة لذلك :ـ

السكـر ـ الشيكـولاتة ـ زبدة الكاكاو ـ الجيلاتين ـ بلسم الطولو . . أيضا . . يمكن كسوة الحبوب بالكسوة المعوية بواسطة الكيراتين أو حمض الاستياريك أو بالسالول حينما يراد تفتيتها فى الأمعاء وليس فى المعدة كما فى حالة الأقراص .

ومن **أمثلة الحبـوب** :ـ حبـوب الكسكـارا والبـلادونـا ـ حبوب الصبر والحديد ـ حبوب الكوديين ـ حبوب الحنظل والسكرات .

الكبســــــول CAPSULES

الكبسولات هى جرعات مفردة جامدة يكون الدواء فيها فى داخل محافظ صلبة أولدنة أومرنة قابلة للذوبان .

وتكـون كرويـة أو بيضـاويـة أو اسطـوانيـة ذات أطـراف مستـديرة . وهى مختلفة الأحجام وتتكون المحافظ عادة من جزءين . . ينطبق أحدهما على الآخر .

وتصنع من الجيلاتين GELATIN أو من ميثيل السليولوز METHYL CELLULOSE وقد تلدن بالجلسرين أو بالسورتبول أو بالسكر . . أو بأية مادة أخرى مناسبة وقد تضاف إليها أصباغ أو مواد ملونة .

كما يلزم إضافة مادة حافظة لمنع التخمر الفطرى وبخاصة فى حالة المحافظ الجيلاتينية .

وتستعمـل المحـافـظ اللدنـة SOFT CAPSULES للمـواد السـائلة أو شبـه السـائلة . ولا تستعمـل الكبسـولات للمحتـويـات التى تذيب مادة المحـافـظ . والمـواد القـويـة المفعول . . والتى تكون جرعاتها صغيرة . . يجوز تخفيضها بمواد خاملة قبل توزيعها على المحافظ .

أمـا المـواد التى تتسيـل مخاليطهـا مثـل مخلوط المنثـول والكـافـور والكلورال هيـدرات MENTHOL, CAMPHER, CHLORAL HYDRATE فيمكن وضعها فى محافظ صلبة . . على أن تخلط بمادة ماصة مثل :-

كربونـات المغنسيوم :

أما الخلاصات السائلة وكذلك المواد التى تحتوى على نسبة كبيرة من الماء فيجب تبخيرها وتركيزها أولا ثم مزجها بالبرافين السائل أو أى زيت مناسب . ثم وضعها فى محافظ لدنة .

وتمتـاز الكبسـولات على الأقـراص بأنه يمكن التحكم فى كمية المفرد الدوائى أو المفردات الدوائية بحسب حاجة المريض .

وأمثلة على الكبسولات المستعملة :-

— كبسولات الأمبسلين .
— كبسولات الكلورا مفنيكول .
— كبسولات أوكسى تتراسيكلين .
— كبسولات تتراسيكلين .
— كبسولات كلور تتراسيكلين .

Stages in the filling of hard capsules

والحمد لله رب العالمين

* * * * *

المراجـــع

Text book of pharmaceutics. E.A. RAWLINS

دستور الأدوية المصرى ١٩٧٢ م

المعجم الطبى الصيدلى الحديث . دكتور على محمود عويضة .


مختارات من
الصحف

تنبيهات هامة

على ما كتبه الشيخ محمد على الصابونى

فى صفات الله عز وجل

لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن ولاه أما بعد:

فقد اطلعت على المقابلة التي اجرتها مجلة «المجتمع» مع فضيلة الشيخ محمد على الصابوني ونشرت في العدد رقم ٦١٣ وتاريخ ١٤٠٣/٦/٧هـ وعلى مقالاته الست المنشورة في اعداد المجتمع رقم ٦٣٧ وتاريخ ١٤٠٣/٩/١٧هـ ورقم ٦٢٨ وتاريخ ١٤٠٣/٩/٢٤هـ ورقم ٦٢٩ وتاريخ ١٤٠٣/١٠/٩هـ ورقم ٦٣٠ وتاريخ ١٤٠٣/١٠/١٦هـ ورقم ٦٣١ وتاريخ ١٤٠٣/١٠/٢٣هـ ورقم ٦٤٦ وتاريخ ١٤٠٤/٢/١٧هـ وقد اشتملت على أخطاء نبه على بعضها صاحب الفضيلة الدكتور صالح بن فوزان الفوزان في مقاله المنشور بمجلة الدعوة في عدد ١٥ رقم ٩٠٤ وتاريخ ١٤٠٣/١٠/٢٩هـ وفى مجلة المجتمع بعددها رقم ٦٤٦ وتاريخ ١٤٠٤/٢/١٧هـ و٦٥٠ في ١٤٠٤/٢/٢٤هـ وقد أجاد وأفاد وأحسن جزاه الله خيرا ونصر به الحق وقد رأيت التنبيه على ما وقع فيها من أخطاء تأكيدا لما ذكره الدكتور صالح ومشاركة في الخير ونشر الحق واستدراكا لأخطاء لم يتعرض لها فضيلة الدكتور صالح في مقاليه المشار اليهما والله الموفق فاقول:

١ ـ قوله عن تقليد الائمة الأربعة (انه من اوجب الواجبات) لاشك أن هذا الاطلاق خطأ إذ لا يجب تقليد احد من الأئمة الأربعة ولا غيرهم مهما كان علمه لأن الحق في اتباع الكتاب والسنة لا في تقليد أحد من الناس وانما قصارى الأمر ان يكون التقليد سائغا عند الضرورة لمن عرف بالعلم والفضل واستقامة العقيدة كما فصل ذلك العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه اعلام الموقعين. ولذلك كان الأئمة رحمهم الله لا يرضون أن يؤخذ من كلامهم الا ما كان موافقا للكتاب والسنة قال الإمام مالك رحمه الله (كل يؤخذ من قوله ويرد الا

صاحب هذا القبر) يشير الى قبر رسول الله ﷺ. وهكذا قال اخوانه من الأئمة هذا المعنى.

فالذي يتمكن من الاخذ بالكتاب والسنة يتعين عليه ألا يقلد احدا من الناس ويأخذ عند الخلاف بما هو أقرب الأقوال لإصابة الحق والذي لا يستطيع ذلك فالمشروع له أن يسأل اهل العلم كما قال الله عز وجل ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾.

٢ ـ قال (إذا كان ابن تيمية رحمه الله مع درجة علمه لم يصل الى مرتبة الاجتهاد وانما مذهبه حنبلي يتقيد به في كثير من الاحيان) وهذا القول فيه نظر بل هو خطأ ظاهر فان شيخ الإسلام رحمه الله من أعلم المجتهدين وقد توافرت فيه شروط الاجتهاد وانتسابه الى المذهب الحنبلي لا يخرجه عن ذلك لأن المقصود من ذلك موافقته لأحمد في أصول مذهبه وقواعده وليس المقصود من ذلك أنه يقلده فيما قاله بغير حجة وانما كان يختار من الأقوال أقربها الى الدليل حسبما يظهر له رحمه الله.

٣ ـ ذكر أن الخلافات في العقيدة ضيقة وقال: (الذين يقولون بضلال مذهب الأشاعرة نقول لهم ارجعوا الى فتاوى ابن تيمية واقرأوا ماذا كتب ابن تيمية عن أبي الحسن الأشعري حتى نفهم أن هؤلاء جهلة) اهـ.

والجواب أن يقال: لاشك أنه ضل بسبب الخلاف في العقيدة فرق كثيرة كالمعتزلة والجهمية والرافضة والقدرية وغيرهم وأيضا الأشاعرة ضلوا فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة وما عليه خيار هذه الأمة من أئمة الهدى كالصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم باحسان والأئمة المهتدين فيما تأولوه من أسماء الله وصفاته على غير تأويله وأبو الحسن الأشعري رحمه الله ليس من الأشاعرة وان انتسبوا اليه لكونه رجع عن مذهبهم واعتنق مذهب أهل السنة فمدح الأئمة له ليس مدحا لمذهب الأشاعرة.

ولا يصح أن يرمى من اعترض على الأشاعرة فيما خالفوا فيه عقيدة أهل السنة بالجهل لأن حقيقة الجهل هو القول على الله بغير علم أما من أخذ بالكتاب والسنة وقواعد الشرع المعتبرة وسار على طريق سلف الأمة وانكر على من تأول أسماء الله وصفاته أو شيئا منها على غير تأويلها فانه لا يرمى بالجهل.

٤ ـ قال (انما القوامة للرجل قوامة تكليف وليست قوامة تشريف).

والجواب أن يقال: هذا خطأ والصواب أن يقال إن قوامة الرجال على النساء قوامة تكليف وتشريف لقول الله جل وعلا: ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا**﴾ الآية. فأوضح سبحانه أنه جعل الرجال قوامين على النساء لأمرين أحدهما فضل جنس الرجال على جنس النساء والأمر الثاني قيام الرجال بالانفاق على النساء بما يدفعونه من المهور وغيرها من النفقات.

٥ ـ قال في مقاله الأول بعد المقدمة مانصه(ولا يجوز أن تجعلهم ـ يعني بتلك الأشاعرة والماتوريدية ـ في صف الروافض والمعتزلة والخوارج الذين انحرفوا عن أهل السنة والجماعة غاية ما في الأمر أن نقول إنهم مخطئون في التأويل ذلك لأن الأسلم أن نفوض الأمر في موضوع الصفات الى علام الغيوب الذي لا تخفى عليه خافية) اهـ.

والجواب أن يقال: الفرق المخالفة لأهل السنة متفاوتون في أخطائهم فليس الأشاعرة في خطئهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية بلاشك ولكن ذلك لا يمنع من بيان خطأ الأشاعرة فيما أخطأوا فيه ومخالفتهم لأهل السنة في ذلك كما قد بين خطأ غيرهم لاظهار الحق وبيان بطلان ما يخالفه تبليغا عن الله سبحانه وعن رسوله ﷺ وحذرا من الوعيد المذكور في قوله تعالى ﴿**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾ ثم يقال ليس الأسلم تفويض الأمر في الصفات الى علام الغيوب لأنه سبحانه بينها لعباده وأوضحها في كتابه الكريم وعلى لسان رسوله الأمين ﷺ ولم يبين كيفيتها فالواجب تفويض علم الكيفية لا علم المعانى وليس التفويض مذهب السلف بل هو مذهب مبتدع مخالف لما عليه السلف الصالح. وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله وغيره من أئمة السلف على أهل التفويض، وبدعوهم لأن مقتضى مذهبهم أن الله سبحانه خاطب عباده بما لا يفهمون معناه ولا يعقلون مراده منه والله سبحانه وتعالى يتقدس عن ذلك وأهل السنة والجماعة يعرفون مراده سبحانه بكلامه ويصفونه بمقتضى أسمائه وصفاته وينزهونه عن كل مالا يليق به عز وجل. وقد علموا من كلامه سبحانه ومن كلام رسوله ﷺ أنه سبحانه موصوف بالكمال المطلق فى جميع ما أخبر به عن نفسه أو أخبر به عنه رسوله ﷺ وأنا أذكر بعض النقول المهمة عن السلف الصالح فى هذا الباب ليتضح للقارىء صحة ما ذكرنا.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى رسالة الفتوى الحموية ما نصه (روى أبوبكر البيهقى فى الأسماء والصفات باسناد صحيح عن الأوزاعى قال كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول ان الله تعالى ذكره فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات. فقد حكى الأوزاعى وهو أحد الأئمة الأربعة فى عصر تابع التابعين الذين هم مالك إمام أهل الحجاز والأوزاعى إمام أهل الشام والليث إمام أهل مصر والثورى إمام أهل العراق ـ حكى شهرة القول فى زمن التابعين بالايمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية.

وإنما قال الأوزاعى هذا بعد ظهور مذهب جهم المنكر لكون الله فوق عرشه والنافى لصفاته ليعرف الناس أن مذهب السلف كان يخالف هذا.

وروى أبوبكر الخلال فى كتاب السنة عن الأوزاعي قال: سئل مكحول والزهري عن

تفسير الأحاديث فقالا : امروها كما جاءت وروى أيضا عن الوليد بن مسلم قال سألت مالك ابن أنس وسفيان الثوري والليث بن سعد والأوزاعي عن الأخبار التى جاءت فى الصفات فقالوا : امروها كما جاءت وفى رواية ـ قالوا امروها كما جاءت بلا كيف . وقولهم رضي الله عنهم : امروها كما جاءت رد على المعطلة وقولهم : بلا كيف رد على الممثلة .

والزهري ومكحول هما أعلم التابعين فى زمانهم والأربعة الباقون أئمة الدنيا فى عصر تابعى التابعين ومن طبقاتهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وأمثالهما .

وروى أبو القاسم الأزجي باسناده عن مطرف بن عبد الله قال سمعت مالك بن أنس اذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول : قال عمر بن عبد العزيز : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد من خلق الله تغييرها ولا النظر فى شيء خالفها من اهتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى واصلاه جهنم وساءت مصيرا .

وروى الخلال باسناد كلهم أئمة ثقات عن سفيان بن عيينة قال سئل ربيعة بن أبى عبد الرحمن عن قوله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى . قال : الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ المبين وعلينا التصديق . وهذا الكلام مروى عن مالك بن أنس تلميذ ربيعة بن أبى عبد الرحمن من غير وجه (ومنها) ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني وأبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى فاطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء ثم قال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة وما أراك الا مبتدعا فأمر به أن يخرج .

فقول ربيعة ومالك الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب . موافق لقول الباقين : امروها كما جاءت بلا كيف . فانما نفوا علم الكيفية ولم ينفوا حقيقة الصفة ولو كان القوم قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله لما قالوا : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ولما قالوا امروها كما جاءت بلا كيف فان الاستواء حينئذ لا يكون معلوما بل يكون مجهولا بمنزلة حروف المعجم وأيضا فانه لا يحتاج الى نفى علم الكيفية اذا لم يفهم عن اللفظ معنى وإنما يحتاج الى نفي علم الكيفية إذا اثبتت الصفات .

وأيضا فان من ينفي الصفات الجزئية أو الصفات مطلقا لا يحتاج الى أن يقول بلا كيف فمن قال ان الله ليس على العرش لا يحتاج ان يقول بلا كيف فلو كان مذهب السلف

نفى الصفات فى نفس الأمر لما قالوا بلا كيف. وأيضا فقولهم: امروها كما جاءت يقتضى ابقاء دلالتها على ما هى عليه فانها جاءت ألفاظ دالة على معانى فلوكانت دلالتها منتفية لكان الواجب ان يقال امروا لفظها مع اعتقاد ان المفهوم منها غير مراد أو امروا لفظها مع اعتقاد ان الله لا يوصف بما دلت عليه حقيقة وحينئذ تكون قد امرت كما جاءت ولا يقال حينئذ بلا كيف إذ نفى الكيف عما ليس بثابت لغو من القول اهـ).

٦ - نقل في المقال المذكور عن الشيخ حسن البنا رحمه الله ما نصه (نجتمع على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه).

والجواب ان يقال نعم يجب ان نتعاون فيما اتفقنا عليه من نصر الحق والدعوة اليه والتحذير مما نهى الله عنه ورسوله أما عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على اطلاقه بل هو محل تفصيل فما كان من مسائل الاجتهاد التى يخفى دليلها فالواجب عدم الانكار فيها من بعضنا على بعض أما ما خالف النص من الكتاب والسنة فالواجب الانكار على من خالف النص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن عملا بقوله تعالى ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ الآية.

وقوله عز وجل ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ وقول النبي ﷺ (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) وقوله ﷺ (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) اخرجهما مسلم فى صحيحه. والآيات والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة.

٧ - ثم نعى الكاتب الشيخ محمد علي الصابوني فى مقاله الثاني على المسلمين تفرقهم الى سلفي وأشعري وصوفي وماتوريدي... الخ ولاشك ان هذا التفرق يؤلم كل مسلم ويجب على المسلمين أن يجتمعوا على الحق ويتعاونوا على البر والتقوى ولكن الله سبحانه قدر ذلك على الأمة لحكم عظيمة وغايات محمودة يحمد عليها سبحانه ولا يعلم تفاصيلها سواه ومن ذلك التمييز بين أوليائه وأعدائه والتمييز بين المجتهدين فى طلب الحق والمعرضين عنه المتبعين لأهوائهم الى حكم أخرى وفى ذلك تصديق لنبيه ﷺ ودليل على انه رسول الله حقا لكونه ﷺ قد أخبر عن هذا التفرق قبل وقوعه فوقع كما اخبر حيث قال ﷺ (ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا من هى يارسول الله قال هي الجماعة) وفي رواية أخرى قال: (ما أنا عليه وأصحابي) وهذا يوجب على المسلمين ان يجتمعوا على الحق وان يردوا ما تنازعوا فيه الى الله والرسول لقول الله عز وجل: ﴿ **فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن**

تأويلا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله** ﴾ الآية وهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على ان الواجب على المسلمين رد ما تنازعوا فيه في العقيدة وغيرها الى الله سبحانه وتعالى والى رسوله ﷺ وبذلك يتضح الحق لهم وتجتمع كلمتهم عليه ويتحد صفهم ضد أعدائهم أما بقاء كل طائفة على ما لديها من باطل وعدم التسليم للطائفة الأخرى فيما هي عليه من الحق فهذا هو المحذور والمنهى عنه وهو سبب تسليط الأعداء على المسلمين واللوم كل اللوم على من تمسك بالباطل وابى ان ينصاع الى الحق أما من تمسك بالحق ودعى اليه وأوضح بطلان ما خالفه فهذا لا لوم عليه بل هو مشكور وله أجران اجر اجتهاده واجر اصابته للحق .

٨ ـ ذكر الصابوني في مقاله الثاني ان أهل السنة اشتهروا بمذهبين اثنين أحدهما مذهب السلف والآخر مذهب الخلف . . . الخ .

وهذا غلط بين لم يسبقه اليه أحد فيما أعلم فان مذهب أهل السنة واحد فقط وهو ما درج عليه أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان وهو اثبات أسماء الله وصفاته وامرارها كما جاءت والايمان بانها حق وان الله سبحانه موصوف بها على الوجه الذي يليق بجلاله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ولا تأويل لها عن ظاهرها ولا تفويض بل يؤمنون بأن معانيها معلومة وأنها حق لائقة بالله سبحانه وتعالى لا يشابه خلقه فى شيء منها ومذهب الخلف بخلاف ذلك كما يعلم ذلك من قرأ كلام هؤلاء وكلام هؤلاء ـ ثم ذكر أن أهل السنة يفوضون علم معاني الصفات الى الله وكرر ذلك فى غير موضع وقد أخطأ في ذلك ونسب اليهم ما هم براء منه كما تقدم بيان ذلك فيما نقلناه من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن جمع من أهل السنة رحمة الله عليهم وانما يفوض أهل السنة الى الله سبحانه علم الكيفية لا علم المعاني كما سبق إيضاح ذلك .

٩ ـ ثم ذكر الصابوني هداه الله تنزيه الله سبحانه عن الجسم والحدقة والصماخ واللسان والحنجرة وهذا ليس بمذهب أهل السنة بل هو من أقوال أهل الكلام المذموم وتكلفهم فان أهل السنة لا ينفون عن الله إلا ما نفاه عن نفسه أو نفاه رسوله ﷺ ولا يثبتون له إلا ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ولم يرد في النصوص نفى هذه الأمور ولا اثباتها فالواجب الكف عنها وعدم التعرض لها بنفي ولا إثبات ويغني عن ذلك قول أهل السنة فى إثبات صفات الله وأسمائه أنه لا يشابه فيها خلقه وأنه سبحانه لا ند له ولا كفوله ـ قال الإمام أحمد رحمه الله لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث) وهذا هو معنى كلام غيره من أئمة السنة وأما ما وقع فى كلام البيهقي رحمه الله في

كتابه الاعتقاد من هذه الأمور فهو ممل دخل عليه من كلام المتكلمين وتكلفهم فراج عليه واعتقد صحته والحق أنه من كلام أهل البدع لا من كلام أهل السنة.

١٠ - ثم قال الصابونى فى مقاله الثانى ما نصه: (أما ما يتخيله بعض الجهلة من أدعياء العلم اليوم الذين يصورون الله بصورة غريبة عجيبة ويجعلون الله تعالى كأنه جسم مركب من أعضاء وحواس له وجه ويدان وعينان وله ساق وأصابع وهو يمشى وينزل ويهرول ويقولون فى تقرير هذه الصفات أن الله يجلس كما يجلس الواحد على السرير وينزل كما ينزل أحدنا على الدرج - يريد بزعمه أن يقرر مذهب السلف الصالح للتلاميذ ويثبت لهم حقيقة معنى الاستواء والنزول وأنه جلوس حس لا كما يتأوله المؤ ولون فهذا والعياذ بالله عين الضلالة لأنه شبه وجسم وهو كمن فر من حفرة صغيرة ليقع فى هوة عميقة يتحطم فيها ويهوى فيها إلى مكان سحيق) أ. هـ.

وأقول أن الأخ الصابونى هداه الله قد جمع فى هذا الكلام حقا وباطلا يعلمه كل صاحب سنة وإليك أيها القارىء المؤمن التفصيل فى ذلك:

أما الوجه واليدان والعينان والساق والأصابع فقد ثبتت فى النصوص من الكتاب والسنة الصحيحة وقال بها أهل السنة والجماعة وأثبتوها لله سبحانه على الوجه اللائق به سبحانه وهكذا النزول والهرولة جاءت بها الأحاديث الصحيحة ونطق بها الرسول ﷺ وأثبتها لربه عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه من غير مشابهة لخلقه ولا يعلم كيفية هذه الصفات إلا هو سبحانه فانكار الصابونى هذه الصفات انكار على النبى ﷺ بل انكار على الله عز وجل لأنه سبحانه ذكر بعضها فى كتابه العزيز وأوحى البعض الآخر لنبيه ﷺ فإنه ﷺ لا ينطق عن الهوى وإنما يخبر عن الله سبحانه بما أوحى إليه فالصابونى هداه الله تارة يقول أنه يلتزم بمذهب أهل السنة وتارة ينقضه ويخالفه فإنا لله وإنا إليه راجعون ونسأل الله لنا وله الهداية والرجوع إلى الحق، وأما قوله: ويقولون فى تقرير هذه الصفات أن الله يجلس كما يجلس الواحد على السرير وينزل كما ينزل أحدنا على الدرج.. الخ. فهذا أهل السنة براء منه بل هو من كلام المشبهة الذين كفرهم السلف الصالح وأنكروا مقالتهم لكونها مصادمة لقول الله عز وجل ﴿ليس كمثله شىء وهو السميع البصير﴾ وما جاء فى معناها من الآيات فلا يجوز لأحد أن يخلط بين كلام أهل الحق من أهل السنة وكلام أهل الباطل من المشبهة وغيرهم ولا يميز بينهما بل الواجب التفصيل والتمييز.

١١ - ثم زعم الصابونى فى مقاله الثالث أن أول من كتب فى أصول الدين ورد شبهات أهل الزيغ والضلال أبو الحسن الأشعرى وأبو منصور الماتوريدى.

وهذا جزم غير صحيح فقد سبقهما فى ذلك الامام أبو حنيفة رحمه الله والامام عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون والامام مالك رحمه الله والامام أحمد بن حنبل

والامـام محمـد بن اسحـاق بن خزيمة والامام عثمان بن سعيد الدارمى فى الرد على المريسى والامام عبد العزيز الكنانى صاحب الحيدة وغيرهم ممن لا يحصى .

١٢ ـ ثم كرر الصـابـونى هداه الله فى مقـالـه الثـالث قولـه (أن السلف لهم مذهبـان مذهب أهل التفويض ومذهب أهل التأويل إلى آخر ما قال إلى أن قال (إن بعضهم يفضل مذهب السلف ويقول أنه أسلم والبعض الآخر يفضل مذهب الخلف ويقول هو أحكم) أ . هـ .

والجواب : أن هذا التقسيم باطل كما تقدم وليس للسلف إلا مذهب واحد وهو مذهب أهل السنة والجماعة وهم الصحابة رضى الله عنهم . وأتباعهم بإحسان وهو الأسلم والأعلم والأحكم ، أمـا المـذهب الثـانى فهـو مذهب الخلف المـذمـوم . وهـو مذهب أهـل التأويـل والتحـريف والتكلف ولا يلزم من ذم مذهب الخلف والتحـذيـر منـه القـول بتكفـيرهم فإن التفكـير له حكم آخـر يبنى على معـرفـة قول الشخص ومـا لديـه من الباطل ومدى مخالفته للحق فلا يجوز أن يقال أنه يلزم من ذم مذهب الخلف أو الانكار على الأشاعرة ما وقعوا فيه من تأويـل الصفـات وتحـريفها إلا صفات قليلة استثنوها القول بتكفيرهم وإنما المقصود بيان مخالفتهم لأهل السنة فى ذلك وبطلان ما ذهب إليه الخلف من التأويل وبيان أن الصواب هو مذهب السلف الصالح وهم أهل السنة والجماعة فى امرار آيات الصفات وأحاديثها واثبات ما دلت عليه من الأسماء والصفات على الوجه اللائق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تأويـل ولا تكييف ولا تمثيـل كما سبق ذكـر ذلـك غير مرة والله المستعـان . ثم ذكـر كلام البيهقى هنـا وقـد تقـدم ما فيه وأنه رحمه الله دخلت عليه ألفاظ من ألفاظ أهل البدع فراجت عليـه وظنهـا صوابـا فأدخلهـا فى كتـابـه وهو من جملة الذين خاضوا فى الكلام وعلق باعتقاده بعض ما فيه من الشر سامحه الله وعفى عنه . كما نبه على ما يدل على ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى الفتاوى جـ٦ ص٥٣ .

١٣ ـ ثم قال الصـابـونى فى مقـالـه الثـالث ما نصه (ولا يظن أحد أننا نفضل مذهب الخلف على مذهب السلف ولسنـا على الـرأى الـذى يقـولـه علماء الكلام (مذهب السلف أسلم ومـذهب الخلف أحكم بل نقـول عن ايـمان ويقـين أن مذهب السلف هو الأسلم وهو الأحكم فلا نحاول أن نؤ ل صفات الخالق جل وعلا بل نؤمن بها كما جاء ونقر بها كما وردت مع نفى التشبيه والتجسيم .

ثم استشهد بقول بعض الشعراء :

إن المفـــوض ســـالم   مما تكلفــــه المـؤ ل

إلى أن قال (وإذا كان من أول فى الصفـات ضال فسنضلل السلف الصـالـح جميعـا لأنهم أولوا قوله تعالى ﴿**ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم**﴾

قالـوا معهم بعلمـه لا بذاتـه وأولـوا قولـه تعالى **﴿وهو معكم أينما كنتم﴾** قالوا معية علم لئلا تتعدد الذات. وسنحكم بضلال الحافظ بن كثير لأنه قال فى قوله تعالى **﴿ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصـرون﴾** ملائكتنـا أقـرب إليـه منكم ولكن لا ترونهم كما أول قولـه تعالى **﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾** قال المراد ملائكتنا أقرب إلى الانسان من حبل وريده إليـه والحلول والاتحـاد منفى بالاجمـاع تعالى الله وتقدس. وقال (بل نقول انه يتعين التأويل أحيـانـا كما فى الحـديث الصحيح (الحجر الأسود يمين الله فى أرضه) وكما قال عن سفينة نوح (وحملناه على ذات ألواح ودسر تجرى بأعيينا جزاء لمن كان كفر) أ. هـ.

والجـواب أن يقـال قد أحسنت فى اختيـار مذهب السلف الصالح واعتقاد انه الأسلم والأحكم ولكنـك لم تثبت عليـه بل تارة تختـار مذهب التأويـل وتـارة تختـار مذهب التفويض والواجب على المؤمن الثبات على الحق وعدم التحول عنه وما ذكرته عن السلف من تفسير قوله تعالى **﴿ وهو معكم ﴾** بالعلم ليس بالتأويل ولكنه هو معنى آيات المعية عند أهل السنة والجماعة. كما حكى الإمام أبو عمر بن عبد البر وأبو عمر الطلمنكي إجماع أهل السنة على ذلـك وذلـك لأن النصـوص من الكتاب والسنة الدالة على علوه وفوقيته وتنزيهه سبحانه عن الحلول والاتحاد تقتضي ذلك ومن تأمل الآيات الواردة في ذلك علم انها تدل على ان المراد بالمعيـة العلم بأحـوال عبـاده واطـلاعـه على شؤونهم مع دلالـة المعيـة الخاصة على كلاءته ورعايته وحفظه ونصره لأنبيائه وأوليائه. مع علمه واطلاعه على أحوالهم والعرب الذين نزل الكتـاب وجـاءت السنـة بلغتهم يعلمون ذلك ولا يشتبه عليهم ولهذا لم يسألوا النبي ﷺ عن معاني هذه الآيات لظهورها لهم أما النصوص الأخرى فلا تحتاج الى تأويل لان المعنى فيها ظاهر مثل قوله سبحانه **﴿ تجري بأعيينا ﴾ و ﴿ لتصنع على عيني ﴾ و ﴿ واصبر لحكم ربك فانك بأعيينا ﴾** فلا يدور بخلد أحد ان السفينة بعين الله سبحانه ولا أن محمدا عليه الصلاة والسلام فى عين الله وإنما المراد بذلك ان السفينة تجرى برعاية الله وعنايته وتسخيره لها وحفظه لهـا وان محمـدا ﷺ تحت رعـايـة مولاه وعنـايتـه وحفظـه وكلاءته وهكذا قوله في حق موسى **﴿ولتصنع على عيني﴾** أي تحت رعايتي وحفظي وهكذا حديث (كنت سمعه الذي يسمع به وبصـره الـذي يبصـر به) يفسـره قوله في الرواية الأخرى (فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي) ولا يظن من له أدنى بصـيرة ممن يعـرف اللغـة العـربيـة ان المـراد بذلك ان الله سبحانه هو سمع الإنسان وبصره وهو يده ورجله. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما أراد من ذلك سبحانه بيان توفيقه لأوليائه وتسديده لهم فى حواسهم وحركاتهم بسبب طاعاتهم له وقيـامهم بحقـه وهكـذا الأحـاديث الأخـرى كقـوله (الحجر يمين الله) فانه حديث ضعيف

والصواب وقفه على ابن عباس ومعناه ظاهر سواء كان مرفوعا أو موقوفا وقد قال فى نفس الحديث (فكأنما صافح الله وقبل يمينه فدل على ان الحجر ليس هو يمين الله وإنما شبه مستلمه ومقبله بمن صافح الله وقبل يمينه ترغيبا فى استلامه وتقبيله وهكذا قول الله سبحانه فى الحديث الصحيح لعبده (مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني) قد بين فى هذا الحديث ما يدل على معناه حيث قال سبحانه اما علمت انك لو عدته لوجدتنى عنده ولو اطعمته لوجدت ذلك عندي فعلم بذلك ان الله سبحانه لم يمرض ولم يجع وإنما أراد سبحانه من ذلك حث العباد على عيادة المريض واطعام الجائع واما قوله سبحانه (**ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ وقوله: ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ فقد فسره جماعة بقرب الملائكة لأن قربهم من العبد حين يتلقى المتلقيان وحين الموت كان بأمره سبحانه وتقديره ورعايته لعباده وفسره آخرون بأنه قربه سبحانه بعلمه وقدرته واحاطته بعباده كالمعية وكقربه من عابديه وسائليه مع علوه وفوقيته سبحانه وليس المراد الحلول ولا الاتحاد تعالى الله عن ذلك وتقدس لأن الأدلة القطعية من الكتاب والسنة تدل على أن الله سبحانه فوق العرش بائن من خلقه عال عليهم وعلمه فى كل مكان فمن تدبر النصوص من الكتاب والسنة وفسر بعضها ببعض اتضح له المعنى ولم يحتج الى التأويل وقد اختار أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى تفسيره القول الثانى فى سورة(ق)والقول الأول فى سورة الواقعة وقد أنكر أهل السنة على من تأول نصوص الصفات وبدعوه لما يترتب على تأويلها من أنواع الباطل وتحريف الكلم عن مواضعه وتجريد الرب سبحانه من صفات الكمال وسوء الظن به وأنه خاطب عباده بما ظاهره تشبيه وتمثيل وان المراد غيره. وهذا هو التأويل المذموم وهذا هو الذى سلكه أهل الكلام وأنكره عليهم أهل السنة وضللوهم فى ذلك لكونهم تأولوا النصوص عن ظاهرها وصرفوها عن الحق الذى دلت عليه بلا حجة ولا برهان من كتاب ولا سنة بل بمقتضى عقولهم وآرائهم التى لم ينزل الله بها من حجة ولا قام عليها برهان. وقد الزموهم فيما أثبتوا نظير ما فروا منه فيما تأولوه وهو لازم لهم بلا شك ولا يسلم من التناقض واللوازم الباطلة الا من أثبت ما أثبته الله ورسوله ونفى ما نفاه الله ورسوله وهم أهل السنة والجماعة والله المستعان.

١٤ - ثم دعا فى مقاله الرابع الى جمع الكلمة بين الفئات الاسلامية وتضافر الجهود ضد أعداء الاسلام وذكر أن الوقت ليس وقت مهاجمة لاتباع المذاهب ولا للأشاعرة ولا للاخوان حتى ولا للصوفيين) اهـ.

والجواب ان يقال:

لا ريب انه يجب على المسلمين توحيد صفوفهم وجمع كلمتهم على الحق وتعاونهم على البر والتقوى ضد أعداء الاسلام كما أمرهم الله سبحانه بذلك بقوله عز وجل ﴿ **اعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ وحذرهم من التفرق بقوله سبحانه ﴿ **ولا تكونوا**

كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ الآية . ولكن لا يلزم من وجوب اتحاد المسلمين وجمع كلمتهم على الحق واعتصامهم بحبل الله الا ينكروا المنكر على من فعله أو اعتقده من الصوفية أوغيرهم بل مقتضى الأمر بالاعتصام بحبل الله أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبينوا الحق لمن ضل عنه أوظن ضده صوابا بالأدلة الشرعية حتى يجتمعوا على الحق وينبذوا ما خالفه وهذا هو مقتضى قوله سبحانه ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان** ﴾ وقوله سبحانه ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ ومتى سكت أهل الحق عن بيان اخطاء المخطئين واغلاط الغالطين لم يحصل منهم ما أمرهم الله به من الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومعلوم ما يترتب على ذلك من إثم الساكت عن انكار المنكر وبقاء الغالط على غلطه والمخالف للحق على خطأه وذلك خلاف ما شرعه الله سبحانه من النصيحة والتعاون على الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والله ولي التوفيق .

١٥ ـ ثم ذكر فى مقاله الخامس ما نصه (ليس مذهب السلف الصالح ـ الذي اسلفنا الحديث عنه فى مقالاتنا السابقة فى موضوع صفات البارى جل وعلا هو (التفويض المطلق) كما يتوهم البعض من الناس بل هو مسلك آخر يدل على نظر ثاقب وفهم سليم مستقيم لنصوص الكتاب والسنة ويتلخص هذا المسلك والمنهج فى الآتى :

أولا : تأويل ما لابد من تأويله من آيات الصفات وأحاديث الصفات مما لا مندوحة عن تأويله لأسباب لغوية أو شرعية أو اعتقادية .

ثانيا : اثبات ما أثبته القرآن الكريم أو السنة المطهرة من صفات الله جل وعلا (السمع والبصر) والكلام والمحبة . والرضى والاستواء والنزول والاتيان والمجيء وغيرها من الصفات والإيمان بها على مراد الله عز وجل بطريق التسليم والتفويض دون تشبيه أو تعطيل أو تجسيم أو تمثيل) ا . هـ .

والجواب ان يقال :

ان هذه الدعوى على مذهب السلف دعوى لا أساس لها من الصحة فان السلف الصالح ليس مذهبهم التفويض لأسماء الله وصفاته لا تفويضا عاما ولا خاصا وإنما يفوضون علم الكيفية كما تقدم بيان ذلك وكما نص على ذلك مالك وأحمد وغيرهما وقبلهما أم سلمة رضى الله عنها وربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ مالك رضى الله عن الجميع وليس من مذهب السلف أيضا تأويل الصفات بل يمرونها كما جاءت ويؤمنون بمعانيها على الوجه اللائق بالله سبحانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل كما سلف ذكر ذلك غير مرة .

وليس من مذهب السلف أيضا نفى التجسيم ولا اثباته لأن ذلك لم يرد فى الكتاب ولا

فى السنـة ولا فى كلام سلف الأمـة كما نص على ذلـك غير واحـد من أئمة السنة ومنهم شيخ الإسـلام ابن تيميـة رحمـه الله فقـد نص على ذلـك فى كتـابه التدمرية حيث قال فى القاعدة السادسة (ولهذا لما كان الرد على من وصف الله تعالى بالنقائص بهذا الطريق طريقا فاسدا لم يسلكه أحد من السلف أو الأئمة فلم ينطق أحد منهم فى حق الله بالجسم لا نفيا ولا اثباتا ولا بالجوهر والتحيز ونحو ذلك لانها عبارات مجملة لا تحق حقا ولا تبطل باطلا . ولهذا لم يذكر الله فى كتـابـه فيـما انكـره على اليهـود وغيرهم من الكفار ما هو من هذا النوع بل هذا هو من الكلام المبتدع الذى انكره السلف والأئمة) ا . هـ

وقال الحافظ بن رجب الحنبلى رحمه الله فى كتابه فضل علم السلف على علم الخلف بعـد كلام سبق (والصـواب ما عليـه السلف الصـالح من امرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تفسـير لها ولا تكييف ولا تمثيـل ولا يصـح عن أحـد منهم خلاف ذلـك البتة خصوصا الإمام أحمد ولا خوض فى معانيها ولا ضرب مثل من الأمثال لها (وان كان بعض من كان قريبا من زمن الإمام أحمد فيهم من فعل شيئا من ذلك اتباعا لطريقة مقاتل فلا يقتدى به فى ذلك إنما الاقتداء بأئمة الإسلام كابن المبارك ومالك والثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد واسحاق وأبي عبيد ونحوهم وكل هؤلاء لا يوجد فى كلامهم شىء من جنس كلام المتكلمين فضلا عن كلام الفلاسفة ولم يدخل ذلك فى كلام من سلم من قدح وجرح وقد قال أبو زرعة الرازى كل من كان عنده علم فلم يصن علمه احتاج فى نشره الى شىء من الكلام فلستم منه) اهـ .

وليس فيـما ثبت فى الكتـاب والسنـة من أسـماء الله وصفـاته ما يجب تأويله بل لابد ان يوجـد فى النصـوص ما يدل على المعنى المـراد الـذى يجب اثباته لله على الوجه اللائق به من غير حاجـة الى تأويـل يخالف الظـاهـر من كلام الله ومن كلام رسـوله ﷺ مع تفويض علم الكيفية الى الرب عز وجل كما سبق بيان ذلك فى كلام أئمة السنة .

١٦ ـ ثم قال الصابوني فى مقاله الخامس . هداه الله وألهمه التوفيق ما نصه (ولكني اربأ بإخـواني السلفيـين ان يتحملوا فى أعنـاقهم وزر تضليل الأمة وتكفير أئمة المسلمين من أهل الفقـه والحـديث والتفسـير الـذين هم على مذهب الأشـاعـرة فماذا سنجني ان فرقنـا صف المسلمـين ونسبنـا الى الضـلال شيـخ الإسـلام ابن حجر العسقلاني شارح البخاري . وذكر جماعـة أخـرين ثم قال (وكـل هؤلاء الأئمة الأجلاء وغيرهم من مذهب الإمام الأشعرى . . الخ) اهـ .

والجواب ان يقال : ليس من أهل العلم السلفيون من يكفر هؤلاء الذين ذكرتهم وإنما يوضحون اخطاءهم فى تأويل الكثير من الصفات ويوضحون ان ذلك خلاف مذهب سلف الأمة وليس ذلك تكفيرا لهم ولا تمزيقا لشمل الأمة ولا تفريقا لصفهم وإنما فى ذلك النصح لله

ولعباده وبيان الحق والرد على من خالفه بالأدلة النقلية والعقلية والقيام بها أوجب الله سبحانه على العلماء من بيان الحق وعدم كتمانه والقيام بالدعوة الى الله والارشاد الى سبيله ولو سكت أهل الحق عن بيانه لاستمر المخطئون على أخطائهم وقلدهم غيرهم فى ذلك وباء الساكتون باثم الكتمان الذى توعدهم الله عليه فى قوله سبحانه ﴿**ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فأولئك اتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**﴾ وقد أخذ الله على علماء أهل الكتاب الميثاق لتبيينه للناس ولا يكتمونه وذمهم على نبذه وراء ظهورهم وحذرنا من اتباعهم.

فإذا سكت أهل السنة عن بيان اخطاء من خالف الكتاب والسنة شابهوا بذلك أهل الكتاب المغضوب عليهم والضالين ثم يقال للأخ الصابوني ليس علماء الأشاعرة من اتباع أبي الحسن الأشعري لأنه رجع عن تأويل الصفات وقال بمذهب أهل السنة والجماعة فى إثبات الأسماء والصفات وامرارها كما جاءت من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل كما اوضح ذلك فى كتابيه الابانة والمقالات فعلم مما ذكرنا أن من أول الصفات من المنتسبين للأشعري فليس على مذهبه الجديد بل هو على مذهبه القديم ومعلوم ان مذهب العالم هو ما مات عليه معتقدا له لا ما قاله سابقا ثم رجع عنه فيجب التنبه لذلك والحذر مما يلبس الأمور ويضعها فى غير موضعها والله المستعان.

١٧ ـ ذكر الصابوني فى مقاله السادس الذي بدأه بقوله (هذا بيان للناس. ان التأويل لبعض آيات وأحاديث الصفات لا يخرج المسلم عن جماعة أهل السنة فمنه ما هو خطأ ومنه ما هو صواب وهنا آيات صريحة فى التأويل أولها الصحابة والتابعون وعلماء السلف وما يتجرأ أحد ان ينسبهم الى الضلال أو يخرجهم عن أهل السنة والجماعة ثم ضرب لذلك أمثلة منها قوله تعالى ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ ومنها ما ذكره سبحانه من استهزائه بالمستهزئين وسخريته من الساخرين بالمؤمنين ومكره بالماكرين وكذلك أيضا الحديث الصحيح عن قول الله عز وجل (مرضت فلم تعدني وجعت فلم تطعمني الى أن قال.. اذن ليس الأمر كما يظن البعض ان مذهب السلف ليس فيه تأويل مطلقا بل مذهب السلف هو تأويل ما لابد من تأويله) ا. هـ.

والجواب ان يقال: هذا الكلام فيه تفصيل وفيه حق وباطل فقوله (ان التأويل لبعض الصفات لا يخرج المسلم عن جماعة أهل السنة) صحيح فى الجملة فالمتأول لبعض الصفات كالأشاعرة لا يخرج بذلك عن جماعة المسلمين ولا عن جماعة أهل السنة فى غير الصفات ولكنه لا يدخل فى جماعة أهل السنة عند ذكر اثباتهم للصفات وإنكارهم للتأويل فالأشاعرة وأشباههم لا يدخلون فى أهل السنة فى إثبات الصفات لكونهم قد خالفوهم فى ذلك وسلكوا غير منهجهم وذلك يقتضى الانكار عليهم وبيان خطئهم فى التأويل وان ذلك خلاف منهج أهل السنة والجماعة كما تقدم بيانه فى أول هذه التنبيهات كما انه لا مانع ان يقال ان الأشاعرة

ليسوا من أهل السنة فى باب الأسماء والصفات وان كانوا منهم فى الأبواب الأخرى حتى يعلم الناظر فى مذهبهم انهم قد اخطأوا فى تأويل بعض الصفات وخالفوا أصحاب النبي ﷺ واتباعهم باحسان فى هذه المسألة تحقيقا للحق وانكارا للباطل وانزالا لكل من أهل السنة والأشاعرة فى منزلته التى هو عليها.

ولا يجوز ان ينسب التأويل الى أهل السنة مطلقا بل هو خلاف مذهبهم وإنما ينسب التأويل الى الأشاعرة وسائر أهل البدع الذين تأولوا النصوص على غير تأويلها.

أما الأمثلة التى مثل بها الأخ الصابوني للتأويل عند أهل السنة فلا حجة له فيها وليس كلامهم فيها من باب التأويل بل هو من باب ايضاح المعنى وازالة اللبس عن بعض الناس فى معناها وهاك الجواب عنها: أما قوله تعالى ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ فليس المراد بالنسيان فيها النسيان فى قوله تعالى ﴿**وما كان ربك نسيا**﴾ وفى قوله تعالى ﴿**فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى**﴾ بل ذلك له معنى والنسيان المثبت له معنى آخر فالنسيان المثبت فى قوله تعالى ﴿**نسوا الله فنسيهم**﴾ هو تركه إياهم فى ضلالهم واعراضه عنهم سبحانه لتركهم أوامره واعراضهم عن دينه لنفاقهم وتكذيبهم. والنسيان المنفي عن الله سبحانه هو النسيان الذى بمعنى الذهول والغفلة فالله سبحانه منزه عن ذلك لكمال علمه وكمال بصيرته بأحوال عباده واحاطته بكل شئ ونهم فهو الحي القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ولا ينسى ولا يغفل تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وبذلك يعلم ان تفسير النسيان بالترك فى قوله تعالى ﴿**المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم**﴾ الآية، من سورة التوبة ليس من باب التأويل ولكنه من باب تفسير النسيان فى هذا المقام بمعناه اللغوي لأن كلمة النسيان مشتركة يختلف معناها بحسب مواردها كما بين ذلك علماء التفسير رحمهم الله قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى معنى الآية ما نصه (نسوا الله، أى نسوا ذكر الله (فنسيهم) أى عاملهم معاملة من نسيهم كقوله تعالى ﴿**فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا**﴾ ا. هـ

وهكذا ما ذكره الله سبحانه من استهزائه بالمستهزئين وسخريته بالساخرين ومكره بالماكرين وكيده للكائدين لا يحتاج الى تأويل لكونه من باب الجزاء من جنس العمل لأن السخرية منه سبحانه بالساخرين كانت بحق وهكذا مكره بالماكرين واستهزاؤه بالمستهزئين وكيده للكائدين كله بحق وما كان بحق فلا نقص فيه والله سبحانه يوصف بذلك لأن ذلك وقع منه على وجه يليق بجلاله وعظمته ولا يشابه ما يقع من الخلق لأن أعداءه سبحانه فعلوا هذه الأفعال معاندة للحق وكفرا به وانكارا له فعاملهم سبحانه بمثل ما فعلوا على وجه لا يشابه فيه أفعالهم ولا يعلم كيفيته الا هو سبحانه وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ومن كيده لهم ومكره بهم وسخريته بهم واستهزائه به امهالهم وانظارهم وعدم معاجلتهم

بالعقوبة ومن ذلك ما يظهره للمنافقين يوم القيامة من اظهاره لهم بعض النور ثم سلبهم إياه كما قال عز وجل فى سورة الحديد ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير**﴾ . . .

وهكذا قال علماء التفسير من أهل السنة فى هذا المعنى :

قال الإمام ابن جرير رحمه الله بعد ان ذكر أقوال العلماء فى تفسير قوله تعالى ﴿**الله يستهزىء بهم**﴾ والصواب فى ذلك من القول والتأويل عندنا ان معنى الاستهزاء فى كلام العرب : اظهار المستهزىء للمستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرا وهو بذلك من قبله وفعله به مورثه مساءة باطنا وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر فإذا كان ذلك كذلك وكان الله جل ثناؤه قد جعل لأهل النفاق فى الدنيا من الأحكام بما اظهروا بألسنتهم من الاقرار بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله الذى أدخلهم فى عداد من يشمله اسم الإسلام وان كانوا لغير ذلك مستبطنين أحكام المسلمين المصدقين اقرارهم بألسنتهم بذلك بضمائر قلوبهم وصحائح عزائمهم وحميد أفعالهم المحققة لهم صحة إيمانهم مع علم الله عز وجل بكذبهم واطلاعه على خبث اعتقادهم وشكهم فيما ادعوا بألسنتهم انهم به مصدقون حتى ظنوا بالآخرة اذ حشروا فى عداد من كانوا فى عدادهم فى الدنيا انهم واردون موردهم وداخلون مدخلهم والله جل جلاله مع اظهاره ما قد اظهر لهم من الأحكام الملحقهم فى عاجل الدنيا وآجل الآخرة الى حال تمييزه بينهم وبين أوليائه وتفريقه بينهم وبينهم معد لهم من أليم عقابه ونكال عذابه ما أعد منه لا عدى أعدائه وشر عباده حتى ميز بينهم وبين أوليائه فالحقهم من طبقات جحيمه بالدرك الأسفل كان معلوما انه جل ثناؤه بذلك من فعله بهم وان كان جزاء لهم على أفعالهم وعدلا ما فعل من ذلك بهم لاستحقاقهم إياه منه بعصيانهم له كان بهم بما اظهر لهم من الأمور التى اظهرها لهم من الحاقه أحكامهم فى الدنيا بأحكام أوليائه وهم له أعداء وحشره إياهم فى الآخرة مع المؤمنين وهم به من المكذبين الى أن يميز بينهم وبينه مستهزئا وبهم ساخرا ولهم خادعا وبهم ماكرا إذ كان معنى الاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة ما وصفنا قبل دون أن يكون ذلك معناه فى حال فيها المستهزىء بصاحبه له ظالم أو عليه فيها غير عادل بل ذلك معناه فى كل أحواله إذا وجدت الصفات التى قدمنا ذكرها فى معنى الاستهزاء وما اشبهه من نظائره) ا. هـ

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسير قوله تعالى ﴿**يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبده بن

سليمان حدثنا ابن المبارك حدثنا صفوان بن عمرو وحدثني سليم بن عامر قال خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو امامة الباهلي فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها قال أبو امامة: أيها الناس انكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات وتوشكون ان تظعنوا منه الى منزل آخر وهو بهذا يشير الى القبر بيت الوحدة وبيت الظلمة وبيت الدود وبيت الضيق الا ما وسع الله ثم تنتقلون منه الى مواطن القيامة فانكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ثم تنتقلون منه الى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورا ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئا وهو المثل الذى ضربه الله تعالى فى كتابه فقال ﴿**أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور**﴾ فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا**﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال ﴿**يخادعون الله وهو خادعهم**﴾ فيرجعون الى المكان الذى قسم فيه النور فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿**باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**﴾ الآية يقول سليم بن عامر فما يزال المنافق مغترا حتى يقسم النور ويميز الله بين المنافق والمؤمن ثم قال حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا ابن حيوه حدثنا ارطاه بن المنذر حدثنا يوسف بن الحجاج عن أبي امامة قال يبعث الله ظلمة يوم القيامة فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه حتى يبعث الله بالنور الى المؤمنين بقدر أعمالهم فيتبعهم المنافقون فيقولون ﴿**انظرونا نقتبس من نوركم**﴾ وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس بينما الناس فى ظلمة اذ بعث الله نورا فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلا من الله الى الجنة فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فاظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ (انظرونا نقتبس من نوركم) فانا كنا معكم فى الدنيا قال المؤمنون (ارجعوا وراءكم من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور) انتهى ما ذكره الحافظ ابن كثير.

وبما ذكرناه عن ابن جرير وابن كثير رحمة الله عليهما يتضح للقارىء ان المكر والسخرية بالكافرين والخداع والاستهزاء بالمنافقين والكيد منه سبحانه لأعدائه كله على بابه ولا يحتاج الى تأويل بل هو حق من الله وعدل وجزاء لهم من جنس عملهم يليق به سبحانه وليس يماثل ما وقع من أعدائه لأن صفة الله سبحانه وأفعاله تليق به وكلها حق وعدل ولا يعلم كيفيتها إلا هو سبحانه وإنما يعلم العباد من ذلك ما أخبرهم به عز وجل فى كتابه الكريم أو على لسان رسوله الأمين عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم.

١٨ ـ نقل الصابوني فى مقاله السادس وفى بعض مقالاته السابقة: عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما نصه (والعلماء انصار علوم الدين والأشاعرة انصار أصول الدين)

وعـزاه الى المجلد الـرابـع من الفتـاوى وبمراجعة الفتاوى ص ١٦ من المجلد الرابع اتضح ان هذا الكلام من فتوى الفقيه أبي محمد لا من قول شيخ الإسلام وبذلك يعلم وهم الأخ الصابوني فى النقل المذكور وهذا الكلام على فرض صحته لا يدل على أن الأشاعرة لا ينكر عليهم ما اخطأوا فيه فان القاعدة الشرعية كما نبه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وغـيره ان العـالم يمـدح بما وافق فيـه الكتاب والسنة ويذم على ما خالف فيه الكتاب والسنة وهـذا الـذى قالـه رحمـه الله هو الحق الـذى عليـه أهـل السنـة والجـماعة فالأشاعرة وغيرهم يمدحون على ما قالوه وكتبوه فى نصر الحق فى أبواب أصول الدين وفى غيرها ويذمون على ما اخطأوا فيه احقاقا للحق وردا للباطل حتى لا يشتبه الأمر على من قل علمه والله المستعان.

١٩ ـ ذكـر الصـابـوني فى مقـالـه السادس ما نصه: (وفى الحديث الصحيح ثلاثة من أصول الايمان الكف عن قول (لا إله إلا الله ولا نكفر مسلما يذنب والايمان بالاقدار) أو كما قال ﷺ. أ. هـ.

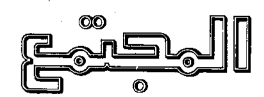
وبمـراجعتنـا لهذا الحـديث فى الأصـول المعتـبرة اتضـح أنـه ضعيف جدا وقد رمز له السيوطي فى الجامع بعلامة الضعف واخرجه أبو داود من طريق يزيد بن أبي نشبه عن أنس رضى الله عنـه ويـزيـد هذا مجهـول كما فى التهـذيب والتقريب. قال المناوي فى فيض القدير (يزيد بن أبي نشبة بضم النون لم يخرج له أحد من الستة غير أبي داود وهو مجهول كما قال المزي وغيره).

وبهذا يعلم ان جزم الأخ الصابوني بانه صحيح ليس فى محله والأولى ان يقال فى مثله هذا وروى عن النبي ﷺ فينقـل بصيغـة التمـريض كما نص عليـه أهـل العلم فى روايـة الأحاديث الضعيفة ولم يسق الأخ الصابوني لفظه كما ورد. وإليك أيها القارىء نصه عند أبي داود لمزيد الفائدة (حدثنا سعيد بن منصور ثنا أبو معاوية ثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن أبي نشبة عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: ثلاثة من أصل الايمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ولا تكفره بذنب ولا تخرجه من الإسلام بعمل والجهاد ماض منذ بعثنى الله الى أن يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور الجائر ولا عدل عادل والايمان بالأقدار) أ. هـ.

وهذا الذى دل عليه الحديث قد جاء فى معناه أحاديث أخرى صحيحة والقول بمعناه هو قول أهـل السنـة والجـماعة فان أهل السنة يعتقدون ان من شهد الا إله إلا الله وان محمدا رسـول الله والتـزم بمعنـاه ولم يأت بناقض من نواقض الإسلام فانه يجب الكف عنه وحسابه على الله عز وجـل كما قال النبي ﷺ فيـما رواه الشيخـان من حديث ابن عمر رضي الله عنهما (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على

الله عز وجل) ومن عقيدة أهل السنة ان المسلم لا يكفر بذنب من الذنوب التى دون الشرك ولا يخرج من الإسلام بعمل من الأعمال التى لا تلحقه بالمشركين خلافا للخوارج لقول الله عز وجل ﴿**ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ وكان الأخ الصابوني ذكر هذا الحديث ليستدل به على وجوب الكف عن الكلام فى الأشاعرة وبيان ما اخطأوا فيه وهكذا ما اخطأ فيه غيرهم من الفرق الإسلامية وليس الأمر كما زعم فان الحديث المذكور لو صح لا يدل على شرعية الكف عن من خالف الحق كما انه لا يدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان ما أخطأ فيه المخطئون وغلط فيه الغالطون من الأشاعرة وغيرهم بل الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة كلها تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والانكار على من خالف الحق وارشاده الى طريق الصواب حتى يهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة كما بينا ذلك فيما سبق وإنما المقصود من الحديث لو صح الكف عن قتال من أظهر الإسلام وتكلم بكلمة التوحيد حتى ينظر فى أمره بعد ذلك ويعامل بما يستحق حسب الأدلة الشرعية كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة التى اشرنا إليها آنفا والله سبحانه ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا آخر ما تيسر التنبيه عليه والحمد لله رب العالمين وصلى الله على عبده ورسوله وأمينه على وحيه وصفوته من خلقه إمام المجاهدين ورسول رب العالمين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله ، واهتدى بهداه الى يوم الدين .



أخبار الجامعة

إعداد إدارة العلاقات العامة بالجامعة

(١) تعيينات لمناصب مختلفة فى الجامعة

● **فى عمادة شئون الطلاب :**

تم تعيين الدكتور أحمد سعد الغامدى عميداً لشئون الطلاب بالجامعة خلفاً للشيخ عوض أحمد بن سلطان الشهرى العميد السابق لعمادة شئون الطلاب .

والدكتور أحمد سعد الغامدى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعة فى كلية الدعوة وأصول الدين .

وقد وجه معالى رئيس الجامعة الدكتور عبد الله الصالح العبيد خطاب شكر للشيخ عوض الشهرى بمناسبة انتهاء فترة تكليفه للقيام بعمل عمادة شئون الطلاب .

واسرة التحرير تشكر العميد السابق على ماقدم من خدمات جليلة . وتدعو الله أن يوفق العميد الجديد للنهوض بالمسئوليات الجسام فى شئون الطلاب .

● **فى رئاسة الدراسات العليا وعمادات الكليات :**

وافق المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية فى دورته الرابعة عشرة التى انعقدت يومى السبت والأحد ٢٧ ، ٢٨ ربيع الأول ١٤٠٤هـ على التعيينات الآتية :

عين فضيلة الشيخ عبد الله محمد الغنيمان رئيسا لقسم الدراسات العليا خلفا لفضيلة الدكتور محمد. ابن حمود الوائلى الذى عين بقرار من مجلس الوزراء أمينا عاما للجامعة .

وعين الدكتور على سلطان الحكمى عميدا لشئون المكتبات خلفا للدكتور على ناصر فقيهى الذى منح اجازة تفرغ لإنهاء بحوث علمية .

وكان الدكتور الحكمى وكيلا لعميد شئون المكتبات .

وعين الدكتور عبد العزيز الصاعدى عميدا لكلية اللغة العربية .

وعين الدكتور مرزوق بن هياس الزهرانى عميدا لكلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية .

وطبقا للنظام الأساسى للجامعة فإن هذه التعيينات تكون لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد فترة أخرى بترشيح رئيسن الجامعة وموافقة المجلس الأعلى .

● **وكيل عميد كلية اللغة العربية :**

أصدر معالى الدكتور عبد الله الصالح العبيد رئيس الجامعة قرارا بتعيين الدكتور محمد بن حمود الدعجانى الأستاذ المساعد بالجامعة وكيلا لعميد كلية اللغة العربية اعتبارا من ١٤٠٤/٣/١٧هـ لمدة سنتين. وتم هذا التعيين بناء على ترشيح فضيلة الدكتور عبد العزيز الصاعدى عميد الكلية .

هذا ويشغل الدكتور الدعجانى إلى جانب عمله وكيلا لعميد كلية اللغة العربية مدير تحرير مجلة الجامعة فى هيئة تحريرها الجديدة .

● **وكيل لعمادة شئون المكتبات :**

كما أصدر معالى رئيس الجامعة الدكتور عبد الله العبيد قرارا بتعيين الشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن صالح المحاضر بكلية الشريعة وكيلا لعمادة شئون المكتبات. وذلك لمدة سنتين اعتبارا من ١٤٠٤/٥/١هـ .

والشيخ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن صالح أحد خريجى الجامعة الإسلامية من كلية الشريعة .

● **مدير مكتب نائب رئيس الجامعة، ومدير الإدارة المالية :**

تم تكليف الشيخ صالح عوض الأحمدى بعمل مدير مكتب نائب رئيس الجامعة الإسلامية. وكان يقوم بعمل مدير الإدارة المالية بالجامعة ومن الجدير بالذكر أنه صدر قرار معالى رئيس الجامعة بتعيين الشيخ أحمد أحمد بابا مديرا للادارة المالية بالجامعة .

● **أستاذ مساعد بكلية الحديث :**

تم تعيين الدكتور عبد الرحيم محمد أحمد القشقرى أستاذا مساعدا بكلية الحديث والدراسات الإسلامية بالجامعة بعد حصوله على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الثانية ومن الجدير بالذكر أن فضيلته يرأس قسم المخطوطات بعمادة شئون المكتبات .

● **مديراً للمعهد الثانوى ومستشارا برئاسة الجامعة :**

تم تعيين الشيخ محمد عبد الله الزربان مديرا للمعهد الثانوى بالجامعة كما صدر قرار معالى رئيس الجامعة بان يقوم بعمل مستشار بالمرتبة الحادية عشرة برئاسة الجامعة بالاضافة إلى عمله الأصلى .

● **شغل وظائف إدارية عن طريق المسابقة :**

أجرت الجامعة الإسلامية مسابقة لشغل عدد من الوظائف الإدارية من المرتبة العاشرة حتى المرتبة الأولى وذلك باشتراك مندوب من ديوان الخدمة المدنية. وفاز فى المسابقة كل من :

الأستاذ عليان عيد الحربى : «إلى المرتبة العاشرة» فى وظيفة مدير الاستقدام والترحيل .

الأستاذ أحمد أحمد بابا : «إلى المرتبة العاشرة» فى وظيفة مدير إدارة الشئون المالية .

الأستاذ عوض إبراهيم الأحمدى : «إلى المرتبة العاشرة» فى وظيفة أخصائى مستودعات .

الأستاذ مبروك معوض حمدان : «إلى المرتبة التاسعة» فى وظيفة أخصائى محفوظات ووثائق .

الأستاذ الشريف مدنى شاكر : «إلى المرتبة الثامنة» فى وظيفة رئيس قسم التوظيف .

الأستاذ محمد إبراهيم التركى : «إلى المرتبة السابعة» فى وظيفة فنى صيانة .

الاستاذ غرم الله على الغامدى : «إلى المرتبة السابعة» فى وظيفة مشرف سكن .
الاستاذ محمد ياسين محمد : «إلى المرتبة السادسة» فى وظيفة مشرف اجتماعى .
الاستاذ فائز عواد عيد : «إلى المرتبة الرابعة» فى وظيفة كاتب .
الاستاذ عبد الرحمن صالح حجرى الرحيلى : «إلى المرتبة الثالثة» فى وظيفة كاتب .
الاستاذ عصام صالح العقيل : «إلى المرتبة الثانية» فى وظيفة مساعد نجار .
الاستاذ مساعد غيث الردادى : «إلى المرتبة الأولى» فى وظيفة ناسخ آلة .

(٢) مشاركة الجامعة الإسلامية فى اللجنة السعودية الأندونيسية

غادر المدينة المنورة فى أوائل شهر ربيع الأول ١٤٠٤هـ فضيلة الشيخ صالح عبد الله المحيسن نائب رئيس الجامعة الإسلامية متوجها إلى أندونيسيا للمشاركة فى اللجنة السعودية الأندونيسية المنوط بها تنفيذ الاتفاقية الثقافية للتعاون العلمى والتعليم الإسلامى .

وقد ترأس وفد المملكة العربية السعودية سعادة وكيل وزارة التعليم العالى الدكتور عبد الرحمن الشبيلى وضم ممثلين عن بعض الوزارات فى المملكة وممثلين عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وجامعة أم القرى بمكة المكرمة بالاضافة إلى ممثلين عن المركز الوطنى للعلوم والتكنولوجيا بالمملكة .

ومن الجدير بالذكر أن الاتفاقية الثقافية للتعاون العلمى والتعليم الإسلامى قد وقعت عام ١٤٠١هـ وصدر مرسوم ملكى بالمصادقة عليها عام ١٤٠٢هـ .

(٣) الأمين العام للجامعة يتصل بالجامعات المصرية

غادر إلى القاهرة فضيلة الدكتور محمد بن حمود الوائلى الأمين العام للجامعة فى منتصف شهر ربيع الثانى حيث قضى فضيلته قرابة أسبوعين أجرى خلالها عديدا من الاتصالات مع المسئولين فى الجامعات المصرية تمهيدا للتعاقد مع أعضاء هيئة التدريس اللازمين للجامعة الإسلامية فى العام الدراسى القادم ١٤٠٤/١٤٠٥هـ .

(٤) المخيم التربوى لطلاب الجامعة فى عطلة الربيع

أقامت الجامعة المخيم التربوى فى عطلة نصف العام الدراسى بمنطقة ينبع البحر. بهدف تنمية قدرات الطلاب واكتشاف عناصر التفوق عندهم ولتأهيلهم للقيام بواجب الدعوة إلى الله . وذلك من خلال ما وضعه المشرفون على المخيم من برامج وانشطة مختلفة فى الجوانب الثقافية والاجتماعية والرياضية . . .

وقد أدار المخيم فضيلة الدكتور أحمد عطية الغامدى عميد كلية الدعوة وأصول الدين ، وساعده فضيلة الدكتور عبد العزيز راجى الصاعدى عميد كلية اللغة العربية .

وقد اشتمل البرنامج الثقافي والتربوى للمخيم على العديد من المحاضرات واللقاءات الفكرية التى أسهم فيها كل من فضيلة الدكتور صالح بن سعد السحيمى والشيخ جبران بن أحمد صالح والشيخ عطية عتيق الزهرانى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية والذين تولوا مشكورين مأجورين من الله مهمة توجيه الطلاب وإرشادهم وتثقيفهم والإجابة على استفساراتهم .

وقد استمر المخيم أسبوعين ابتداء من ١٥/٤/١٤٠٤هـ حيث قسم الطلاب إلى فوجين كل فوج مائة طالب لمدة أسبوع وخصص الأسبوع الأول للطلاب الذين يدرسون فى المعهد الثانوى والمعهد المتوسط ودارى الحديث المدنية والمكية، وخصص الأسبوع الثانى لمائة طالب من طلاب المرحلة الجامعية .

هذا وقد زار طلاب المخيم ميناء ينبع ومصنع الاسمنت وعملية تحلية مياه البحر إلى مياه عذبة . واشتمل برنامج المخيم على جولات حرة فى مدينة ينبع تعرفوا فيها على أهم معالم المدينة .

هذا وقد زار معالى رئيس الجامعة الدكتور عبد الله الصالح العبيد المخيم وقضى يوما كاملا مع طلابه وتعرف على أوجه نشاطهم .

(٥) لجان من الجامعة للتعرف على الطلاب المرشحين للدراسة للعام القادم

تم تشكيل ست لجان من بعض مسئولى الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وكلفت هذه اللجان لزيارة العديد من المدارس العربية والإسلامية التى تقبل الجامعة طلابا منها على سبيل المنح، وتهدف هذه الزيارة إلى معرفة مناهجها الدراسية وخطتها وسيرها الدراسى والاطلاع على أوجه نشاطها الاجتماعى وكذا مقابلة المعلمين فى هذه المدارس، والالتقاء بالطلاب المرشحين للدراسة فى الجامعة الإسلامية للعام الدراسى القادم ١٤٠٤/١٤٠٥هـ وتشمل زيارة هذه اللجان كثيرا من بلدان العالم ومنها تايلاند والفلبين، وماليزيا وسنغافورة، وأندونيسيا، وجزر القمر، ومدغشقر، موزمبيق، وموريشيوس، وباكستان وكشمير، والهند وماليديف وكينيا، وأوغنده، وتنزانيا .

(٦) شخصيات ووفود اسلامية فى زيارة الجامعة

● زار الدكتور فرحان أحمد فيظامى الأستاذ بجامعة أوكسفورد ببريطانيا الجامعة الإسلامية واجتمع خلال هذه الزيارة بمعالى الدكتور عبد الله الصالح العبيد رئيس الجامعة وقام بجولة للتعرف على معالم الجامعة شملت مطبعة الجامعة وقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية .

● كما زار الجامعة وفد من طلاب المعهد العالى للدعوة الإسلامية بالرياض فى ١٤/٥/١٤٠٤هـ والتقى فضيلة الدكتور محمد حمود الوائلى بهذا الوفد فى لقاء ودى وقام الوفد بزيارة لقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية ولكلية الدعوة وأصول الدين والتقى مع مدير مركز شئون الدعوة .

كما قام بزيارة الجامعة وفد من ولاية كلنتان بماليزيا ضم فى عضويته السيد هاشم أحمد رئيس الهيئة التنفيذية لمجلس ولاية كلنتان والسيد منصور صالح مدير المؤسسة الإسلامية بكلنتان ونائبه السيد نعمان عبد اللطيف. والسيد عبد العزيز عمر نائب مدير دار التعليم بكلنتان، واجتمع بالوفد فضيلة الشيخ صالح عبد الله المحيسن نائب رئيس الجامعة وأدار حوارا مع الوفد حول شئون الدعوة الإسلامية والتعليم

الإسلامى وتدعيم سبل التعاون بين الجامعة والمؤسسات الإسلامية بولاية كلنتان. واجتمع الوفد بفضيلة الشيخ عمر محمد فلاتة رئيس مجلس شئون الدعوة. وبالشيخ حسن الصايغ مدير مركز شئون الدعوة فى أثناء زيارة مركز شئون الدعوة.

● وزار الجامعة السيد أبوبكر ضاحى السكرتير الأول بسفارة جامبيا بالمملكة واجتمع به فضيلة الشيخ صالح عبد الله المحيسن نائب رئيس الجامعة حيث تعرف سعادته على أحوال طلبة جامبيا فى الجامعة كما قام بزيارة لعميد شئون الطلاب الدكتور أحمد سعد الغامدى ومدير مركز شئون الدعوة الشيخ حسن الصايغ.

وزار الجامعة فضيلة الشيخ مصطفى الغزال أمين عام الكلية الزيتونية بتونس والتقى بكل من معالى رئيس الجامعة الدكتور عبد الله العبيد وفضيلة الشيخ عبد المحسن العباد رئيس المجلس العلمى بالجامعة وفضيلة الشيخ صالح عبد الله المحيسن نائب رئيس الجامعة.

ومن الجمهورية التونسية زار الجامعة وفد من المديرين العموميين من وزارة الشباب والرياضة ومندوبين من الحزب الدستورى الحاكم ومديرى فروع رعاية الشباب ومديرى ومفتشى معاهد التربية الرياضية وجاءت هذه الزيارة تلبية للدعوة الموجهة من الرئاسة العامة لرعاية الشباب، وقد اجتمع فضيلة الدكتور محمد بن حمود الوائلى الأمين العام للجامعة بهذا الوفد، كما زار الوفد عميد شئون الطلاب وقسم المخطوطات بالمكتبة المركزية.

(٧) رسائل جامعية

نوقشت رسالة الدكتوراه المقدمة من الطالب عبد الرحيم محمد أحمد القشقرى (السعودى الجنسية) وموضوعها: «كتاب المعتبر فى تخريج أحاديث المنهاج والمختصر للزركشى. تحقيق ودراسة» وذلك مساء السبت الموافق ١٤٠٤/٣/٢٧هـ بقاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة. وتكونت لجنة المناقشة برئاسة فضيلة الشيخ حماد بن محمد الأنصارى المشرف على الرسالة وعضوية كل من الدكتور أحمد نور سيف والدكتور ربيع بن هادى مدخلى.

كما نوقشت رسالة الدكتوراه المقدمة من الطالب عبد الرحيم صالح محمد يعقوب (أفغانى الجنسية) وموضوعها: «تحقيق لكتاب: تقويم أصول الفقه وتحديد أدلة الشرع لأبى زيد الدبوسى من أول باب القياس إلى نهاية الكتاب» وذلك مساء يوم الخميس ١٤٠٤/٥/٨هـ بقاعة المحاضرات الكبرى بالجامعة الإسلامية، وكانت لجنة المناقشة مكونة برئاسة الدكتور عمر عبد العزيز محمد المشرف على الرسالة وعضوية كل من الدكتور حسين خلف الجبورى والدكتور عبد القادر شحاتة.

ونوقشت رسالة الماجستير المقدمة من الطالب جفرى أفندى وهاب وموضوعها «الشرك وأنواعه» وذلك بعد صلاة المغرب من يوم ١٤٠٤/٤/٩هـ بقاعة المحاضرات بالجامعة وتكونت لجنة المناقشة برئاسة فضيلة الشيخ عبد الله محمد الغنيمان المشرف على الرسالة وعضوية كل من فضيلة الشيخ حماد الأنصارى وفضيلة الشيخ محمد أمان.

حول المؤتمر العالمي الثاني

لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة

بموافقة سامية من صاحب الجلالة الملك المعظم فهد بن عبد العزيز ـ حفظه الله ـ تم عقد المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة فى المدة من **٢٥ ـ ٣٠** ربيع الأول **١٤٠٤**هـ الموافق الأحد (أول يناير إلى **٣** يناير **١٩٨٤**م) وكان موضوعه هو «**سبيل الدعوة الإسلامية إلى تحقيق التضامن الإسلامى ووحدة المسلمين**» .

وجاء هذا المؤتمر الثانى امتدادا للمؤتمر العالمى الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة الذى عقد فى رحاب الجامعة الإسلامية فى المدة من **٢٤ ـ ٢٩** صفر**١٣٩٧**هـ الموافق (**١٢ ـ١٧** فبراير **١٩٧٧**م) .

وقد اتخذت الجامعة الإسلامية كافة الوسائل الكفيلة بانجاح المؤتمر وتحقيق أهدافه، وعقدت لجانا متعددة لخدمته، وأرسلت إلى العديد من المفكرين الإسلاميين والدعاة وإلى الكثير من الهيئات والمؤسسات الإسلامية العاملة فى ميدان الدعوة، وتلقت العديد من البحوث، ووقع الاختيار على (**٣٥**) خمسة وثلاثين بحثا تغطى موضوع المؤتمر، ووجهت الدعوات لحضور المؤتمر إلى أصحاب المعالى والسعادة والفضيلة من الوزراء ومديرى الجامعات والعلماء والمفكرين من داخل المملكة وكثير من الأقطار الإسلامية ومن رجال الفكر الإسلامى .

وتحت رعاية صاحب الجلالة الملك المعظم فهد بن عبد العزيز ـ حفظه الله افتتح صاحب السمو الملكى الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أعمال المؤتمر وألقى كلمة جلالة الملك المعظم نيابة عنه .

وعقد المؤتمر ثمانى جلسات فى قاعة المحاضرات تم فيها مناقشة البحوث، وختم المؤتمر بحفل ختامى أعلنت فيه التوصيات التى انتهى إليها المؤتمر .

ويسرنا أن نسجل هذه التوصيات رصدا لهذا الحدث الإسلامى العظيم .

توصيـــــــات
المؤتمر العالمى الثانى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة

مقدمـــــــــة :

الحمـد لله الـذى جعلنـا بالاسـلام خير أمـة . . والصـلاة والسـلام على نبينـا محمد رسول الهدى والرحمة، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه . . وبعـــــد :

فإن الجـامعـة الاسـلاميـة بالمدينة المنورة انطلاقا من رسالتها وأهدافها فى تبليغ رسالة الاسلام إلى العـالمـين ـ قد دعت إلى عقـد المؤتمـر العالمى الثانى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة لبحث وسائل التضامن والـوحـدة بين المسلمـين : تحقيقـا لما يجب أن يكـون بينهم من تعـاون على الـبر والتقوى، وقياما بواجب الدعوة، واستجابة لله وللرسول فيما أمروا به من الاعتصام بدينهم والاجتماع عليه وما نهوا عنه من التفرق والاختلاف من بعد ما جاءهم البينات . .

وقد تم بعون الله وتوفيقه عقد هذا المؤتمر فى مقر الجامعة الاسلامية فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفترة من ٢٨ ـ٣٠ من شهر ربيع الأول **١٤٠٤** هـ ، واشترك فيه علماء ودعاة من العالم الاسلامى .

وبعد دراسة البحوث المقدمة فى موضوع المؤتمر والنظر فى واقع المسلمين وما يجب أن يكونوا عليه من أخـوة وتعـاطف وتـرابـط فإن المؤتمـر ينـاشـد المسلمين بعامة وحكامهم وأولياء أمورهم بخاصة أن يقدروا الظـروف التى تمر بهم والأخطـار المحدقة بأوطانهم، وأن يعملوا جميعا على جمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم باتباع دينهم وطرح الشعارات المنافية له، وأن يخضعوا كل شىء من أمرهم لاعلاء كلمة الله عز وجل أداء لرسالتهم وتحقيقا لعزتهم ورحمة للعالمين، كما يذكرهم أن يردوا أى شىء تنازعوا فيه إلى الله والرسول عملا بقول ربهم : **﴿فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾** .

وفى سبيل تحقيق ذلك :

يؤكد المؤتمر ـ فى مقدمة توصياته ـ العناية بتنفيذ جميع توصيات المؤتمر العالمى الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ـ لشمولها وأهميتها البالغة على طريق الدعوة الاسلامية .

ويوصـــى بما يلى :

أولا : العقيدة والشريعة :

(١) أن يعمل المسلمون جميعا حكاما ومحكومين على ترسيخ العقيدة الاسلامية الخالصة الصافية، وتعميق حقيقـة (لا إلـه إلا الله محمـد رسـول الله) فى قلب كل مسلم ومسلمـة بعلم ويقـين، حتى تكون العبادة خالصة لله وحده وموافقة لشرع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى يظهر أثر ذلك : صفاء فى النفس، واستقامة فى الخلق، وصلاحا فى العمل، واعتزازا بالإيمان، وغيرة على الاسلام ، ووحدة وأخوة وتعاونا بين المسلمين .

(٢) دعوة ولاة الأمور فى الأقطار الاسلامية إلى تطبيق الشريعة الاسلامية فى كافة شئون الحياة: قياما بما أوجبه الله عز وجل عدلا منه ورحمة، وخروجا من دائرة الاثم والتعرض للعقوبات العاجلة والآجلة، وتوحيدا لمسيرتهم فى حياتهم على منهج الاسلام، وتعزيزا لسبل التعاون والتضامن فيما بينهم، وتوفيرا للأمن والرخاء والاستقرار والنمو فى مجتمعاتهم.

وينوه المؤتمر بما تحقق قريبا فى الباكستان والسودان وموريتانيا من اتجاه إلى تطبيق الشريعة الاسلامية وبدء فى تنفيذ ذلك.

(٣) أن تقوم هيئات الدعوة الاسلامية ومؤسساتها والجامعات الاسلامية فى العالم الاسلامى بجهود علمية نشطة فى دراسة أوضاع المسلمين وتشخيص أسباب تفرقهم وتخلفهم وولاء بعضهم لأعدائهم واتباعهم فى مذاهبهم وسياستهم، وبيان سبل اصلاح هذه الأوضاع ودعوة المسلمين إليها شعوبا وحكومات للأخذ بها والعودة إلى ما يجب أن يكونوا عليه أمة مسلمة واحدة تقوم على التوحيد الخالص فى العقيدة والعبادة، والسير على نهج السلف الصالح خير القرون من الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان.

(٤) يؤكد المؤتمر ألّا سبيل لهذه الأمة لاستعادة مجدها ومكانتها العزيزة القوية القيادية بين الأمم وانتصارها على أعداء الله وأعدائها ـ إلا بالله، ثم بتضامنها ووحدتها وتمسكها الكامل بعقيدتها ومنهج شريعتها وجهادها فى سبيل ذلك.. سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

ثانيا: الدعـــوة والدعاة:

(٥) أن يكون للمسجد ـ منبر الاسلام الأول ومنطلق دعوته وأساس دولته ـ دوره البارز والفعال فى توجيه المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية وهدايتهم إلى سبيل ربهم، ومنهج دينهم ودنياهم على طريق تضامنهم ووحدتهم، وتطهير مجتمعاتهم من عوامل التدابر والخلاف والفرقة، وتقوية عناصر التآخى والتواد والتعاطف والتراحم والتعاون فيما بينهم مهما تباعدت أوطانهم.. **وأن يشارك المجلس الأعلى العالمى للمساجد بمكة المكرمة بجهوده فى توجيه هذا النشاط ـ وتعزيزه وتنسيقه.**

(٦) تعميم مراكز الدعوة الاسلامية فى العالم الاسلامى وغيره وتوثيق الاتصال بينها لتوحيد سياستها وتعزيز جهودها وتنسيق برامجها.

(٧) يؤكد المؤتمر على أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى أوجبه الله عز وجل وجعله أساسا لخيرية هذه الأمة لما يستهدفه من إقامة حياة المسلمين على الحق والخير وتطهيرها من كل باطل وشر... ويوصى الأقطار الإسلامية جميعا بتعميم إنشاء هيئات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتوفير كل ما يمكنها من أداء رسالتها أداء كاملا: استجابة لقول الله عز وجل: **﴿ولْتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾** ولقوله تعالى: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾**.

(٨) أن تتحمل أجهزة الاعلام فى جميع الأقطار الاسلامية مسئوليتها تجاه أمتها، وأن تؤدى دورها كاملا فى ابراز معانى التضامن والوحدة ومزاياهما وإظهار مساوىء الخلاف والفرقة، وتكوين رأى عام إسلامى يدرك خصائص أمته التى جعلها الله بها خير أمة أخرجت للناس، ويعى حقيقة تضامنها ووحدتها ويتجاوب معهما: وجدانا وعقلا وسلوكا فى كل جوانب الحياة.

والاعلام قادر بإذن الله بقوة تأثيره واتساع دائرة جماهيره أن يخطو بجهود مخلصة خطوات جادة تؤدى إلى الهدف المنشود.

(٩) ألا تكون الخلافات المذهبية فى الفروع سببا للتفرق والتباعد بين المسلمين وعلينا ان ننبذ التعصبات المذهبية التى يذمها الإسلام ويرفضها وأن نلتزم بالتحاكم إلى الكتاب والسنة تطبيقا لقول الله عز وجل: ﴿**فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا**﴾ وقوله تعالى: ﴿**وما اختلفتم فيه مِن شىء فحكمه إلى الله**﴾ .

(١٠) تكوين هيئات إسلامية للتضامن والوحدة فى الاقطار الإسلامية توفر جهودها وتوجه نشاطها فى هذا السبيل .

(١١) يوصى المؤتمر الهيئات والمؤسسات والجامعات ورجال الدعوة فى البلاد الإسلامية :

● بمكافحة الفرق الخارجة عن الإسلام والفرق المبتدعة والزائغة التى تهدد الإسلام وتفرق جماعته والعمل المشترك لدعوتهم إلى الحق والقضاء على شرهم .

● وبالوقوف فى وجه الدعوات العنصرية والقومية التى تفتت الكيان الإسلامى الواحد إلى كيانات صغيرة تفقدها قوتها ويسهل على أعدائها المتربصين بها قيادتها والسيطرة عليها .

(١٢) مقاومة الغزو الفكرى من قبل أعداء الإسلام والمسلمين ممثلا فى: مؤلفاتهم وصحفهم وإذاعاتهم وجامعاتهم ومؤتمراتهم وغير ذلك من المجالات والوسائل التى تستهدف تضليل المسلمين وبخاصة الشباب فى دينهم وتوهين عقيدتهم واتصالهم بشريعتهم، وتشتيت أفكارهم وتفريق كلمتهم واضعاف ولائهم لدينهم ومبادئه السامية وقيمه العليا، وانتمائهم إلى أمتهم الإسلامية ـ مستغلين فى ذلك تقدمهم المادى .

وهذه المقاومة هى واجب الجامعات وأجهزة الاعلام وهيئات الدعوة ومراكزها والعلماء والدعاة وقادة الفكر المسلمين فى سائر الاقطار الإسلامية: حماية للمجتمع الإسلامى من آثار هذا الغزو واظهارا للفكر الإسلامى ومبادىء الإسلام ومناهجه وقيمه العليا المستمدة من: كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ .

(١٣) تيسيراً لقيام الدعاة بواجبهم وتذليلا لما يعترضهم من بعض العوائق يوصى المؤتمر: حكومات البلاد الإسلامية بتسهيل سرعة حصول الدعاة على الاقامة وعلى سمة الدخول فى البلدان الإسلامية وغيرها واعطائهم بطاقات معترف بها من الجهات ذات الاختصاص .

(١٤) انطلاقا من أهمية الدعوة الإسلامية ومسئوليتها الكبرى فى عالمنا المعاصر وضرورة العناية بالدعاة وتعزيز جهودهم وكفاءتهم لاداء رسالتهم يوصى المؤتمر بانشاء (**مجلس عالمى للدعوة والدعاة**) يعنى بشئون الدعوة الإسلامية والدعاة فى العالم. . . ومن أهم أهدافه :

* توجيه سياسة الدعوة الإسلامية فى العالم .
* تنسيق جهود الدعاة والجهات المعنية بها وتعزيز تعاونهم لأداء رسالتهم الأداء المنشود .
* دراسة مناهج الدعوة وأساليبها ووسائلها، وتزويد الدعاة بنتائج هذه الدراسات للاستفادة منها وتطبيقها فى مجال الدعوة .
* تزويدهم بالمراجع المعتمدة والكتب التى تعينهم فى أداء رسالتهم وتحقيق اغراض الدعوة .
* تنظيم البرامج التدريبية للدعاة .
* تمويل الدعوة عن طريق صندوق ينشأ لذلك يتبع المجلس .

ويوصى المؤتمر رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة أن تقوم بانشاء هذا المجلس فى أقرب وقت .

ثالثا : الجهاد ، وحركات التحرر الاسلامى :

(١٥) يؤكد المؤتمر أن القضية الفلسطينية قضية إسلامية، وعلى المسلمين واجب الجهاد بكل قدراتهم لاسترداد فلسطين المسلمة والمسجد الأقصى المبارك القبلة الأولى من أيدى الصهاينة المعتدين المغتصبين، ورفع الظلم عن الشعب الفلسطينى المسلم المشرد المضطهد المعذب . . وعليهم أن يكونوا صفا واحدا ضد اليهود ومن وراءهم . . ويناشد المؤتمر أبناء فلسطين أن يجمعوا كلمتهم ويوحدوا صفوفهم تحت راية الإسلام .

(١٦) إن جهاد الشعب الافغانى المسلم لدفع العدوان الشيوعى الهمجى على أرض أفغانستان لمحو الإسلام هو جهاد الأمة الإسلامية جمعاء . . . ويوصى المؤتمر أن يشارك المسلمون جميعا اخوانهم الافغانيين فى جهادهم وأن يكونوا معهم ومن ورائهم بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم حتى ينتصروا على عدو الله وعدوهم .

(١٧) يوصى المؤتمر جميع المنظمات التى قامت لمناهضة الاستعمار والاحتلال الأجنبى لأوطانها (كأرتيريا) وغيرها أن تلتزم بتعاليم دينها وأن يكون جهادها تحت راية الإسلام حتى يتحقق لها التضامن فيما بينها والانتصار على أعدائها ﴿**ولَيَنْصُرنَّ الله من ينصرهُ إن الله لقوى عزيز**﴾ . . ويوصى المؤتمر بدعمها واعانتها .

رابعا : التعليم ، والتربية ، والبحث العلمى :

(١٨) أن تعمل الحكومات الاسلامية على توحيد سياسة التعليم فى جميع المراحل، والتقريب بين المناهج الدراسية وصبغها بالصبغة الاسلامية التى تحفظ للأمة خصائصها التربوية والتعليمية والعلمية المستمدة من الكتاب والسنة .

ويوصى المؤتمر المركز العالمى للتعليم الاسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بالقيام بالدراسات التى تيسر للحكومات تحقيق ذلك .

(١٩) التوسع فى انشاء الجامعات الاسلامية فى جميع الأقطار الاسلامية فى التخصصات الشرعية وفى التخصصات الأخرى التى يحتاج إليها المسلمون فى نواحى المعرفة الانسانية من : طب، وهندسة،

وزراعـة وغـيرهـا، مع العناية بتربية الطلاب فى جميع تخصصاتهم تربية إسلامية تجمع بين العلم والعمل حتى يتيسـر لأبنـاء المسلمـين ـ حيثـما يوجدون ـ تحقيق رغباتهم فى مواصلة تعليمهم الجامعى فى جامعات تعنى باعـدادهم اعـدادا إسلاميا متكاملا، يمكنهم من حمل رسالة الاسلام الشاملة، وتطبيق أحكامه فى كل مجالات الحياة.

(٢٠) دعوة الجامعات والهيئات والمؤسسات المتخصصة فى جميع الأقطار الاسلامية إلى التعاون فى مجالات البحـوث والـدراسـات العلميـة والتقنيـة المتطـورة فى كل فروع المعرفة الانسانية ونواحى الحياة، والارتقـاء بها إلى ما يحقق للأمـة الإسـلاميـة التقدم العالمى المنشود فى هذا المضمار الذى تتسابق فيه الأمم بكل طاقاتها لتسبق غيرها. وإلى ما يمكن هذه الأمة من بناء قوتها وحضارتها دون اعتماد على غيرها.

(٢١) أن تعنى الجامعات فى الأقطار الاسلامية بالتوسع فى توفير المنح الدراسية للطلاب المسلمين فى مختلف التخصصـات لتنميـة التـآخى والتعـاون بين المسلمـين، وتعميم العلوم الاسـلاميـة والمعـارف الانسانية بين الشباب المسلم.

(٢٢) التـوسـع فى انشـاء المـدارس والمعـاهـد التى تستـوعب أولاد المسلمـين حتى لا يتجهوا إلى الالتحـاق بالمـدارس غير الاسـلاميـة التى تؤثر على عقيدتهم وأخلاقهم وولائهم لدينهم، وانتمائهم إلى أمتهم الاسلامية.

(٢٣) أن تكون اللغة العربية لغة أساسية فى مناهج التعليم فى جميع الأقطار الاسلامية بالقدر الذى يمكن من اجـادتهـا اجـادة اللغـة المحلية. وأن يكون تخاطب الشعوب الاسلامية بها هدفا أساسيا يسعى الجميع إلى الوصول إليه بكل الجهود والوسائل.

وعلى أجهزة الاعلام أن تشارك بجهودها وبرامجها فى هذا المجال.

وفى تحقيق ذلـك توحيـد للسـان الأمـة الـواحـدة بلغـة كتـابها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم.. وتقريب عقلى ووجدانى بين شعوبها، فضلا عن تيسير تفقهها فى دينها، وتوسيع دائرة المعارف فى مجالات علومه المتعددة.

(٢٤) أن يكـون التضـامن الاسـلامى ووحـدة المسلمـين ضمن ما يركـز عليـه فى منـاهـج الثقافة الاسلامية فى مختلف مراحل التعليم.

(٢٥) العناية فى دراسة التاريخ والجغرافيا للأقطار الاسلامية باعتبارها أمة واحدة تترابط وتتفاعل أجزاؤها وتتكامل ثرواتها وطاقاتها ويتحد مصيرها.

(٢٦) العنـايـة خاصـة فى مراحل الطفولة والشباب ـ بالتربية الاسلامية المبنية على الإيمان وإخلاص العبـادة لله عز وجـل، وربطهـا بمبـادىء الأخـوة والمـودة والتعـاون والأخلاق والآداب الاسلامية الفردية والاجتماعية المستمدة من الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح.. وأن تتعاون فى ذلك جميع المؤسسات المعنيـة بالـتربيـة من: الأسـرة، والمـدرسـة، والمسجـد، والجامعة، ومراكز الدعوة والثقافة، والمؤسسات الشبابية والاعلامية.

ويؤكـد المؤتمـر أهميـة العنـايـة برعـايـة الشبـاب وتنشئتهم تنشئـة إسلامية خالصة: عقيدة وخلقا وسلوكـا.. وبنـاء حيـاتهم على الاستقـامـة والجـد والحـزم والقوة والصبر، وحب الطاعة والبر، وكراهية

المعصية والشر، والبعد عن مظاهر الترف ومجالات اللهو واللعب واضاعة الوقت فيما لا يعود عليهم بنفع يدعو إليه دينهم .

(٢٧) دعوة مراكز البحث العلمي ودور النشر إلى تشجيع تأليف الكتب وإعداد البحوث والدراسات لبيان حقيقة الاسلام وشرائعه والدعوة إليه وما يجب أن تكون عليه الأمة الاسلامية من تضامن ووحدة، ونشرها على أوسع نطاق باللغات المختلفة، وتيسير الحصول عليها .

(٢٨) يؤيد المؤتمر ما جاء في توصيات لجنة الاعجاز العلمي في القرآن والسنة في المؤتمر الطبى السعودى الثامن من ضرورة العناية بابحاث الاعجاز العلمى التى تقوم على تحقيق الأدلة الشرعية والكونية لأهميته في مجال الدعوة في هذا العصر. . ويوصى ان يتم ذلك بالتنسيق بين الجامعات المتخصصة في الشريعة الإسلامية والعلوم الكونية .

خامسا : المال ، والاقتصاد :

(٢٩) يؤكد المؤتمر أهمية الاستفادة من الزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة في تحقيق التضامن والتراحم والتنمية في المجتمعات الإسلامية - ويوصى الحكومات في الأقطار الإسلامية بالعمل على تشجيع وتنظيم جمع الزكاة وانشاء مؤسسات خاصة بها وانفاقها في مصارفها الشرعية، والعناية برعاية فقراء المسلمين وسد حاجاتهم وبخاصة اليتامى منهم، وذلك على مستوى التكافل بين جميع الأقطار والاقليات الإسلامية .

(٣٠) يؤكد المؤتمر ضرورة التعاون الاقتصادى بين الاقطار الإسلامية على أساس إسلامى، ويوصى باقامة المؤسسات الإسلامية المشتركة التى تنمى ثروة المسلمين وتعزز قوتهم وتحقق التكامل بين اقطارهم في هذا المجال الحيوى .

ويوصى المؤتمر منظمة المؤتمر الإسلامى أن تعمل على تحقيق ذلك من خلال مؤسساتها، وبالتوسع في دعم المشروعات في الاقطار الإسلامية، وفي تقديم المساعدات المالية للمحتاجين إليها، خاصة في مجال توفير الخدمات التعليمية والصحية وغيرها، مع العناية بمناطق الأقليات الإسلامية .

(٣١) أن تكون الأولوية للأقطار الإسلامية في العمالة والتبادل التجارى والصناعى، والمشروعات الاستثمارية وغيرها مما ينمى ثروة الأمة الإسلامية ويدعم قوتها .

(٣٢) يؤكد المؤتمر وجوب أن يكون ايداع أموال المسلمين في مصارف إسلامية، تلتزم في معاملاتها المالية باحكام الشريعة الإسلامية . . ويدعو إلى التوسع في انشاء هذه المصارف غير الربوية لتشمل سائر الأقطار الإسلامية، وإلى تعزيزها بالأموال لمساعدتها على بناء اقتصاد إسلامى، يقضى على الاقتصاد الربوى القائم ويحل محله .

ويؤكد أيضا على تجنب ايداع أموال المسلمين في المصارف غير الإسلامية إذ أن هذا الايداع - فضلا عن أنه محرم شرعا - فإن استثمار هذه الأموال في تلك المصارف قوة لأعداء المسلمين .

(٣٣) يوصى المؤتمر بالحد من استيراد الكماليات، ومنع استيراد وسائل الترف مطلقا، وخاصة من البلاد الأجنبية التى تتخذ من بلاد المسلمين سوقا لبيع بضاعتها واستنزاف أموال المسلمين وثرواتهم .

سادسا : الأقليـــات الاسلامية :

(٣٤) يوصى المؤتمـر بالعنـايـة برعـاية الاقليات الإسلامية ومساعدتهم فى تفقيههم فى دينهم وتوفير احتياجاتهم الضرورية وحل مشكلاتهم، والحصول على حقوقهم العادلة مثل غيرهم من المواطنين دون تفـرقـة، ومن ذلـك حقهم فى التحـاكم إلى شريعتهم الإسـلاميـة فى شئونهم الخاصة وأدائهم لشعائرهم الدينية دون مضايقة: حماية لهم ولعقيدتهم وحياتهم الإسلامية وتعزيزا لولائهم لدينهم والعمل به وانتمائهم إلى أمتهم الإسلامية الواحدة .

سابعا : توصـــيات عـــامة :

(٣٥) دعـوة الحكـومات فى جميع الأقطار الاسلامية إلى الاتفاق على (ميثاق إسلامى) مستمد من الكتاب والسنة، يجمع كلمتها ويوحد سياستها ويعزز قوتها، ويجعل ولاءها لدينها، وفيما بينها، وانتصارها بربها، لا بالتحالف مع أعدائها، وأن تكون العلاقات الدولية خاضعة للسياسة الشرعية الاسلامية.

(٣٦) أن تتبنى منظمة المؤتمر الاسلامى إنشاء هيئة للتعاون الاسلامى تعنى بدراسة سبل التعاون والتكـامـل بين الأقطـار الاسـلاميـة فى جميـع مجالات الحيـاة: الصنـاعيـة، والتجـاريـة، والاستثمارية، والدفاعية، والأمنية، والزراعية، والاجتماعية، والصحية وغيرها، والعمل على تحقيق ذلك .

(٣٧) يتـابـع أعضـاء المؤتمـر ما يقع لبعض البلاد الإسلامية من محاولات التنصير المدعوم بالقوى المـاديـة و(الاستعـماريـة)، ويـرى ضرورة العمـل من جانب الحكـومـات والمسلمـين على التصدى لهذه المحاولات باعداد المسلم اعدادا يمكنه من الثبات على دينه والتأثير فى غيره لا التأثر به، والعمل كذلك على اقامة المؤسسات وتوفير الخدمات التى تعينه على السير فى مجال التعليم، والتمتع بالرعاية الصحية والاجتماعية .

(٣٨) يوصى المؤتمر الدول والهيئات الإسلامية وجميع المسلمين بالعناية بالذين يدخلون فى الإسلام لحاجتهم المـاسـة إلى معـاونتهم على زيـادة معـرفتهم بدينهم الحنيف وإلى الـرعاية الاخوية والاجتماعية ومساعدتهم على التكيف مع حياتهم الإسلامية تكيفا يزيدهم إيمانا بدينهم وألفة ومودة بين اخوانهم المسلمين .

(٣٩) إن المؤتمـر إذ يقـدر الأهميـة البـالغـة للعنـايـة الكاملة بأطفال المسلمين جيل المستقبل للأمة الاسـلاميـة (خـاصـة فاقـدى العائل منهم) ليوصى الحكومات والجمعيات والمؤسسات وذوى القدرة من المسلمين بتوفير رعايتهم الرعاية الشاملة ووضع البرامج وإنشاء المؤسسات التعليمية فى مراحلها المختلفة والايوائية وغيرها التى تحقق ذلك. . وعلى الدعاة أن يعنوا بهذا الجانب الاسلامى الانسانى الاجتماعى فى دعوتهم لتنشيط الجهود فى هذا المجال.

(٤٠) محافظة على البيت المسلم والمجتمع المسلم ومبادئه وقيمه الاسلامية وسلوكه الاسلامى ودرءا للمفـاسـد المتـوقعـة يحذر المؤتمـر من استخدام غير المسلمين وبخاصة فى المنازل، والقيام بتربية الأطفال ورعاية شئونهم : التزاما بواجب الوقاية لقوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة**﴾ ومسئولية الرعاية لقول النبى صلى الله عليه وسلم (**كلكم راع ومسئول عن رعيته**) .

(٤١) يؤيد المؤتمر (قيام الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية) بالكويت التى تهدف إلى حماية المسلمين من الهجمات التنصيرية والالحادية عن طريق العمل الخيرى والاجتماعى والثقافى والتنموى، ويدعو المسلمين كافة إلى مساندتها بالدعم المادى والأدبى، امتثالا لقول الله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ .

والمؤتمر إذ يختتم أعماله ويقدم توصياته يسجل خالص شكره وتقديره لجلالة الملك المعظم فهد بن عبد العزيز المعظم وولى عهده الأمير عبد الله بن عبد العزيز وحكومته الرشيدة وشعبه الكريم لاستضافة هذا المؤتمر الإسلامى العالمى ، وما لقيه أعضاؤه فى المملكة العربية السعودية والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من أخوة وحفاوة وتكريم . . ويتوجه إلى الله عز وجل بالدعاء أن يوفق جميع ولاة أمور المسلمين لما فيه عزة الإسلام واعلاء كلمته وخير المسلمين .

والحمد لله رب العالمين . . وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والمهتدين بهديه الداعين بدعوته إلى يوم الدين .

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

رسالة إلى رئيس التحرير

الدكتور أحمد عطية الغامدى المحترم . . .

بعد التحية والتقدير : إن الأدب الإسلامى مما شرفه الله بأن يكون ثوباً يلبس . . . وحلية يتحلى بها . . . وبالقرآن والشريعة الغراء كانت اللغة أدبا ومفردات باقية إلى يوم الدين لأن القرآن والشريعة باقية . . . ومن هنا كان لدولتنا ـ رفع الله منارها وأعز شعارها ـ شرف إعزاز الدين ونشره امتداداً للسلف الصالح . . . من الخلفاء الراشدين إلى هذا اليوم الذى أحيت فيه الدولة للعلم قيمته ونشرت إلى الملأ عَلَمَه وعلى الدنيا نوره بعد أن كان باهتاً فى كثير من العالم . . . وخاملاً فى جل أقطار الدنيا .

وما هذه الجامعة التى يدرس فيها عشرات الجنسيات من أسود وأبيض وأحمر وأصفر إلا لغة ناطقة بالحق وداعية إليه فى بلادها حيث نهَلت من العلم الصحيح والدين السليم الخالى من كل بدعة ونحلة ضالة مضلة . . . ومن كل أفكار وآراء مُخِلّة . . . من هنا أجد أن شباب جامعتنا ـ الجامعة الإسلامية ـ انتقلت من طور التعليم والتربية الإسلامية إلى طور الدعوة بهذه الموسوعات التى أجدها نهراً كالنسيم . . . يسيل منهمراً وينتثر دراً وإن فى العدد الخاص «٦١» من المجلة لعام ١٤٠٤هـ من الدعوة إلى الله وعن الواقع المعاصر ـ ما منحنا فيه الدكتور عبد الله صالح العبيد من الأفكار عن الدعوة ومن الشرف بأحتضان المؤتمر العالمى الثانى لتوجيهها وأهميتها ودافعها وأسباب وظواهر الصحوة الإسلامية والحاجة لمراجعة هذا الواقع ومتطلباتها وما نحن فيه بين الواقع والمستقبل مختتما حديثه وبحثه بالأمل والرجاء فى أن يلتقى العاملون فى مجال الدعوة فى رحاب الجامعة الإسلامية للاتفاق إلى الهدف والغاية المثلى .

ولقد كان للشيخ أبى بكر الجزائرى هو الأخر تُحَب (بضم التاء وفتح الحاء) أحاديثه لأن له الماماً عميقا بالتوحيد وفهما صحيحاً للعقيدة تبدو لى من خلال أحاديثه فجراً فى كثير من الأيام وحديثه عن «آية العدد» شرحاً واستنتاجاً وتعليقاً وتفسيراً ما يجعل من بحثه كنزاً دقيقاً سال على الصفحات التسع . . .

وما بحث عميدنا الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدى ـ الجماعة فى ضوء الكتاب والسنة ـ بأقل فائدة ولا بأضأل أهمية إنه حديث جم المنابع وفيه من الآداب والتربية ما يعطى القارىء المسلم نوراً وهدى . . . وإن ما فيه من الأدلة الواضحة والشواهد الجليلة والاستنباطات الدقيقة ما يجعله يغنى عن كتب . . . وافاضته عن المساجد وأثرها فى تمتين الروابط وتقوية الأواصر ما يهب المسلم قوة معنوية تجعله يقبل على الصلوات الخمس جماعة التى هى الزم ما يكون بين المسلمين .

ولقد ثنى الدكتور محمد ضياء الرحمن الأعظمى بحديثه المتسلسل ـ ٢ ـ على ذلك حول صلاة الجماعة سائحاً فى فقه السنة جامعاً ومفسراً ذلك فى ستة عشر صفحة تعتبر موسوعة فى مجالها وهذه من مزايا الشريعة والتشريع الإسلامى الذى أبدع فيه الشيخ محمد بن ناصر السحيبانى فى حديث أنيق وبحث متأمل يحسن أن يكون «كتاب المجلة» .

ولقد كان الدكتور صالح سعد السحيمى موفقا فى مقاله عن ـ منهج السلف فى العقيدة وأثره فى وحدة المسلمين ـ إن العقيدة هى السياج الذى يحميهم ويلم شعثهم ويزيل العنصريات ويجعل من الجميع قوة واحدة متلاحمة والواقع أن ما تناوله حول الصفات واسماء الله وما قاله العلماء يعطى القارىء فكرة عن وعى شيخنا وعن اطلاعه الواسع ولاسيما نقده لأولئك الضُّلَّال الخارجين على الدين بافكار شاطحة وآراء نادَّه . . . وإن الصوفيين هم أيضا من الشذوذ فى درجة استحقوا بها ما استشهد به من شعر فى من قال من زعماء الطرق :

قد خصنى بالفضل والتشريف — إن قلت كن يكن بلا تسويف

وما أجمل ابياتا نقلها فى بحثه منها :

ألا قل لهم قول عبد نصوح — وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس فى ديننا — بأن الغنا سنة تتبع
وان يأكل المرء أكل الحمار — ويرقص فى الجمع حتى يقع .

لقد رأيت حادثتين فى حياتى . . . فقد حضرت منذ ثلاثين سنة تقريبا فى حفل زاره أحد رؤ ساء الوزارات فى مصر لميلاد الرسول الذى سنوه لأنفسهم وما سنه أحد من المسلمين ورأيت امرأة ترقص حتى تعبت وسقطت من الاعياء . . . وحملوها إلى المستشفى والناس يكبر ون ويحترمون شأنها . . . والثانية كنت فى دمشق منذ اكثر من عشرين عاماً ودعانى أحد الأخوان لزيارة ـ خلوة ـ فى هذه المدينة لجمعية اسلامية تدعى انها من السنة وزعيمها ورائدها . . . عندما صلينا العصر سألت لماذا لم تصلِّ؟ قال لقد رُفِعَت عنى التكاليف . . . ثم قال وقد كان فى مبدأ أمره فاسقاً يستعمل كل المحرمات ثم تاب واناب وصار يصلى طوال الأربع وعشرين ساعة فهتف به هاتف كما يقول!! وقال له غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فلا تصم ولا تصل . . . من هنا انفذ إلى كلمة ـ الدكتور السحيمى ـ التى ملأت حيزاً واسعا من المجلة انها لتنفذ إلى القلوب والأفكار لسدادها وصوابها وجودة بحثها وعمق معانيها .

وما أثر العقيدة الإسلامية . . . فى تضامن ووحدة الأمة الإسلامية للاستاذ الدكتور أحمد سعد الغامدى ـ إلا جزء متمم لحديث دكتورنا السحيمى إلا أنه فصل حديثه وقسمه اقساماً اربعة وجزأ الأحاديث لاثنى عشر موضوعاً وجعل له خاتمة ثم فصل وشرح هذه المواضيع شرحاً كافياً وشافياً . . .

ونتتابع الأحاديث والبحوث فيسعدنا الدكتور على عبد اللطيف ببحثه القيم عن العبادات فى الإسلام وأثرها فى ـ تضامن المسلمين مسهباً اسهاباً غير مملول عن الصلاة والصيام والزكاة وما لذلك من أثر وتأثير فى جمع المسلمين وتضامنهم وتوادهم وتعاضدهم وتعاونهم . . .

وبعـد أن يملأ أذهـاننـا وأفكـارنـا شيخنا عبد العزيز بن عبد الله بن باز بفائدة التضامن الإسلامى يهدى إلينـا الـدكتـور جمعـه على الخـولى بحديث شائق عن الإسلام الذى يسد منافذ الفرقة والاختلاف ويصون عوامل الوحدة والائتلاف . . .

ومن ينسى لا ينسى حديث شيخنـا العـلامـة ـ عطيـة محمـد سالم ـ عن مرتكـزات التضـامن والـوحـدة . . . كما أن أحـاديثـه المتـوالية فجراً من ـ نداء الإسلام ـ جزء من فيض علمه وعسى أن يكون لحديثـه الممتـع وافـاضته الجليلة وأفكاره الصالحة ولوج إلى أفكار شبابنا الذين هم فى حاجة إلى مثل هذه البحوث التى يدبجها هؤلاء الأعلام . . .

ومـا حديث الـدكتـور محمـد السيـد الطنطاوى ـ عن **كيفية اقامة النبى ﷺ أول دولة إسلامية على التضامن والوحدة** وما سرده من الأحاديث والتعليقات عليها ينم عن سعة علم وفقه وإن ـ الفتح العمرى للقـدس ـ من المكـانـة فى قلوب المسلمـين والعالم أجمع الدليل قاطع على ما لهذا الدين من أمثلة وانه دين البشـريـة إن المـرء وهـو يقـرأ هذا الحـديث الشـائق ويسيـح فى هذا الميدان الرحب ليذكر لعلمائنا الأماثل وأساتذتنا الأجلاء شرف العلم ونباهة التعلم واحاطة العارف .

وليس الدكتور محمد الجيوشى فى حديثه الثانى عن ـ **الإسلام والمسلمين فى انجلترا** ماضياً وحاضراً ومستقبـلاً ـ امتـداداً لحديثـه السـابق فى العـدد ال«٦٠» وأنـه بهذا يعطينا عمقا فى بحثه وسلامة فى تنقيبه وسدادا فى مجهوده وبودى لو بحث عن مسجد ـ ليدى ستانلى هوب ـ وأين هو الآن؟ . . وهل من الممكن «وقد كان لدولتنا وجامعتنا الفتية مجهودها» أن تسعى وتَجِدَّ فى السعى ـ لكى يكون هذا المسجد من مساجد المسلمـين المُصَلىَّ فيهـا وخـوفـاً من أن يكون متجراً أو كنيسة . . . افلا تتولى الجامعة ذلك شراء وامتلاكا يضم إلى ما عملته من خير عميم وتربية اسلامية صادقة . . . إننا لننتظر فى العدد القادم بحثا عنه . . . ولاسيما ودعاة الجامعة يوجدون فى انجلترا .

وشكـراً للدكتـور القـادرى على مسلسـل أحـاديثه فى **المشارق والمغارب** الذى ابدع فيه ممثلا رحلة أوائلنا التجارية والداعية معاً . . . ورحلته هذه أطول من رحلته السابقة فى العدد «٦٠» . . .

ومن الرسائل ـ الرسالة الحادية عشرة . . . وإذا كانت هذه الرسالة مما لم يحملها البر يد فقد حملتها المجلة هديـة لقـرائهـا . . . اشرقت بايضاح المعانى للآيات الكريمة تذكيراً ووعظاً وارشاداً . . . ولم تكن رسالة انشاء وصياغة كلام ولكنها من مشكاة القرآن والسنة أخذها من عشرات المراجع .

وإذا كان للبحـوث جدواهـا . . . وللمقـالات تأثـيرها فإن للشعر صوتاً يغرد به ـ محمد بن عبد الله زربان الغامدى :

أيـا بلبـل الـروض أيـن الـنـغـم — يفـيض على الـقـلـب طيـب الـنـسـم

فأيـن صقـور الحـمـى هاجـرت — ولم يبـق من بعـد إلا الـرخـم

آيـا قادة الـعـلم فى أمـة تحيـط بها حالـكـات الظـلم

ألّا فاذكـروا الـيـوم تفـريطـكـم ومـا كان من زلـة الـقـدم

ولكن :

إذا باطـل قام فى غفـلة من الحـق ثم انـتـشـى وانـتـقـم
افـاق له الحـق فى عزة فعـاد لادراجـه وانهـزم

انه لشاعر . . . لو يستمر يدلى بدلوه فى بئره . . . وسقى به سليم فكره . . . لأعطانا من شعره . . . ومن غالى دره ماهـو ممتـد إلى شعـر حسـان وكعب وغـيرهما من سيوف المسلمين وأدباء المؤمنين . ولست بناس قصيدة محرم والحديث عن شعره الإسلامى الذى حُدّثنا عنه فى الجزء ال« ٦٠ » بما يحلو ويغلو .

وأجـدنى اقف شاكـراً للدكتـور إبـراهيم زيـد الكيلانى - عن **الرأى العام فى : المجتمع الإسلامى** وبحثه الممتع وهو خلاصة خالصة لِكُتُب وليس لكتابِ واحدِ .

— **وعن دور الإعـلام فى التضـامن الإسـلامى** يتحفنا الدكتور ابراهيم إمام بحديث مفيد وافاضة عالم جدير بالتقدير عن الإعلام الإسلامى الذى يجدر بجامعتنا أن تعتز به بأن لديها دعاة هم الأعلام والعلماء معاً فى مشارق الأرض ومغاربها . . . وبما أن كليات الإعلام فى جامعاتنا وهى الآن أقسام فعليه أن يتلقوا هذا الحديث برغبة وقبول ليكون مادة من مواد علمهم . . .

وتستمـر المجلة فى أبـوابهـا الجميلة وفصـولهـا الممتعـة وبحـوثها الهادفة ثم تفيدنا بالفتاوى الشرعية فينـبر ى لها شيخنـا المفضـال سماحـة الشيـخ الرئيس عبد العزيز بن باز - فى حكم الصلاة على النبى ﷺ والاشارة إليها بالحروف وحكم ذلك إلى غير ذلك من الفتاوى مما هو موضع التساؤ ل كالسفر إلى بلاد الكفار . . .

وأقـوال الصحف كما هو واجب فإن الاختيـار فيهـا والمختار من أحسنها جدير بالنقل فقد فاضت فى كلمات جلالة الملك الفهد عن الإسلام وتبرعه لكل مفيد يبنى الأفكار وعن نخوته نحو فلسطين وكل بلد اسـلامى ومـوقفـه العظيم فى لبنان وأجاباته الجليلة وهو فى رحاب الجامعة وعن جائزة الملك فيصل العالمية التى لها دربها ومجالها - فرحم الله الملك فيصل - وبارك فى ابنائه الذين كونوا هذه الجائزة ونَمّوها ودفعوا بها العلماء إلى الانتـاج والاخصـاب الفكـرى والـدينى والأدبى والمـرء وهـو يقـرأ المجلة يصـل إلى قرارات وتـوصيـات مؤ تمـر وزراء خارجيـة الـدول الإسـلاميـة الصائبة والتنويه والتحذير من كل ما يعمله الكيان الصهيونى والتحذير من القاديانية الكافرة التى هى احدى أفكار الأنجليز واليهود فى افساد المسلمين ومن اجمل ما يكون نداء الملك فهد إلى الاخوة المتقاتلين فى لبنان .

اما أخبار الجامعة فممتعة وفى التعيين عمادها . . . وتهنئة للشيخ صالح العبد الله المحيسن فى نيابة الـرئيس داعيـاً له بالتـوفيق كما نزف التهنئة للدكتور محمد حمود الوائلى فى وصوله إلى خدمة الجامعة حيث صار أمينا عاماً . . . جعله الله موفقا مسددا .

وحيا الله ضيوف الجامعة ووفودها . . . وتبركات المحب الودود لكل من حمل رسالة ونجح فى «ماجستير أو دكتوراه» وبارك الله فى نشاط الموسم الثقافى بالجامعة الذى اعتبره من اجمل ما تعمله الجامعة .

هذا ولقد كان للمجلة فى نفسى مكان . . . ولها عند من يحظى بها تقدير واكبار. وهى موسوعة مصغرة لعلوم الشريعة والأدب ومنطلق للبحث والتنقيب وأود أن يكون فيها بحوث لغوية وتصويبات فى المستعمل فى المجلات والصحف وتقويم للالسن يُخْتَار من كتب اللغة والفقه اللغوى من قواميسنا المفيدة امثال القاموس وشرح القاموس وان لا يكون لقواميس النصّارى كالمنجد وما ماثله مكان فى البحث فإنها لا تعنى باللغة إلا للتضليل وتمكين الدخيل والكلمات الاعجمية وتحريف معانى الإسلام تحريفا مخلاً يزرع فى شبابنا الخطأ الذى لا يمحوه ماح . . .

لهذا أرجو أن تولوا ذلك عناية فائقة وتكليفا ممن هو أهل لذلك لتحظى مجلتنا بذلك ولتكون سفراً متكاملاً . . . كما أود أن ترسل هذه المجلة للثانويات من المملكة ولمكتبات الطلبة فى سائر المدارس المتوسطة فإنها سفر جليل وكنز دفين . . .

هذا وقد اسهبت وخضت خوضاً اجدنى فيه لست فارساً ولا ممارسا ولكنى ارغب اشعاركم بأن لها مكانا فى قلبى ومكانا فى مكتبتى . . . ولم أشأ بهذا الكتاب إلا الإعلام بأنها عندى ولى شىء مهم .

تحياتى للمحررين والكاتبين[1]

عثمان الصالح ـ الرياض

---

(١) شكر وتقدير :
وأسرة تحرير المجلة إذ تشكر لسعادة الأستاذ عثمان الناصر الصالح مشاعره الطيبة نحو مجلة الجامعة لتتمنى له مزيدا من التوفيق والسداد. ونرجو أن تكون مجلة الجامعة عند حسن ظن جميع القراء . . .

مجلة الجامعة الإسلامية

لا تلتزم برد البحوث والمقالات التي لم تنشر إلى كتابها ولا بإبداء أسباب عدم نشرها.

محتويـــات العـــدد

الموضـــــــوع		الصفحـة

■ التفســـير وأصولــــه ■

■ الحديث وأصولــــه ■

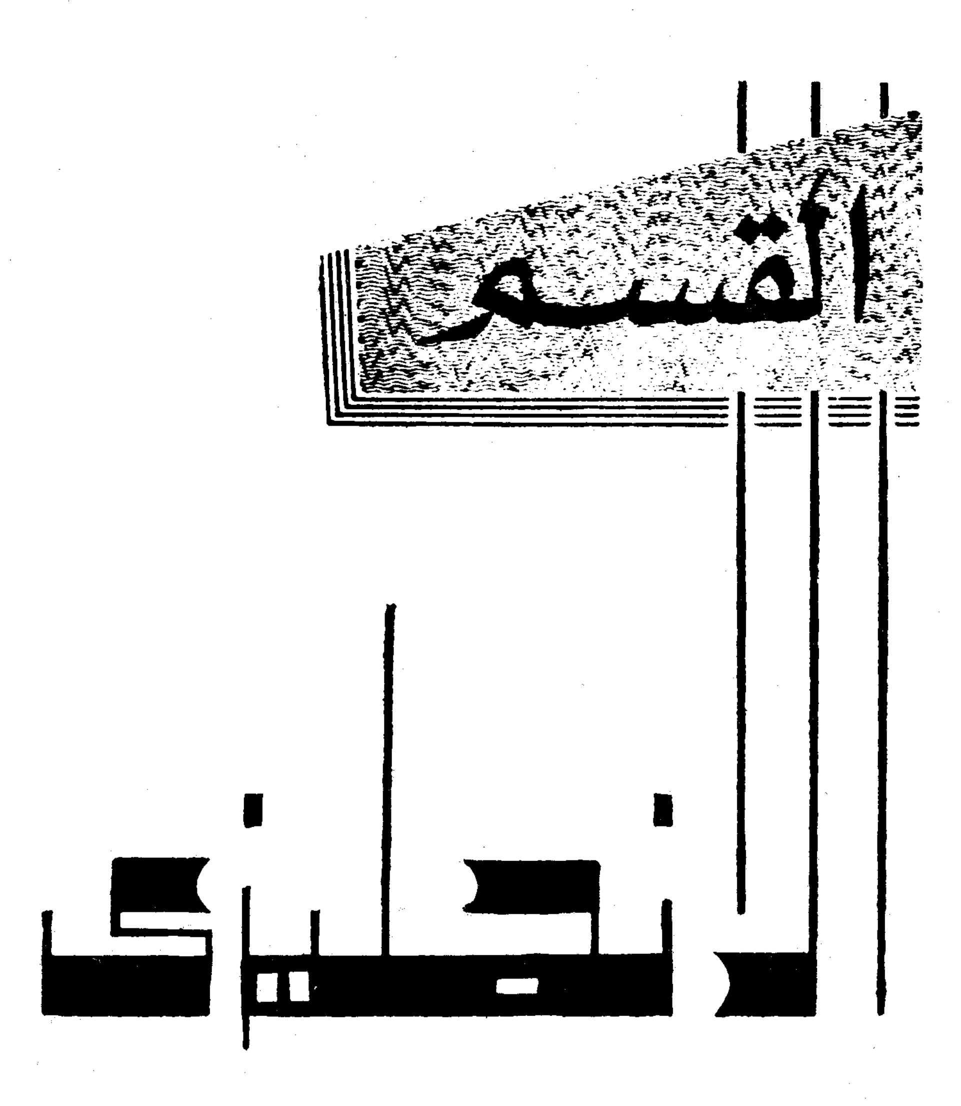
■ العقيـــــــدة ■

■ الفقـــه وأصولـــــه ■

■ ثقـافـــة إســلاميـــة ■

محتويـــات العـــدد

الموضـــــــوع		الصفحة


القسم
الانجليزى

In fact polyandry is one kind of perversion, that Islam has done away with. The efficacious remedy for polyandry and promiscuity is polygamy and not monogamy. Hence, the true teachings of Islam is the real remedy.

The shallow- minded people while commenting on this issue compare "four wives in Islam" with one wife in the west. Why? Can they not see what is happening around them? Why do they not compare "four wives in Islam 'with' one wife along with forty keeps" in the west? Are they ignorant of the established and well known statistics about the illegitimate issues in their society? The mother country of this Encyclopaedia Britannica, legalized sodomy and sexual anarchy in mid sixties. The contributors to this Encyclopaedia have ignored the sexual anarchy besieging them, and brought their malignant and groundless charges against Islam in an attempt to tarnish its pristine purity, thus betraying their own ignorance .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله محمد وآله وصحبـــه أجمعين

******

"Polyandry and promiscuity was quite largely practised and had wide forms of pervertion in old Greece, Rome and some parts of France, for quite a long time, a period of 3 to 6 centuries. We note that this was a part of their social framework". (Prof. Lecki, History of European Morals, Vol. 2, p.220).

Where is Polyandry found? Let us see in different Encyclopaedias also:-

"The taking of more than one husband is common among primitive groups. It was permitted among the Todas of India and the Eskimos. Some groups in Tibet still practise it". (The World Book Ency. Vol. 15 p.575 USA,1979).

"Polyandry was or is found among the people of Tibet, the Todas of Southern India, the Gilyakhs of Russian Siberia, some African societies, Indians of South America, the Aleut and the Kaniagmiut of the Alaskan coast, the Canary Islands, Madagascar, the Malay Archipelago, certain South Sea Islands, and the Marshall Islands. Thus polyandry was or is very widely practised". (Page No. 326, Vol.22, Ency. Americana, USA. 1958).

"Polyandry... occurs in Ceylon, parts of India and Tibet... An unusual version was reported from the Lele of the Belgian Congo, where certain women are regarded as common wife of all the men in the village. The child of such a woman is a "child of the village", and has a special exalted status... the woman has only one legal husband and her children have only one legal father, but her lovers have a recognized and respectable status. Institutions of this kind have occured sporadically throughout history; Caesar is a witness for the ancient Britons; Herman Melville for the Marquesas islanders; about 1716 it was fashionable at the court of Vienna". (Page No. 180, Ency. Britannica, ed. 1965, Vol. 18.).

This can very clearly show that:-

1 — Polyandry is not found in any part of Muslim World.

2 — It is found in the areas where the light of Islam has not reached at all.

3 — The last quotation (from Ency. Britannica) shows that its traces are found in Roman Empire, Europe, North America, South America, Christian Africa, Buddist areas, South East Asia, Hindu Todas in India.

4 — Polyandry and Promiscuity is found now- a-days in the permissive societies of Europe, America, Japan, Phillipines and specially in the Scandanavian countries i.e. Norway and Denmark.

5 — It is no-where to be found in any part of the Muslim World. Will the author pin-point even a smallest village in the remotest area in the Muslim world where polyandry or promiscuity has been or is prevalent in any form?.

Islam puts an end to polyandry and promiscuity. Promiscuity is never to be found in Arabia and the entire Muslim World. It has never crept in any part of the Muslim society due to the stern legal framework.

Arabs could take pride in women and get their descent, status and inheritance traced through the mother's side.

Moreover, we can always trace in their history the line of their descents (Ansab). These can easily show that they never traced their descent, etc. through their mothers. They would always recite these lines of descents (Ansab) tracing them through paternal side and take pride in their fore- fathers.

How dishonest is the author that he bases one white lie on another.

Based on this speculation, he comes out with the most heineous charge against Islam, which had never been uttered before. He says that the habit of tracing descent etc. through mother's side in Arabia and Muslim society "led to the neglect of paternity and permitted forms of polyandry (having many husbands at once) sometimes verging on promiscuity".

I postpone my detailed account on this subject to some other occasion. At the moment, I pose a few pertinent questions which would clarify the whole position:-

Q. No.1. What is the origin and history of polyandry and promiscuity and where is it found now -a- days?

Q. No.2. What is the actual situation prevailing in the Muslim world?. Is it polyandrous and promiscuous?.

Q. No.3. What is the contribution of Islam towards this problem?.

Q. No.4. What is the origin and history of Polyandry and Promiscuity and where is it found today?.

Let us see what do the Western scholars say about it:-

"All forms of sexual anarchy and sexual liberation was found in Roman Empire, but what is more delighting is that complete sexual freedom is governed today by women in all parts of the West. The old forms of sexual relations are practised today with new forms and new meanings". (The Meaning of Sex, by Dr. H. Robinson, A.Heartfield, New York 1974. p.69).

"Women having so many husbands are also found in Argentina and some parts of Latin America".

(The Slave Trade, by Oliver Reinsford, 1971, Thom Murray).

"The Modern Permissive Society claims of Women's Liberation. Whereas polyandry, in a very advanced form is practised in Sweden and Denmark". (Sex and Dehumanization, by Prof. Holbrooke, p.149 'London').

"Polyandry is found in Australian Aboriginies. Widely still in Australia there are some forms of polyandry". (Woman's Liberation, by A.Alfred Smith, Hans Publications, p.134, Toronto. 1968).

"Ye are never able to be fair and just as between women, even if it is your ardent desire; but turn not away (from a woman) altogether, so as to leave her (as it were) hanging (in the air). If ye come to a friendly understanding, and practise self - restraint, God is Oft - forgiving, Most Merciful." (129). (Verses No. 128 - 129, Chapter "Women" (An-Nisa); Translation by Abdullah Yusuf Ali).

Abdullah Yusuf Ali explains the meanings of these two verses as follows:-

"In this material world there are two principal causes of division between man and wife, money and" the other woman or the other man". Money was dealt with in the last verse. Here is the case of "the other woman" Legally more than one wife (upto four) are permissible on the condition that the man can be perfectly fair and just to all. But this is a condition almost impossible to fulfil. If, in the hope that he might be able to fulfil it, a man puts himself in that impossible position, it is only right to insist that he should not discard one wife but at least fulfil all the outward duties that are incumbent on him in respect of her".

Sheikh-al Islam Shabbir Ahmad Usmani explains this verse (129) in a footnote:-

"If you have more than one wife, it shall not be completely possible for you to maintain equality and justice among them in each and every affair and in love and sentiments; so do not be cruel so as to bend towards one of them completely while keeping the other one hanging in air, rendering her unable to be in comfort with you, nor to be able to get married somewhere else".

Did Islam lead to Polyandry and Promiscuity?

The author of the article "Muhammad" writes:-

"The background of Muhammad's marital arrangements is the prevalence in Arabia of a matrilineal kinship system (in which descent, status, and inheritance are traced through the mother's side), which led to the neglect of paternity and permitted forms of polyandry (having many husbands at once) sometimes verging on promiscuity". (Ency. Britannica, ed, 1978,vol.,12, p. 609).

This is downright lie and sheer nonsense. It is absolutely wrong to say that even during the age of paganism in Arabia, descent, status and inheritance were traced through the mother's side, not to say of the post Islamic era. The pre- Islamic Arabs would be ashamed of women. They would bury the daughters alive due to this sense of shame. They would always take pride in their fathers and forefathers. The women were not treated as human beings. It is only Islam which provided them human rights. It can not be conceived even for a moment that the

On this part of the Quranic verse which is completely cut off from its second half and the whole of its context, the orientalists have built the infrastructure of their heinious charges against Islam and the Prophet Muhammad (P.B.U.H.) .

They have repeatedly mentioned that Islam is a religion of sexual lust and has given polygamy priority over the concept of justice .

The deplorable fact is that they intentionally separate this part of the verse from its second part and its context. They also cleverly neglect the meanings of justice as mentioned by the Quran here .

In reality, the Quran has used the word 'justice' in two senses:-

1 — Justice in material and economic terms, meaning thereby that one must be treating all of his wives equally and judicially so far as the economic needs are concerned. This is not an impossibility; rather this is a must. Right above this quoted part of the verse No. 129, we can see verse No.128, wherein the Quran has emphasized economic justice. "Even though men's souls are swayed by greed".

2 — Justice in terms of sentiments of love and hatred, meaning thereby that one may love all of his wives equally, and may have the same kind of sentiments for all of his wives. This is, of course, neither possible nor practical. The Quran has allowed some concession here.

But let us look at the second half of the quoted verse. It exhorts man not to turn away from a woman altogether. What the Holy Quran is stressing here is to be completely just in economic matters and not to be attached to one woman completely while leaving the other even if he loves one woman more than the other. Granted, that it is not possible for a man to love two or three or four women equally and to have same kind of sentiments for all because he is a human being but it never means that he should be swayed by his sentiments of love and hatred and start disregarding the sentiments of others.

The Quran admits that absolute justice and equality in terms of sentiments is not humanly possible but it emphasized that one must have some sort of self- restraint and try to be just, loving and friendly as much as possible .

The whole superstructure of heineous charges based on this part of the verse is exploded when we go through the context of the complete verse No.129. One can only pity the attitude of the author at this juncture. I quote the verses No. 128 and 129:-

"If a wife fears cruelty or desertion on her husband's part, there is no blame on them if they arrange an amicable settlement between themselves; And such settlement is best; even though men's souls are swayed by greed. But if ye do good and practise self- restraint, God is well aquainted with all that ye do. (128) .

Polygamous Marriages of the Prophet (P.B.U.H.)

by Dr. Malik Ghulam Murtaza
Asstt. Prof. and Head of the Translation Deptt.

There are two heinous charges against Islam concerning the polygamous marriages of the Prophet (P.B.U.H.):-

1 — Doing justice between the wives is an impossibility according to the Quran. It may mean either of the following:-

a — The Quran banned polygamy; or

b — The Quran exhorts people to sexual debauchery without caring for justice and equality between different wives.

2 — The Polygamous marriages of the Prophet have resulted in polyandry and Promiscuity in the Arab and Muslim society.

Now, let us deal with this subject .

Justice and Polygamy: Is Justice an Impossibility according to the Quran ?

The author of the article "Islam" writes:-

"The Quran even suggests that "You shall never be able to do justice among women, no matter how much you desire" [Encyclopaedia Britannica,1979 Vol.9].

This is a typical dishonesty of the Orientalists. The author has quoted the first half of the verse No. 129 of the Chapter, "Women" (An-Nisa) from the Holy Quran and left the other half .

He has criminally tried to thrust particular meanings in the Quran i.e. it suggests that you may have polygamy without paying heed to justice because "You shall never be able to do justice among women no matter how much you desire". The author has in fact charged the Holy Quran with the concept that "to do justice among women" is an impossibility; so why to bother about it? One should feel free and enjoy without having any pangs of conscience .

We can take note of the author's words, "The Quran even suggests". He wants to bring out that the Quran exhorts people to yield to their sexual desires without paying heed to the concept of justice because justice is an impossibility .

Journal of

THE
ISLAMIC
UNIVERSITY

OF
MADINAH MONAWWARAH

RABI'E THANI — JUMADA ULA — JUMADA THANI
1404 A. H.

62

16 th Year